بــول أوستر

حماقات بروكلين



ترجمة

أسامة منزلجي

روايــة

بول أوستر

حماقات بروكلين

ترجمة: أسامة منزلجي

حماقات بروكلين

رواية المدى

المؤلف: بول أوستر
عنوان الكتاب: حماقات بروكلين
المترجم: أسامة منزلجي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٢

Author: Paul Auster
Title: The Brooklyn Follies
Translator:Ossama Manzalji
Al- Mada P.C.
First Edition : 2012

دار المدى للثقافة والنشر

سورية: دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٨٣٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box.: 8272 or 7366 - Tel: 2322275 - 232226, Fax: 2322289
www.almadahouse.com Email: al-madahouse@net.sy

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦ - ٧٥٢٦١٧
www.daralmada.com Email: info@daralmada.com

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

ISBN: 978-2-84306-086-1

إهداء المؤلف

إلى ابنتي صوفي

افتتاحية

كنتُ أفتش عن مكانٍ هادئ أموت فيه. أوصاني أحدهم باللجوء إلى بروكلن، وفي صباح اليوم التالي سافرت إلى هناك من ويستشستر لأستطلع المنطقة. لم أكن قد عدتُ إليها منذ ستةٍ وخمسين عاماً عندما كنتُ في الثالثة، ولم أتذكّر أيّ شيء. كان والدايَّ قد رحلا عن المدينة وأنا في الثالثة من العمر، لكنني وجدتُ نفسي غريزياً أعود إلى الحي الذي عاشا فيه، زاحفاً إلى الوطن ككلبٍ جريح حيث مسقط رأسي. قادني أحد وكلاء العقارات وجُلنا في أرجاء المكان وزرنا الشُقق الست أو السبع المبنيّة بالحجر الأسمر، ومع نهاية النهار كنتُ قد استأجرتُ شقة تحتوي غرفتي نوم وتحيط بها حديقة في الشارع الأول، بالقرب من حديقة بروسبكت العامة. لم أكن أعرف أحداً من جيراني، ولم آبه لذلك. كلهم كانوا يشغلون وظائف يستمر دوامها من التاسعة وحتى الخامسة، ولم يكن لأي منهم أولاد، ولذلك توقعتُ أنْ يسود البناء هدوء نسبيّ. وهذا ما كنتُ أصبو إليه أكثر من أي شيء آخر ؛ نهاية هادئة لحياتي الحزينة والسخيفة.

كان المنزل في برونكسفيل مؤجّراً أصلاً، وحالما تنتهي مدة العقد في نهاية الشهر، لن تبقى مسألة النقود مشكلة. وخطّطنا، أنا وزوجتي السابقة،

لفصل الربح عن مبلغ البيع، وبوجود أربعمئة ألف دولار في المصرف، كان سيتوفر لي مبلغ أكثر من كافٍ ليُعيلني حتى آخر يوم في حياتي.

أولاً، لم أدرِ ماذا أفعل بنفسي. كنتُ قد أنفقتُ واحداً وثلاثين عاماً من عمري متنقّلاً جيئة وذهاباً بين الضواحي ومكاتب ميد-أتلانتك أكسيدنت أند لايف في مانهاتن، ولكن بما أني أصبحت بلا عمل، أضحتْ ساعات النهار طويلة جداً. وبعد مرور أسبوع على انتقالي إلى الشقة، جاءت راشيل، ابنتي غير المتزوجة، من نيو جرسي لتزورني. قالتْ إني في حاجة إلى الانهماك في عملٍ ما، إلى ابتكار مشروع خاص بي. وراشيل ليست غبية. إنها حائزة على درجة الدكتوراه في الكيمياء الحيوية من جامعة شيكاغو وتعمل كباحثة لصالح شركة أدوية كبيرة، تقع خارج برينستون، لكنها كأمها من قبلها، نادراً ما تتكلّم عن أي شيء غير الأمور التافهة - بكل تلك التعبيرات المُستهلكة والأفكار المبتذلة التي تحتشد بها المواقع الكئيبة للحِكمة المُعاصِرة.

شرحتُ لها قائلاً إنني ربما سأكون قد متُّ قبل نهاية العام ولا آبه للمشاريع. وبدا للوهلة الأولى أنَّ راشيل توشك أنْ تبكي، لكنها بدل ذلك حبستْ دموعها ونعتتني بالقاسي والأناني. ثم أضافت، لا عجبَ أنَّ "الماما" طلّقتكَ في نهاية المطاف، لا عجبَ أنها لم تعُد تحتمل. لابدَّ أنَّ الزواج من رجلٍ مثلي كان بمثابة عذابٍ مُقيم، ***جحيمٍ مُعاش***. جحيم مُعاش. وا حسرتاه، مسكينة راشيل - إنها ببساطة لا تستطيع ضبط نفسها. ابنتي الوحيدة سكنتْ هذه الأرض مدة تسعة وعشرين عاماً، ولم يحدث أنْ نطقَتْ بملاحظة أصيلة ولو مرة واحدة في حياتها، بشيءٍ خاص بها خالص ولا ريب فيه.

نعم، أحيـاناً أتّصف بالحـقـارة. ولـكن ليس طوال الوقت - ولـيس كمبدأ. ففي أيامي الطيبة، أنا عذب وودود كأي شخص أعرفه. ولا يمكن بزّي في نجاحي في بيع شهادات التأمين على الحياة بتنفير الزبائن، إلا قبل مرور، على الأقلّ، ثلاثة عقود كاملة. ينبغي أنْ تكون متعاطفاً. ينبغي أنْ تُكون قادراً على الإصغاء. ينبغي أنْ تعرف كيف تفتن الناس. وأنا أمتلك كل هذه الخِصال وأكثر. ولا أنكِر أنه كانت لدي لحظات سيئة أيضاً، ولكن الجميع يعلمون أنَّ الأخطار تكمن خلف الأبواب المغلقة للحياة الأسريّة. قد تكون قاتلة لذوي الهموم كلهم، ولاسيما إذا اكتشفتَ أنكَ ربما لم تُخلَق للزواج أصلاً. كنتُ أحبّ ممارسة الجنس مع إديث، ولكن بعد مرور أربع سنوات أو خمس بدا أنَّ الشغف قد أخذ مجراه الطبيعي، ومنذ ذلك الحين أصبحتُ أقلّ من زوج مثالي. وحسب تعبير راشيل، لم أكنْ أقع حتى في خانة الآباء. ولا أريد أنْ أناقضُ ذكرياتها، ولكنَّ الحقيقة هي أنِّي أحببتُ كليهما على طريقتي، وإذا كنتُ أجد نفسي أحياناً بين أحضان امرأةٍ أخرى، فذلك لأني لم آخذ أياً من تلك العلاقات العابرة على مأخذ الجَدّ. والطلاق لم تكن فكرتي. وعلى الرغم من كل شيء، كنتُ أُخطط للإقامة مع إديث حتى النهاية. كانت الوحيدة التي أرادت أنْ تغادر، وأضْفتْ امتداداً على آثامي وتجاوزاتي على مرّ السنين، ولم أستطع أنْ ألومها. ثلاثة وثلاثون عاماً ونحن نعيش تحت سقفٍ واحد، وعندما حان الوقت لنفترق ويذهب كلٌّ في اتجاه، لم نكن قد أضفنا أي شيء تقريباً.

كنتُ قد أخبرتُ راشيل أنَّ أيامي باتت معدودة، لكنَّ ذلك لم يكن أكثر من ردٍ سريع متهوّرٍ على نصيحتها المتطفّلة، هبّةٍ من المُغالاة

الصرف. كان السرطان في رئتي قد خفَّتْ حدَّته، واستناداً إلى ما أخبرني به طَبيب الأورام بعد إجراء آخر فحص لي، هناك ما يدعو إلى التفاؤل الحذر. لكنَّ هذا لم يعنِ أني وثقتُ فيه. لقد كانت صدمة إصابتي بالسرطان شديدة جداً، حيث إني لم أصدِّق أنَّ في استطاعتي أنْ أنجو منه. لقد استسلمتُ إلى فكرة الموت، وعندما استؤصِلَ الورم مني وعانيتُ الآلام الموهِنة للعلاج بالأشعة والمعالجة الكيميائية، عندما عانيت نوبات طويلة من الغثيان والدوار، وفقدان الشعر، والإرادة، والعمل، والزوجة، بات صعباً عليّ أنْ أتصوَّر كيف يمكن أنْ أستمر. بعيدة بروكلن. بعيدة عودتي اللاواعية إلى المكان الذي بدأتْ فيه قصتي. كنتُ في نحو الستين من العمر، ولم أكنْ أعلم كم بقيَ لديّ من الوقت. ربما عشرون سنة أخرى؛ ربما فقط بضعة أشهر أخرى. ومهما كان التكهُّن الطبي بحالتي، فالأمر الحاسم هو ألا أسلِّم بأي شيء. وما دمتُ حياً، يجب أنْ أجد سبيلاً للبدء بالعيش من جديد، ولكن حتى لو لم أعش، يجب أنْ أفعل أكثر من الجلوس وانتظار النهاية. وكالمعتاد، كانت ابنتي العالِمة على حق، وإنْ كنتُ من فرط العناد بحيث أعترف بذلك. يجب أنْ أنهمك في العمل. يجب أنْ أكفَّ عن الجلوس وأن أفعلَ شيئاً.

انتقلتُ في أوائل الربيع، وعلى مدى الأسابيع القليلة الأولى شغلتُ وقتي في استكشاف المنطقة المجاورة، والمشي لمسافات طويلة في الحديقة العامة، وزراعة الأزهار في حديقة منزلي الخلفية - وهي رقعة صغيرة، مملوءة بسقط المتاع أُهمِلَتْ على مدى سنوات. وقصصتُ شعري النامي حديثاً في محل الحلاقة بارك سلوب في الجادّة السابعة، واستأجرتُ أفلام فيديو من محلٍ يُدعى "جنّة السينما"، وكثيراً ما كنتُ أتوقف في

برايتمنز آتيك، وهو محل لبيع الكتب المُستعمَلة، مزدحم، وتعيث فيه الفوضى، يملكه شاذ جنسياً مُبهرج المنظر اسمه هاري برايتمن (سيرد المزيد عنه لاحقاً). وفي معظم فترات الصباح كنتُ أحضِّر وجبات الإفطار لنفسي في الشقة، ولكن بما أني أكره الطبخ وأفتقر إلى كل براعة فيه، كنتُ أتناول وجبات الغداء والعشاء في المطاعم - دائماً وحدي، ودائماً مع كتابٍ مفتوح أمامي، ودائماً أمضغُ الطعام بأشد ما يمكنني من البطء لكي أُطيل من أمَد الوجبة قدر استطاعتي. وبعد استعراضِ عددٍ من الخيارات في المنطقة المجاورة، استقرّ رأيي على مطعم كوزميك وأخذتُ أتردد عليه لتناول وجباتي. كان الطعام هناك عادياً في أحسن الأحوال، ولكن إحدى النادلات كانت فتاة لذيذة من بويرتو ريكو اسمها مارينا، وسرعان ما وقعت صريع حبها. كانت في نصف عمري ومتزوجة، وهذا يعني أنَّ إقامة علاقة عاطفية معها كان أمراً مستحيلاً، لكنها كانت متعة للنظر، وشديدة الرقة في تعاملها معي، وعلى استعداد دائم للضحك على نكاتي السخيفة، حتى إني كنتُ أشتاقُ إليها بكل معنى الكلمة دائماً. واكتشفتُ، من وجهة نظر أنتروبولوجية محض، أنَّ فتيات بروكلين أقلّ تردُّداً في التحدُّث مع الغرباء من أي مجموعة سبق أنْ قابلتها. كنَّ يتدخّلن في شؤون إحداهن الأخرى بلا تحفُّظ (عجائز يُؤنبنَ الأمهات الصغيرات السن لأنهن لا يُلبِسن أطفالهن ما يكفي من الملابس لتدفئتهم، ومارّةَ يسخرون من الذين يُنزّهون كلابهم لأنهم يُفرطون في شد الرسن) ؛ ويتشاجرن كأطفال مشوَّشين في الرابعة من العمر حول أماكن للتوقف مختلف عليها ؛ ويُطلقنَ عبارات سريعة مذهلة بعفوية. وفي صباح ذات يوم أحد، ولجتُ محلاً مزدحماً لبيع الأطعمة المعلَّبة يحمل

الاسم السخيف "متعة الرغيف المدوّر". وكنتُ أنوي أنْ أطلب رغيفاً مدوّراً بالقرفة والزبيب، لكنَّ الكلمة تعثَّرتْ في فمي وخرجت كأنها بالقرفة وريغان. ودون أي تردُّد، أجابني الشاب من خلف النضد قائلاً: " آسف، ليس لدينا منه. ما رأيكَ بالبرمبر-نيكسون[1]، بدل ذلك؟ " قالها بسرعة. بسرعة كبيرة لعينة، حتى كدتُ أبول في سروالي.

بعد زلّة اللسان غير المقصودة تلك، خطرت في بالي فكرة جديدة بأنْ تُعجب راشيل. لعلها لم تكن فكرة لامعة، لكنها على الأقلّ هي فكرة، وإذا التزمتُ بها بدقّة وإخلاص كما نويت أنْ أفعل، فسيكون لدي مشروعي، هوايتي الصغيرة التي كنتُ أفتشُ عنها لكي تنقلني من كسل روتيني المُمِل. وبما أنَّ مشروعي متواضع، قرَّرتُ أنْ أخلعَ عليه عنواناً فخماً، مُطنطناً - لكي أخدع نفسي وأعتقد أني مُنهمك في عملٍ هامّ. أطلقتُ عليه اسم "*كتاب الحماقة الإنسانية*"، وكنتُ أنوي أنْ أدوِّن فيه بأبسط، وأنقى لغة ممكنة سرداً لكل خطأ فاضح، وغلطة مضحكة، وتصرُّف مُحرِجٍ، وحماقة، ونقطة ضعف وكل فعلٍ تافه ارتكبتُه على امتداد حياتي المهنية المتفاوتة كإنسان. وعندما تفْرَغ جعبتي من القصص عن نفسي، سأسجّل الأشياء التي حدثتْ لأناسٍ عرفتهم، وعندما يجف هذا المعين أيضاً، سأتناول الأحداث التاريخية، وأسجل حماقات إخواني من البشر حتى تنتهي الصفحات، بدءاً بالحضارات البائدة للعالم العتيق وأستمر حتى أبلغ الأشهر الأولى من القرن الحادي والعشرين. ورأيتُ أنه إنْ لم تكن له أي أهمية، فيكفي أنه سيكون مُضحكاً. ولم تكن لديّ أي رغبة في أنْ أعرّي روحي أو أنْ أنغمس في تأملات كئيبة. ستكون النبرة

---

١ - برمبر- نيكسون : مُحاكاة ساخرة لعبارة بمبرنيكل، وتعني خبز الأرز. - المترجم

خفيفة وهزليّة على طول الخط، وهدفي الوحيد كان أنْ أوفّر لنفسي التسلية وأستهلك أكبر عددٍ ممكن من ساعات النهار.

سمّيتُ المشروع كتاباً، لكنه في الواقع لم يكن كتاباً على الإطلاق. كنتُ أستخدمُ حزم الأوراق الصفراء العادية، والصفحات المنفصلة، وخلفيات الأغلفة والرسائل الزائدة التي تعلن عن بطاقات الائتمان وقروض تحسين المنازل، وجمعتُ تشكيلة من الخربشات العشوائية، خليطاً من الحكايات المُفكّكة كنتُ أرميها في صندوق من الورق المقوّى كلما اكتملتْ إحدى القصص. لم يكن يحكمُ جنوني أي نظام. بعض المقطوعات لم تكن تتجاوز بضعة أسطر، وبعضها، ولاسيما التي تعتمد على تغيير في الأحرف الأولى أو إساءة استعمال الألفاظ وكنتُ مولعاً بها، كانت تتألف من عبارة واحدة فقط. فأقول، مثلاً، "*شطيرة من الشحم البارد*" بدل "*شطيرة من الجبن المُسخّن*"، كانت تخرج من فمي أحياناً خلال العام الابتدائي في المدرسة الثانوية، أو يكون كلاماً عميقاً دون قصد، وشبه غامض، كالذي ألقيته على مسمع إديث ونحن في خضم إحدى مُشاجراتنا الزوجية المريرة : "*سأراه عندما أصدّقه*". وكلما جلستُ لأكتب، أبدأ بإغماض عينيّ وترك أفكاري تجول في أي اتّجاهٍ تشاء. ونجحتُ، بهذه الطريقة في إجبار نفسي على الاسترخاء، في اصطياد كمية كبيرة من المواد من الماضي السحيق، أشياء كنتُ حتى ذلك الحين أفترضُ أنها ضاعت إلى الأبد. لحظة من الصف السادس (تُحدد ذكرى معيّنة) عندما أطلقَ صبيٌ من صفّنا اسمه دادلي فرانكلين، ضرطة طويلة مُضخّمة كصوت الترومبيت أثناء هنيهة صمت في وسط درس جغرافيا. ضحكنا جميعاً، طبعاً، (لاشيء أشدّ إثارة للضحك من

غرفة مملوءة بأطفال في الحادية عشرة من ضرطة قوية)، ولكن ما جعل النادرة بعيدة عن فئة النوادر الصغيرة المُحرِجة ورفعها إلى مرتبة كلاسيكية، وجعلها تحفة فنية خالدة في حوليات العار والمذلّة، حقيقة أنّ دادلي كان من البراءة بحيث يرتكب العمل الفاضح القاتل ويقدّم اعتذاراً. قال، "عفواً"، وهو يُطرق بصره إلى مقعده وتحمرّ وجنتاه إلى أنْ تصبحان أشبه بسيارة إطفاء مدهونة حديثاً. على المرء ألاّ يقرّ أبداً بأنه ضرط علناً. هذا هو القانون غير المُدوَّن، البروتوكول الوحيد الأشدّ صرامة في أصول الأتيكيت الأميركي. الضراط لا يأتي من أحد ولا من أي مكان؛ إنه مجهول المصدر ويخصّ المجموع ككل، وحتى عندما يُشير كل شخص في الغرفة إلى المجرم، فإنّ المسار العقلاني الوحيد للحدث هو النكران. وكان الأحمق دادلي بروكلين من فرط الصدق فلم يُنكِر، ولم يغفر لنفسه ما فعل. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، أصبح يُعرَف باسم "عفواً فرانكلين"، والتصقَ الاسم به حتى نهاية المرحلة الثانوية.

بدا أنَّ القصص تندرج ضمن عناوين عدّة مُختلفة، وبعد أنّ خضتُ في المشروع نحو شهرٍ من الزمن، تخلّيتُ عن نظام الصندوق الواحد لصالح نظام عدد من الصناديق سمحَ لي بالاحتفاظ بأعمالي المنتهية بطريقة أكثر تناسقاً. صندوق للتفاهات اللفظية، وآخر للتشوهات الخلقية، وآخر للأفكار المُخفِقة، وغيره للزلات الاجتماعية، وما إلى ذلك. وشيئاً فشيئاً، ازداد اهتمامي ولاسيما بتسجيل اللحظات الهزلية في الحياة اليومية. ليس فقط عدد لا يُحصى من أصابع الأقدام المجدوعة والضربات التي تلقيّتها على رأسي على امتداد السنين، ولا المرات الكثيرة التي انزلقت فيها نظاراتي من جيب قميصي وأنا أنحني

لأربط حذائي (تبعَ ذلك المزيد من قلّة القيمة بالتعثُّر نحو الأمام وسحق النظارات تحت الأقدام)، بل الغلطات المُضحكة النادرة التي وقعتُ فيها في مناسبات متنوعة منذ سنوات طفولتي الأولى. عندما فتحت فمي لأتثاءب في نزهة يوم العمال عام ١٩٥٢ وسمحت لنحلة طائرة أنْ تلجه، وابتلعتها في غمرة رعبي واشمئزازي بدل أنْ أبصقها ؛ أو، ما هو أشد فظاعة، أثناء استعدادي لدخول طائرة لأقوم برحلة عمل قبل سبع سنوات وأرومة البطاقة المجانية مُقحمة بخفّة بين إبهامي وإصبعي الأوسط، يدفعني أحدهم من الخلف، فتسقط الأرومة مني، وأراها ترفرفُ بعيداً عن يدي باتّجاه الشق بين بداية السلّم وعتبة الطائرة - شق شديد الضيق، لا يزيد عن واحد على ستة عشر من البوصة، إذا لم يكن أقلّ - ثم، أمام ذهولي المحض، أراها تنزلق بسهولة من خلال تلك المسافة المستحيلة وتستقر على الأرض المسفلتة على مسافة عشرين قدماً في الأسفل.

هذه مجرد أمثلة. كتبتُ عدداً كبيراً من مثل هذه القصص خلال الشهرين الأولّين. لكنّي مع ذلك بذلتُ أقصى جهدي لأبقي نبرة الصوت عابثة وخفيفة، واكتشفتُ أنَّ ذلك ليس ممكناً دائماً. فكل شخص عُرضة للمزاج السوداوي، وأعترفُ بأني أحياناً كنتُ أخضع لنوبات من الإحساس بالوحشة والاكتئاب. لقد أنفقتُ مُعظم حياتي العملية في مجال الموت، ولعلي سمعتُ أكثر مما ينبغي من القصص الكئيبة بحيث لم أعد قادراً على منع نفسي في التفكير فيها عندما تكون حالتي النفسية متدهورة ؛ كل الناس الذين قمتُ بزيارتهم على امتداد السنين، وكل بوالص التأمين التي قمت ببيعها ، وكل إحساس بالرهبة وباليأس تعرّضتُ له أثناء حديثي مع زبائني. وأخيراً، أضفتُ علبة إلى مجموعاتي.

عنونتها "مصائر قاسية"، وأول قصة وضعتها فيها كانت قصة رجل اسمه يوناس فاينبرغ. كنتُ قد بعته بوليصة تأمين على الحياة عالمية بقيمة مليون دولار في عام ١٩٧٦، وكان يُعتَبَر مبلغاً ضخماً من المال آنئذٍ. وأتذكّر أنه كان قد احتفل حديثاً بعيد ميلاده الستين، وكان طبيباً مختصاً في الأمراض الباطنية ينتسب إلى مستشفى جامعة كولومبيا المشيخيّة، ويتكلّم الإنكليزية مع نبرة ألمانيّة خفيفة. إنَّ بيع بوالص التأمين على الحياة عمل لا يخلو من المشاعر، والوكيل الجيد ينبغي أنْ يكون قادراً على إقامة حديث مع زبائنه يمكن أنْ يتحوّل إلى نقاشات صعبة، ومُعذّبة. إنَّ توقُّعَ الموت يُحوّل أفكار المرء حتماً إلى مسائل خطيرة، وحتى إذا كان جزء من العمل لا يتعلّق إلا بالمال، فإنه أيضاً يتعلّق بأشد القضايا الميتافيزيقية خطورةً. ما معنى الحياة ؟ كم سأعيش؟ كيف أحمي الناس الذين أحبّهم بعد رحيلي؟ وبسبب هذه المهنة، أصبح لدى الدكتور فابينبرغ حس حادّ بهشاشة الوجود الإنساني، وبسهولة محو أسمائنا من دفتر الأحياء. تقابلنا في شقّته في سنترال بارك ويست، وحالما أدخلته في كل ما يخص مختلف أنواع البوالص المتاحة له، بدأ يجترّ ذكريات ماضيه. لقد وُلِدَ في برلين عام ١٩١٦، كما أخبرني، وبعد أنْ قُتِلَ والده في الخنادق في الحرب العالمية الأولى، تكفّلتْ والدته المثلة بتربيته، وكان الابن الوحيد لامرأة مستقلّة بشراسة وأحياناً صعبة المراس لم تُبدِ أدنى رغبة في الزواج من جديد. وإذا لم أكن أتعمّق في قراءة تعليقاته، فأعتقد أنَّ الدكتور فاينبرغ كان يُلمِّحُ إلى أنَّ أمه كانت تفضِّلُ النساء على الرجال، ولابد أنها، خلال سنوات جمهورية فايمار الفوضوية، تباهت بميلها ذاك بصراحة تامة. وخِلافاً

للسيدة فاينبرغ العنيدة، كان الصغير يوناس فتى هادئاً، مُدمناً على قراءة الكتب ومتفوقاً في دراسته وكان يحلم في أنْ يغدو عالِماً أو طبيباً. كان في السابعة عشرة عندما استولى هتلر على الحكم، وفي غضون بضعة أشهر قامت الأم بالاستعدادات اللازمة لإخراجه من ألمانيا. كان أقارب والده يعيشون في نيويورك، ووافقوا على استقباله. غادر في ربيع عام ١٩٣٤، لكنَّ أمه، التي كانت قد أثبتتْ انتباهها للأخطار الكامنة لنظرية العرق اللاآري للرايخ الثالث، رفضتْ بعناد أنْ تنتهز هي نفسها الفرصة للمغادرة. كانت أسرتها ألمانية منذ مئات السنين، كما أخبرتْ ابنها، ويلعنها الله إنْ كانت ستسمح لثلّة من الطُغاة أنْ يُجبروها على النفي. وكائناً ما كانت النتيجة، صمّمتْ على تحمُّل الوضع حتى النهاية.

وقد فعلتْ، بفضلِ معجزةٍ ما. قدَّمَ الدكتور فاينبرغ بعض التفاصيل (من الممكن أنه هو نفسه لم يكن يعرف الحكاية بأكملها)، ولكن يبدو أنَّ أمه تلقّتْ مساعدة من مجموعة من الأصدقاء من غير اليهود في مواقف حاسمة مختلفة، وبحلول عام ١٩٣٨ أو ١٩٣٩ كانت قد نجحتْ في الحصول على مجموعة من الأوراق الثبوتية الزائفة. وغيَّرتْ شكلها بصورة جذرية - وهذا أمر ليس بالصعب على ممثلة مختصّة في أداء أدوار الشخصيات الغريبة الأدوار - وتمكّنت باسمها الأول الجديد أنْ تحصل على عملٍ كمُحاسِبة في مخزن للملبوسات الجاهزة في بلدة صغيرة خارج مدينة هامبورغ، متخفّية بمظهر شقراء مُحافِظة، تضع نظارات. وبعد انتهاء الحرب في ربيع عام ١٩٤٥، لم تكن قد رأتْ ابنها منذ أحد عشر عاماً، وكان يوناس فاينبرغ حينئذٍ قد أصبح في أواخر العشرينيات من عمره، طبيباً بكل معنى الكلمة يُكملُ فترة عمله كطبيب مُقيم في

مستشفى بلْفيو، وحالما اكتشفَ أنَّ أمه قد نجتْ من جحيم الحرب، بدأ يعدّ لها العدّة لتقوم بزيارته في أميركا.

تمَّ كل شيء بأدقّ التفاصيل. الطائرة ستحطّ في الساعة كذا، ستتوقف عند البوابة كذا، وسيكون يوناس فاينبرغ واقفاً هناك لاستقبالها. ولكن حالما همَّ بالمغادرة إلى المطار، استُدعيَ من قِبَل المستشفى لكي يقوم بإجراء عملية جراحية عاجلة. ماذا في وسعه أنْ يفعل؟ إنه طبيب، وعلى الرغم من اشتياقه لرؤية أمه من جديد بعد مرور العديد من السنين، إلا أنَّ واجبه كان أولاً حيال مرضاه. ووضع خطّة جديدة. اتصلَ هاتفياً بشركة الطيران وطلب منها أنْ تُرسِل ممثلاً عنه ليتكلَّم مع أمه عندما تصل إلى نيويورك، ويشرح لها الظرف الذي استُدعيَ فيه في الدقيقة الأخيرة ويقول لها إنها ستجد سيارة أجرة ستقلّها إلى مانهاتن. وسوف يُترَك مفتاح لأجلها عند بوّاب عمارته، وستصعد إلى الطابق العلوي وتنتظره في الشقّة. وفعلتْ السيدة فاينبرغ كما طُلِبَ منها وسرعان ما وجدتْ سيارة أجرة. وانطلقَ السائق، وبعد مضي عَشر دقائق من رحلة انطلاقهما نحو المدينة، فقدَ السيطرة على المقود واصطدمَ مباشرة بسيارة أخرى. وأُصيبَ هو والراكبة بجراح بليغة.

حينئذٍ كان الدكتور فاينبرغ قد وصل إلى المستشفى، ويوشك أنْ يُجري عمليته الجراحية. استمرَّتْ العملية أكثر من ساعة بقليل، وبعد أنْ انتهى من عمله، غسلَ الطبيب الشاب يديه، وبدّلَ ملابسه، وهرعَ خارج غرفة تبديل الملابس، مشتاقاً للعودة إلى المنزلِ من أجل التئام شمله المتأخر مع أمه. وحالما ولجَ الصالة، وجدَ أنَّ مريضاً جديداً قد أُدخِلَ إلى غرفة العمليات.

كان المريض هو والدة يوناس فاينبرغ. استناداً إلى ما قاله له الطبيب، لقد ماتت دون أنْ تستعيد وعيها.

لقاء غير متوقَّع

لقد ثرثرتُ على مدى صفحتين، ولكن حتى الآن كان هدفي الوحيد هو تقديم نفسي إلى القارئ وتهيئة المشهد للبدء بالقصة التي سأرويها. أنا لستُ الشخصية المركزية في تلك القصة. إنَّ امتياز حمل لقب بطل هذا الكتاب يخصُّ توم وود، الابن الوحيد للمرحومة أختي، جون. وُلِدتْ جون-البقّة، كما كنا نلقّبها، عندما كنتُ في الثالثة، ومولدها هو الذي عجَّلَ برحيل والديّ عن شقة بروكلين المزدحمة إلى منزلٍ في غاردن سيتي، في لونغ أيلند. ولطالما كنا، هي وأنا، صديقَين وفيَّين، وعندما تزوجتْ بعد ذلك بأربعةٍ وعشرين عاماً (بعد وفاة والدنا بستة أشهر)، كنتُ أنا الذي سار معها على الممشى وسلَّمها إلى زوجها، المُراسل الاقتصادي لصحيفة ***نيويورك تايمز***، اسمه كريستوفر وود. أنجبا معاً طفلَين (ابن أختي، توم، وابنة أختي، أورورا)، لكنَّ الزواج انهار بعد خمسة عشر عاماً. وبعد ذلك بعامَين، تزوجت جون من جديد، ومن جديد رافقتها إلى مذبح الكنيسة. زوجها الثاني كان سمسار بورصة ثريّ من نيو جرسي، فيليب زون، كان قد تزوج مرتين ولديه ابنة بالغة تقريباً، اسمها باميلا. وفي سنٍ صغيرة بدرجةٍ تُثير الاشمئزاز هي التاسعة والأربعين، عانتْ جون من نزيف شديد في الدماغ أثناء عملها في

الحديقة بعد ظهيرة يومٍ شديد الحرارة في منتصف شهر آب وتوفيتْ قبل شروق شمس اليوم التالي. وبالنسبة إلى أخيها الأكبر، كان موتها أسوأ ضربة تلقّاها، حتى إصابته بالسرطان واقترابه من الموت بعد ذلك بسنوات لم تكن شيئاً بالنسبة إلى اليأس الذي شعر به عندئذٍ.

بعد الجنازة انقطعتْ صِلتي بالأسرة، ولم أكنْ قد رأيتُ توم منذ سبع سنين عندما قابلته مُصادفة في محل هاري برايتمن لبيع الكتب في الثالث والعشرين من شهر أيار، عام ٢٠٠٠ . لطالما كان المُفضّل لديّ، وحتى وهو طفل صغير كان يُدهشني باختلافه عن العاديين، بكونه شخصاً قُدِّرَ له أنْ يُنجِز أعمالاً جليلة في حياته. وباستثناء يوم جنازة جون، آخر حديث تمّ بيننا في منزل أمه في ساوث أورانج، نيو جرسي. كان توم قد تخرّجَ تواً من مدرسة كورنويل مع مرتبة الشرف ويوشكُ أنْ يلتحقَ بجامعة ميتشيغان بمنحة مدتها أربع سنوات لدراسة الأدب الأميركي. كان كل ما تمّ توقّعه له قد تحقّق، وأتذكّر وجبة العشاء التي تضم أفراد الأسرة كمناسبة يعمّها الودّ، نرفع فيها كؤوسنا ونشرب نخب نجاح توم. وعندما كنتُ في مثل سنّه، كنتُ آمل أنْ أتبعَ مساراً يُشبه المسار الذي انتقاه ابن أختي. ومثله، تفوقتُ في اللغة الإنكليزية في الجامعة، وضمرتُ مطامحَ سرية بمتابعةِ دراسة الأدب أو ربما التجريب في مجال الصحافة، ولكني لم أكن أتّصفُ بالشجاعة للسعي في أي منهما. كانت الحياة تلطي لي في الطريق - سنتان في الجيش، ثم العمل، فالزواج، ومسؤوليات الأسرة، والحاجة إلى كسب المزيد والمزيد من المال، كل القذارة التي تعيقنا حين لا نتحلّى بالشجاعة اللازمة لنواجه أنفسنا - لكني لم أفقد حبي للكتب قط. كانت القراءة هي ملاذي وعزائي،

وسلواي، وحافزي على الاختيار : القراءة لمجرّد متعة القراءة، للسكون الجميل الذي يُحيط بك وأنتَ تصغي إلى أصداء كلمات المؤلف تتردّد في رأسك. ولطالما اشترك توم معي في هذا الحب، ومنذ أنْ بلغ سن الخامسة أو السادسة، عمدتُ إلى إرسال كتبٍ إليه مراتٍ عدّة في السنة - ليس فقط بمناسبة عيد مولده أو في عيد الميلاد، بل كلما وقع في يدي شيء اعتقدتُ أنه سيحبه. وعرّفته إلى بو وهو في الحادية عشرة، ولأنَّ بو كان أحد الكُتّاب الذين كان يتناولهم في أطروحة تخرّجه، من الطبيعي أنْ يُخبرني عن أطروحته - ومن الطبيعي أنْ أرغب في الإصغاء. عندئذٍ كنا قد انتهينا من تناول الطعام، وكان الآخرون كلهم قد خرجوا ليجلسوا في الفناء الخلفي، لكن توم وأنا بقينا في غرفة الطعام، لنشرب ما تبقّى من نبيذ.

قال توم، وهو يرفع كأسه، "في صحتك، خال نات"

أجبته "في صحتك، توم. لننتقل إلى كتاب "الجِنان الوهمية : الحياة والفكر في أميركا ما قبل الحرب الأهلية" "

" يؤسفني أنْ أقول إنه عنوان طنّان. ولكن لم يخطر في بالي ما هو أفضل منه"

"العنوان الطنّان جيد. إنه يجعل البروفسورات يعتدلون في جلستهم وينتبهون. لقد حصلتَ على درجة ممتاز، أليس كذلك؟ "

وبما أنه متواضع كشأنه دائماً، قام توم بحركة استخفاف بيده، وكأنه يُقلّل من شأن الدرجة التي نالها. وتابعتُ " تقول إنكَ نلتها جزئياً حول بو. وعلى ماذا أيضاً نلتها؟ "

"عن ثورو"

" بو و ثورو"

" إدغار ألن بو وهنري ديفيد ثورو. تنافرٌ مؤسف، ألا تظن؟ هناك الكثير من أحرف الواو تخرج من الفم. يُذكّرني هذا دائماً بشخصٍ صُعِقَ إلى درجة الدهشة الأبدية. أوه ! أوه ! نو ! أوه بو ! أوه ثورو!"

" إنه مجرد إزعاج صغير، يا توم. ولكن ويلٌ للرجل الذي يقرأ بو وينسى ثورو. أليس كذلك ؟"

رسمَ توم ابتسامة عريضة، ثم رفعَ كأسه من جديد. "في صحتك، خالي نات"

قلت "وفي صحتك أنتَ، يا دكتور ثمب". رشفَ كلٌ منا رشفة أخرى من نبيذ بوردو. وعندما ملتُ لأضع الكأس على المائدة، طلبتُ منه أنْ يلخّص لي مناظرته.

قال ابن أختي "إنها عن العوالم التي لا وجود لها. دراسة عن الملجأ الداخلي، خريطة المكان الذي يلجأ إليه الإنسان عندما تصبح الحياة في العالم الواقعي مستحيلة".

"العقل"

" بالضبط. أولاً بو، وتحليلٌ لثلاثة من أعماله المُهمَلة. "فلسفة أثاث المنزل"، و " كوخ لاندور " و " مقاطعة آرنايم ". إذا تناولتها كلاً على حِدة، ترى أنَّ كلاً منها فقط يُثير العجب، والاستغراب. لكنها معاً تحصل على منظومة دقيقة جداً من التوق الإنساني"

" أنا لم أقرأ تلك المقطوعات قط. ولا أعتقد أني سمعت بها من قبل".

" إنَّ ما تعطيه هو وصف للغرفة المثالية، المنزل المثالي، والمشهد العام المثالي. بعد ذلك، أقفز إلى ثورو وأتفحّص الغرفة، والمنزل، والمشهد العام كما ورد في رواية " ***والدن***"[٢] "

" أي ما نسمّيه بالدراسة المقارنة "

" لا أحد سبقَ أنْ تحدّثَ عن بو وثورو في وقتٍ واحد. إنهما يقفان على طرفَيّ نقيض من الفِكر الأميركي. ولكن هذا هو جمال الأمر. سكّير من الجنوب - رجعيٌ في سياسته، أرستقراطيٌ في توجّهه، غامض في مخيّلته. وممتنع عن شرب الخمر من الشمال - راديكاليٌ في أرائه، بيوريتانيّ في سلوكه، وبصيرٌ في عمله. بو يمثّل براعة وكآبة غرف منتصف الليل. وثورو يمثّل بساطة وإشراق الهواء الطلق. وعلى الرغم من اختلافهما، لم يكن يفصل بين مولد كل منهما إلا ثماني سنوات، مما يجعلهما معاصرَين تماماً تقريباً. وكلاهما مات وهو شاب - في سن الأربعين والخامسة والأربعين. وكلاهما عاش حياةَ وحدةٍ قاسية، وكلاهما لم يُخلّف أطفالاً. وفي الغالب، مات ثورو وهو بِكر. وبو تزوج من نسيبته المراهقة، ولكنَّ السؤالَ حول ما إذا كان ذلك الزواج قد اكتملَ أم لا قبل وفاة فيرجينيا كليم ما زال مفتوحاً. قُل إنهما متوازيان، قُل إنهما متصادفان، لكنَّ هاتين الحقيقتين الخارجيتين أقلّ أهمية من الحقيقة الداخلية لحياة كل منهما. لقد أخذ كل منهما على عاتقه، على طريقتيهما الحسّاستين بجموح، إعادة خلق أميركا. فقد قاتل بو، في مقالاته النقدية ومراجعاته للكتب، من أجل إرساء نوعٍ جديد محليّ من الأدب، أدب أميركي متحررٍ من التأثيرات الإنكليزية والأوروبية.

---

٢ - والدن ، أو الحياة في الغابة : رواية لثورو .

وأعمال ثورو تمثّل هجوماً لا يكلّ على الوضع الراهن، قتالاً من أجل العثور على طريقة أخرى للعيش هنا. كلا الرجلين آمنا بأميركا، وكلاهما آمنَ بأنَّ أميركا ذهبتْ إلى الجحيم، بأنَّها سُحِقَتْ حتى الموت تحت وطأة جبل يعلو باستمرار من الآلات والأموال. كيف يمكن لرجل أنْ يفكِّر وسط كل ذلك الصخب ؟ كلاهما أرادا أنْ يرحلا. ثورو انتقلَ إلى ضواحي كونكورد، متظاهراً بأنه ينفي نفسه إلى الغابة - لسببٍ وحيد هو أنْ يُبرهن لنفسه أنَّ ذلك ممكن. وما دام الرجل يتحلّى بالشجاعة اللازمة لرفض تنفيذ ما يطلب المجتمع منه أنْ يفعله، يستطيع أنْ يعيش الحياة وفق شروطه. لماذا ؟ لكي يتحرّر. يتحرَّر لأي غاية ؟ ليقرأ الكتب، ليؤلف الكتب، ليفكّر. لكي يكون حراً ليكتب رواية مثل "والدن". ومن ناحية أخرى، انسحبَ بو إلى حلمٍ بالكمال. الق نظرة على قصة "فلسفة الأثاث"، وستكتشف أنَّ غرفته المُتخيَّلة مُصمَّمة للغرض نفسه بالضبط؛ لكي تكون مكاناً للقراءة، والكتابة، والتفكير. إنها قبّة للتأمُّل، ملاذ يرين عليه السكون تستطيع الروح فيه أخيراً أنْ تعثُر على قدر من السلام. أهو طوباويّ بدرجة مستحيلة؟ نعم. لكنه أيضاً بديل معقول لأحوال العصر. ذلك أنَّ الحقيقة هي أنَّ أميركا ذهبت إلى الجحيم. انشطرَ البلد إلى اثنين، ونحن نعلم جميعاً ماذا حدث بعد ذلك بعقدٍ من الزمن. أربع سنوات من الموت والدمار. حمّام من الدم أحدثته الآلات نفسها التي كان من المفترَض أنْ تُنتج لنا كل السعادة والثراء".

الفتى كان على قدرٍ عالٍ من الوسامة، والفصاحة، ومقروءاً على نِطاق واسع، حتى إني شعرت بالتشريف لأني اعتبرتُ نفسي فرداً من عائلته. وكان آل وود قد نالوا نصيبهم من الاضطراب في السنوات

الأخيرة، ولكن بدا أنَّ توم نجا من كارثة انفصال والديه - بالإضافة إلى عواصف فترة المراهقة التي تعرّضتْ لها أخته الأصغر منه سناً، التي تمرّدتْ على زواج أمها الثاني وهربت من المنزل وهي في السابعة عشرة - حاملةً معها موقفاً رصيناً، حكيماً، ومشدوهاً من الحياة، وقد أُعجِبتُ به لأنه أبقى قدميه مُثبَّتتين برسوخ على الأرض. فلم تكن له أي صِلة بوالده، الذي انتقل بسرعة إلى كاليفورنيا بعد الطلاق وتولى عملاً في صحيفة " لوس أنجلوس تايمز "، وكأخته (وإنْ كان بشكل أكثر صمتاً) لم يشعر بأي حب أو احترام نحو زوج جون الثاني. لكنه كان قريباً من أمه، وكانا قد مرّا بمأساة اختفاء أورورا كشريكين متعادلَين، واختبرا معاناة الأمل واليأس نفسها، والتوقعات الكئيبة نفسها، والقلق الذي لا ينتهي نفسه. وكانت روري إحدى أشد فتياته الصغيرات اللاتي عرفتهن مرحاً وسِحراً : كانت دوامة من الوقاحة والبراعة الواثقة من نفسها، والتعالي، كانَت آلة لا تنضب من العفوية والخبث. ومنذ أنْ كانت في الثانية أو الثالثة، كنتُ أنا وإديث دائماً نسمّيها الفتاة الضاحكة، وكانت قد نشأتْ في منزل آل وود بوصفها مُسلّية الأسرة، مُهرّجاً بارعاً وحروناً. وكان توم لا يكبرها بأكثر من سنتين، لكنه دائماً يسعى وراءها، وحالما يُغادر والدهما المكان، كان مجرد حضوره يُشكل قوةَ توازنٍ في حياتها. لكنه بعد ذلك التحقَ هو بالجامعة، وانفلتَ زمام روري - أولاً هربت إلى نيويورك، ثم، بعد فترة تصالحٍ وجيزة أمضتها مع أمها، اختفتْ ولم يعرف أحد إلى أين. وفي وقت إقامة الوليمة الاحتفالية بمناسبة تخرُّج توم تلك، كانت قد أنجبتْ طفلاً بلا زواج (فتاة اسمها لوسي)، وعادتْ إلى المنزل ومكثتْ فترة كافية لترمي بالطفلة في حضن أختي، ثم اختفتْ

من جديد. وعندما توفيت جون بعد ذلك بأربعة عشر شهراً، أبلغني توم في الجنازة أنَّ أورورا عادتْ مؤخراً لتُطالب بالطفلة - ومن ثم غادرتْ مرة أخرى بعد يومين. ولم تحضر جنّاز أمها. ربما كان ينبغي أنْ تحضر، كما قال توم، ولكن لا أحد كان يعلم كيف وأين يتصل بها.

على الرغم من تلك الاضطرابات الأسرية، وعلى الرغم من فقدانه أمه لم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين، لم أشك قط في أنَّ توم سوف يزدهر في العالم. كان هناك الكثير من الأحداث الجارية التي تعمل لإفشاله، وكان ذا شخصية أصلب من أنْ يُطيح بها الحزن. ربما كان ينبغي أنْ أتكلَّم معه أكثر مما فعلتْ، لكني كنتُ أنا نفسي من شدة الذهول والتزعزع بحيث أوليه أي انتباه. قليل من العناق، وبعض الدموع، ولكن لا أكثر. ثم عاد إلى آن آربر، وتباعدنا. في الغالب أنا ألوم نفسي، لكنَّ توم كان بالغاً بحيث يأخذ هو زمام المبادرة، وكان في وسعه أنْ يُرسل إليَّ كلمة كلما أراد ذلك. أو، إذا لم يكن إليَّ، فإلى نسيبته القريبة، راشيل، التي كانت أيضاً في ذلك الوقت في الغرب الأوسط، تقوم بدراسات عليا في شيكاغو. كانا يعرفان بعضهما منذ الطفولة وكانت علاقتهما جيدة دائماً، لكنه لم يقُم بأي خطوة باتجاهها. وكنتُ بين حينٍ وآخر ومع مرور الزمن أشعر بوخز الشعور بالذنب، لكني كنتُ أمرّ بفترة صعبة من حياتي (مشاكل الزواج، ومشاكل صحيّة، ومشاكل مالية)، وكنتُ من فرط التشتّت بحيث أفكر فيه كثيراً. وعندما أفعل، أتصوره يواصل دراساته، ويتقدَّم بانتظام في مسيرته المهنية وهو يرتقي السلَّم الأكاديمي. وبحلول ربيع عام ٢٠٠٠، بتُّ متأكداً من أنه حصل على عمل في مكان محترم كبيركلي أو كولومبيا- شاب مثقف لامع يعمل منذ الآن على كتابه الثاني أو الثالث.

تخيّل دهشتي، إذن، عندما ولجتُ برايتمنز أتيك في صباح يوم ثلاثاء من شهر أيار ورأيتُ ابن أختي جالساً خلف طاولة، يسلّم الفكّة لأحد الزبائن. لحسن الحظ، رأيتُ توم قبل أنْ يراني. ويعلم الله أي كلمات أندمُ عليها كانت ستفلت من بين شفتيّ لو لم تُتح لي تلك الدقائق العشر أو الاثنتا عشرة لأستوعب الصدمة. أنا لا أشيرُ فقط إلى استبعاد كونه موجوداً هناك، يعملُ كمرؤوس في محل لبيع الكتب المُستعملة، بل أيضاً إلى مظهره الذي طرأ عليه تغيُّر راديكاليّ. فلطالما كان توم يميل إلى الاكتناز وقِصَر القامة. كان مُبتلياً بجسد فلاح كبير العَظم خُلِقَ ليحمل كتلاً من الأحمال الضخمة – وهي هِبة ورثها من والده الغائب، وشبه السكّير – ولكن مع ذلك، في المرة الأخيرة التي رأيته فيها ، كان حَسَنَ الشكل نسبياً. ضخم الجثة، نعم، ولكنه يمتلك عضلاتٍ قويةً أيضاً وتتسم خطوته بالرشاقة الرياضية. والآن، حتى بعد مرور سبع سنوات، زاد وزنه نحو ثلاثين أو خمسة وثلاثين رطلاً، مما جعله يبدو بديناً وقصير القامة. وتكوّن تحت خط فكّيه لغداً مزدوجاً وحتى يديه اكتسبتا بدانة وسماكة ترافقان عادة البدينين في منتصف العمر. كان مشهداً مُحزناً. كان البريق قد انطفأ من عيني قريبي، وكل شيء فيه أوحى بالهزيمة.

بعد أنْ انتهت الزبونة من دفع ثمن كتابها ، مشيتُ لأقف في البقعة التي كانت تشغلها ، ووضعتُ يديّ على الطاولة، وملتُ نحو الأمام. وتصادفَ أنْ كان توم ينظر نحو الأسفل في تلك اللحظة، يفتش عن قطعة نقد سقطتْ على الأرض. تنحنحتُ وقلت " مرحبا ، توم. لم أرك منذ زمن بعيد".

رفعَ ابن أختي بصره. للوهلة الأولى، بدا مرتبكاً بشكلٍ كامل، وخشيتُ ألا يكون قد تعرفَّ عليّ. ولكن بعد هنيهة بدأ يبتسم. وعندما أخذتْ الابتسامة تتّسع عبر وجهه، أبهجني أنْ أرى أنها ابتسامة توم التي أعرفها، ممزوجة ربما بقدرٍ من الكآبة، وليس بما يكفي ليغيّره بعمق، كما كنتُ أخشى.

هتفَ " خال نات ! ماذا تفعل في بروكلن؟ "

قبل أنْ أتمكن من الإجابة، اندفعَ خارجاً من خلف الطاولة وطوّقني بذراعيه. وأمام ذهولي، بدأتْ عيناي تترقرقان بالدموع.

وداعاً للغَزَل

في وقتٍ لاحق من اليوم نفسه، خرجت معه لنتناول طعام الغداء في مطعم كوزميك. قدَّمتْ لنا مارينا الرائعة شطيرة لحم الحبش والقهوة المُثلّجة، وغازلتها بعدائيّة أكثر من المعتاد، ربما لأني أردتُ أنْ أثير إعجاب توم، أو ربما ببساطة لأنني كنتُ في مزاج مرح. لم أكن قد أدركتُ كم اشتقتُ إلى صديقي العزيز الدكتور ثمب، والآن اتّضحَ أننا كنا جيران - نقيمُ، بالمصادفة المحض، في مكانين لا يبعد الواحد عن الآخر أكثر من بنايتين في مملكة بروكلن القديمة، نيويورك.

كان يُقيم في برايتمنز آتيك منذ خمسة أشهر، كما قال، والسبب في أني لم أصادفه قبل ذلك يعود إلى أنه كان دائماً يعمل في الطوابق العليا، يؤلف كتيبات شهرية لقسم الكتب والمخطوطات النادرة في محل هاري، التي كانت مُربحة أكثر من التجارة في الكتب المستعملة في الطابق السفلي. لم يكن توم موظفاً، ولم يكن قد عمل مُحاسِباً، لكنَّ الموظف المعتاد كان لديه موعد مع الطبيب في صباح ذلك اليوم، وكان هاري قد طلبَ من توم أنْ يحلَّ محله إلى أنْ يعود إلى المحل.

لم يكن في الوظيفة ما يستدعي التباهي به، كما تابع توم قائلاً، لكنها كانت على الأقلّ أفضل من قيادة سيارة أجرة، التي كان يُمارسها منذ أنْ ترك مدرسة التخرُّج وعاد إلى نيويورك.

سألته، وأنا أبذل أقصى جهدي لأخفي خيبة أملي، "متى حدث ذلك؟ "

قال " قبل سنتين ونصف. لقد أنهيتُ دراسة الفصل واجتزتُ امتحاناتي الشفوية، ثم انغمستُ في إعداد الأطروحة. كانت فوق طاقتي على التحمُّل، يا خال نات"

" كفَّ عن مناداتي بخال نات، يا توم. خاطبني فقط بناثان، كما يفعل الجميع. على أي حال، الآن بعد أنْ توفيتْ أمك، لم أعد أشعر أني خال".

" حسن، خال نات. لكنكَ ما زلتَ خالي، شئتَ أم أبيت. وأعتقد أنَّ خالتي إديث ربما لم تعُد خالتي، ولكن حتى إذا أُنزِلَتْ إلى مرتبة الخالة السابقة، سوف تبقى راشيل ابنة خالي، وسوف تبقى أنتَ خالي".

" فقط نادني بناثان، يا توم "

" سأفعل، خال نات، أعدك. من الآن فصاعداً سأخاطبكَ دائماً بناثان. وفي المقابل، أريد منكَ أنْ تخاطبني بتوم. لا دكتور ثمب بعد الآن، اتّفقنا؟ إنه لقب يزعجني"

" لكني دائماً أناديك هكذا. حتى وأنتَ صبي صغير"

" وأنا لطالما خاطبتكَ بخال نات، أليس كذلك؟ "

" تعادلنا. أستسلِم "

" لقد انتقلنا إلى مرحلة جديدة، يا ناثان. ما بعد الأسرة، ما بعد طالب المدرسة، ما بعد عصر الزجاج والخشب الماضي"

" ما بعد الماضي؟ "

" أعني ***الآن***. وأيضاً ***اللاحق***. ولكن لا مزيد ***حينئذٍ***"

" أصبح ماضٍ وانقضى، يا توم "

أغمضَ الدكتور ثمب السابق عينيه، وأمال رأسه إلى الخلف، ووجّه سبّابته في الهواء، وكأنه يُحاولُ أنْ يتذكّر شيئاً نسيه منذ زمنٍ بعيد. ثم، وبصوتٍ رصين، يُحاكي الإلقاء المسرحي، ألقى الأبيات الافتتاحية لقصيدة رالاي " وداعاً للغزَل " :

كأحلامٍ وهمية، تلاشت أفراحي،
وأضحت أيامي الهانئة كلها من الماضي،
ضلّ حبي طريقه، وتراجع الخيال :
ولم يبقَ من كل ما مضى، غير حزني.

المَطْهَر

لا أحد ينشأ وهو يعتقد أنَّ قَدَرَه أنْ يُصبح سائق سيارة أجرة، ولكن في حالة توم كانت الوظيفة هي شكلٌ من أشكال التكفير القاسي جداً، طريقةٌ للتعبير عن الحزن على انهيار طموح عزيز عليه. وهذا لا يعني أنه كان يطلب الكثير من الحياة، ولكنَّ القليل الذي أراده اتَّضحَ أنه بعيد عن مناله : أنْ يحصل على درجة الدكتوراه، أنْ يجد مكاناً له في أحد أقسام جامعة إنكليزية، ثم يُمضي السنوات الأربعين أو الخمسين في التدريس وتأليف الكتب. كان هذا كل ما طمحَ إليه، بالإضافة إلى زوجة زيادة على البيعة، ربما، وطفل أو اثنين معها. ولم يبدُ له قط أنَّ طلبه هذا كثير، ولكن بعد ثلاث سنوات من الكفاح لكتابة أطروحته، فهِمَ توم أخيراً أنه ليس مُقدّراً له أنْ يُنهيها. أو، إذا كان مُقدراً له ذلك، فإنه لم يعُد يتمكّن من إقناع نفسه بالإيمان بقيمة إنجازها. لذلك غادر آن آربر وعاد إلى نيويورك، وهو في الثامنة والعشرين من العمر ولا يعرف إلى أين يتوجه أو المنعطف الذي توشك حياته أنْ تتخذه.

في أول الأمر، كانت سيارة الأجرة مجرد حلٍ مؤقّتْ، إجراء مؤقت لدفع قيمة الإيجار في حين أنه كان يبحث عن شيءٍ آخر. بحث على مدى أسابيع، ولكن كل وظائف التعليم في المدارس الخاصة كانت مشغولة

حينئذ، وحالما استقرَّ على نظام نوبات الاثنتي عشرة ساعة اليومية، حتى وجد أنه يُصبح أقلّ حماساً فأقلّ للسعي والعثور على عملٍ آخر. وأخذ الحلُّ المؤقت يتحول إلى دائم، وعلى الرغم من إدراك توم جزئياً أنه يستسلم للانزلاق نحو الجحيم، فإنَّ جزءاً آخر منه رأى أنَّ هذا العمل ربما يفيده، وأنَّه إذا انتبه إلى عمله وإلى السبب في قيامه به، فسوف تعلمه السيارة دروساً ما كان يمكن له أنْ يتلقّاها من أي مكانٍ آخر.

لم يكن واضحاً له دائماً ما هي تلك الدروس، ولكن لا ريب في أنه تعلّمها جيداً أثناء جوبه الجادات في سيارة الدودج الصفراء السريعة من الخامسة من بعد الظهيرة وحتى الخامسة صباحاً وعلى مدى ستة أيام في الأسبوع. وقد كانت مساوئ العمل من الوضوح، والشمول، والتدمير، بحيث إنّكَ إذا لم تجد وسيلة لتجاهلها، فسوف يُحكم عليك بعيش حياة من المرارة والشكوى التي لا تنتهي. الساعات الطوال، والأجر القليل، والأخطار الجسدية، وقلّة التمرين - تلك كانت الحقائق الصلبة، ولا يعود في استطاعتك أنْ تفكّر في تغييرها إلا بقدر ما تستطيع أنْ تفكِّر في تغيير أحوال الطقس. كم مرة سمع أمه تلقي على مسمعه تلك الكلمات وهو صغير؟ كانت جون تقول له " لا تستطيع أنْ تغيِّر أحوال الطقس، يا توم؟ "، وهذا يعني أنَّ بعضَ الأشياء هي ببساطة كما هي، ولا خيار لنا إلا أنْ نقبلها. فهِمَ توم المبدأ، لكنَّ ذلك لم يمنعه عن لعن العواصف الرعدية والرياح الباردة التي تهبُّ على جسمه الضئيل، المرتجف. الآن الثلوج تنهمر من جديد. وتحولتْ حياته إلى معركة واحدة طويلة ضد العناصر، وإذا كان سيتوفر لديه وقت ليتذمّر من الطقس، فها قد حان. لكنَّ توم لم يتذمَّر، ولم يشعر بالرثاء على نفسه ؛ لقد عثر على طريقةٍ

يُكفِّر بها عن حماقته، وإذا خرج من التجربة سالماً دون أنْ يفقد قلبه بشكلٍ كامل، فقد يتبقّى له بعض الأمل. وببقائه يعمل في السيارة لم يكن يحاولُ أنْ يستغل أسوأ موقف بأفضل طريقة ؛ كان يبحث عن سبيلٍ لجعل الأمور تحدث، وإلى أنْ يعرف ما هي تلك الأمور، ليس له الحق في التحرُّر من القيد.

كان يقطن في شقة صغيرة عند منعطف الجادة الإنكليزية والشارع الثالث، بإيجار طويل الأمد من الباطن انتقل إليه من صديقٍ لصديق غادر نيويورك واستلمَ عملاً في مدينة أخرى - بيتسبرغ أو بلاتسبرغ، لم يتذكَّر توم أيُّهما. كانت أشبه بزنزانة محبوسة الهواء تحتوي خزانة واحدة ودشاً من المعدن في الحمّام، وهناك نافذتان تطلان على جدار من القرميد، ومطبخ صغير يتألف من برّاد خالٍ وموقد على الغاز بمضرمَين. وخزانة واحدة للكتب، وكرسي واحد، وطاولة واحدة، وحشيّة واحدة على الأرض. كانت أصغر غرفة أقام فيها، ولكن لمّا كان الإيجار مُثبَّتاً على أربعمئة وسبعة وعشرين دولاراً في الشهر، شعر توم بأنه محظوظ بحصوله عليها. على أي حال، بعد انتقاله إليها وعلى مدى عام، لم يكن يتردَّد عليها كثيراً ؛ كان دائماً في حالة تجوال، قام بزيارة أصدقائه القدامى من أيام المدرسة والجامعة الذين استقرّوا في نيويورك، وقابل أشخاصاً جُدداً عبر أشخاص قدامى، وأنفقَ نقوده في الحانات، وواعد النساء كلما سنحت له الفرص، وفي العموم حاول أنْ يبني حياة خاصة له - أو ما يشبه الحياة. وغالباً ما كانت تلك المحاولات للمخالطة تنتهي بصمتٍ مؤلم. أصدقاؤه القدامى، الذين تذكّروه كطالبٍ لامع ومُحادث مُسلٍ بخبث، ذُعِروا بما حدث له. كان توم قد انحدر من مرتبة المُكرّسين،

وبدا أنَّ انحداره قد هزَّ ثقتهم بأنفسهم، وفتحَ الباب واسعاً لتشاؤم جديد بشأن آمالهم في الحياة. لم يكن المهم أنَّ توم ازداد وزناً، وأنَّ امتلاء جسمه السابق اقترب الآن بصورة مُحرِجة من البدانة، بل الأشد إزعاجاً كان أنه لم تكن لديه أي خطط، وأنه لم يتكلَّم قط عن الوسيلة التي سيتبعها لإصلاح الضرر الذي سبّبه لنفسه ويقف على قدميه من جديد. وكلما أتى على ذِكر عمله الجديد، كان يصفه بعبارات غريبة، وتقريباً دينية، ويتأمّل في مسائل القوة الروحية وأهمية عثور المرء على طريقه بصبرٍ وتواضع، مما أزعجهم وجعلهم يتململون على كراسيهم. لم يكن عمل توم قد أثّر على ذكائه، ولكن لم يعد أحد يُريد أنْ يُصغي إلى ما يقول، ولاسيما النساء اللاتي كان يتحدث معهن، وكنَّ يتوقعن من الشبان أنْ يكونوا ممتلئين بالأفكار الجريئة والخطط البارعة حول غزو العالم. لقد أبعدهم توم بشكوكه وبحثه عن الذات، وبمقالاته الغامضة عن طبيعة الحقيقة، وبسلوكه المتردِّد. كان يكفيه سوءاً أنه اتخذ من قيادة سيارة أجرة مصدر رزق له، أما كونه سائقاً متفلسفاً يرتدي زي جندي في البحرية ويحمل حول خصره كرشاً فهذا كثير جداً. لقد كان، طبعاً، شاباً ظريفاً، ولم يكن أحد يكرهه حقاً، لكنه لم يكن مُرشحاً شرعياً - لا للزواج، ولا حتى للقيام بمحاولة مجنونة.

وبدأ ينعزل شيئاً فشيئاً. ومرَّ عام آخر، وعندئذٍ أصبحت عزلة توم تامة إلى درجة أنه أمضى عيد مولده الثلاثين منطوياً وحده. والحقيقة كانت أنه كان قد نسي أمره تماماً، ولأنَّ لا أحد اتصل به ليُهنّئه أو ليتمنى له السعادة، لم يتذكّره أخيراً إلا في الساعة الثانية من صباح اليوم التالي. عندئذٍ كان في مكان ما من منطقة كوينز، وكان قد ترك

تواً اثنين من رجال الأعمال السكارى، وانتقلَ إلى مطعم ميتروبوليتان في الجادة الشمالية، وجلسَ على الطاولة، وطلبَ مشروب الشوكولاة، وشطيرتي هامبرغر، وطَبَقاً من البطاطا المقلية.

لولا هاري برايتمن، يعلم الله كم كان سيبقى ماكثاً في ذلك المظهر. كان محل هاري قائماً في الجادة السابعة، على مقربة من مكان سكنى توم، وتعوّد توم أنْ يتوقف في محل برايتمن كجزءٍ من روتينه اليومي. لم يكن يشتري شيئاً، بل يحب أنْ يقضي نحو ساعة أو نصف الساعة قبل أنْ يحين موعد نوبته في استعراض الكتب المستعملة في الطابق الأرضي. كان هناك آلاف الكتب مُكدّسة على الأرفف - كل شيء بدءاً بالقواميس التي لم تعُد تُطبع إلى الروايات الرائجة المنسية ومجموعات مؤلفات شكسبير المُغلّفة بالجلد - وكان توم دائماً يشعر بالألفة في ذلك المكان الشبيه بضريح الكتب، يتصفّح أكواماً من المواد المنبوذة ويستنشقُ الروائح العتيقة المُغبرّة. وفي إحدى زياراته المُبكّرة، سألَ هاري سؤالاً عن سيرة حياة معيّنة لكافكا، وخاض الاثنان في الحديث. وكان أول مجموعة كبيرة من الأحاديث الصغيرة، ولما لم يكن هاري دائماً موجوداً عندما يأتي توم (كان يقضي معظم وقته في الطابق العلوي)، إلا أنهما كانا يتحدثان بقدرٍ كافٍ في الأشهر التالية بحيث أصبح هاري يعرف اسم مسقط رأس توم، ويسمع قصة أطروحة توم المُجهَضَة (عن ***كلاريل*** - قصيدة ملفيل الملحمية الهائلة الحجم وغير القابلة للقراءة)، ويستوعب أنّ توم غير مهتم بمضاجعة الرجال. وعلى الرغم من خيبة الأمل الأخيرة هذه، لم يستغرق من هاري طويلاً ليفهم أنّ توم يصلح أنْ يكون مُساعِداً مِثالياً في عملية الكتب والمخطوطات النادرة التي تتم في الطابق

الثاني. وإذا كان قد عرضَ هذه الوظيفة مرة من قبل، فقط عَرَضَها على توم مرات عديدة، لكنَّ توم مع ذلك رفضها، ولم يتخلَّ هاري عن الأمل في أنْ يقبلها ذات يوم. وفهمَ أنَّ توم كان في حالة سبات، يخوضُ صراعاً أعمى مع ملاك اليأس الأسود، وأنَّ الأمور سوف تتغيَّر في نهاية المطاف لصالحه. إلى هذه الدرجة كان متيقّناً، على الرغم من أنَّ توم نفسه لم يكن يعلم نتيجته. ولكن حالما يعلم، فسوف يُصبح عمله على سيارة الأجرة مجرد ذكرى من الماضي.

استمتعَ توم بالتحدث إلى هاري لأنَّ هاري كان شخصاً مُضحكاً وصريحاً، رجلاً يتصف بثرثرته الواخزة وتناقضاته المفرطة بحيث إنكَ لا تعرف أبداً ما الذي سيخرج من بين شفتيه بعد ذلك. إذا نظرتَ إليه تظن أنه مجرد شاذ من نيويورك يتقدَّم في السن. كانت كل المظاهر السطحية موجَّهة لتحقُّق ذلك الأثر الوحيد - الشعر المصبوغ والحاجبان، وربطة العنق الحرير العريضة وقمصان لعبة التنس الخاصة بنادي اليخوت، ونبرات الكلام المُخنثة - ولكن حالما تعرفه أكثر، يتّضح أنَّ هاري شخص داهية ومتحدٍ. كان في طريقةٍ إقباله عليك باستمرار شيء مُستفز، نوع من الذكاء المُندفع، اللاطِم، تجعلكَ راغباً في إعطاء أجوبة جيدة عندما يبدأ بكرّ أسئلته تلك الخبيثة، الشخصية جداً. مع هاري، لا يكفي أنْ تُجيب، بل ينبغي أنْ تكون هناك شرارة فيما تقول، شيء فوّار يبرهن على أنكَ أكثر من مجرد أبله آخر يتهادى على درب الحياة. وبما أنَّ هكذا كان توم يرى نفسه إلى حدٍ بعيد في تلك الأيام، كان عليه أنْ يعمل باجتهادٍ استثنائيّ لكي يستمر حتى النهاية في حديثه مع هاري. هذا أشدّ ما أعجبه في حديثه مع هاري. كان توم يحب أنْ يُفكر بسرعة

بديهة، وكان يُنعشه أنْ يدفع عقله في اتجاهات غير تقليدية على سبيل التغيير، أنْ يُضطر إلى الوقوف على أطراف أصابع قدميه. وبعد مرور ثلاثة أشهر أو أربعة على حديثهما الأول - عندما بالكاد كان يعرف أحدهما الآخر، ناهيك عن أنْ يكونا صديقين أو زميلَين - أدركَ توم أنَّ من بين كل الأشخاص الذين عرفهم في نيويورك، لم يكن هناك رجل أو امرأة تحدث معه أو معها بصراحة أكثر مما فعل مع هاري برايتمن.

ومع ذلك استمرَّ توم في رفض عرض هاري. وعلى مدى أكثر من ستة أسابيع صدَّ عروض تاجر الكتب للعمل معه، وفي ذلك الوقت اختلقَ الكثير من مختلف الأعذار لرفضه، وتعلَّلَ بالعديد من الأسباب لكي يُفتش هاري عن شخص آخر، إلى درجة إنَّ تمنّعه أصبحَ نكتةً مُتداولة بينهما. في البدء ابتعد توم عن طريقه لكي يُدافعَ عن مزايا مهنته الحالية، مُرتجلاً نظريات بارعة حول القيمة الوجودية لحياة سائق سيارة أجرة. كان يقول، وهو يُكافحُ كي لا يبتسم بينما يُحاكي رطانة ماضيه الأكاديمي، " إنها تفتح أمامكَ درباً يوصلكَ مباشرةً إلى فوضى الوجود ؛ إنها مدخل نادر إلى البُنى التحتية العمائيّة للكون. إنكَ تقود سيارتك في أرجاء المدينة طوال الليل، دون أنْ تعرف إلى أين تذهب بعد ذلك. ويرتقي زبون إلى المقعد الخلفي من سيارتك. ويطلب منكَ أنْ توصِله إلى المكان الفلاني، وهذا ما تفعله. إلى ريفرديل، فورتغرين، مري هيل، فار روكاواي، أو إلى الجانب المُظلِم من القمر. كل وِجهة هي عشوائية، وكل قرار محكوم بالمصادفة. إنكَ تطفو، تتمايل، تصل إلى الوجِهة بأسرع ما في استطاعتك، ولكن لا رأي لك في المسألة. أنتَ دمية في أيدي الآلهة، وليست لك إرادة خاصة بك. السبب الوحيد لوجودك هناك هو لكي تخدم نزوات أناس آخرين".

ويقول هاري، مُضيفاً ومض الخبث إلى نظرته، " ويا لها من نزوات، يا لهـا من نـزوات خـبـيـثـة. أراهن على أنكَ لمحتَ جـملةً منهـا من خـلال مرآتك الخلفية تلك ".

"من كل الأصناف، يا هاري، ولقـد رأيتـهـا. اسـتـمنا ء، زنى، سُكر بأنـواعـه كلهـا. قـيء ومنِي، خـراء وبول، دم ودمـوع. في وقت أو آخـر، كانت السوائل البشرية كلها تُراق على المقعد الخلفي لسيارتي".

" ومَنْ كان يمسحها ؟ "

" أنا. إنه جزء من عملي"

يقول هاري، وهو يضـغط قفا يده على جبينه بحركة نشوة مُصطنعة لممـثلة مسـرح، " حسن، فـقط تذكَّر، أيهـا الشـاب، عندما تأتي للعـمل معي، سوف تكتشف أنَّ الكتبَ لا تدمى. وهي حتماً لا تتبرَّز".

ثم يُضـيف توم، غـيـر راغبٍ في أنْ تكون الـكلمـة الأخيـرة لهـاري، "وهناك لحظات جـيـدة أيضـاً، لحظات رائعـة لا تُـمـحى، من النشـوة الصغيرة، والمعجزات غير المتوقَّعة. أثناء الانسياب خلال ساحة تايمز عند الساعـة الثالثة والنصف صباحاً، بعد اختـفاء كل حركة للمرور، تكتشف فـجأةً أنكَ وحيد في مـركز العـالم، وأضـواء النيـون تنـهـمـر عليك من كل زاوية مـن السـمـا ء. أو الانـطلاق بسـرعـة تـتـجـاوز السـبـعين على بلت باركـواي قُـبـيل الفـجـر وشم رائحـة المحـيط وهو يتـدفّق عليك من خـلال النافذة المفتوحة. أو اجتياز جسر بروكلن في اللحظة نفسها التي يرتفع فيها القمر البدر إلى كبد السماء، وهذا كل ما تستطيع أنْ تراه، استدارة القمر الصفراء البرّاقة، كبيراً بصورة مخيفة، وتنسى أنكَ تعيشُ هنا على الأرض وتتخيَّل أنكَ تطير، أنَّ للسيارة جناحين وأنكَ في الواقع تطير في

الفضاء. لا يمكن لأي كتاب أنْ ينسخ مثل هذه الأشياء. إنني أتحدث عن سموّ حقيقيّ، يا هاري، عن مغادرتك لجسدك وولوج امتلاء العالم وكثافته".

" لستَ مُضطراً إلى قيادة سيارة أجرة لتفعلَ ذلك، يا بُنيّ. أي سيارة عتيقة تفي بالغرض"

" كلا، هناك فرق. بالسيارة العادية تفقد عنصر الجهد الشاقّ، وهذا شيء أساسي بالنسبة إلى التجربة برمّتها. الإرهاق، الضجر، رتابة الأمر كله التي تخدِّر الدماغ. ثم، وبلا مقدمات، تشعر فجأةً بدفقٍ قليل من الحرية، بلحظة أو اثنتين من النعيم الحقيقي، الصِرف. ولكن يجب أنْ تدفع ثمنه. فبلا بذل جهدٍ شاق، لا نعيم ".

لم تكن لدى توم أدنى فكرة عن سبب مقاومته لهاري بتلك الطريقة. لم يكن يُصدق عُشر الأشياء التي يقولها له، ولكن في كل مرة أُثيرَ فيه موضوع تغيير الوظائف من جديد، كان يُثبِّت قدميه في الأرض ويبدأ بنسج حججه المُضادة المُضحكة وتبريراته الذاتية. كان توم يعلم أنَّ من الأفضل له أنْ يعمل لصالح هاري، ولكنَّ فكرة أنْ يصبح مساعد تاجر كتب لم تكن مثيرة قط، ولا ترقى إلى ما كان يصبو إليه عندما حلُمَ بإصلاح حياته. لقد كانت، بصورة ما، خطوة صغيرة وسقيمة أكثر مما ينبغي يعتمد عليها بعد أنْ فقد الكثير. لذا استمرَّ التودُّد، وكلما كره توم عمله، ازداد دفاعه عن كسله عِناداً ؛ وكلما ازداد كسله، كره نفسه أكثر. وكان لصدمة بلوغه سن الثلاثين في ظل تلك الظروف الكئيبة أثرٌ بليغٌ عليه، ولكنها لم تكن قوية إلى درجة إجباره على اتخاذ خطوة عملية، وعلى الرغم من أنَّ وجبته على طاولة استقبال مطعم متروبوليتان

انتهت مع تصميمٍ على العثور على عمل آخر قبل أقلّ من شهر بدءاً بتلك الليلة، وعندما انصرمَ الشهر كان ما يزال يعمل لصالح شركة 3-D لتأجير السيارات. ولطالما تساءل توم عن مدلول حرف D، والآن اعتقدَ أنه بات يعرف. إنه يعني ظلام، تحلُّل، وموت[٢]. وأبلغَ هاري بأنه سيأخذ عَرضه بعين الاعتبار، ثم لم يفعل أيّ شيء، تماماً كما كان يحدث دائماً. ولولا الحماقة المتلعثمة، النشطة، التي سدَّتْ حنجرته عند منعطف الشارع الرابع والجادة B ذات ليلة باردة من شهر كانون ثاني، مَنْ يدري كم من الوقت كان سيستمر الفتور؟ لكنَّ توم فهم أخيراً الرسالة، وعندما ذهب إلى محل هاري في صباح اليوم التالي وأخبره أنه قرَّر أنْ يقبل العمل عنده، انتهت فجأةً أيامه كسائق سيارة أجرة.

قال لرئيسه الجديد في العمل " أنا في الثلاثين من عمري، ووزني زائد أربعين رطلاً. ولم أضاجع أي امرأة منذ أكثر من عام، وعلى امتداد الاثنى عشر يوماً الأخيرة حلمتُ في الصباح باكتظاظ حركة المرور في اثني عشرة منطقة من المدينة. قد أكون مخطئاً، ولكنني أعتقد أني مستعد للتغيُّر".

٢ - الكلمات الثلاث ، طبعاً ، تبدأ بحرف D بالإنكليزية .

جدارٌ ينهار

وهكذا ذهب توم ليعمل لصالح هاري برايتمن، غير مُدركٍ أنَّ هاري برايتمن لا وجود له. فالاسم لم يعُد أكثر من اسم، والحياة المرتبطة به لم تُعَش قط. وهذا لم يمنع هاري من رواية قصصٍ عن ماضيه، ولكن بما أنَّ ذلك الماضي كان مُختَلَقاً، فإنَّ كل ما اعتقد توم تقريباً أنه يعرفه عن هاري كان زائفاً. انسَ عهد الطفولة في سان فرانسيسكو مع الأم العضو البارز في المجتمع والوالد الطبيب ؛ انسَ إكستر وبراون ؛ انسَ الحرمان من الميراث والفرار إلى غرينيتش فيليج في صيف عام ١٩٥٤؛ انسَ سنوات التسكُّع في أوروبا، لقد كان هاري من بافالو، نيويورك، وهو لم يكن مرةً رسّاماً في روما، ولم يُدِرْ داراً للمسرح في لندن، ولم يكن مرةً مستشارَ دارٍ للمزاد في باريس. والمال الوحيد لدى الأسرة كان يأتيها من الدفعة الأسبوعية التي كان والده يجلبها من عمله كمنسّق للبريد في مكتب البريد المركزي، وعندما رحل هاري عن بوفالو في سن الثامنة عشرة، لم يكن متوجهاً إلى الجامعة بل لكي يلتحق بسلاح البحرية. وبعد تسريحه بعد أربع سنوات، نجح في كسب بعض مزايا الطلاب - في جامعة دوبول في شيكاغو - لكنه شعر أنه أصبح كبير السن على الدراسة وتركها بعد ثلاثة فصول. ولكنه مكثَ في شيكاغو، ولم تكن

قصة مجيئه إلى نيويورك قبل ذلك بتسع سنين (بعد أنْ خسر ماله في عملية احتيال في بورصة لندن) إلا قصة أخرى من نسج الخيال. ومع ذلك، صحيح أنه مكث في نيويورك مدة تسع سنين، وصحيح أيضاً أنه لم يكن يعرف أيّ شيء عن تجارة الكتب عندما جاء إلى نيويورك عبر لندن. كان قد انطلقَ من مطار أوهير، وعلى مدى السنتين ونصف الأخيرة كان عنوانه البريدي هو الإصلاحية الفيدرالية في جوليت، إلينويز.

هذا يعلل سبب كره هاري لقول الحقيقة. فليس من السهل أنْ تبدأ حياتك من جديد في سن السابعة والخمسين، وعندما لا يملك الإنسان غير العقل الذي في رأسه واللسان في فمه، فعليه أنْ يفكّر ملياً قبل أنْ يُقرر فتح فمه والتكلُّم. لم يكن هاري خجلاً مما فعله (فلم يتم القبض عليه، هذا كل ما في الأمر، ومنذ متى يُعتبر سوء الحظ جريمة؟)، ولكنْ حتماً لم تكن لديه نيّة في التكلُّم عن الأمر. لقد عمل طويلاً وباجتهاد لكي يُصوغ العالم الصغير الذي يعيش فيه الآن، ولم يكن يوشك أنْ يدع أحداً يعلم كم عانى. لذلك، أبقى توم ما يعرفه عن مسيرة هاري المهنية في شيكاغو طيّ الكتمان، والتي تضمَّنتْ زوجةً سابقة، وابنة بعمر الواحدة والثلاثين، ومعرضاً للفن يقع في جادة ميتشغان كان هاري قد أداره طوال تسعة عشر عاماً. هل كان توم سيقبل عرض عمل هاري لو أنه علِمَ بأمر عملية الاحتيال وإلقاء القبض على هاري؟ ربما. ولكن أيضاً، ربما لا. لم يكن هاري متيقناً، ولهذا السبب عضَّ على لسانه ولم يفُه بأي كلمة.

ثم، في صباح ذات يوم منقوع بالمطر من شهر نيسان، بعد أنْ انتقلتُ إلى الحي بأقلّ من شهر، أي بعد أنْ باشر توم العمل في محل برايتمن بحوالي الثلاثة أشهر ونصف، انهار سور السرّية العظيم.

بدأ الأمر بزيارة غير مُعلَنة من ابنة هاري. وتصادفَ أنْ كان توم في الطابق السفلي عندما دخلَتْ المحل - منقوعة وتقطر، والماء يجري من ملابسها ومن شَعرها، مخلوقة غريبة، شعثة ذات عينين ثاقبتين وتفوح منها رائحة حادة وكريهة. عرِفَ توم أنها رائحة غياب الاغتسال، رائحة شخص مجنون.

قالت، وهي تعقد ذراعيها وتشدُّ على مرفقيها بأصابع مرتعشة، مُبقّعة بالنيكوتين، "أريد أنْ أرى والدي".

بما أنَّ توم لم يكن يعلم شيئاً عن حياة هاري السابقة، لم يفهم عمّا تتكلّم. قال "لابد أنك مُخطئة".

أجابت كأنما بطلقة - وقد غضبتْ فجأةً، بل اضطربت من شدة الغضب، "كلا. أنا فلورا! ".

قال توم "حسن، يا فلورا. أعتقد لقد جئتِ إلى المكان الخطأ".

"اعلمْ أنَّ في استطاعتي أنْ أجعلهم يُلقون القبض عليك. ما اسمكَ؟"

قال توم "توم".

" طبعاً. توم وود. أنا أعرف كل شيء عنك. لقد أضعتُ طريقي وسط رحلة الحياة. لكنكَ من فرط الجهل بحيث تعرف هذا. أنتَ أحد أولئك الرجال الصِغار الذين لا يستطيعون أنْ يروا الغابة بسبب الأشجار".

قال توم، وهو يُخاطبها بصوتٍ ناعم، مُهدِّئ، " اسمعي، قد تعرفين مَنْ أنا، ولكن ليس في وسعي أنْ أساعدك".

" لا تعاملني بوقاحة، أيها السيد. كونكَ مصنوعاً من الخشب لا يعني أنكَ جيد. Comprendo؟ (هل تفهم) أنا هنا لأرى والدي، وأريد أنْ أراه ***الآن حالاً*** !".

قال توم، مُبدّلاً تكتيكه بسرعة، " لا أعتقد أنه في الداخل"

" بل موجود كالجحيم. سليل السجون موجود في الشقة العليا. أتظنني حمقاء؟"

مرّرت فلورا أصابعها خلال شعرها الرطب، ناثرة الماء على برجٍ من الكتب المجلوية حديثاً على طاولة المُحاسبة الأمامية. ثم، سعلتْ بعمق، وأخرجت علبة مارلبورو من جيب ثوبها الواسع، الممزق. وبعد أنْ أشعلت سيجارة، رمت بعود الثقاب المُشتعل إلى الأرض. أخفى توم شعوره بالدهشة وأطفأه بهدوءٍ بقدمه. لم يُزعج نفسه بإخبارها أنَّ التدخين ممنوع في المحل.

سأل " عمَّن تتكلمين؟".

" عن هاري دنكل. مَنْ غيره؟"

" دنكل ؟ "

" تعني *قاتِم*، في حال لم تكن تعلم. إنَّ والدي رجل قاتم، يعيشُ في غابة قاتمة. إنه يتظاهر الآن بأنه مُشرق، لكنها مجرد خدعة. إنه ما زال قاتماً. وسوف يبقى دائماً قاتماً - وحتى يوم مماته".

اكتشافات مزعجة

استغرق من هاري اثنين وسبعين ساعة ليُقنعِ فلورا بالعودة إلى تلقّي العلاج - وأسبوعاً كاملاً من الكلام لتعود إلى أمها في شيكاغو. بعد رحيلها بيوم، دعا توم للانضمام إليه على مائدة العشاء في مطعم مايك وتوني للشواء في الجادة الخامسة، وللمرة الأولى منذ خروجه من السجن قبل تسعة أعوام، كسر الصمت وتحدث عن ماضيه - القصة الوحشية، البلهاء، لحياته الضائعة، وهو يضحك ويبكي على التوالي ويُفضفضُ لُساعده غير المُصدِّق.

كان قد بدأ حياته في شيكاغو كبائع في مارشال فيلد. وبعد عامين، تقدَّمَ إلى موقعٍ أفضل نوعاً ما كمساعد لُنسِّق الواجهة، ولا ريب في أنه كان يمكن أنْ يبقى هناك لولا زواجه الفاشل من بت Bette (تُلفَظ *bet*) دومبروفسكي، الابنة الصغرى للمليونير كارل دومبروفسكي، المعروف بلقب ملك الحفاضات في الغرب الأوسط. وصالة الفنون التي افتتحها هاري في العام التالي تمت بالكامل بأموال بت، ولكن لمجرد أنَّ ذلك المال جلب له حتى ذلك الحين وسائل الرائحة الهائلة والوضع الاجتماعي المرموق، من الخطأ افتراض أنه تزوجها لأنها ثرية أو لأنه انتقلَ إلى حياته الجديدة بذرائع زائفة. إنه لم يكن قط إلا صادقاً معها فيما يخص

ميوله الجنسية، ولكن ذلك لم يمنع بت من اعتبار هاري أشد مَنْ عرفتْ من الرجال جاذبية. حينئذٍ كانت في منتصف ثلاثينيات عمرها، امرأة عادية، تنقصها الخبرة، تتقدم بسرعة نحو العنوس الدائم، وكانت تعلم أنها إذا لم تفرض نفسها على هاري فسوف يُقدَّر لها أنْ تعيش ما تبقى من حياتها في كنف أبيها وتكون موضع احتقار، كعمة وخالة عانس فظّة لأولاد أختها وأخيها، منفيّة وهي في قلب أسرتها ,ولحسن الحظ، لم تكن تهتم بالجنس بقدر اهتمامها بالصُحبة، وحلمتْ بأنْ يُشاركها حياتها رجلٌ يمنحها بعضاً من البريق والثقة في النفس اللذين تفتقر إليهما. وإذا رغب هاري في الانغماس أحياناً ببعض العبث أو اللهو السرّي، فلن تُمانع. ما داما متزوجين، كما قالت، وما دام يُدرك كم تحبه.

كانت النساء قد دخلت حياته من قبل. منذ أيام المراهقة الأولى وتاريخه الجنسي قائمة مُختلطة من الشهوات والاشتياق نحو الجنسين. وكان هاري سعيداً لأنه خُلِقَ هكذا، ولأنه منيع ضد التحامُل الجدير بأنْ يُجبره على قضاء حياته مزدرياً مفاتن نصف الإنسانية، ولكن قبل أنْ يطلب يد بت في عام ١٩٦٧، لم يخطر في باله قط أنه قد يلج منظومة أليفة ثابتة، ناهيك عن أنْ يجد نفسه وقد تحوّلَ إلى زوج. كان هاري قد أحبَّ مرات عديدة في السابق، لكنه نادراً ما بادل الحبَّ بمثله، وقد أدهشته حماسة بت. فهي ليس فقط عَرَضَتْ نفسها عليه دون أيَ تحفُّظ، لكنها في الوقت نفسه منحته الحرية المُطلقة.

طبعا كانت هناك أيضاً بعض العوائق يجب مواجهتها. أحدها أسرة بت، والتدخُّل المُتنمرِّ من جانب والدها المُتبجِّح، الذي كان يُهدد باستمرار

بحرمان ابنته من ميراثه إلا إذا طلبت الطلاق من "ذلك الشاذ البغيض". والأمر الأكثر إثارة للاضطراب كانت قضية بت نفسها. ليس شخصية بت أو روحها، بل جسدها، المظاهر الخارجية لبت، بعينيها الصغيرتين الحولاوَين والشعر الأسود الأشعث الذي يُزيِّن ساعديها البدينين. وكان هاري ذا ذوق فطري، راقٍ جداً نحو الجميلات، ولم يرغب قط في أي فتاة ليست على الأقلّ جذابة. وإذا كان هناك ما جعله يتردَّد بشأن الزواج منها، فهو مسألة شكلها. لكنَّ بت كانت لطيفة جداً، ومُصممة على إرضائه، حتى إنَّ هاري انتهز الفرصة، لعِلمِه أنَّ واجبه الأول كزوج هو أنْ يُشكِّل زوجته لتكون نسخة طِبق الأصل من المرأة التي - تحت الإضاءة المناسِبة وفي ظل الظروف المناسِبة - يمكن أن تُحرِّك شهوته. بعض التحسينات كانت سهلة بما يكفي لإنجازها. فقد بدلَتْ نظارتها بعدسات لاصقة؛ وجدَّدت محتوى خزانة ملابسها؛ وأخضعَت ساقيها وذراعيها لعمليات نزع الشعر المؤلمة على فترات مُنتَظَمة. ولكن كانت هناك عواملُ أخرى لم يتمكن هاري من التحكُّم فيها، جهودٌ كان على عروسه الجديدة أنْ تبذلها وحدها دون تلقّي أي عون. وقد بذلتها بت؛ ونجحت، بكل انضباط ونكران ذات راهبة مُكرَّسة، في اتِّباع حِمية طويلة فقدت معها خُمس وزنها خلال العام الأول من زواجهما، وهبط من قياس ١٥٥ الفضفاض إلى ١٢٦ النحيل. وتأثَّر هاري من المعارك التي خاضتها ذات الإرادة القوية غالاتيا[٤]، وبينما بت تتفتح وهي تخضع لعناية وأمان تحديق زوجها المُراقب، ازداد إعجاب كلٍّ منهما بالآخر ليتحول إلى

٤ - غالاتيا: في الميثولوجيا الإغريقية، هو تمثال الفتاة الذي أبدعه المثَّال بيغماليون ووقع في حبّه وصلّى لأفروديت كي تبثّ فيه الحياة، فاستجابت أفروديت لصلواته.

صداقة قوية، ودائمة. ولم يكن مولد فلورا في عام ١٩٦٩ نتيجة علاقة لليلة واحدة مُدبَّرة ؛ لقد كان هاري وبت يتضاجعان بقدرٍ كافٍ خلال السنوات الأولى من زواجهما ليجعلا أمر الحبل حتمياً تقريباً، ليُنجزا أمراً أولوياً. مَنْ مِن بين أصدقاء هاري كان يمكن أنْ يتوقع حدوث مثل ذلك التحوُّل؟ لقد تزوج بت لأنها وعدته بمنحه حريته، ولكن ما أنْ استقرّا معاً، حتى اكتشفَ أنه لم يعد لديه أدنى اهتمام بممارستها.

فتحت صالة الفنون أبوابها في شهر شباط من عام ١٩٦٨ . كانت كتحقيق حلمٍ طال انتظاره بالنسبة إلى هاري ذي الأربعة والثلاثين عاماً، وقد بذل كل ما في وسعه لينجح المشروع. لم تكن شيكاغو مركز الفن العالمي، ولكنها أيضاً لم تكن مكاناً نائياً منبوذاً، وكان هناك الكثير من الثروات في المدينة تنتظر الرجل الذكي كي يُغري بعضاً منها ليلج جيبه. وبعد فترة من التفكير العميق، قرّر أنْ يُسمّي معرضه الفني Dun-kel Fereres "الإخوة دنكل". لم يكن لهاري إخوة، لكنه شعر بأنَّ الاسم أضفى مسحة من العالم القديم على المشروع، مُلمِّحاً إلى تراث أسري طويل في مجال المتاجرة بالفن بيعاً وشراءً. وكما رأى الأمر، فإنّ اقتران الاسم الألماني بالصفة الفرنسية سوف يخلق بلبلةً آسرة، مُحبَّبة بصورة عامة، في أذهان زبائنه. بعضهم قد يعتبر المزج بين اللغتين يُشير إلى أنَّ له خلفية في منطقة الألزاس. وبعضهم الآخر قد يعتقد أنه ينحدر من أسرة ألمانية-يهودية هاجرت إلى فرنسا. وآخرون قد لا يفهمون منه شيئاً. لن يتيقَّن أحد من أصول هاري - وعندما يتمكن شخص من إشاعة الغموض حوله، تكون له دائماً اليد الطولى في تعامله مع الناس.

كان اختصاصه بأعمال الفنانين الشبان - لوحات، في الغالب، ولكن أيضاً تماثيل وقطع تُركَّب، بالإضافة إلى إجراء عدد من الأمسيات

التي كانت ما تزال رائجة في أواخر ستينيات القرن الماضي. كان المعرض يرعى قراءات للشعر وأمسيات موسيقية، ولأنَّ هاري كان مُهتماً بكل أشكال الجمال، لم تقتصِر صالة الإخوة دنكل على كونها موقِعاً جمالياً بالمعنى الضيِّق. كان هناك أسلوب البوب والأوب، والمُختصَر والتجريدي، وتشكيل من الرسوم والصور الفوتوغرافية، وفن الفيديو والتعبيرية الجديدة - ومع مرور السنين، عرضَ هاري وأخوه الشبح أعمالاً جسّدتْ كل منحى وميل في تلك الفترة. ومعظم العروض فشلتْ. وكان ذلك متوقَّعاً، ولكن الأشدّ خطراً على مستقبل المعرض كانت ارتداد عدد من الفنانين الحقيقيين الذي اكتشفهم هاري عن أساليبهم مع مرور الزمن. فقد كان يُعطي للفتى أو الفتاة فرصة انطلاقته الأولى، ويُعزِّز أعماله بحاسة تمييزه وبأسلوبه الفخم، ويجد له سوقاً، ويبدأ بجني الأرباح، ثم، بعد عرضَين أو ثلاثة، يشدّ الفنان منهم رِحاله إلى أحد معارض نيويورك. ذلك كان عيب الاستقرار في شيكاغو، وفهمَ هاري أن تلك الخطوة لابد لذوي الموهبة الحقيقية أنْ يتّخذوها.

لكنَّ هاري كان محظوظاً. ففي عام ١٩٧٦، دخل المعرض رسّام في الثلاثين مِن عمره اسمه أليك سميث مع حزمة من الشرائح المنزلقة. في ذلك اليوم كان هاري غائباً، ولكن عندما سلّمه موظف الاستقبال مظروفاً بعد ظهيرة اليوم التالي، وأزال الغلاف عن عدد من الصور الشفافة ورفعها أمام النافذة ليُلقي نظرة سريعة - دون أنْ يتوقَّع شيئاً متميزاً، واستعدَّ للشعور بالخيبة - أدركَ أنه ينظر إلى شيء عظيم. كان عمل سميث يتمتع بكل المزايا، الجرأة، واللون، والحيوية، والضوء. وتدوِّم الأشكال بضربات قاسية، سريعة من اللون، تتبخَّر بهدير برّاق من

المشاعر، بصراخ إنساني شديد عميق جداً، حقيقي جداً، ومتّقد جداً، حتى بدا كأنه يُعبّر عن الفرح واليأس معاً في وقت واحد. لم تكن اللوحات تشبه أيّ شيء رآه هاري من قبل، وكان التأثير الذي تركته عليه من القوة حتى إنّ يديه بدأتا ترتعشان. جلس، وأخذ يتفحّص الصور السبع والأربعين على طاولة خفيفة قابلة للحمل، ثم بادر على الفور بالاتصال هاتفياً بالمسمّى سميث ليُقيم له عرضاً.

خِلافاً للفنانين الشبان الآخرين الذين كان هاري قد دعمهم، لم يكن سميث يفكّر في نيويورك. كان عندئذٍ كان أمضى ستة أعوام هناك، ورفض أعماله كل معرض في المدينة، وعاد إلى شيكاغو مملوءاً بالمرارة وبالغضب، ويضطرب باحتقاره لعالم الفن ولكل مصّاصي الدماء، وناهبي المال فيه. أطلقَ عليه هاري لقب " العبقري الحقيقي "، ولكن على الرغم من طبيعة سميث الفظّة وأحياناً المُقاتلة، كان ذلك الجلف صاحب قلب كبير. لقد فهم معنى الولاء، وحالما حُبِسَ في حظيرة الأخوة دنكل، لم تعد لديه أي نيّة في محاولة الفرار. إنّ هاري هو الذي أنقذه من عالم النسيان، ولذلك سوف يبقى هاري مُروِج أعماله مدى الحياة.

كان هاري قد عثر على فنّانه الكبير الأول والوحيد، وعلى مدى السنوات الثماني التالية حلّتْ أعمال سميث مشاكل المعرض المالية كلها. وبعد نجاح معرض عام ١٩٧٦ (بيعت اللوحات السبع عشرة والرسوم الواحد والثلاثين مع نهاية الأسبوع الثاني)، أسرع سميث بمغادرة المدينة مع زوجته وابنه الصغير واشترى منزلاً في أوكساكا، في المكسيك. ومنذ ذلك الحين فصاعداً رفض الفنان التزحزح من مكانه، ولم يطأ أرض أميركا بعد ذلك - ولم يحضر حتى المعارض السنوية التي

أقيمت لأعماله في شيكاغو، ناهيك عن المعارض الاستعادية[5] في المتحف التي ازدادت في مختلف المدن في البلد مع تنامي صيته. فإذا أراد هاري أنْ يراه، كان عليه أنْ يطير إلى المكسيك - وكان يفعل ذلك على الأقلّ مرتين في العام - لكنهما كانا في الغالب يتواصلان بالرسائل المكتوبة وعبر الاتصالات الهاتفية. لم يشكّل ذلك أي مشكلة بالنسبة إلى مدير صالة الأخوة دنكل للمعارض. كان إنتاج سميث مُعجِزاً، وكل شهرين كان يصل صندوق جديد مملوء باللوحات والرسوم إلى الصالة في شيكاغو، لكي تُباع بمزيد من المبالغ العالية واللذيذة. كانت مهمة يسيرة مثالية، ولا ريب في أنه كان يمكن أنْ تستمر لعقودٍ من الزمن لو لم يملأ سميث جسمه بالتكيلا قبل حلول موعد عيد مولده الأربعين بثلاث ليال وقفز من فوق سطح منزله. أصرّتْ زوجته على أنها كانت مزحة انتهت نهاية خاطئة؛ وادّعت عشيقته أنه انتحار. وسواء كان هذا أم ذاك، فإنّ أليك سميث قد مات، وأوشك المدعو هاري دنكل على الانهيار.

ثم جاء فنان شاب اسمه غوردن دراير. كان هاري قد أقام له معرِضه الأول قبل وقوع كارثة سميث بستة أشهر - ليس لأنَّه انبهر بأعماله (وهي لوحات تجريدية قاسية وعقلانية أكثر مما ينبغي لم تبِع لوحة واحدة ولم تحظَ بمقال إيجابي واحد) بل لأنَّ دراير نفسه كان له حضور لا يُقاوَم، فقد كان شاباً في الثلاثين لا يبدو أنه يتجاوز الثامنة عشرة، ذا وجه أنثويّ رقيق، ويدين نحيلتين بيضاويَن بلون الرخام، وفم رغب هاري في تقبيله منذ اللحظة الأولى. وبعد ستة عشر عاماً من الحياة الزوجية مع

---

٥ - المعرض الاستعادي: معرض يعرض ما أبدعه الفنان خلال فترة معيَّنة من الزمن.

بت، استسلم مُستخدِم توم المُستقبلي أخيراً. ليس فقط لعلاقة قصيرة وسريعة، بل لثمالة لذيذة، كاملة، لحبٍ ملته غير مُحتَمَل. وسمح دراير الطموح، الشديد التوق لعرض أعماله في صالة الأخوة دنكل، لهاري ذي الخمسين عاماً بغوايته. أو ربما كان العكس بالعكس، وأنَّ درايـر كان هو الغاوي. وكيفما كان الأمر، وقع الحدث عندما ذهب صاحب الصالة إلى مُحتَرَف الفنان ليتفرَّج على أحدث إنتاجه من اللوحات. وسرعان ما خمَّنَ الرجل-الفتى الجميل نوايا هاري، وبعد عشرين دقيقة من الحديث التافه عن مزايا الحركة التصغيرية الهندسية، خرَّ بحركةٍ عَرَضيّة على ركبتيه وفكَّ فتحة سروال التاجر.

بعد الاستقبال الفاتر لمعرض درايـر، تضاعفت عمليات فكّ السروال، وسرعان ما أخذ هاري يتردَّد على مُحتَرَف الرسّام مرات عِدة في الأسبوع. وقلِقَ درايـر من أنْ يمحوه هاري من قائمة فنّانيه، ولم يكن يمتلك غير جسده ليُقدّمه كتعويض. وكانت بلوى هاري من الشدّة بحيث لم يفهم أنه كان يُستَغَل، ولكن حتى لو فهِمَ ذلك، ما كان هذا ليُشكّل فرقاً. ما أشدّ جنون القلب الإنساني ! وأبقى العلاقة الجسدية سراً على بت، ولأنَّ فلورا ذات الخمسة عشر ربيعاً كانت قد بدأتْ تُبدي أول دلائل إصابتها بحالة متقدّمة من انفصام الشخصية، كان يقضي أطول وقت ممكن مع أسرته حسب ما يسمح له برنامج أعماله. فترات بعد الظهيرة كانت مُخصصة لغوردن، ولكن في الليل كان ينسحب عائداً ليؤدي دوره كزوج وأبٍ مُطيع. ثم جاء خبر إعلان وفاة سميث لينزل عليه كالصاعقة، وبدأ هاري يشعر بالذعر. كان ما يزال هناك عدد من الأعمال ليبيعها، ولكن بعد ستة أشهر أو عام سوف ينفد مخزونه. فماذا حينئذٍ ؟ كانت

صالة الأخوة دنكل بالكاد انطلقتْ حتى في ظل تلك الظروف، وكانت بت قد أسرفتْ في الإنفاق على المكان بحيث لم يعُد في استطاعة هاري أنْ يلجأ إليها طلباً للعون. ومع الرحيل المفاجئ لسميث، كان من المتوقع للصالة أنْ تنهار. إذا لم يكن اليوم، فغداً، أو بعد غد. ذلك أنَّ الحقيقة كانت أنَّ هاري فشلَ في فهم مبادئ إدارة تلك التجارة. لقد عوَّل على سميث المُشاكس ليدعم أساليبه المتطرفة وانغماسه في الملذات (الحفلات والولائم المُبذّرة لمئتي شخص، والطائرات الخاصة والسيارات بسائقيها، والمقامرات الحمقاء على مواهب من الدرجة الثانية والثالثة، والرواتب الشهرية لفنانين لا تُباع أعمالهم)، لكنَّ الإوزة الذهبية غاصت كالبجعة في المكسيك، ومن الآن فصاعداً لا مزيد من البيض الذهبي.

حينئذٍ قدَّمَ درايز خطةً لإنقاذ هاري من مشاكله. لقد أدركَ أنه يمكن للمصّ والنيك أنْ يقوما بذلك، ولكن إذا استطاع حقاً أنْ يُصبح لا غِنى عنه، يمكن أنْ يُنقذ مسيرته المهنيّة كفنّان. وعلى الرغم من النزعة العقليّة الباردة تسود أَعماله، إلا أنَّ درايز كان يتمتع بمواهب فطرية هائلة كمُصمم وكرسّام بالألوان كان قد كبحها باسم الفن وندائه الذي يضع الحماسة والدقّة فوق أي شيء آخر. لقد كره نزعة سميث الرومانسية المتفجّرة، بإيماءاتها البهيجة واندفاعاتها البطولية الزائفة، ولكنَّ ذلك لم يعنِ أنه لم يكن يستطيع أنْ يقلّد الأسلوب لو شاء أنْ يفعل. فلِمَ لا يُبدع أعمال سميث بعد وفاة هذا الفنان؟ اللوحات والرسوم لأستاذٍ شابّ مات وهو في ذروته. طبعاً، كانت إقامة معرض عام عملية تنطوي على أخطار جمّة (سوف تسمع أرملة سميث بذلك وفي نهاية الأمر ستعلن زيفها)، ولكن في استطاعة هاري أنْ يبيع القطع من الغرفة الخلفية

للصالة إلى جامعي أعمال سميث المولعين بها، وما دامت فاليري سميث لا تعرف أي شيءٍ عن الأمر، سوف يدرّ التزييف ربحاً صافياً، كاملاً.

قاومَ هاري الفكرة في أول الأمر. كان يعلم أنّ غوردن قد وقعَ على فكرة لامعة، لكنّ الفكرة أخافته - ليس لأنه كان ضدها، بل لأنه لم يكن يعتقد أنّ الفتى يتمتّع بما يلزم ليقوم بالمهمة. وأي شيء أقلّ من كامل، من عمليات استنساخ مثالية لأعمال سميث قد يودي به إلى السجن. استخفّ دراير بذلك، متظاهراً بأنها مجرد فكرة عابرة، وانتقل إلى الحديث عن شيء آخر. وبعد ذلك بخمسة أيام، عندما عاد إلى المُحتَرَف في إحدى زياراته بعد الظهيرة، كشفَ دراير النقاب عن أولى لوحاته على طريقة أليك سميث الأصلي، واضطرّ تاجر اللوحات الذي استولت عليه الدهشة إلى الاعتراف بأنه قد استخفّ بقدرات الشاب الذي يرعاه. لقد أعاد دراير اكتشاف نفسه كبديلٍ مُطابِق لسميث، مزيلاً كل أثر لشخصيته لكي يلجَ عقل وقلب رجلٍ ميت. كان تحوُّلاً مسرحيّاً هائلاً، عملاً من أعمال السِحر وعِلم النفس أثار الرعب والرهبة في عقل المسكين هاري. ودراير لم يُستخرج فقط نسخة مُطابِقة من مظهر وإحساس إحدى لوحات سميث، ناسخاً ضربات سكين المزج الخشنة، والتلوين الكثيف، والقطرات العشوائية، المتفرّقة، بل نقلَ سميث أبعد قليلاً مما وصل إليه سميث نفسه. كان يمثل ***مرحلة الرسم التالية*** عند سميث، كما أدركَ هاري، المرحلة التي كان يمكن أنْ يبدأ بها في صباح الثاني عشر من شهر كانون ثاني لو لم يقفز من سطح منزله ويموت ليل يوم الحادي عشر.

على امتداد الأشهر الستة التالية، أنتجَ دراير سبعاً وعشرين لوحة أخرى، إلى جانب عدد كبير من الرسوم التخطيطية بالحبر وبالفحم. ثم،

ببطٍ شديد وبانتظام، حاشداً حماسته بضبطٍ شديد للنفس ليس من شيمه، بدأ هاري بإرسال اللوحات الزائفة إلى مختلف أنواع جامعي اللوحات في العالم. استمرَّتْ اللعبة أكثر من عام، تمَّ التخلُّص خلاله من عشرين لوحة، حصدت ربحاً اقتربَ من مليونيّ دولار. ولأنَّ هاري كان في الواجهة - ولذلك كان هو المُعرَّض لدمار سمعته - وافق المزيّفون على نسبة سبعين إلى ثلاثين. وبعد مرور خمسة عشر عاماً، عندما أفضى هاري باعترافه لتوم على مائدة العشاء في بروكلن، وصفَ تلك الأشهر بأنها أشد فترات حياته انتعاشاً ورهبة. لقد وقع في فخ حالة من الخوف المستمر، كما قال، ولكن على الرغم من الرعب، على الرغم من اعتقاده بأنهم سيقبضون عليه حتماً، كان سعيداً، كما لم يسعد مرة من قبل. وفي كل مرة نجح في بيع لوحة زائفة أخرى لسميث إلى مدير تنفيذي ياباني لأحد الاتحادات أو تاجر عقارات أرجنتيني، يكاد قلبه المُرهق، وهو يخفق بقوة، يقفز مجتازاً سبعة وأربعين طوقاً من الفرح.

في ربيع عام ١٩٨٦، باعت فاليري سميث منزلها في أوكساكا وعادت إلى الولايات المتحدة مع أولادها الثلاثة. وعلى الرغم من زواجها العاصِف، المُتسّم بالعنف غالباً من سميث العابث، كانت دائماً المدافعة الصلبة عن أعماله، وكانت تعرف جيداً كل لوحة رسمها منذ أوائل عشرينيات عمره وحتى مماته في عام ١٩٨٤ . وبعد المعرض الابتدائي في صالة عقدا صداقة مع جرّاح تجميل اسمه أندرو ليفيت، وكان جامع لوحات ثرياً اشترى لوحتين من هاري في عام ١٩٧٦ وفي الوقت الذي انتقلت فيه فاليري لتتناول طعام العشاء في منزله في هايلاند بارك بعد ذلك بعشر سنوات كان قد جمعَ ما مجموعه أربع عشرة

لوحة لسميث. كيف كان يمكن لهاري أنْ يعرف أنها ستعود إلى شيكاغو؟ كيف كان يمكن له أنْ يعرف أنَّ ليفيت سيدعوها إلى منزله - ليفيت نفسه الذي كان قد باعه لوحه زائفة لسميث بارعة التنفيذ قبل ذلك بثلاثة أشهر؟ ولا داعي للقول إنَّ الطبيب الثري كان يُشير بفخر إلى لوحته التي اشتراها حديثاً والمُعلّقة على جدار الغرفة، ولا داعي للقول إنَّ الأرملة المتبصّرة أدركت زيف اللوحة على الفور. لم تكن قد أحبت هاري يوماً، لكنها كانت دائماً ترتابُ فيه لصالح أليك، لعِلمها أنَّ مدير صالة الأخوة دنكل هو المسؤول الرئيسي عن التحوُّل الذي طرأ على مسيرة زوجها المهنية. لكنَّ الآن بعد أنْ مات زوجها، وهاري آيل إلى الانهيار، خرجت فاليري دنتون سميث الغاضبة لتدمِّره.

أنكرَ هاري كل شيء. ولكن بوجود سبع من اللوحات الزائفة في مخزن الصالة، لم يكن صعباً على الشرطة أنْ تدينه. واستمر في ادّعاء الجهل، ثم عجَّلَ غوردن بمغادرة المدينة، وفي ظل تلك الخيانة، فقَدَ هاري شجاعته كلها. وفي لحظة يأس ورثاء الذات، انهار أخيراً وأخبر بت الحقيقة. غلطة أخرى، حركة خاطئة أخرى في صف طويل من العثرات والأحكام الخاطئة. وللمرة الأولى بعد سنين طويلة من معرفته بها، انفجرت في وجهه غاضبة - في تقريعٍ مُطوَّل تضمَّنَ كلمات مثل ***مريض، طمّاع، مُقرِف، و منحرف***. وسرعان ما اعتذرتْ بت، لكنَّ الأذى كان قد وقع، وعلى الرغم من أنها خرجت ووكَّلتْ أحد أبرع المحامين في المدينة لكي يُدافع عنه، أدركَ هاري أنَّ حياته قد دُمِّرتْ. استمر التحقيق على امتداد عشرة أشهر، في تجميع بطيء للأدلة أُخِذتْ من أماكن بعيدة كنيويورك وسياتل، وأمستردام وطوكيو، ولندن وبوينس أيريس، ثم اتُّهم

محامي منطقة مقاطعة كوك هاري بتسع وثلاثين عملية تزييف. وأبرزت الصحافة الخبر في عناوينها الرئيسة. كان هاري يتوقع الحكم عليه بالسجن بما يتراوح بين العشر سنوات والخمس عشرة سنة إذا خسر قضيته في المحكمة. ونزولاً عند نصيحة محاميه، آثر الاعتراف بذنبه، ثم، لكي يُخفِّف عنه الحُكم أكثر، ورّطَ غوردن دراير في عملية التزوير، مؤكّداً أنَّ عملية التزوير كانت فكرته هو منذ البداية وأنَّه (أي هاري) أُجبِرَ على الاشتراك في الجريمة وذلك عندما أقسم دراير على أنْ يفضح العلاقة التي بينهما. كانت جائزة هذا التعاون حُكماً أقصى مقداره خمس سنوات، مع ضمان بتخفيض المدة لحُسن السير والسلوك. وانطلقَ رجال المباحث في إثر غوردن حتى نيويورك وقبضوا عليه في حفل ليلة عيد الميلاد في حانة شارع كريستوفر، بُعيد بدء عام ١٩٨٨ ببضع دقائق. وهو أيضاً اعترفَ بذنبه، ولكن دون أنْ يذكر أسماءً ودون عقد صفقات، ونال عشيق هاري السابق حُكماً بالسجن سبعة أعوام.

لكنَّ الأسوأ لم يكن قد حلَّ بعد. فبينما هاري يستعد للذهاب إلى السجن، نجحَ العجوز دومبروسكي أخيراً في إقناع بت بعد جهد بطلب الطلاق رسمياً. استخدم تكتيك الترهيب نفسه الذي استخدمه في الماضي - التهديد بحرمانها من ميراثه، والتهديد بقطع مُخصّصها - ولكن في هذه المرة كان جاداً. لم تعُد بت تحب هاري، ولكنها أيضاً لم تكن تنوي أنْ تتخلّى عنه. وعلى الرغم من الفضيحة، على الرغم من العار الذي جلبه إلى نفسه، لم يخطر في بالها مرة أنْ تُنهي زواجهما. المشكلة كانت فلورا. كانت توشك أنْ تبلغ سن التاسعة عشرة، وقد ولجت وخرجت حتى الآن من اثنتين من مستشفيات الخاصة للأمراض العقلية،

والأمل في استعادة ولو جزء من عقلها معدوم. ومثل هذا النوع من الرعاية يتطلّب تكاليف تسبب الدوار، مبالغ تصل حتى مئة ألف دولار في كل مرة تلجأ إليها. وإذا خسرت بت معاش أبيها الشهري، لن يبقى بديل غير أنْ ترسل ابنتها إلى مؤسسة حكومية عندما تنهار في المرة التالية - هذه الفكرة رفضت ببساطة أنْ تقبلها. وتفهَّمَ هاري مأزقها، ولأنه لم يكن لديه هو حل، بارك على مضض الطلاق، وهو يُقسِم طوال الوقت على أنه سيقتل والدها حالما يُطلق سراحه من السجن.

وأصبح فقيراً مُعدماً، مُحكوماً عليه لا يحتكمُ على بنسٍ واحد وبلا أي مصدر رزق أو خطة للعيش، وبعد أنْ تنقضي مدة عقوبته في جوليت، سوف يكون مُعرّضاً للرياح الأربع كحفنة من تراب. والغريب في الأمر، أنَّ صِهره الذي كان يكرهه كل الكره هو الذي تقدَّم وأنقذه - ولكن كل شيء بثمنه، ثمن قاس، صارم، لم يبرأ هاري قط من شعوره بالخزي والاشمئزاز عندما قبِلَ عرض الرجل العجوز. لكنه قبِل. كان من فرط الضعف بحيث يرفض، ومن فرط الذعر بشأن المستقبل بحيث لا يقبل، ولكن حالما وضعَ توقيعه على العقد، أدركَ أنه وقّع على بيع روحه وأنه أصبحَ ملعوناً إلى الأبد.

كان قد مكث في السجن نحو السنتين، ولم تكن شروط دومبروفسكي أسهل منه. كان من المفترض بهاري أنْ ينتقل إلى جزءٍ آخر من البلد، وفي مقابل مقدار كافٍ من المال يبدأ به عملاً جديداً، سوف يوافق على ألا يعود إلى شيكاغو وألا يتّصل ببت أو فلورا بعد ذلك. لقد اعتبر دومبروفسكي هاري إنساناً منحطاً أخلاقياً، مِثالاً لنوع ثانوي متعضٍ من المخلوقات المنحطّة لم تتأهل لترتقي إلى مصاف الكائنات

البشرية، واعتبره مسؤولاً شخصياً عن مرض فلورا. لقد أصيبت بالجنون لأنَّ هاري تسبب في حَبَل بت بحيواناته المنوية المريضة، المشوّهة، والآن وقد برهن على أنه مُزيِّف ومجرم، سوف يُحكَم عليه بحياة ما بعد السجن، من العوز والألم إلا إذا تخلّى عن كل حقوقه كأب. وتخلّى هاري. استسلم لمطالب دومبروفسكي البشعة، وبعد اتفاقية الاستسلام تلك أصبح ممكناً بالنسبة إليه أنْ يبدأ حياة جديدة. وانتقى بروكلن لأنَّها كانت في نيويورك وليست في نيويورك، وفُرص الالتقاء مُصادفة بأي من زملاء عالم الفن القديم تكاد تكون معدومة. وكان هناك محل لبيع الكتب معروض للبيع في الجادة السابعة في بارك سلوب، وعلى الرغم من أنَّ هاري لم يكن يعرف أي شيء عن تجارة الكتب، أعجبه المحل بوصفه يصلح لبيع الطُرَف والعاديات. اشترى له دومبروفسكي البناء بطوابقه الأربعة، وفي شهر حزيران من عام ١٩٩١ ولِدَ محل برايتمنز أتيك.

عند هذه النقطة كان هاري يبكي، كما قال توم، وخلال ما تبقّى من العشاء تكلَّمَ عن فلورا، مُتذكّراً اليوم الأخير المُعذّب الذي أمضاه معها قبل أنْ يذهب إلى السجن. كانت تمر بإحدى نوبات الجنون، تدور في نوبة من الانفعال التي أودتْ بها في نهاية المطاف إلى المستشفى للمرة الثالثة. لكنها كانت ما تزال صافية الذهن بما يكفي لتتعرّف إلى هاري والدها وتتحدث معه بجُملٍ مُقنعة. وكانت، بطريقة أو بأخرى، قد حصلت على مجموعة من الإحصاءات عن عدد الأشخاص في العالم الذين يولَدون ويموتون في كل لحظة في يومٍ واحد. كانت الأرقام مذهلة، لكنَّ فلورا كانت دائماً بارعة في الرياضيات، وسرعان ما رتّبت الأرقام الإجمالية ضمن مجموعات من عشر : عشرة مواليد كل إحدى وأربعين

ثانية، عشرة وفيات كل ثمان وخمسين ثانية (أو كائناً ما كانت الأرقام).
تلك كانت حقيقة العالم، هذا ما أخبرت به والدها على مائدة الإفطار في صباح ذلك اليوم، ولكي تُحيط بتلك الحقيقة، قررّتْ أنْ تقضي النهار جالسة على الكرسي الهزّاز في غرفتها، تهتفُ بكلمة *ابتهجوا* كل إحدى وأربعين ثانية وبكلمة *احزنوا* كل ثمان وخمسين ثانية لكي تعلن عن مرور عشرة أرواح راحلة وتحتفي بوصول العشرة المولودين حديثاً.

لقد تحطم قلب هاري مرات عديدة، أما الآن فلم يعُد أكثر من ركام من الرماد يملأ ثقباً في صدره. وفي اليوم الأخير من حريته، أمضى اثني عشرة ساعة جالساً على سرير ابنته يُراقبُها وهي تهتز إلى الأمام والخلف على الكرسي وتهتف على التوالي بكلمتي ابتهجوا واحزنوا وهي تتابع قوس مؤشّر الثواني الذي يتحرّك بثبات حول قرص ساعة المُنبّه بجوارها على الطاولة.
هتفت " ابتهجوا ! ابتهجوا من أجل العشرة الذين وُلدوا، الذين سيولدون، الذين يولدون كل إحدى وأربعين ثانية. ابتهجوا لأجلهم ولا تتوقفوا. ابتهجوا بلا توقّف، لأنه أمر مؤكّد، لأنه أمر حقيقيّ، ولأنه لا يرقى إليه الشك : عشرة أشخاص يعيشون ولم يكونوا كذلك من قبل. فابتهجوا! ".

ثم نظرت إلى عينيّ والدها، وهي تقبض على ذراعيّ الكرسي بقوة لتُسرِّع من وقع الاهتزاز، وصرخت : " احزنوا ! احزنوا على العشرة الذين اختفوا. احزنوا على العشرة الذين لم يعودوا على قيد الحياة، الذين بدؤوا رحلتهم داخل المجهول اللا متناهي. احزنوا إلى الأبد على الموتى. احزنوا على الرجال والنساء الذين كانوا طيّبين. احزنوا على العجائز الذين خذلتهم أجسادهم. احزنوا على الشبّان الذين ماتوا قبل أوانهم. احزنوا على عالمٍ يسمحُ للموت باختطافنا من العالم. احزنوا ! "

عن الأوغاد

قبل أنْ ألتقي مُصادفةً بتوم في محل برايتمنز أتيك، لا أعتقد أني كنتُ قد تحدّثتُ مع هاري أكثر من مرتين أو ثلاث - وكانت مجرّد أحاديث عابرة، وجيزة، روتينية. وبعد أنْ أصغيتُ إلى حكاية توم عن ماضي رئيسه، وجدتني راغباً في معرفة المزيد عن شخصيته الفريدة، في مقابلة الوغد وجهاً لوجه ومراقبته أثناء عمله بعينيّ. قال توم إنه يُسعده أنْ يُعرّفني عليه، وهكذا حالما فرغنا من تناول وجبة الساعتين في مطعم كوزميك، قرّرتُ أنْ أرافق قريبي ونعود إلى المحل وأُحقق رغبتي بعد ظهيرة ذلك اليوم. دفعتُ قيمة الشيك عند المُحاسب الأمامي، ثم رجعتُ إلى طاولتي وتركتُ عليها ورقة بقيمة عشرين دولاراً كإكرامية لمارينا. كان مبلغاً كبيراً بصورة تدعو إلى السخرية - يُعادل ضعف كلفة وجبة الغداء نفسها تقريباً - ولكن لم آبه. رسمت ضربات قلبي ابتسامةَ شُكرٍ متألقة على ثغري، وأبهجَ روحي مرأى سعادتها حتى إني قرّرت في التو واللحظة أنْ أتّصل براشيل في ذلك اليوم وأنقل إليها الخبر الذين يقول إنَّ قريبها الذي ضاع قبل زمن بعيد قد تم العثور عليه. وبعد أنْ قامت بزيارتها الكئيبة، المُثيرة للجدل لشقّتي في أوائل شهر نيسان، كنتُ لا أزال موضوعاً على لائحة ابنتي السوداء، أما الآن بعد أنْ عدتُ للاتصال

بتوم، بعد أنْ أرسلتْ مارينا غونزاليس المبتسمة قُبلة عبر الأثير وأنا أشقُّ طريقي إلى خارج المطعم، أردتُ أنْ يكون كل شيء في العالم على ما يُرام. كنتُ قد اتصلتُ براشيل مرة لأعتذر لأني خاطبتها بأسلوبٍ شديد الفظاظة، لكنها أغلقت الخط في وجهي بعد ثلاثين ثانية. والآن أودّ أنْ أتصل بها ثانية، وفي هذه المرة لن أتوقف عن التذلُّل إلى أنْ يصفو الجو أخيراً بيننا.

كان محل بيع الكتب لا يبعد كثيراً عن المطعم، وبينما أنا وتوم نتمشّى على طول الجادة السابعة بعد ظهيرة رقيقة من أحد أيام شهر أيار، تابعنا الحديث عن هاري، الشهير سابقاً باسم دنكل في محل الأخوة دنكل، الذي فرَّ من غابةِ ذاته المُظلمة لكي يشرق كالشمس البرّاقة في قُبّةِ سماءِ النفاق.

قلتُ " لطالما كنتُ ضعيفاً أمام الأوغاد. لعلهم لا يصلحون أصدقاء يُعتَمَد عليهم، ولكن فكِّرْ كم ستكون الحياة مملة دونهم "

أجاب توم " لستُ متأكداً من أنَّ هاري ما زال وغداً. إنه نادم شديد الندم "

" ذيل الكلب لا ينعدل. الناس لا يتغيرون "

" هذه وِجهة نظر. أنا أقول إنهم يتغيرون "

" أنتَ لم تعمل في مجال التأمين. إنَّ الشغف بالخِداع عالميّ، يا بُنيّ، وما أنْ يتذوّق المرء طعمه، لا يستطيع أنْ يتخلّص منه. المال السهل – ليس هناك إغواء أكبر منه. فكِّرْ في كل المغرورين والحوادث التي يرتكبونها بسياراتهم الاستعراضية ومُدّعي الأذى الشخصي، والتجّار

الذين يحرقون مخازنهم ومستودعاتهم، والذين يزيّفون وفاتهم. لقد شهدت مثل هذه الأمور على مدى ثلاثين عاماً، ولم أملّ منها. إنه الاستعراض العظيم للخداع الإنساني. إنه يأتيك من كل جانب، وسواء أعجبكَ أم لم يُعجبك، فهو أشد الاستعراضات إمتاعاً في المدينة".

أصدرَ توم صوتاً وجيزاً، دفقاً من الهواء يقع ما بين الضحك المكبوت والتجشّؤ. " أحب سماعك وأنتَ تنفث هراءك، يا ناثان. لم أدرك هذا من قبل، ولكني اشتقتُ إليه. اشتقتُ إليه كثيراً ".

قلتُ " أنت تعتقد أني أمزح، لكني أقولها صريحة لك. إنها عُصارة حِكمتي. بضعة مؤشرات بعد حياةٍ طويلة من الكدّ في خنادق التجربة. إنَّ المحتالين والمُخادعين هم الذين يُديرون العالم. الأوغاد يسودون. أتعلم لماذا؟"

" أخبرني، يا أستاذ. كلي آذان صاغية "

" لأنهم أشدّ نهماً منا. لأنهم يعرفون ماذا يُريدون. لأنهم يؤمنون بالحياة أكثر منا "

" تكلّم عن نفسك، يا سقراط. لو لم أكن شديد النهم طوال الوقت، لما حملتُ معي هذه الأحشاء الكبيرة "

" أنتَ تحب الحياة، يا توم، لكنكَ لا تؤمن بها. ولا أنا أفعل "

" لقد بدأتَ تفقدني"

" فكِّرْ في يعقوب وعيساو[٦]. أتذكرهما؟ "

---

٦ – في الكتاب المقدس ، العهد القديم : يعقوب وعيساو ابنا إسحق ، الأخوان التوأم ، الأخوان العدوّان . عيساو كان صياداً ماهراً ، ويعقوب كان هادئ الطبع ، ولهذا فضَّلَ إسحق عيساو على يعقوب ، لكنَّ أمهما ريبيكا فضّلتْ يعقوب .

" أه. حسن. الآن بدأت تقول كلاماً له معنى "

" إنها قصة فظيعة، أليست كذلك؟"

" نعم، هي فظيعة فعلاً. وأنا طفل كانت دائماً تُسبّب لي الاضطراب. حينئذٍ كنتُ مخلوقاً صغيراً أخلاقياً ومستقيماً. فلم أكذب قط، ولا سرقت، ولا غششت، ولم أتفوّه بأي كلمة فظّة لأي إنسان. وها هو عيساو، ساذج يطفر مرحاً مثلي. وكان ينبغي أنْ يحظى ببركات أبيه اسحق. لكنَّ يعقوب خدعه وانتزعها منه - بمساعدة أمه، ولا أقلّ "

" والأسوأ من ذلك، أنَّ الله يبدو أنه يوافق على ذلك الترتيب. فالخائن، المُخادِع يعقوب يتطور ويُصبح قائد اليهود، وعيساو يُترَك وسط البرد، نكِرةً حقيراً، ومنسياً "

" كانت أمي دائماً تعلّمني أنْ أكون طيباً. كانت تقول لي، " الله يريد منكَ أنْ تكون طيباً "، وأنا كنتُ ما أزال صغيراً أؤمن بالله، وصدَّقتُ ما قالت. ثم صادفتُ تلك القصة في الكتاب المقدَّس، ولم أعد أفهم شيئاً. الشرير يفوز، والله لا يُعاقبه. لم يبدُ لي ذلك صحيحاً. وما زال لا يبدو صحيحاً "

" طبعاً صحيح. لقد كان في يعقوب شرارة الحياة، وكان عيساو غبيًّاً. طيباً، نعم، ولكن غبيّ. إذا أردتَ أنْ تنتقي أحدهما ليقود شعبك، فسوف تريد المُحارب، الداهية والذكي، ذا القدرة على قهر الظروف ليتبوأ القمة. سوف تختار القويّ والماهر وتفضّله على الضعيف والطيب"

" هذه وحشية، يا ناثان. تقدَّم بنقاشك خطوة نحو الأمام، والشيء التالي الذي ستقوله لي هو أنَّ ستالين يجب أنْ يوقَّر كرجلٍ عظيم "

" ستالين سفّاح، مجرم مجنون. أنا أتحدث عن غريزة البقاء، يا توم، عن إرادة الحياة. أعطني وغداً مُخادعاً في كل يوم من الأسبوع وسوف أفضّله على الواهن الورع. قد لا يكون مُنتظماً، ولكنه يتمتع بالحيوية والعزم. وعندما تعثر على رجلٍ ذي حيوية وعزم، فسوف يبقى هناك أمل للعالم "

بشحمه ولحمه

عندما اقتربنا من المحل، تبدّى لي فجأةً أنّ زيارة فلورا لبروكلن تعني أنّ هاري كان لا يزال على اتّصال بزوجته السابقة وبابنته – وهذا خرق سافر للعقد الموقّع بينه وبين دومبروفسكي. وإذا كان الأمر كذلك، لماذا لم ينقضّ عليه الرجل العجوز ويُطالبُ باسترداد صك ملكية البناء الكائن في الجادّة السابعة ؟ وحسب فهمي للصفقة المعقودة بينهما، فإنّ هذا جدير بأنْ يكون مُبرراً لوالد بت كي يستحوذ على محل برايتمنز أتيك ويوجّه لطمة قوية إلى هاري. سألتُ توم، هل فاتني شيء، أم أنّ هناك تفصيلاً آخر نسيَ أنْ يُضيفه إلى القصة التي حكاها لي ؟

كلا، لم يترك توم أي شيء. لم يعُد العقد ساري المفعول لسببٍ بسيط هو أنّ دومبروفسكي قد مات.

سألتُ " هل مات لأسباب طبيعية، أم أنّ هاري قتله؟ "

قال توم " دمك خفيف "

" أنتَ الذي أثار الموضوع، لا أنا. أتذكُر ؟ قلتَ إنّ هاري أقسمَ على أنْ يقتل دومبروفسكي حالما يخرج من السجن "

" إنّ الناس يقولون أشياء كثيرة، ولكن هذا لا يعني أنّ لديهم أي نيّة في تنفيذها. لقد توفي دومبروفسكي قبل ثلاث سنوات. كان في الحادية والتسعين من العمر، ومات متأثّراً بسكتة دماغيّة "

" وِفقاً لرواية هاري "

ضحك توم على الملاحظة، ولكن في الوقت نفسه أحسستُ بأنه أصبح ينزعج أكثر من نبرة كلامي المازح، الساخر. " كفى، ناثان. نعم، وِفقاً لهاري. كل شيء يحدث وِفقاً لهاري. أنتَ تعلم هذا كما أعلم "

" لا تشعر بالذنب، توم. لن أخونك "

" تخونني ؟ عمَّ تتحدث ؟ "

" أنتَ نادم لأنكَ أطلعتني على أسرار هاري. لقد ائتمنكَ على قصته، وها أنت الآن قد خنتَ تلك الأمانة بحكايتها لي. لا تقلق، يا صاحبي. أنا ربما أتصرف كالحمار أحياناً، لكنِّي أمين على الأسرار. أفهمت ؟ أنا لا أعرف أيّ شيء لعين عن هاري دنكل. الشخص الوحيد الذي سأصافحه وأشدّ على يده بقوة هذا اليوم هو هاري برايتمن ".

وجدناه في غرفة مكتبه في الطابق الثاني، جالساً خلف طاولة مكتب كبيرة من الماهوغاني يتحدث مع شخصٍ عبر الهاتف. كان يرتدي سترةً من المخمل القرمزي، كما أذكر، مع منديلٍ من الحرير المتعدد الألوان تبرز من الجيب الأمامي إلى اليسار. كان المحتال يُشبه زهرة استوائية نادرة، أو إزهاراً يخطفُ البصر على الفور وسط المحيط البُني- الرمادي للغرفة المكسوة جدرانها بالكتب. وتفوتني الآن بعض التفاصيل الأخرى المتعلقة بالخياطة، لكني لم أكن مُهتماً بملابس هاري بقدر اهتمامي بتفحُّص وجهه بفكّيه العريضَين، وبعينيه الزرقاوين، الجاحظتين، والشديدتيّ الاستدارة، والتكوين الغريب لأسنانه العليا - التي كانت تنفرِش نحو الخارج بصورة توحي بوجهٍ من القرع[7]، تفصِلُ بينها فراغات صغيرة. وقرّرتُ أنه رجل غريب وضئيل وذو رأسٍ يُشبه

---

٧ - وجه من القرع ، يُصنَع عادة في عيد البربارة ، أو الهالوين . - المترجم

ثمرة اليقطين، أو نقّار خشب بيدين وأصابع خالية تماماً من الشَعر، وحده صوته، ذو طبقة الباريتون الرنّانة والناعمة، كان يُخفِّف قليلاً من سلوكه العام المغرق في الأناقة المتكلّفة.

بينما أنا أصغي إلى ذلك الصوت يتكلّم عبر الهاتف، لوَّحَ هاري بيده مُرحِّباً بتوم، ثم رفعَ سبّابته في الهواء، يُخبره بلا كلام بأنه سينضم إليه في غضون دقيقة. فاته سماع موضوع المحادثة، لأنَّ برايتمن كان كلامه أقلّ من كلام مُحادثِه الخفيّ، لكني فهمتُ أنه يُناقشُ مسألة بيع طبعة كتاب الأولى من القرن التاسع عشر مع أحد الزبائن أو مع زميل في تجارة الكتب. لكنَّ عنوان العمل لم يُذكَر، وسرعان ما شردتْ أفكاري. ولكي أشغِل نفسي، رحتُ أتجول في أرجاء الغرفة مُتفحّصاً الكتب على الرفوف. وبتقديري التقريبي، بدا أنَّ هناك نحو سبعمئة أو ثمانمئة مجلد في تلك المساحة المُرتّبة بأناقة، بأعمال تتراوح بين القديم جداً (ديكنز وثاكراي) والحديث نسبياً (فوكنر وغاديس Gaddis). والكتب الأكثر عتقاً كانت في مُعظمها مُغلّفة بالجلد المدبوغ، في حين أنَّ المُعاصرة منها كلها لها أغلفة شفّافة واقية تُحيط بغلافها الخارجي المُغبرّ. ومقارنةً بتشويش الطابق السفلي من المحل وفوضاه، كان الطابق العلوي جنةً من السكينة والنظام، والقيمة الإجمالية للمجموعة كلها لابد أنها تصل إلى رقم ضخم من ستة أرقام. وبالنسبة إلى الرجل الذي لم يكن لديه وعاء ليتبولَ فيه قبل أقل من عقد من الزمان، لقد تحسّنت أوضاع السيد دنكل كثيراً، بل كثيراً جداً.

انتهت المحادثة الهاتفية، وعندما قدّمني إليه، نهضَ هاري برايتمن واقفاً عن كرسيه وشدّ على يدي، بود تام، كاشفاً عن أسنان رأس القرع المشرقة بابتسامة مُرحِّبة، مِثالاً تاماً للّباقة وحُسن السلوك.

قال " أه، الخال نات الشهير. كثيراً ما تحدث توم عنك "

قلتُ "أنا فقط نات الآن. لقد أسقطنا لقب خال قبل بضع ساعات "

أجاب هاري، وهو يحكّ حاجبيه في حركة تُحاكي الإحساس بالذعر، " ***فقط ناثان***، أو ***ناثان*** بتجرُّد وبساطة؟ أنا مُشوّش قليلاً "

قلت " ناثان. ناثان غلاس "

ضغط هاري إصبعه على ذقنه، مُتخذاً وضعية رجل غارق في التفكير. " شيء مُثير للاهتمام. توم وود وناثان غلاس. وود وغلاس. إذا غيّرتُ اسمي إلى ستيل، نستطيع أنْ نفتتح شركة للبناء ونسميها شركة وود، غلاس وستيل[8]. ها ها. يُعجبني هذا. وود، غلاس وستيل. ***إذا أردتها، نبنيها لك*** "

قلت " أو يمكن أنْ أغيِّر اسمي إلى ديك، ويُطلق الناس علينا شركة توم، ديك وهاري[9] "

قال هاري، متظاهراً بأنه شعر بالإهانة لاستعمالي اسم ديك[10]، "في المجتمع المُهذَّب لا يُستَعمَل اسم ديك. بل يقولون ***العضو الذكَري***. وعند الحاجة يكون تعبير ***قضيب*** الحيادي مقبولاً. أما ***ديك*** فلا ينفع، يا ناثان. إنه شديد السوقيّة "

التفتُّ إلى توم وقلت " لابد أنَّ العمل مع رجلٍ كهذا ممتع "

أجاب توم " دون لحظة ملل. إنه برميل أصيل من القرِدة "

كشّرَ هاري، ثم رمى توم بنظرة حب سريعة. قال " نعم، نعم. إنَّ مجال الأعمال مُسلٍ جداً، وتؤلمنا بطوننا من كثرة الضحك. وأنت، ناثان،

---

٨ – وود وغلاس وستيل : وتعني حرفياً : خشب وزجاج وفولاذ .

٩ – " توم ، ديك وهاري " عبارة بالإنكليزية تعني بالعاميّ : كل مَنْ هبّ ودبّ .

١٠ – ديك : اسم علم ، ويعني أيضاً قضيب الرجل .

في أي مجال تعمل ؟ كلا، أسحبُ سؤالي. لقد سبقَ لتوم أنْ أخبرني. أنتَ بائع بوالص تأمين "

قلت " بائع بوالص تأمين سابق. لقد تقاعدتُ باكراً "

قال هاري، متنهداً بكآبة، " سابق آخر. عندما يصل الرجل إلى مثل سننا، يا ناثان، يُصبح أكثر من سلسلة من الأشياء السابقة. N'est-ce pas ? (أليس كذلك ؟) في حالتي، يمكنني أنْ أكرّ عدداً كبيراً منها. فأنا زوج سابق، وتاجر سابق، وجندي سابق في سلاح البحرية، وموضِّب واجهات سابق، وبائع عطور سابق، ومليونير سابق، ومقيم سابق في بوفالو، ومقيم سابق في شيكاغو، ومحكوم سابق. نعم، نعم، كما سمعت. محكوم سابق. كان لديَّ مشاكلي على درب الحياة، كغالبية الرجال. لا أخشى الاعتراف بهذا. إنَّ توم يعرف ماضيّ كله، وأريدك أنْ تعرف أنت أيضاً كل ما يعرفه توم. وتوم هو بديل أسرتي، وبما أنكَ صديق توم، فأنتَ من أسرتي أيضاً. أنتَ، أيها الخال نات سابقاً، الذي تُعرَف الآن باسم ناثان، بتجرُّد وبساطة. لقد سدّدتُ دَيني للمجتمع، وضميري مرتاح. إنَّ المكان موسوم بإشارة سابق، يا صديقي. من الآن وإلى الأبد، المكان موسوم بإشارة سابق ".

لم أكن أتوقَّعُ من هاري أنْ يُصرِّح بمثل ذلك الاعتراف المجرَّد بالذنب. كان توم قد حذّرني من أنَّ رئيسه رجل مُترع بالتناقضات والمفاجآت، ولكن في سياق مثل ذلك الحديث الهزلي والصعب، وجدتُ أنَّ من المُحيِّر أنْ يرى من المناسب أنْ يُفضي بسرِّه إلى شخصٍ غريب تماماً. لعلَّ الأمر يتعلّق باعترافه قبل ذلك لتوم، كما رأيت. لقد وجد الشجاعة الكافية لكي يُخرِجَ القطة من الحقيبة، إنْ صحَّ التعبير، وبما أنه

كـان قـد فـعـل ذلك مـرةً، فلعلّ لم يعُد من الـصـعب عليـه أنْ يفـعله مـرة ثانيـة. لم أكن متـأكّداً، ولكن حاليـاً بدا أنه الافـتـراض الوحيـد المعقـول. كنتُ أودّ لو أتـفكّر مـدة أطول في المسـألة، لـكنّ الظروف لم تـسـمح. واسـتـمـرّ الحديث يزداد زخـمـاً، ومملوء بالملاحظات السـخـيـفـة نفـسـهـا، والطُرَف المُضحكة نفسها، والنكات الحمقاء والقفشات المتكلّفة الزائفة نفسها، وباختـصار كان لابد لي أنْ أعـتـرف بأني تأثّرت بصورة مُحبّبة بصاحبي الوغد ذي رأس القرع. ربما كانت صُحبته مُرهِقة بصورة ما، لكنه لا يُخيّب الآمال. وقبل أنْ أغادر متجر الكتب، دعوتُ توم وهاري للانضمام إليّ على مائدة العشاء في أمسية يوم السبت.

عندما عدتُ إلى شقّتي كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بقليل. كانت راشيل ما تزال تشغل بالي، لكنّ الوقت كان مُبكراً جداً للاتصال بها (لم تكن تعود من العمل قبل السادسة)، وبينما أنا أتخيّلُ نفسي أرفع سمّاعة الهاتف وأطلبُ رقمها، أدركتُ أنّ الأمر ربما سيان. لقد ساءت العلاقات بيننا جداً. وشعرتُ بأنها في الغالب ستغلق الخط في وجهي من جديد، وأرعبني توقُّع أنْ تصدّني ابنتي. وبدل من إجراء الاتصال، قرّرتُ أنْ أكتب لها رسالة. كان ذلك مدخلاً آمناً، وإذا أغفلتُ اسمي وعنوان الإعادة عن المغلّف، فالأرجح أنها ستفتح الرسالة وتقرأها بدل أنْ تمزّقها وترميها في سلة القمامة.

حسبتُ أنّ الأمر سيكون سهلاً، ولكن استغرق مني ست بدايات أو سبع قبل أنْ أقع على النبرة الصحيحة. إنّ طلب الغفران من شخص مسألة مُعقّدة، عملية توازن مرهفة بين كبرياء عنيد وندم مُضمّخ بالدموع، وإذا لم تستطع أنْ تنفتح حقاً نحو الشخص الآخر، فإنّ كل

اعتذار يبدو أجوف وزائفاً. وأثناء عملي على المسوّدات المتوالية للرسالة (التي كانت تزداد باطراد كآبة مع تقدّمها، وأنا ألوم نفسي على كل خطأ ارتُكِبَ في حياتي، وأسوطُ روحي المسكينة، العفنة، كتائبٍ من القرون الوسطى)، تذكّرتُ كتاباً كان توم قد أرسله إليّ في عيد مولدي قبل ثماني سنوات أو تسع، في العصر الذهبي قبل وفاة جون وكان توم لا يزال الدكتور ثمب اللامع والواعِد. كان سيرة حياة لودفيغ فيتغنشتاين، وهو فيلسوف كنتُ قد سمعتُ عنه ولكن لم أقرأ له شيئاً - وهذا ليس بالظرف الاستثنائي، بما أنَّ غالبية قراءاتي كانت تقتصرُ على الأدب، دون أنْ أقرب أي مجال آخر. وجدته كتاباً جذاباً، حسن التأليف، ولكن هناك قصة واحدة برزت فوق الأخريات جميعاً، وبقيَتْ معي منذ ذلك الحين. فطبقاً للمؤلّف، راي مونك، بعد أنْ كتبَ فينغنشتاين كتابه Tractatus وهو جنديٌ في الحرب العالمية الأولى، شعر بأنه حلَّ كل مسائل الفلسفة وانتهى من الأمر إلى الأبد. وعمل مُدرّساً في قرية نمساوية جبليّة نائية، ولكن اتّضح أنه لا يصلح لذلك العمل. كان، وهو الشديد، السيئ الطِباع، بل والمتوحش، لا يكفّ عن تقريع الأطفال ويضربهم عندما يفشلون في تعلُّم دروسه. والأمر لم يكن يقتصر فقط على الضرب الاعتيادي، بل ضربات قوية على الرأس والوجه، واللّكم الغاضب الذي ينتهي بإصابة عدد من الأطفال بجراح خطيرة. وانتشر خبر ذلك السلوك الشائن، وأُجبِرَ فيتغنشتاين على الاستقالة من منصبه. ومرّت السنون، عشرون منها على الأقلّ، إذا لم أكن مُخطئاً، كان فيتغنشتاين عندئذٍ يُقيم في كمبريدج، ومن جديد يدرس الفلسفة، وقد أصبحَ مشهوراً ومُحتَرَماً. ولأسبابٍ نسيتها الآن، مرَّ بأزمةٍ روحيّة وعانى من انهيارٍ

عصبيّ. وعندما بدأ يُشفى قرَّرَ أنَّ الطريقة الوحيدة لاستعادة عافيته هي بالعودة إلى ماضيه والاعتذار بتواضُع لكل إنسان ارتكبَ ذنباً في حقّه وأهانه. أرادَ أنْ يتطهَّر من الإحساس بالذنب الذي كان يفسد داخله، أنْ يُنقّي ضميره ويبدأ بداية جديدة. وهذا الدرب طبعاً أعاده إلى القرية الجبلية الصغيرة في النمسا. حينئذٍ كان تلاميذه السابقين كلهم قد أضحوا بالغين، رجالاً ونساءً في أواسط وأواخر عشرينيات أعمارهم، ومع ذلك لم تكن ذكرى أستاذهم العنيف قد خبتْ مع مرور السنين. وراح فيتغنشتاين يدقُّ أبوابهم، واحداً إثر آخر، ويطلب منهم أنْ يُسامحوه على قسوته غير المُحتَمَلة التي مارسها عليهم قبل ذلك بعقدَين من الزمن. بل إنه مع بعضهم، خرَّ على ركبتيه وتوسّلَ إليهم، وناشدهم أنْ يغفروا له ذنوبه التي ارتكبها في حقهم. قد يعتقد أحدهم أنَّ مَنْ يواجه مثل ذلك العرض الصادق للندم سوف يشعر بالشفقة على الرحلة المؤلمة ويلين، ولكنْ لا أحد من تلامذة فيتغنشتاين السابقين رغبَ في مُسامحته. لقد كان الألم الذي سبَّبه لهم قد تجذَّرَ عميقاً، وتجاوز كرههم له كل إمكانية للرحمة.

على الرغم من كل شيء، شعرتُ بثقة تامة من أنَّ راشيل لم تكرهني. كانت غاضبة مني، كانت تحتقرني، كانت تشعر بالخيبة مني، ولكن لم أعتقد أنَّ حقدها كان من القوة بحيث يُحدث شرخاً دائماً بيننا. ومع ذلك، لم أُجازف، وعندما وصلتُ إلى وضع المسوّدة النهائية للرسالة، كنتُ في حالة توبةٍ كاملة وتامة. باشرتُ بالقول " اغفري لوالدك الأحمق ثرثرته وبوحه بأمورٍ يندمُ عليها الآن حتى الموت. من بين الناس أجمعين، أنتِ الشخص الوحيد الذي أهتمّ لأمره. أنتِ درّة قلبي، وخلاصة دمي،

ويُعذّبني أنْ أعتقد أنَّ ملاحظاتك الغبية كان يمكن أنْ تُفسد صِلة القُربى بيننا. دونكِ، أنا نكرة. دونكِ، أنا لا شيء. عزيزتي، محبوبتي راشيل، أرجوك أعطِي والدك العجوز الأبله فرصة ليُحقق خلاصه".

واصلتُ على هذا المنوال على مدى عددٍ آخر من الفِقرات، وختمتُ الرسالة بخبر طيّب مفاده أنَّ نسيبها توم ظهر كالسحر في بروكلن ويتطلّع إلى رؤيتها من جديد ورؤية تيرانس (زوجها الإنكليزيّ المولد، الذي يُدرِّس علِم الأحياء في روتغيرز). ربما يمكننا أنْ نتناول طعام العشاء معاً في المدينة ذات ليلة. آمل أنْ نفعل في وقتٍ قريب. في الأيام أو الأسابيع المقبلة - عندما يكون لديك متّسع من الوقت.

استغرق مني إنهاء المهمة ثلاث ساعات، وشعرتُ بالإرهاق، بالاستنزاف الجسدي والعقلي. ولكن لم يكن لينفع أنْ أترك الرسالة جالسة في الشقة، لذا خرجت على الفور وأودعتها صندوق البريد، أحد تلك الصناديق الموجودة أمام مكتب البريد في الجادة السابعة. كان عندئذٍ وقت العشاء، لكني لم أشعر بأي جوع. بدل ذلك، تابعت المشي مسافة أخرى وولجتُ محل شيا، محل بيع المشروبات المحلي، واشتريت خُمس مقدارٍ من الويسكي وزجاجتين من النبيذ الأحمر. أنا لست مُدمن خمر، ولكن هناك لحظات في حياة الإنسان يكون الخمر فيها مُغذّياً أكثر من الطعام. وتصادف أنْ كانت تلك واحدة منها. لقد منحَ التواصل من جديد مع توم زخماً كبيراً لمعنوياتي، ولكن الآن بعد أنْ عدتُ وحيداً، وعيتُ فجأةً كم أصبحتُ شخصاً معزولاً، ومُثيراً للشفقة - كتلة مُفكّكة، تائهة، من اللحم الإنساني. أنا في المعتاد لا أميل إلى رثاء الذات، لكني على مدى الساعة التي تلت أو نحوها رثيتُ لحالي بكل استسلام مُراهق

كئيب. وأخيراً، بعد شرب كأسين من الويسكي ونصف زجاجة نبيذ، بدأت الكآبة تزول، وجلستُ على طاولتي وأضفتُ فصلاً آخر إلى "كتاب الحماقة الإنسانية "، حادثة مُنتقاة تدور حول حوض اغتسال وشفرة حلاقة كهربائية. وتعود إلى زمنٍ كانت فيه راشيل في المدرسة الثانوية وما تزال تقيم في المنزل، في يوم خميس بارد وكان يوم عيد الشكر، والساعة تُقارب الثالثة والنصف من بعد الظهر، وكان يُتوقع وصول عدد من الضيوف إلى المنزل بحلول الساعة الرابعة. وكنا أنا وإديث قد أعدنا تأثيث غرفة الحمّام في الطابق العلوي، بتكلفة لا يُستهان بها، وكان كل شيء فيها يتلألأ جديداً : الأرضيّة، الخزانات، خزانة الأدوية، المغسلة، مغطس الاستحمام والدش، والمرحاض، وكل شيء. كنتُ في غرفة النوم، واقفاً أمام مرآة الخزانة أعقدُ ربطة عنقي ؛ وكانت إديث في الأسفل في المطبخ، تُطرّي الديك الرومي وتُشرف على تفاصيل الدقيقة الأخيرة ؛ وراشيل ذات الستة عشر أو السابعة عشر ربيعاً، التي أمضتْ فترة الصباح وأوائل فترة بعد الظهيرة تكتب تقرير تجربة فيزيائية، كانت في الحمّام، تجتهد كي تغدو مستعدة قبل أنْ يصل الضيوف. كانت قد انتهت تواً من الاستحمام بالدش الجديد، وهي الآن واقفة أمام المرحاض الجديد، وقدمها اليمنى جاثمة على حافة الحوض، تحلق شعر ساقها بآلة الحلاقة شيك التي تعمل بالبطارية. وعند مرحلةٍ ما، أفلتت الآلة من يدها ووقعت في الماء. مدّت يدها وحاولت أنْ تنتشلها، لكنَّ الآلة كانت قد انحشرت بقوة في بالوعة المرحاض، ولم تتمكن من إخراجها. هنا فتحت الباب وهتفت " بابا " (كانت حينئذٍ ما تزال تناديني " بابا ")، "أنا بحاجة إلى مساعدة ".

وجاء بابا. وأشدّ ما أضحكني في ورطتنا هو أنَّ الآلة كانت لا تزال تئزّ وتهتزّ في الماء. كان ضجيجاً ملحّاً ويُثير الأعصاب، شيئاً سمعياً مُنحرفاً مُصاحِباً لما كان في الأصل وضعاً غريباً، بل وربما مشكلة مُحيِّرة غير مسبوقة. أضِفْ إليها الضجيج، فيصبح الأمر كله غريباً ويبعثُ على الضحك الهستيري. وضحكتُ عندما رأيتُ ما حدث، وحالما فهمتْ راشيل أنني لم أكن أضحك عليها، ضحكتْ معي. ولو كان عليَّ أنْ أختار لحظة واحدة، ذِكرى واحدة أدَّخرها في ذاكرتي من بين كل اللحظات التي أمضيتُها معها على امتداد السنوات التسع والعشرين، أعتقد أنها ستكون تلك.

كانت يدا راشيل أصغر حجماً بكثير من يديّ. وإذا لم تتمكن هي من إخراج آلة الحلاقة فالأمل في استطاعتي أنْ أفعل ذلك كادت تكون معدومة، لكني قمتُ بالمحاولة على سبيل الشكليات. خلعتُ سترتي، ورفعتُ كُميَّ، وأزحتُ ربطة عنقي نحو كتفي الأيسر، ومددتُ يدي. كانت الآلة الآزّة محشورة بإحكام شديد، ولم أتمكن من فعل شيء.

لعلَّ أفعى الرصاص[١١] كانت ستفي بالغرض، ولكن لم يكن لدينا واحدة، لذا حللتُ سلكاً مُعلّقاً وأقحمته بدل ذلك. وعلى الرغم من رقّته، كان أشدّ سماكة من أنْ يُساعدنا.

وأذكر أنَّ جرس الباب رنّ، ووصل أحد أقرباء إديث الكُثُر. كانت راشيل ما تزال تضع عليها مئزر الاستحمام، وجالسة على رُكبتيها تراقب محاولاتي العقيمة لإخراج آلة الحلاقة بالسلك، لكنَّ الوقت كان يمرّ سريعاً، فقلتُ لها إنه ربما عليها أنْ ترتدي ملابسها. قلت " سوف أفكّ المرحاض وأقلبه رأساً على عقب، فقد أتمكن من إخراج ذلك الشيء

---

١١ - أفعى الرصاص : قضيب مرن لتنظيف الأنابيب المسدودة . - المترجم

الصغير من الطرف المقابل ". ابتسمت راشيل، وربتت على كتفي وكأنها تعتقد أني جُننت، ونهضتْ واقفة. أثناء خروجها من الحمّام، قلتُ " قولي لأمك أني سأنزل خلال بضع دقائق. فإذا سألتكِ ماذا أفعل، قولي لها إنَّ ذلك ليس من شأنها. وإذا ألحّت في السؤال، أخبريها أني هنا أقاتل من أجل إحلال السلام العالمي ".

كان هناك صندوق للعِدّة في خزانة البياضات المجاور لغرفة الحمّام، وحالما أغلقتُ الصمّام المؤدي إلى المرحاض، أخرجتُ كمّاشة وفصلتُ المرحاض عن الأرض. لم أكن أعلم مدى ثقل ذلك الشيء. ونجحتُ في رفعه عن الأرض، ولكنه كان من فرط الثقل بالنسبة إليّ بحيث إني لم أكن واثقاً من استطاعتي من قلبه دون أنْ أُسقِطه، ولاسيما ضمن تلك المساحة الضيّقة. كان لابد من إخراجه من الغرفة، ولأني كنتُ أخشى أنْ أكسر الأرضيّة الخشبية إذا ما وضعته في الرواق، قرّرتُ أنْ أحمله إلى الطابق السفلي وأنقله إلى الفناء الخلفي.

مع كل خطوة خطوتها، كان المرحاض يبدو أثقل وزناً قليلاً. ومع وصولي إلى أسفل الدرَج، شعرتُ كأني أحمل فيلاً أبيضَ صغيراً بين ذراعيّ. ولحسن الحظ، كان أحد إخوة إديث قد دخل المنزل تواً، وعندما رأى ما أفعله، تقدَّمَ ومدّ لي يد العون.

سألَ " ماذا يحدث، ناثان ؟ "

قلت "إنني أحمل المرحاض. سوف نأخذه إلى الخارج ونضعه في الفناء الخلفي"

حينئذٍ كان الضيوف كلهم قد وصلوا، وحدّق الجميع استغراباً من المشهد الغريب لرجلَين بربطتيّ عنق وقمصان بيضاء يحملان مرحاضاً

موسيقياً خلال غُرف منزل في الضواحي في يوم عيد الشُكر. كانت رائحة الديك الرومي تعلق في كل مكان، وإديث تقدّم المشروبات. وكانت أغنية فرانك سيناترا تصدح كخلفيّة (أذكرُ جيداً أنها كانت "طريقي")، والعزيزة، الشديدة الحياء راشيل تنظر إلينا مع تعبير شعور بالخزي على وجهها، لعِلمها أنها المسؤولة عن إفساد حفلة أمها التي خطّطت لها بعناية.

أخرجنا الفيل إلى الخارج وقلبناه رأساً على عقب على عشب الخريف البُنّي. لا أستطيع أنْ أتذكّر كم من أدوات أخرجتُ من المرأب، ولكن لا أحد منها كان ذا نفع. لا مقبض المِدمة[12]، ولا مفك البراغي، ولا المثقب ولا المطرقة - لا شيء. وبقيتْ آلة الحلاقة تئزّ، تصدح بأغنية ذات نغمة واحدة لا تنقطع. كان عدد من الضيوف قد انضموا إلينا في الفناء، ولكنهم كانوا قد بدؤوا يشعرون بالجوع، والبرد، والضجر، وأخذوا، واحداً إثر آخر، ينسحبون إلى داخل المنزل. ولكن ليس أنا، ليس صاحب العزم، الباقي حتى النهاية ناثان غلاس. وعندما أدركتُ في نهاية المطاف أنَّ كل الآمال قد استُنزِفَتْ، حملتُ مطرقة ثقيلة إلى المرحاض وحطّمته إلى أشلاء. انزلقت آلة الحلاقة التي لا تُقهَر وهبطت إلى الأرض. أغلقتها، ووضعتها في جيبي، ثم سلّمتها لابنتي المتوردة من الخجل عندما عدتُ إلى المنزل. وحسب علمي، ما زالت الآلة تعمل حتى هذا اليوم.

بعد أنْ رميتُ القصة داخل الصندوق المعنون "حوادث مؤسفة". أتيتُ على النصف الآخر من الزجاجة ثم أويتُ إلى السرير. والحق يُقال (كيف يمكن أنْ أكتب هذا الكتاب إذا لم أقُل الحقيقة ؟)، أجبرتُ نفسي على

---

١٢ - المِدمة ، أداة ذات أسنان لجمع العشب اليابس أو لتقليب التربة .

النوم باللجوء إلى الاستمناء. وبذلتُ أقصى جهدي لأتخيَّل مظهر مارينا غونثاليث وهي عارية، حاولتُ أنْ أخدع نفسي بتصديق أنها توشك أنْ تدخل إلى الغرفة وتندسّ تحت الأغطية معي، توّاقة لتدثير جسدي بجسدها الأملس، الدافئ.

مفاجأة بنك النُطَف المنوية

حدثَ أنْ كان الاستمناء هو أحد المواضيع التي ناقشتها مع توم على مائدة الغداء بعد ظهيرة اليوم التالي (في مطعم ياباني هذه المرة، بما أنه كان يومَ عطلةِ مارينا في المطعم). بدأ الأمر عندما سألته إذا كان قد نجح في إعادة تأسيس جسر تواصل مع أخته. وحسب عِلمي، فإنَّ آخر مرة رآها فيها أي فرد من الأسرة كانت قبل وفاة جون، عندما عادت إلى المنزل في نيو جرسي لكي تُطالب بالطفلة لوسي. حدث ذلك في عام ١٩٩٢ ، والآن بعد مرور ثماني سنوات كاملة، وبما أنَّ توم لم يأتِ على ذكرها أمامي في اليوم السابق، أفترضُ أنَّ نسيبتي امَّحتْ عن وجه الأَرض، ولن أسمع عنها أبداً.

الأمر لم يكن كذلك. ففي أواخر عام ١٩٩٣ ، بعد أقلّ من عام على وفاة أختي، خرج توم بمساعدة اثنين من زملائه الطلاب المتخرجين بخطة لكسب بعض المال السريع. فقد كانت هناك عيادة للحمل الاصطناعي في ضواحي آن آربور، وقرّر الثلاثة أنْ يُقدّموا خدماتهم كواهبين لبنك النُطف المنوية. قال توم إنهم اعتبروا الأمر مُزاحاً، ولم يتوقف أيٌ منهم لكي يتدبّر في عواقب ما هم مُقدمون عليه : وملؤوا زجاجات بدفقٍ من النطف لكي تحمل بها نسوة لن يروهن أو يضموهن بين أذرعهم،

وبدورهن سيلدن أطفالاً - *أطفالهم هم* - سوف تبقى أسماؤهم، وحياتهم، ومقاديرهم مجهولة بالنسبة إليهم إلى الأبد.

أُدخِلَ كلُ منهم إلى غرفة صغيرة، خاصة، ولكي يُدخلهم المسؤولون عن العيادة في جو المشروع، أمدّوا الواهبين بذكاء بمجموعة من المجلات القذرة - تحتوي صوراً لصبايا عاريات في أوضاعٍ جنسية موحية. وبما أنّ الذكَر ذا طبيعةٍ بهيميّة، فإنّ تلك الصور لم تكن تفشل في إحداث انتصاب قويّ وحيويّ. ولمّا كان توم دائماً يؤدي عمله بجدّية، فقد جلسَ باجتهاد على السرير وبدأ يستعرض المجلات. وبعد مرور دقيقة أو اثنتين، أنزل سرواله، وباشرت يده اليمنى بالقبض على قضيبه، وبينما يده اليسرى مستمرة في تقليب صفحات المجلات، لم يكن الأمر يتطلب إلا بعض الوقت لكي تتم المهمة. ثم، في نشرةٍ صدرتْ لاحقاً بعنوان "*زُرقة منتصف الليل*"، شاهد صورة أخته. لم يكن لديه أدنى شك في أنها أورورا - تعرَّفَ توم عليها من النظرة الأولى. وهي لم تزعج نفسها بإخفاء اسمها. والصفحة السادسة الممتدة من عدد من الصور الفوتوغرافية كان عنوانها " روري الرائعة "، وتعرِضها في مختلف مراحل التعرّي والإثارة : ترفلُ برداء نوم شفّاف في إحدى الصور، وتضع رباطاً لجورب أسود في أخرى، وتنتعل حذاءً طويلاً حتى الركبة من الجلد المدبوغ في أخرى، ولكن بدءاً بالصورة الرابعة تظهر روري عارية تماماً من رأسها إلى أخمصها، تداعبُ ثدييها الصغيرَين، وتلمس عضوها، وتُبرزُ مؤخرتها، وتباعدُ ما بين الساقَين واسعاً بحيث لا تترك شيئاً للمخيّلة، وفي كل صورة كانت تكشّر، وأحياناً تضحك، وعيناها تشرقان بدفقٍ وافرٍ من السعادة والتهتُّك، دون أي أثر للمُمانعة أو القلق، تبدو وكأنها تقضي أسعد أيام حياتها.

قـال توم "وصُعِقت. وفي غـضون ثانيـتَين تراخى قـضيـبي وتدلّى كنبات الخطمي. رفعتُ سروالي، وأحكمتُ حزامي، وخرجتُ بأسرع ما أمكنني. لقد أُصِبتُ بصدمة قـاتلة، يا ناثان. أختي الصغيرة، تمارس الغواية في مجلة قذرة. والأدهى أني اكتشفتُ ذلك بطريقة مُروعة - دون سابق إنذار، وأنا جالس في تلك العيادة اللعينة في اللحظة التي كنتُ أحاول أنْ أقذف. وشعرتُ بالاشمئزاز، حتى أعماقي. ليس فقط لأني كرهتُ أنْ أشاهد روري في تلك الأوضاع، بل لأنني لم أكن قد سمعتُ أي شيءٍ عنها منذ سنتين، وتلك الصور بدتُ أنها تؤكّدُ أسوأ كوابيسي عمّا حدث لها. لم تكن قد تجاوزت الثانية والعشرين، وها هي قد انحطّتْ إلى الدرك الأسفل، ومارست أشدّ الأعمال سفالة : بيع جسدها بالمال. كان الأمر برمتّه مُحزِناً، وشعرت برغبة في البكاء شهراً كاملاً.

عندما تعيش حياةً مديدة مثلي، تميل إلى الاعتقاد أنكَ قد سمعتَ كل شيء، وأنه لم يعُد هناك شيء يمكن أنْ يصدمك. تصبح راضياً عمّا يُسمّى بمعرفتك بالعالم، ثم، بين حينٍ وآخر، يحدث أمر يهزّكَ ويقذفك خارج شرنقة شعورك بالتفوّق، يُذكّركَ من جديد بأنك لا تفهم شيئاً عن أولى مبادئ الحياة. يا لابنة أختي المسكينة. لقد كان الإرث الوراثي شديد اللطف معها، وقد نالت كل الأرقام الرابحة. وخِلافاً لتوم، الذي ورث شكله من آل وود، كانت أورورا تنتمي إلى آل غلاس قلباً وقالباً، وأسرتنا أفرادها كلهم نحيلون، بارزو العِظام، وطِوال القامة. وعندما كبرت كانت نسخة طِبق الأصل من أمها - امرأة جميلة طويلة الساقَين، سوداء الشَعر، ورشيقة ولدنة القوام كجون نفسها. كناتاشا في رواية "حرب وسلام"، في تناقضها مع أخيها ذي القدم الكبيرة، الأخرق بيير.

والشائع دون تصريح هو أنَّ الجميع يُريدون أنْ يكونوا جميلين، لكنَّ جمال المرأة يمكن أنْ يصبح أحياناً لعنة، ولاسيما إذا كانت صغيرة السن مثل أورورا : مطرودة من المدرسة الثانوية وبلا زوج ولديها طفل في الثالثة من عمره يجب أنْ تُعيله، وتتصف بالجموح وبالتمرُّد، وترغب في السخرية من العالم وتركب أي مُخاطرة تُصادفها. فإذا كنتَ في حاجةٍ إلى المال، وكان جمالك في أوجه ويمكنكَ أنْ تُتاجر فيه، فلماذا تتردَّد في خلع ملابسك والتعرّي أمام الكاميرا ؟ ما دام في استطاعتك أنْ تتعامل مع الوضع، فإنَّ قبول عرضٍ كهذا يمكن أنْ يعني الفرق بين الأكل وعدم الأكل، بين عيش حياة رغدة وعيش حياة فاقة.

قلت، مُحاولاً أنْ أقدم له قليلاً من المواساة، "لعلها لم تفعل ذلك إلا مرة واحدة. في الواقع، إنها تجد صعوبة في تسديد فواتيرها، ثم يأتي مُصور ويعرض عليها عملاً. عمل ليوم واحد مقابل مبلغ جيد من المال".

هزّ توم رأسه رفضاً، ومن التعبير الكئيب المرتسم على وجهه، فهمتُ أنَّ ملاحظتي لم تكن أكثر من ممارسة عقيمة للتمني. لم يكن توم يعلم كل الحقائق، لكنه كان متيقّناً من أنَّ القصة لم تبدأ ولا انتهت مع جلسة سلسلة الصور لمجلة "***زرقة منتصف الليل***". لقد كانت أورورا تعمل راقصة متعرّية في منطقة كوينز (في نادي "حديقة المسرات الأرضية"، دون غيره من الأماكن، النادي نفسه الذي جعل فيه توم رجال الأعمال الثلاثة السكارى ينامون في عيد مولده الثلاثين)، وظهرت في عددٍ كبير من الأفلام الإباحية، واتّخذت أوضاعاً لصالح مجلات التعرّي ست مرات أو سبع. ودامت مسيرتها المهنية في تجارة الجنس ثمانية عشر

شهراً كاملة، ولأنها كانت تتلقى مبالغ جيدة مقابل عملها، ربما كان يمكن لها أنْ تحتفظ به مدة أطول لولا وقوع أمر بعد أنْ شاهد توم صورتها في "*زرقة منتصف الليل*" بتسعة أشهر أو عشرة.

قلت له " آمل ألا يكون شيئاً سيئاً"

أجاب توم، وقد أشرف فجأةً على البكاء، " بل أسوأ من السوء. لقد تمَّ اغتصابها جماعياً في موقع تصوير أحد الأفلام. من قِبَل المُخرج، والمُصوِّر، ونصف طاقم العمل".

" يا يسوع المسيح "

" لقد أنهكوها، يا ناثان. وفي النهاية أخذتْ تنزف بغزارة، واضطرت إلى اللجوء إلى المستشفى"

" أود لو أقتل القذرين الذين فعلوا بها هذا "

" وأنا أيضاً. أو على الأقلّ أنْ أودعهم السجن، لكنها رفضتْ أنْ توجه إليهم الاتّهام. كل ما أرادت كان أنْ تبتعد، أنْ تخرج من جحيم نيويورك. حينئذٍ سمعتُ أخبارها. لقد كتبت لي رسالة جاءتني عبر قسم اللغة الإنكليزية في الجامعة، وعندما علمت بوضعها، اتصلتُ بها وقلتُ إنَّ عليها أنْ تأتي إلى ميتشيغان مع لوسي لكي تعيشا معي. إنها طيبة، يا ناثان. أنتَ تعلمُ هذا. كل مَنْ تعاملَ معها عن قُرب يعلمُ هذا. ليس في جسدها أي جزء سيئ. لعلها جامحة قليلاً، وعنيدة، لكنها في المُجمل بريئة وتثق بالناس، وآخر مَنْ يسخر من غيره في العالم. أعتقد أنها أحسنتْ فعلاً بعدم شعورها بالخجل من عملها في المجال الإباحي. لقد وجدته عملاً مسلياً. مسلياً ! تصوَّر ! إنها لم تفهم أنَّ العمل مملوء بالأوباش، بأشدّ القُساة شراً في الكون".

وهكذا انتقلت أورورا ولوسي ذات السنوات الثلاث إلى الغرب الأوسط واستقرتا مع توم في الطابق العلوي من منزل مُستأجَر مؤلَّف من طابقَين. كانت أورورا تكسب مبلغاً محترماً من المال قبل رحيلها، لكنَّ مُعظمه تبدَّد على الإيجار، والملابس، ومربية بدوامٍ كامل من أجل لوسي، مما يعني أنَّ مُدّخراتها كانت قد نفدت تقريباً. وكان توم يحصل على منحة جامعية، لكنه كان يعيش على ميزانية الطالب المتخرج المحدودة، ويعمل في وظيفة بنصف دوام في مكتبة الجامعة ليُساعد في المصروف. وتحدثا عن الاتصال بوالدها في كاليفورنيا وطلب قرضٍ منه، ولكنهما في النهاية قرّرا ألا يفعلا. الأمر نفسه حدث فيما يخص زوج أمها في نيوجرسي، فيليب زورن. وكان سلوك روري الغريب والشرس في عهد المراهقة قد خرّبَ المنزل على مدى سنوات، وكرِها أنْ يلجأا إلى رجلٍ نشأ على احتقار ابنة زوجته خلال المعارك العظمى التي دارت في تلك الأيام المبكّرة. ولم ينطق توم بأي كلمة لأخته عن ذلك، لكنه كان يعلم أنَّ زورن يلوم أورورا في سِرّه على موت والدتهما. لقد أحاطتْ جون بحصارٍ مُطوَّل من الاضطراب واليأس، والتعويض الوحيد عن كل تلك المعاناة كان موهبتها غير المتوقعة في مقدرتها على تربية حفيدتها الطفلة. لكنها انتُزِعَتْ منها أيضاً، وشعر زورن أنَّ ما تسبَّب في قتلها هو ألم فراق طفلتها. لعلَّ هذا تأويل رومانسي للقصة، مَنْ يقول إنه لم يكن مُحِقاً؟ وصدِقاً، في يوم الجنازة خطرت لي الفكرة نفسها.

بدل أنْ تطلب روري الحَسَنات، وجدتْ لها عملاً كخادمة على الموائد في أرقى المطاعم الفرنسية في المدينة. لم تكن لديها الخِبرة، لكنها فتنتْ صاحب المحل بابتسامتها، وساقيها الطويلتين، ووجهها الجميل، ولأنها

كانت فتاة ماهرة، تعلّمت بسرعة واستوعبت الروتين في غضون أيام. لعل ذلك بمثابة سقوط كبير من حياة نيويورك العالية الوتيرة، ولكن آخر ما كانت أورورا تسعى إليه الآن هو الإثارة. فبعد أنْ تطهَّرتْ وجُرحتْ، وما تزال ممسوسة بالفعل الشرير الذي وقع لها، لم تعُد تتوق إلى أكثر من فترةَ راحةٍ ساكنة وخالية من الأحداث، فرصةً لاستعادة قِواها. وذكرَ توم كوابيس، نوبات بكاء مُفاجِئة، وفترات طويلة، كئيبة من الصمت. لهذا كله، تذكر أيضاً الأشهر التي أمضتها معه كوقت سعيد، وقت من التضامن العظيم والحب المتبادل، والآن بعد أن استعاد أخته، أصبح يستمتعُ استمتاعاً لا يلين بقدرته على القيام من جديد بدور الأخ الأكبر. كان صديقها وحاميها، ومُرشدها وركيزتها، كان صخرتها.

مع استعادة أورورا عنفوانها واندفاعها السابقين ببطء، بدأتْ تتكلّم عن الحصول على شهادة مُعادلة لشهادة المرحلة الثانوية والتقدم لدخول الجامعة. شجّعها توم على المُضيّ قُدُماً في خطّتها، ووعدها بأنْ يُساعدها في عملها إذا ما واجهت أي صعوبة فيه. إنَّ الأوان لا يفوت أبداً، هكذا كان يُردّد على مسمعها، لا يفوت الأوان أبداً على البدء من جديد، ولكن بصورة ما كان قد فات فعلاً. ومرّت الأسابيع، ومع إرجاء روري لتنفيذ قرارها، فهمَ توم أنَّ قلبها لم يكن متحمّساً للأمر. في أيام عطلتها من المطعم، بدأتْ تتردَّد على ليالي الأداء الحر في نادٍ محليّ، لتغني أغاني البلوز مع ثلاثة موسيقيين كانت قد قابلتهم ذات أمسية أثناء تقديم الطعام لهم على العشاء، وسرعان ما قرَّر الرباعي أنْ يجتمعوا ويُشكّلوا فرقة. أطلقوا على أنفسهم "**عالم جديد وشجاع**"، وحالما شاهد توم أداءهم، أدركَ أنَّ دافع روري العابر للمُضيّ قُدُماً في

إكمال تعليمها قد ولِدَ ميتاً. كانت لدى أخته موهبة الغناء. ولطالما كان صوتها قوياً، لكنها الآن بعد أنْ كبرت في السن، وتعرَّضت رئتاها لقطران تدخين خمسين ألف سيجارة، أُضيفَت إليه سِمة جديدة وإجبارية - شيءٌ عميق وحلقيّ وحسيّ، صدقٌ موجِع، وقاسٍ يجعلك تجلس على الكرسي وتُصغي. كان توم سعيداً لأجلها وخائفاً عليها في الوقت نفسه. وفي غضون شهر، أصبحت على علاقة بعازف غيتار الأساس، وعلِم أنها سرعان ما ستغادر هي ولوسي معه ومع الاثنين الآخرَين إلى مدينةٍ أكبر - كشيكاغو أو نيويورك، أو لوس أنجليس أو سان فرانسيسكو، إلى أي مكانٍ في أميركا بعيداً عن آن آربور، في ميتشغان. وسواء كانت مُضلَّلة أم لا، لقد رأت أورورا نفسها نجمة، ولن تعرف الفرح وتُحقق الإنجاز إلا إذا شخصت عيون العالم أجمع إليها. فهِمَ توم هذا الآن، ولم يقُم إلا بمحاولة ضعيفة، شكليّة، ليُثنيها عن الرحيل. أفلام إباحية بالأمس، وأغاني بلوز اليوم ؛ ويعلم الله ماذا سيحدث في الغد. وصلّى كي لا يكون عازف غيتار الأساس، الذي تصادفَ أنَّ اسمه أيضاً توم، غبياً كما يبدو.

عندما حانت اللحظة المحتومة، صعدت فرقة " عالم جديد وشجاع " مع جالبة الحظ الصغيرة إلى شاحنة بليموث مُستعملة في تاريخها ثمانين ميلاً وانطلقوا إلى بركلي، في كاليفورنيا. ومضتْ سبعة أشهر قبل أنْ يسمع توم أخبارها من جديد : جاءته مكالمة هاتفية في منتصف الليل، وغرد الصوت من الطرف الآخر قائلاً له بعذوبته وبراءته المعهودتين، "كل عام وأنت بخير".

ثم لا شيء. تلاشت أورورا تماماً وبصورةٍ غامضة تماماً كما كانت قد ظهرتْ في ميتشيغان، وعلى الرغم من كل محاولاته لم يفهم توم

السبب. ألم يكن صديقاً لها؟ ألم يكن يُعتَمَد عليه مهما كان حجم مشكلتها؟ شعر بالألم، ثم بالغضب، ثم بالبؤس، ومع توالي أشهر الصمت واستطالتها حتى تعدَّت العام، تحوَّلَ بؤسه إلى كآبة عميقة ومتنامية باطّراد، إلى قناعة راسخة بأنَّ شيئاً فظيعاً قد حدث لها. وفي خريف عام ١٩٩٧ يئس من إنهاء أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه. وفي الليلة السابقة لرحيله عن آن آربور، جمع ملاحظاته كلها، وكل رسوماته البيانية وقوائمه، وكل المسوّدات الأوّلية التي لا حصر لها لهزيمته النكراء المؤلّفة من ثلاثة عشر جزءاً، وأحرق كل صفحة واحدة إثر أخرى في برميل زيت في الفناء الخلفي. وحالما خمدت النار الملفيليّة[١٣] الكبرى، أوصله أحد رفاقه في المنزل إلى مركز انطلاق الحافلات، وبعد ذلك بساعة كان في طريقه إلى نيويورك. وبعد وصوله بثلاثة أسابيع، بدأ عمله كسائق سيارة أجرة، ثم، فقط بعد ذلك بستة أسابيع، اتصلتْ به أورورا دون سابق إنذار. طلبتْ أن تراه - بلا ذعر أو اضطراب، بلا آثار لبؤس ولا طلبتْ نقوداً، كما قال توم.

في اليوم التالي تقابلا على مائدة الغداء، وعلى مدى العشرين أو الثلاثين دقيقة الأولى لم يتمكن من منع نفسه عن النظر إليها. كانت عندئذٍ في السادسة والعشرين من العمر وما تزال جميلة، جميلة كأي امرأة على الأرض، ولكنَّ كامل تقديمها لنفسها كان قد تغيَّر. كانت ما تزال أورورا، ولكنَّ الجالسة قبالته الآن هي أورورا أخرى، ولم يتمكن توم من تقرير إنْ كان يُفضِّل النسخة الجديدة أم القديمة. في الماضي، كانت

---

١٣ - ملفيليّة: نسبة إلى الكاتب الأميركي هرمن ملفيل (١٨١٩ - ١٨٩١)، صاحب قصص المغامرات في الأراضي البعيدة. صاحب "موبي ديك" وكثير من القصص القصيرة. - المترجم

تُرسل شَعرها الطويل، الوافر ؛ كانت تتجمَّل بالمساحيق، وتتزيَّن بالأحجار الكريمة الكبيرة، وتضع خاتماً في كل إصبع، وكانت تميل إلى ارتداء ملابس متحررة، تتسم بالابتكار ؛ وتنتعلُ أحذية جلدية طويلة العنق وخِفاً صينياً، مع سترة راكبي الدراجات النارية والتنانير الحريرية، وتلبس في يديها قفازاً مُخرّماً وتضع شالاً شائناً، بزيٍّ نصف رديء، ونصف فاتن، بدا أنه يُعبِّر عن شبابها وعن روحٍ جريئة لا تأبه لشيء. أما الآن، بالمقارنة، فبدتْ محتشمة بالمعنى الإيجابي. كانت قد قصَّتْ شعرها قصيراً ؛ ولم تكن تضع مساحيق تجميل اللهم ما عدا أثر خفيف جداً من أحمر الشفاه على شفتيها ؛ وكانت ملابسها تقليدية إلى حد بعيد : تنورة مثنيَّة زرقاء اللون، وسترة من الكشمير الأبيض، وتنتعلُ حذاءً بُنيّاً يصعبُ وصفه عالي الكعب. لا أقراط. فقط تضعُ خاتماً واحداً في الإصبع الرابع من اليد اليُمنى، ولا تُحيط جيدها بأي شيء. تردَّد توم في السؤال، لكنه تساءلَ إنْ كان وشم النسر الذي على كتفيها الأيسر ما يزال موجوداً - أم أنها، في خضم محاولتها لتطهير نفسها، لمحو كل آثار حياتها السابقة، مرّت بالإجراء المؤلم لإزالة الطائر المُنمّق، المتعدد الألوان.

لم يكن هناك شك في سرورها برؤيته، لكنه في الوقت نفسه شعر بمدى كراهيتها للتحدث عن أي شيء غير الحاضر. لم تعتذر لغيابها مدة طويلة، وعندما وصل الحديث إلى موضوع تحركاتها منذ مغادرتها آن آربور، اكتفَتْ باختصار الحقائق بسرعة ببضع جُمَل فقط. لقد انفرط عقد "عالم جديد وشجاع" بعد أقلّ من عام ؛ وغنّت مع بضع فِرَق في شمال كاليفورنيا ؛ وأقامت علاقات مع بعض الرجال، ثم مع مزيدٍ من الرجال،

ثم بدأتْ تفرطُ في تناول المخدرات. وأخيراً، أودعَتْ لوسي اثنتين من صديقاتها - سُحاقيتين في أواخر أربعينيات عمرهما يعيشان في أوكلند - وانضمت إلى عيادة لإعادة التأهيل، وهناك نجحتْ في الشفاء خلال ستة أشهر. الملحمة كلها روتها في أقلّ من دقيقتين، ولأنَّ الأمر وقع بسرعة كبيرة، شعر توم بحرج شديد من الضغط عليها لإعطائه المزيد من التفاصيل. ثم باشرت بالتحدث عن شخص اسمه ديفيد ماينور، قائد مجموعتها في العيادة، الذي في الوقت الذي تخلصت فيه من السموم ودخلت البرنامج، كان قد بدأ يبرأ. كان مسؤولاً وحده عن إنقاذها، كما قالت، ولولاه لما استطعت أنْ أجتاز محنتي. زيادة على ذلك، كان الوحيد ممَّن قابلتهم الذي لم يعتقد أنها غبية، ولم يكن يفكر في الجنس على امتداد الأربع والعشرين ساعة، ولم يسعَ فقط وراء جسدها. ما عدا توم، طبعاً، لكنَّ الأخوات لا يُسمح لهنَّ بالزواج من إخوتهم، أليس كذلك ؟ إنَّ ذلك ضد القانون، ولهذا كانت تنوي أنْ تتزوج من ديفيد بدل ذلك. لقد انتقلا فعلاً إلى فيلادلفيا ويمكثان مع أمه ريثما يعثران معاً على عمل. كانت لوسي ملتحقة بمدرسة جيدة، وديفيد يُخطط لتبنّيها بعد الزواج. لهذا جاءت إلى نيويورك : طلباً لمباركة توم ولترى إنْ كان يرغب في زفّها إلى عريسها أثناء المراسيم. قال توم، نعم، طبعاً يودّ ذلك، سوف يُشرّفه. ولكن ماذا عن والدهما، سألها، أليس من صُلب عمله أنْ يسير بين مقاعد الكنيسة مع ابنته؟ ربما، قالت أورورا، لكنه لا يأبه لأي منهما، أليس كذلك؟ لقد كان مُحاطاً بالكامل بزوجته وبأولاده، وإلى جانب هذا، كان من فرط الخِسّة بحيث لم يدفع أجرة الطيران من لوس أنجليس إلى فيلادلفيا. قالت، كلا، كان يجب أنْ يكون توم. توم ولا أحد غيره.

طلبَ منها أنْ تخبره المزيد عن ديفيد ماينور، لكنها لم تبُح إلا بعموميات غامضة بدا أنها توحي بأنها لا تعرف الكثير عن زوج المستقبل كما ينبغي. إنَّ ديفيد يُحبها، ويحترمها، وهو لطيف معها، وما إلى ذلك، ولكن لم يكن هناك ما هو صلب بما يكفي في تلك العبارات بالنسبة إلى توم لكي يكوِّن صورة للرجل. ثم انخفضَ صوتها إلى درجة الهمس، وأضافت أورورا : " إنه شديد التديُّن "

سألها توم، مُحاولاً ألا يبدو مذعوراً، "متديّن؟ في أي ديانة؟"

" المسيحية. كما تعلم، المسيح وما إلى ذلك "

" ما معنى هذا ؟ هل ينتمي إلى طائفة معيَّنة، أم أننا نتحدث عن مُتعصِّب وُلد من جديد؟ "

" أخشى أنه وُلِدَ من جديد "

" وأنت، روري ؟ هل تؤمنين بهذا كله؟ "

" أحاولُ أنْ أفعل، لكنني لا أعتقد أني أجيد ذلك. يقول ديفيد إني يجب أنْ أتحلى بالصبر، وإني ذات يوم سوف أفتح عينيَّ وسأرى النور"

"إنكِ نصف يهودية. وحسب القانون اليهودي، أنتِ يهودية كاملة"

" أعلَم. بسبب أمي"

" ثم؟ "

" يقول ديفيد إنَّ هذا لا يهمّ. إنَّ يسوع أيضاً كان يهودياً، وكان ابن الله "

" يبدو أنَّ ديفيد يقول أشياء كثيرة. هل هو الذي دفعكِ إلى قصّ شَعرك وتبديل أسلوب ارتداء ملابسك؟ "

" إنه لم يُجبرني على فعل أي شيء. لقد فعلتُ ذلك لأني أردته "

" بتشجيعٍ من ديفيد"

" الحشمة تليق بالنساء. يقول ديفيد إنها تساعدني على احترام نفسي "

" ديفيد يقول"

" أرجوك، تومي، حاولْ أنْ تكون لطيفاً. أعلمُ أنكَ لا توافق، لكنني عثرتُ أخيراً على فرصة لنيل قليل من السعادة، ولن أدعها تتسرَّب من بين أصابعي. إذا أراد ديفيد أنْ ألبس هكذا، فما الفرق ؟ لقد كنتُ أسير سير العاهرات. هذا أفضل بالنسبة إليّ. أشعر أني بأمان أكثر، وأكثر انسجاماً. بعد كل الأشياء الفاسقة التي فعلتها، أنا محظوظة لأني ما أزال حيّة "

تراجعَ توم وغيَّرَ نبرة صوته، وافترقا بعد ظهيرة ذلك اليوم بعناق حميم وتبادُل قبلات رصينة، وهما يُقسمان على ألا ينقطع التواصُل بينهما بعد ذلك. كان توم مُقتنعاً من أنَّ أورورا كانت جادّة هذه المرة، ولكن على الرغم من اقتراب موعد الزفاف، إلا أنه لم يستلم دعوة منها - لا رسالة، ولا رسالة هاتفية، ولا أي كلمة من أي نوع. وعندما اتصل برقم هاتف مع رمز منطقة فيلادلفيا كانت قد دوّنته على قُصاصة من منديل ورقيّ أثناء وجبة الغداء، أعلن صوتٌ أنَّ الرقم لم يعُد في الخدمة. ثم حاولَ أنْ يقتفي أثرها عبر المعلومات المحلية، ولكن من الأشخاص الثلاثة الذين تحدث معهم ويحملون اسم ديفيد ماينور، لم يسمع أي منهم عن امرأة باسم أورورا وود. وبما أنَّ توم متمسّك بالشكليات وضع اللوم على نفسه. لعلَّ تعليقاته السلبية على تديُّن ماينور جرحت مشاعر روري، وإذا كانت قد توجهت من فورها وأخبرت خطيبها عن أخيها

المُلحد في نيويورك، فلعلّه منعها من دعوته إلى العرس. ومن الأخبار القليلَة التي وصلت إلى ماينور، بدا أنه مثل هذا النوع من الرجال : أحد أولئك الزيلوت[١٤] المتعصّبين الذين يضعون القوانين للآخرين، حقير مُتظاهر بالتقوى.

سألت " ألم تصلك أي أخبار منها منذ ذلك الحين ؟ "

قال توم " لا شيء .لقد مضى على لقاء الغداء ذاك نحو ثلاث سنوات، ولا أعرف أي شيء عن مكان تواجدها "

"وماذا عن رقم الهاتف الذي أعطتك إياه؟ أتعتقد أنه كان صحيحاً؟"

" إنَّ لروري عيوباً، لكنَّ الكذب ليس أحدها "

" إذن، إذا كانا قد انتقلا، كان ينبغي أنْ تتمكن من الاتّصال بهما عبر أمها "

" حاولتُ ذلك، ولكن دون فائدة "

" غريب "

" ليس بالضبط. ماذا لو أنَّ اسمها لم يكن ماينور ؟ الأزواج يموتون، طبعاً. والناس يُطلقون. لعلّها تزوجتْ من جديد وتستخدم اسم زوجها الثاني "

" إنني أرثي لحالك، يا توم "

" لا تفعل. الأمر لا يستأهل. لو أرادت روري أنْ تراني، لاتصلتْ. أما الآن فقد نفضتُ يدي تماماً من الأمر. أنا أشتاقُ إليها، طبعاً، ولكن ماذا في وسعي أنْ أفعل بحق الجحيم ؟ "

---

١٤ - الزيلوت : عضو في طائفة يهودية عُرِفَتْ قديماً بمقاومتها الشديدة لسيطرة الرومان على فلسطين . أصبحتْ الآن كلمة تصف كل متحمس أو متعصّب . - المترجم

" ووالدك. متى رأيته آخر مرة ؟ "

" قبل نحو سنتين. كان مُضطراً إلى المجيء إلى نيويورك من أجل مقال كان يعمل عليه، وقد دعاني على العشاء "

" ثم ؟ "

" حسن، أنت تعلم كيف هو. ليس أفضل مَنْ يمكن أنْ تخوض حديثاً معه "

" وماذا عن آل زورن ؟ أما تزال على اتصال بهم ؟ "

" قليلاً. إنَّ فيليب يدعوني إلى نيو جرسي في عيد الشُكر كل عام. لم أحبه كثيراً وهو متزوج من أمي، لكني غيَّرتُ رأيي بشأنه تدريجياً. لقد مزّقه موتها حقاً، وعندما أدركتُ كم أحبّها، لم أعد أحمل أي ضغينة. وهكذا أصبحَ يربطنا الآن نوع من الصداقة اللطيفة والمحترمة. الأمر ذاته حدث مع باميلا. إنها دائماً تصدمني بغرورها الأبله، إنها واحدة من الذين يُبدون اهتماماً مُغالياً بنوع الكلية التي تنتسب إليها وبكمّ المال الذي تكسبه، ولكن يبدو أنها تحسّنت مع مرور السنين. إنها في الخامسة والثلاثين أو السادسة والثلاثين من العمر الآن وتعيش في فرمونت مع زوجها المحامي وولدين. إذا أردت أنْ تذهب معي إلى نيو جرسي في عيد الشُكر القادم، أنا واثق من أنهم سيسعدون برؤيتك "

" يجب أنْ أفكّر في الأمر، يا توم. في الوقت الحاضر، أنتَ وراشيل تشكلان تقريباً الأسرة الوحيدة التي في إمكاني تحمّلها. لو يزيد الأقرباء السابقون واحداً آخر لاختنقت "

" كيف حال العزيزة راشيل ؟ إنني حتى لم أسأل "

" أه، هنا تكمن المشكلة، يا بُنيّ. هي بحد ذاتها، أعتقد أنها رائعة. وظيفة محترمة، وزوج راق، وشقّة مُريحة. ولكن قبل شهرَين نشب بيننا شجار صغير، ولم يعُد في الإمكان إصلاح ما انكسر. باختصار، هناك احتمال كبير في ألا ترغب أبداً في التحدث إليّ بعد الآن "

" أشعر بالأسى لأجلك، يا ناثان "

" لا تفعل. الأمر لا يستأهل. أفضّل أنْ تدعني أشعر بالأسى لأجلك أنت "

ملِكة بروكلن

عندما تقابلنا توم وأنا من جديد على مائدة الغداء بعد ظهيرة اليوم التالي، فهمنا معاً أننا بصدد خلق طقس صغير. لم نُعبِّر عن ذلك بكثير من الكلمات، ولكن باستثناء الأوقات التي كانت تظهر فيها خُطط أخرى أو التزامات، كنا نعمل على الاجتماع أكبر عدد ممكن من المرات لكي نتشارك في وجبة منتصف النهار. لم يكن يهم إنْ كنتُ أبلغ ضعف سنه وكنتُ ذات مرة أُعرَف بلقب الخال نات. وكما عبَّر أوسكار وايلد عن ذلك، بعد سن الخامسة والعشرين يُصبح الجميع في عمر واحد، والحقيقة هي أنَّ ظروفنا الحالية كانت متطابقة تقريباً. فنحن الاثنان كنا نعيش وحدنا، ولم يكن أي منا على علاقة بأي امرأة، ولم يكن لأي منا أصدقاء كُثُر (في حالتي لم يكن هناك أي أصدقاء). فأي وسيلة أفضل لكسر رتابة الوحدة من تناول الطعام مع شريك في الحديث، ***شبيهك***، نصفك الذي طال ضياعه، وتثرثر وأنت تمضغ الطعام؟

في ذلك اليوم كانت مارينا تعمل، بدت رائعة ببنطلون الجينز الضيق والبلوزة البرتقالية اللون. كان مُركّباً ممتعاً، بما أنه كان مادة للفحص والإعجاب وهي تتقدم منا (يتقدمها ثدياها الوافران، العريضَان) وأيضاً وهي تبتعد (المشهد الخلفي لمؤخرتها الضخمة، المستديرة). وبعد تخيُّلي

مؤخراً للقاءٍ تم بيننا في وقتٍ متأخر من الليل، شعرتُ معها بمزيد من الرغبة في الصمت من المعتاد، ولكن كانت ما تزال هناك مسألة البقشيش الشائن الذي تركته لها في آخر مرة كنتُ هنا، وكانت شديدة البشاشة معنا عندما تلقَّت طلباتنا، لعلمِها (في اعتقادي) أنها غزتْ قلبي إلى الأبد. لا أتذكر أننا تبادلنا كلمة واحدة، ولكن لابد أنه انتهى بي الأمر إلى رسم ابتسامة بليدة على وجهي، وذات مرة مشت مبتعدة نحو المطبخ، فعلَّقَ توم على غرابة منظري وسألني إنْ كان انتابني خطب. فطمأنته بأني في أحسن حال، ثم، في اللحظة التالية، سمعتُ نفسي أعترفُ بافتتاني، المجنون، من طرف واحد. قلتُ " أنا مستعد لتحريك السماء والأرض من أجل تلك الفتاة، لكنَّ ذلك لن يُفيدني في شيء. إنها متزوجة، وكاثوليكية مئة بالمئة وحتى أخمص قدمها. ولكنها على الأقلّ تُتيحُ لي فرصة للحلم "

استعددتُ لأسمع توم ينفجر في نوبة ضحك عليّ، لكنَّ شيئاً من هذا لم يحصل. مدَّ ذراعه عبر الطاولة، وعلى وجهه تعبير جدّي صارم، وربتَ على يدي. قال " أعرف كيف تشعر، يا ناثان. إنه شيء رهيب"

الآن جاء دور توم ليعترف. الآن أنا أصغي إلى نسيبي وهو يُخبرني أنه هو، أيضاً، كان يعشق امرأةً صعبة المنال.

أطلقَ عليها أ.ج.م، الأحرف الأولى لعبارة " ***أمّ جميلة مثالية*** "، وهو ليس فقط لم يتبادل معها أي كلمة، بل إنه لم يعرف اسمها. كانت تُقيمُ في منزل حجارته بُنيّة في عمارة تقع في منتصف المسافة بين شقّته ومحل هاري لبيع الكتب، وفي صباح كل يوم وهو في طريقه لتناول طعام الإفطار كان يراها جالسة على الدَرَجة الأمامية للبناء الذي تُقيم

فيه مع طفلين، في انتظار وصول الحافلة الصفراء لتقلّهم إلى المدرسة. كانت على قدرٍ كبير من الجاذبية، كما قال توم، وشعرُها أسودَ طويلاً وعيناها خضراوين وضّاءتين، ولكن ما أثاره أكثر من أي شيء آخر فيها الطريقة التي كانت تحمل الطفلَين وتلمسهما. لم يكن قد شاهد الحب الأمومي يتم التعبير عنه بمثل تلك السلاسة أو البساطة، أو بمثل تلك الرقة والفرح الصريح. في كل صباح تقريباً كانت الـ أ.ج.م تجلس بين الطفلَين، وتعانق كلٌّ منهما بإحدى ذراعيها من الخصرين وهما يميلان عليها طلباً للدعم، تداعبُ أنفيهما بأنفها وتقبّلهما كلاً بدوره، أو تُجلسهما على رُكبتيها وهي تُقرّبهما منها بعناقٍ مزدوج، في دائرة فاتنة من العناق، والغناء، والضحك. وتابع توم قائلاً " كنتُ أسير ماراً بهم بأبطأ خطوة ممكنة. إنَّ مشهداً كذاك يجب التلذُّذ به، وهكذا كنتُ عادةً أتظاهر بأني أسقطتُ شيئاً على الأرض، أو أتوقف لأُشعل سيجارة - أي شيء من شأنه أنْ يُطيل الاستمتاع ولو لبضع لحظات. إنها غاية في الجمال، يا ناثان، ومجرد مشاهدتها مع الطفلين يجعلني أرغب في البدء بالإيمان بالإنسانية من جديد. أعلم أنَّ هذا مُثير للسخرية، ولكني أفكر فيها ربما عشرين مرة في اليوم الواحد "

احتفظتُ بمشاعري لنفسي، لكني لم أحب نبرته. لم يكن توم يتجاوز الثلاثين من العمر، أي في ريعان شبابه، ومع ذلك عندما يتعلّق الأمر بالنساء وبالسعي إلى الحب، فلم يكن يكلّ أو يملّ. آخر فتاة أقام معها علاقة ثابتة كانت زميلته في الدراسة اسمها ليندا شيء ما، لكنهما انفصلا قبل أنْ يُغادر آن آربور بستة أشهر، ومنذ ذلك الحين وحظّه بائس حتى إنه أخذ ينسحب تدريجياً من التداول. وقبل يومين أخبرني أنه لم

يخرج مع فتاة منذ أكثر من عام، مما يعني أنَّ عبادته الصامتة للـ أ.ج.م تُشكّلُ الجزء الأكبر من حياته العاطفية. ووجدتُ ذلك مُثيراً للشفقة. الفتى بحاجة إلى استجماع شجاعته والبدء ببذل جهد من جديد. إنه في حاجة إلى المضاجعة أكثر من أي شيء آخر - وإلى الكفّ عن تبديد لياليه بالحلم بأمٍ أرضيّة مُبتهجة. وطبعاً لم أكن أفضل منه حالاً، ولكن على الأقلّ كنتُ أعرف اسم فتاة أحلامي، وكلما ذهبتُ إلى مطعم كوزميك وجلستُ على الطاولة المعتادة، أستطيع أنْ أتكلّم معها. كان ذلك كافياً لرجلٍ عجوز مثلي. لقد كنتُ قد انتهيت من أداء رقصتي ونلتُ نصيبي من المرح، وما حدث لي لم يكن ذا أهمية. ولو أنَّ الفرصة سنحتْ لي لكي أزيد إلى رصيدي، لرفضتُها، لكنَ الأمر لا يتعلّق بالحياة والموت. بالنسبة إلى توم، كل شيء مُعلّق على استجماع شجاعته لكي يعود إلى صُلب اللعبة. فيما عدا ذلك، سوف يستمر في الاستسلام للأسى في ظلام جحيمه الخاص، الذي مساحته أربعة أمتار في أربعة، ومع مرور السنين سوف تملؤه المرارة، سوف يتحول إلى شخص لم يقصد أنْ يكونه.

قلت " أريد أنْ أرى ذلك المخلوق بعينيّ. إنكَ تجعلها تبدو أشبه بمخلوق من عالمٍ آخر "

" في أي وقت، ناثان. فقط تعال إلى شقتي ذات صباح عند الساعة الثامنة إلا ربع، وسوف نسير إلى منزلها معاً. لن يخيب أملك، أضمن لك هذا "

وهكذا كان واجتمعنا في الصباح الباكر من اليوم التالي ومشينا في الشارع المُفضّل لدى توم في بروكلن. واعتقدتُ أنّه كان يُغالي عندما

باشر الكلام عن الـ " الطاقة الآسرة " للأم الجميلة المثالية، ولكن اتّضحَ أني كنتُ مُخطئاً. فالمرأة كانت بالفعل مثالية، بالفعل تجسيداً سامياً لكل ما هو ملائكي وجميل، ومراقبتها وهي جالسة على الدرجات الأمامية لمنزلها وذراعاها تُحيطان تينك الطفلين الصغيرين كان كافياً لجلب الخفقان إلى قلب رجلٍ عجوز وبخيل. كنت وتوم واقفين على الجانب الآخر من الشارع، متمركزَين بلباقة خلف جذع شجرة خرنوب باسقة، وأشدّ ما أثّر فيّ في محبوبة نسيبي كان الحرية المُطلَقة التي تتسم بها إيماءاتها، استسلاماً لا يعرف الخجل سمحَ لها أنْ تعيش في اللحظة حتى الثمالة، في الحاضر الحاضر أبداً، والممتد أبداً. خمّنتُ عمرها يقترب من الثلاثين، ولكن مظهرها كان خفيفاً وخالٍ من الادّعاء جدير بفتاة صغيرة، ووجدتُ أنَّ من المنعش أنْ يظهر مثل ذلك الشكل الجميل لامرأة علناً وهي ترتدي زي عمل وقميص من الفلانيلة المُربَّعة. شعرتُ أنه دلالة على الثقة بالنفس، على لا مبالاة بآراء الآخرين لا يتصفُ بها إلا أصحاب الأرواح الأثبت والأرسخ. لم أكن أوشك أنْ أتخلّى عن افتتاني السرّي بماريا غونثاليث، لكني أدركتُ، بكل معيار موضوعي للجمال الأنثوي، أنه لا يمكن مُقارنتها بالـ أ.ج.م.

قلتُ لتوم " أراهن على أنها فنانة "

أجاب " ما الذي يدعوك إلى قول هذا ؟ "

" رداء العمل. الرسّامون دائماً يرتدون رداء العمل. من المؤسف أنَّ صالة هاري الفنيّة أقفلتْ أبوابها. كان يمكن أنْ ننظم لها معرِضاً "

" لعلها حامل من جديد. لقد رأيتها مع زوجها مرات عدة ؛ شاب طويل أشقر عريض المنكبين وله لحية كثّة. وحبّها له لا يقلّ عن حبّها للطفلَين "

" لعلها كليهما "

" كليهما ؟ "

" حامل وفنانة. فنانة حامل برداء عمل ثنائي الغرض. ومن ناحية أخرى، لاحِظْ قوامها النحيل. لقد ألقيتُ نظرة على منطقة بطنها، لكني لم ألاحظ وجود أي بروز "

" لهذا هي ترتدي رداء العمل. إنه فضفاض بحيث يُخفيه "

أثناء مواصلتنا أنا وتوم التأمّل في معنى رداء العمل، اقتربت حافلة المدرسة من أمام المنزل عبر الشارع، وفي الحال حُجِبَت الـ أ.ج.م وطفلاها عن أنظارنا. وأدركتُ أنه ليست لدي لحظة أبدّدها. في غضون بضع لحظات كانت ستبتعد الحافلة بعيداً عن البناء، وستستدير الـ أ.ج.م وتعود إلى المنزل. لم تكن لدي أي نيّة في التجسُّس على المرأة من جديد (هناك أشياء لا يفعلها المرء)، وإذا كانت تلك هي فرصتي الوحيدة، فعليّ أنْ أنتهزها في الحال. وبسبب الحالة العقلية لنسيبي الخَجِل، المُضنى بالحب، شعرتُ بأني مُلزَم بكسر السحر المُسلَّط عليه، وبإزالة الارتباك عن محبوبته لأعيدها إلى ما هي عليه حقاً: ربة منزل من بركلن سعيدة في زواجها ولديها طفلان وربما هناك آخر قادم على الطريق. لم تكن مثالاً للإلهة المقدسة التي لا يمكن الاقتراب منها، بل امرأة من دمٍ ولحم تأكل وتثرثر وتُنكح - كأي امرأة أخرى.

في ظل الظروف السائدة، لم يكن هناك إلا خيار ممكن واحد: أنْ اجتاز الشارع وأتحدث معها. ليس فقط بضع كلمات، بل أجري محادثة كاملة تطول بقدرٍ كافٍ بالنسبة إليّ لكي ألوِّح لتوم ليقترب وأُقحمه في الحديث. على الأقلّ، أردتُ له أنْ يُصافحها، أنْ يلمسها، لكي يُدرك

أخيراً بعقله السميك أنها مخلوق ملموس وليست روحاً أثيرية تعيش بين سُحُب مُخيلته. وهكذا انطلقت - بتهوُّر، واندفاع، دون أدنى فكرة عما سأقوله لها. كانت الحافلة قد بدأتْ تتحرك من جديد عندما وصلت إلى الطرف المقابل من الشارع، وكانت هناك، واقفة على حافة الرصيف أمامي مباشرة، تبعثُ قبلة عبر الأثير إلى طفليها العزيزين، اللذين كانا قد استقرا على مقعديهما في الحافلة وأصبحا الآن جزءاً من جمهرة من الأطفال الضاجّين. رسمتُ على وجهي تعبيرَ بائعٍ متجول مُريحٍ ومُطمئِن، وتقدّمتُ نحوها وقلت، " عذراً، ولكني هل أستطيع أنْ أسألك سؤالاً ؟ "

أجابت، وأعتقد أنها بوغتت قليلاً، أو فقط أجفلتْ لرؤيتها رجلاً واقفاً أمامها حيث قبل بلحظة كانت تقفُ الحافلة، "سؤال؟"

تابعتُ " لقد انتقلتُ تواً إلى الحي، وأنا أبحث عن محل راق يبيع أعمالاً فنية. عندما رأيتكِ واقفة هنا برداء العمل، حسبتُ أنكِ ربما تكونين أنتِ نفسك فنانة. وهكذا، خطر في بالي أنْ أسألك "

ابتسمت الـ أ.ج.م. لم أفهم إنْ كان ذلك لأنها لم تصدّقني أم لأنها تسلّتْ بضعف السؤال، ولكن عندما تفحّصتُ وجهها ورأيتُ التجاعيد الصغيرة تتشكل حول عينيها وفمها، أدركتُ أنها أكبر سناً قليلاً مما ظننتُ في أول الأمر. ربما كانت في الرابعة أو الخامسة والثلاثين - لكنّ هذا لا يعني أنه شكّلَ أيّ فرق أو انتقَصَ من رونقها الفتيّ بأي حال. حتى ذلك الحين لم تكن قد تفوهت إلا بكلمة واحدة - سؤال؟ - ولكن في المقطَعين الصوتيين القصيرَين سمعتُ رنين لهجة امرأة مولودة في بروكلن، تلك النبرة التي لا يُخطئها أحد ويسخرون منها في أجزاء أخرى من البلد، لكنني أجدها أشدّ اللهجات الأميركية ترحيباً، وإنسانيّة.

وبقـوة ذلك الصـوت، بدأت المحركـات تدور في رأسي، وعندمـا تكلمت معي للمرة الثانية، كنتُ قد وضعتُ مُخططا تمهيدياً لقصة حيـاتها. قلتُ في نفسي، لقد وُلِدَتْ هنا، ونشأتْ هنا أيضاً، ربما في المنزل نفسـه الذي كانت تقفُ أمامه الآن. والداها من الطبقة الكادحة، بما أنَّ ازدهار جيل بروكلن لم يبدأ حتى منتصف السبعينيات، بمعنى أنه في وقت مولدها (في أواخر الستينيات أو منتصفها) كان الحي ما يزال منطقة رثّة متهدمة يقطنها المُهاجرون المكافحون وأسر العمال (بروكلن التي عرفتها في طفولتي)، وبناء الحجارة البنّيـة المؤلف من أربعة طوابق ويلوح من خلفها، والذي يساوي الآن على الأقلّ ثمانمئة أو تسعمئة ألف دولار، وبيع بسعر التراب. وارتادت المدارس المحلية، وبقيتْ في المدينة لتلتحق بالجامعة، وتحب عدداً من الرجال وتحطِّم عدداً لا يُستهان به من القلوب، وأخيراً تتزوج، وعندما يموت والداها ترِثُ المنزل وتعيش فيه طفلة. إذا لم ينتهِ الأمر هكذا، فشيء شديد القُرب منه. لقد كانت الـ أ.ج.م مرتاحة جداً في مُحيطها بحيث لا يمكن أنْ تكون غريبة عنه، ومُستقرّة في مكانها بحيث لا يمكن أنْ تكون قد جاءت من مكانٍ آخر. إنَّ هذا هو مكانها، وهي تهيمن على العمارة كأنها عالمها منذ اللحظة الأولى من حياتها.

سألتْ " هل دائماً تحكم على الناس من ملابسهم؟ "

قلتُ " لم يكن حُكماً، بل مجرد تخمين. ولعله تخمين أحمق، ولكن إذا لم تكوني رسّامة أو نحّاتة أو فنّانة من نوعٍ ما، فهذه المرة الأولى التي أُخطئ فيها التخمين حول أي شخص. هذا هو اختصاصي. أنظرُ إلى الناس وأخمّن شخصياتهم "

افترَّ ثغرها عن ابتسامةٍ أخرى وضحكت. لابد أنها كانت تتساءلُ، مَنْ هذا السخيف، ولماذا يُحدثني هكذا ؟ وقررتُ أنَّ اللحظة قد حانت لأعرِّف عن نفسي. قلت " بالمناسبة، اسمي ناثان. ناثان غلاس "

" مرحبا، ناثان. وأنا اسمي نانسي ماتزوكللي. وأنا لستُ فنانة "

" أوه؟ "

" أنا صانعة مجوهرات "

" هذا غش. طبعاً أنتِ فنانة "

" معظم الناس يقولون إنها حِرفة "

" أعتقد أنها تعتمد على براعتك في العمل. هل تبيعين ما تصنعين؟"

" طبعاً. أنا أتاجر بها "

" هل محلك هو في الحي؟ "

" ليس لديّ محل. ولكن هناك عددا من المحال في الجادة السابعة تأخذ إنتاجي. وأبيع أيضاً أشياء خارج المنزل "

" آه، فهمت. هل تعيشين هنا منذ وقت طويل؟ "

" طوال حياتي. وُلِدتُ ونشأت في هذه البقعة بالذات "

" ابنة بارك سلوبر قلباً وقالباً "

" نعم. حتى النخاع "

ها هو : اعترافٌ كامل. لقد نجحَ شرلوك هولمز مرة أخرى، وبينما أنا أتباهى بقدراتي المُدمّرة على استقصاء المعلومات، تمنيتُ لو أنَّ هناك نسختين مني حتى أستطيع أنْ أربت على ظهري. أعلمُ أنَّ هذا يبدو كلاماً متعجرفاً، ولكن كم مرة يُحقق المرء انتصاراً عقلياً بهذه الخطورة ؟

وبعد أنْ سمعتها تتكلّم فقط كلمة واحدة، سيطرتُ على الأمر اللعين كله. لو كان واطسون موجوداً هناك، لهزَّ رأسه وتمتم من بين أسنانه.

في تلك الأثناء، كان توم ما يزال واقفاً على الجانب الآخر من الشارع، وأعتقد أنَّ الوقت المُتفَق عليه لإدخاله إلى مجرى الحديث قد فات منذ مدة طويلة. وعندما استدرتُ وأومأتُ إليه ليأتي، أبلغتُ الـ أ.ج.م أنه نسيبي وأنه يُدير قسم العاديات والمخطوطات في محل برايتمن آتيك.

قالت نانسي " أنا أعرف هاري. لقد عملتُ لصالحه ذات صيف قبل أنْ أتزوج. إنسان رائع "

" نعم، إنسان رائع. لم يعودوا يُنتجون مثل تلك البضاعة "

كنتُ أعلم أنَّ توم منزعج مني لأنني جررته إلى موقفٍ لم يرغب في التورط فيه، ولكنه مع ذلك تقدَّمَ وانضمَّ إلينا - مُحمراً من الخجل، مُنكّس الرأس، أشبه بكلب ينتظر عقابه بالجلد. وفجأةً ندمتُ على ما فعلته فيه، ولكن كان الأوان قد فات على وضع نهاية له، فات الأوان على الاعتذار، لذلك انغمستُ في الأمر وقدَّمته إلى ملكة بروكلن، وطوال الوقت كنتُ أُقسِمُ بقبر أختي على ألا أتدخَّلَ في شأن أي شخصٍ آخر بعد الآن.

قلت " توم، هذه نانسي ماتزوكللي. كنا نتناقش حول محال بيع التحف الفنية، لكننا استطردنا وانحرفنا إلى موضوع المجوهرات. وصدِّق أو لا تصدّق، لقد عاشت في هذا المنزل طوال حياتها "

مدَّ توم ذراعه اليمنى، دون أنْ يجرؤ على رفع عينيه عن الأرض، وصافح يد نانسي. قال "يسعدني لقاؤك"

أجابت، دون أنْ تعي لحسن الحظ الأمر الخطير الذي حصل، " ناثان يقول لي إنكَ تعمل لصالح هاري برايتمن ". لقد لمسها توم أخيراً، أخيراً سمعها تتكلّم، وبغضّ النظر عمّا إذا كان ذلك كافياً لكسر سِحر افتتانه، فإنَّ الاتصال قد حصل، مما يعني أنَّ على توم من الآن فصاعداً أنْ يواجهها على أساسٍ جديد. فهي لم تعد الـ أ.ج.م. بل نانسي ماتزوكللي، وعلى الرغم من جمالها، إلا أنها كانت فتاةً عادية تصنع المجوهرات لتكسب لقمة عيشها.

قال توم " نعم، عملتُ عنده مدة ستة أشهر. وأحببتُ العمل عنده "

قلت " نانسي نفسها كانت تعمل في المحل، قبل أنْ تتزوج "

بدل أنْ يرد على تعليقي، نظر توم في ساعة يده وأعلنَ أنَّ عليه أنْ يذهب. لوَّحتْ معبودته بهدوء مودّعة، دون أنْ تفهمَ شيئاً.

قالت " أسعدني لقاؤكَ يا توم. آمل أنْ أراك لاحقاً "

أجاب " وأنا آمل هذا أيضاً "، ثم، أمام دهشتي، التفتَ نحوي وهزَّ رأسه. " ما زال موعدنا على الغداء قائماً، صح؟ "

قلت " طبعاً "، وارتحتُ لمعرفتي أنه ليس منزعجاً كما تصورت. "نفس الزمان، ونفس المكان "

وانطلقَ مبتعداً، يمشي متثاقلاً بمحاذاة البناء وبخطى متثاقلة، ينكمشُ تدريجياً داخل المدى.

حالما أصبح بعيداً عن مرمى السمع، قالت نانسي : " إنه شديد الحياء، أليس كذلك؟ "

" نعم، إنه حيي جداً. لكنه طيب ونبيل. من أفضل الناس قاطبة "

ابتسمت الـ أ.ج.م. "هل ما تزال تريد اسم محل لبيع لوحات فنية؟"

" نعم، أريد. ولكني مُهتمٌ أيضاً بإلقاء نظرة على مجوهراتك. إنَّ عيد مولد ابنتي يقترب، وحتى الآن لم أشترِ لها هدية. ربما تستطيعين أنْ تساعدينني في انتقاء شيءٍ لها "

" ربما. لِمَ لا تدخل معي وتلقي نظرة ؟ "

عن حماقة الرجال

انتهى بي الأمر إلى ابتياع قِلادة تُكلّف في ذلك الحي مئة وستين دولاراً (أرخص بمقدار ثلاثين دولاراً عن السِعر الأصلي لأني دفعتُ نقداً). كانت قطعة جميلة ودقيقة الصنع، مع قطع من التوباز، والعقيق الأحمر، وزجاج مصقول مُعلّق على طول سلسلة رفيعة من الذهب، وتأكدتُ من أنه سيبدو جميلاً وهو يحيط بجيد راشيل النحيل.

كان مشغل نانسي يقع في الغرفة الخلفية في الطابق السفلي من المنزل، وكانت النوافذ تطلُ على الحديقة. التي لم تكن حديقة بقدر ما كانت أرض ملعب صغيرة جداً، في أحد زواياها أرجوحة، وفي أخرى منزلق من البلاستيك، ومجموعة من الدُمى وبينهما كرات من المطاط. وبينما أنا أتفحّص أنواع الخواتم، والقِلادات، والأقراط التي وضعتها للبيع، تبادلنا الحديث بنوع من الارتياح حول مواضيع شتى. كان الحديث معها هيِّن - منفتحة جداً، كريمة جداً، كلها داف‌ء وود - ولكن، للأسف، ليست ذكية كثيراً كما اتضح، إذ سرعان ما علِمتُ أنها مؤمنة بإخلاص بعلم التنجيم، وبقوة الكريستال، وبأنواع تدجيل العصر الجديد كلها. أوه، على أي حال، لا أحد كامل، كما يقولون في السينما - ولا حتى *الأم الجميلة المثالية*. قلتُ في نفسي، مسكين توم، كان سيخيب أمله

بشدة لو أنه نجح في خوض حديث جدي معها. ولكن أعود فأقول، لعل هذا أفضل.

لقد خمّنتُ بعضاً من وقائع حياتها الأساسية، ولكن بقيتُ فضولياً لأعرف إنْ كانت نظرياتي الهولميّة[١٥] الأخرى سارية المفعول أم لا. لذلك استمر استجوابي لها - دون أخذ الأمر بجدية صارمة، بل كنتُ أقفز إلى السؤال كلما سنحت الفرصة، في محاولة لطرحه بأشد ما أستطيع من رهافة. والنتائج كانت متفاوتة نوعاً ما. كنتُ مُحِقاً فيما يخص حياتها المدرسية (ملاحظة : التحقت بـ ٣٢١، ميدوود هاي، جامعة بروكلن مدة سنتين قبل أنْ تتركها لتجرِّب حظّها كممثلة، ولم تفلح في شيء) ولكني أخطأتُ بشأنْ وراثتها المنزل من أبويها المرحومَين. والدها كان متوفى، لكنَّ أمها كانت على قيد الحياة. وهي تشغل غرفة النوم الكبرى في الطابق العلوي، وتمتطي دراجتها خلال متنزه بروسبكت كل يوم أحد، وكانت وهي في سن الثامنة والخمسين ما تزال تعمل سكرتيرة لصالح شركة مُحاماة في حي مانهاتن في وسط البلد. وهذا يفوق عبقريتي المؤكَّدة ؛ يفوق عين آل غلاس التي لا تُخطئ.

بقيتْ نانسي متزوجة مدة سبع سنين وأشارت إلى زوجها باسميّ جيم وجيمي. وعندما سألتها إذا كان من آل ماتزوكيللي أم أنها تحمل اسمها قبل الزواج، ضحكتْ وقالت إنها أيرلندية صرف. فأجبتُ بالقول إنَّ إيطاليا وأيرلندا على الأقلّ كلاهما يبدأ بحرف الألف. وهذا أضحكها من جديد، ثم، أخبرتني، وما تزال تضحك، أنَّ اسمَ أمها الأول والاسم الأخير لزوجها متطابقان.

---

١٥ - الهولميّة : نسبة إلى شرلوك وهالمز ، في الروايات المشهورة - المترجم .

قلت " أوه، وما هو الاسم؟ "

" جويس "

" جويس؟ ". سكتتُ هنيهة فيما يُشبه التعجُّب المشوَّش. " أتريدين أنْ تخبريني أنكِ كنتِ متزوجة من رجلٍ اسمه جيمس جويس؟ "

" آه-هاه. كَاسم الكاتب تماماً "

" شيء لا يُصدَّق "

" الغريب في الأمر هو أنَّ والدي جيم لا يعرفان أي شيء عن الأدب. بل إنهما لم يسمعا بجيمس جويس. لقد أطلقا اسم جيم على اسم والد أمه، جيمس مرفي "

" حسن، آمل ألا يكون صاحبكِ جيم كاتباً. لن يكون شيئاً ممتعاً أنْ ينشر المرءُ كتاباً وذلك الاسم مطبوع في ذهنه "

" كلا، كلا، صاحبي جيم ليس كاتباً. إنه فولي ووكر "

" ماذا؟ "

" فولي ووكر "

" لا أفهم ماذا يعني "

" إنه يضع مؤثرات صوتية للأفلام السينمائية. وهذا جزء يتم بعد الإنتاج. مكبرات الصوت لا تلتقط دائماً ما يجري في موقع التصوير. ولكن لتفرض أنَّ المخرج يريد إظهار صوت قَدَم شخص تسحق حصى الممر، أتفهم ؟ أو قلب صفحة من كتاب، أو فتح صندوق من الألعاب النارية - هذا ما يفعله جيمي. إنه عمل جيد. دقيق جداً، ومُثير للاهتمام جداً. إنهم فعلاً يتعبون لكي يُنجزوا الأمور بدقة ".

عندما اجتمعتُ مع توم على مائدة الغداء عند الساعة الواحدة، نقلتُ إليه بدقة كل معلومة نجحتُ في جمعها من حديثي مع نانسي. كان

طلقاً مُبتهجاً على غير عادته، وشكرني أكثر من مرة لأخذي المبادرة في صباح ذلك اليوم وأجبرته على ذلك اللقاء وجهاً لوجه مع الـ أ.ج.م.

قلت " لم أكن أعلم كيف ستكون ردّة فعلك. وحالما وصلت إلى الطرف الآخر من الشارع، بتُّ متأكداً من أنكَ ستغضب مني "

" لقد فاجأتني، هذا كل ما في الأمر. لقد قمتَ بعملٍ جيد، يا ناثان، وهذا شيء جريء وممتاز "

" آمل ذلك "

"لم أكن قد رأيتها عن قُرب قبل ذلك. إنها مذهلة، أليست كذلك؟"

" نعم، جميلة جداً. بل أجمل فتاة في الحي "

" تذوب رقّة. هذه صِفتها الغالبة. تستطيع أنْ تشعر بالرقّة تشعُّ من كل سُمّ من مسامّ جسمها. إنها واحدة من أولائي الجميلات المتكبرات، المتحفظات. إنها تحبُ الناس "

" تقفُ على الأرض، كما يجري القول"

" نعم، بالضبط. تقفُ على الأرض. لم أعد خائفاً. في المرة التالية التي سأقابلها، سأتمكن من القول مرحباً، ومن التحدث معها. وشيئاً فشيئاً، قد نصبح أصدقاء "

" أكره أنْ أخيّب أملك، ولكن بعد التحدث إليها هذا الصباح، لا أعتقد أنَّ بينكما أي قواسم مُشتركة. نعم، إنها فتاة صغيرة جميلة، ولكن لا يحدث الكثير في الطابق العلوي، يا توم. إنها متوسطة الذكاء في أحسن الأحوال. مطرودة من الجامعة. ليس لديها اهتمام بالكتب أو بالسياسة. إذا سألتها مَنْ هو وزير الخارجية، فلن تعرف "

" وماذا في هذا ؟ لعلي أكون قد قرأتُ من الكتب أكثر من أي شخص في هذا المطعم، ماذا استفدتُ من ذلك ؟ المثقفون تافهون، يا ناثان. إنهم أشدّ الناس إثارة للضجر في العالم "

" ربما. ولكن أول ما سترغب في معرفته عنكَ هو برجك الفلكي. ثم سوف تضطر إلى التحدث عن الأبراج الفلكية على مدى العشر دقائق التالية "

" لا يهمني "

" مسكين يا توم. أنتَ فعلاً مُتيَّمٌ بها، ألستَ كذلك؟ "

" لا حيلة لي في ذلك"

" فما هي خطوتك التالية؟ الزواج، أم فقط إقامة علاقة عاطفية عادية ؟ "

" إذا لم أكن مُخطِئاً، أعتقد أنها ستتزوج من شخصٍ آخر "

" هذا مجرد تفصيل صغير. إذا أردتَ أنْ تتخلص منه، كل ما عليك أنْ تفعله هو أنْ تطلب ذلك. لدي صِلات طيبة، يا بُنيّ. ولكن إكراماً لك، قد أتولى الأمر بنفسي. أكاد أرى منذ الآن عناوين الصحف الرئيسة "***موظف سابق في شركة التأمين على الحياة يغتال جيمس جويس***"

" ها ها "

" لكني سأقول شيئاً واحداً في صالح محبوبتك نانسي. إنها تصنع مجوهرات جميلة جداً "

" هل تحمل القلادة معك؟ "

مددتُ يدي إلى جيب صدري الداخلي وأخرجتُ العلبة الضيقة والطويلة التي تحوي ما اشتريته في الصباح. وبينما كنتُ أفتح الغطاء،

وصلتْ مارينا حاملةً الشطائر إلى مائدتنا. لم أرغب في استثنائها من الكشف عما في الداخل، فدفعتُ بالعلبة في اتجاهها لكي تلقي نظرة عن قُرب. كانت القلادة تعتلي طولياً سريراً من القماش الصوفي والقطني الأبيض، وعندما مالت فوقها لتتفحّصها، أعلنتْ على عَجَل عن حُكمها " Ah, que Linda ، ما أجمله ". أثنى توم على رأيها بإيماء صامت، لا ريب في أنه تأثَّرَ كثيراً حتى عصيَ عليه الكلام لأنه كان يفكِّر في عزيزته نانسي، التي شغلتْ يداها العُلويتين الشيء الصغير البرّاق الهاجع أمامه.

رفعتُ القلادة من العلبة وقرَّبتُها من مارينا. قلت " لِمَ لا تلبسينها، لكي نرى كيف ستبدو "

ذلك كان هدفي في الأصل - ببساطة أنْ تعرضه لنا - ولكن حالما حملتْ القلادة بيديها ووضعتها على بشرتها السمراء الخفيفة (تلك البقعة الصغيرة من اللحم المكشوف تحت الزر العلوي المحلول مباشرةً من بلوزتها الفيروزية)، غيَّرتُ رأيي فجأةً. أردتُ أنْ أعطيها إياها كهدية. كان في استطاعتي أنْ أشتري قلادة غيرها لراشيل، أما هذه فكانت لائقة على مارينا تماماً حتى بدتْ أنها تخصّها. في الوقت نفسه، إذا أعطيتُ الانطباع بأني أتودد إليها (وهي الحقيقة، طبعاً، ولكن دون أمل)، فقد تشعر بأني أضعها في موقف مُحرِج وترفض قبولها.

قلت " كلا، كلا. لا تحمليها. ضعيها عليك، حتى نتأكد من أنها تتدلى كما ينبغي". وبينما هي تعبث بالمشبك في الخلف، أسرعتُ وحاولتُ أنْ أفكِّر في شيء يتغلَّب على مقاومتها. قلت " لقد أخبرني أحدهم أنَّ عيد مولدك هو اليوم. أهذا صحيح، يا مارينا، أم أنَّ ذلك الشخص كان يخدعني؟ "

أجابت " ليس اليوم. في الأسبوع التالي"

" هذا الأسبوع، الأسبوع التالي، ما الفرق ؟ سيحلّ قريباً، وهذا يعني أنكِ تعيشين داخل هالة عيد مولدك. إنه مكتوب على كل بقعة من وجهك ".

انتهتْ مارينا من طقس وضع القلادة وابتسمتْ. " هالة عيد مولدي؟ ما هذا التعبير؟ "

" لقد اشتريتُ هذه القلادة اليوم دون أي سبب معيَّن. وأردتُ أنْ أهديه إلى شخصٍ ما، لكني لم أعرف مَنْ هو. والآن بعد أنْ رأيتُ مدى جماله عليكِ، أريد منكِ أنْ تحتفظي به. هذه هي هالة عيد مولدك. إنه قوة هائلة، وتَجعل الناسَ يفعلون شتى أنواع الأمور الغريبة. لم أكنْ أعلم في ذلك الوقت، لكني كنتُ أشتري القلادة من أجلك "

في أول الأمر بدتْ سعيدة، وحسبتُ أنه لن تبرز أي مشكلة. من الطريقة التي نظرتْ بها إليّ بتينك العينين الحيويتين، لم يكن هناك أي شك في أنها أرادتْ أنْ تحتفظ بها، في أنها تأثّرتْ بالالتفاتة وأخجلتْ تواضعها، ولكن بعد ذلك، حالما انصرمت الموجة الأولى من السرور، بدأتْ تفكّرُ في الأمر قليلاً، وشاهدتُ الشك والاضطراب يتسللان إلى تينك العينين البنّيتين نفسيهما. قالت " أنت إنسان رائع، سيد غلاس، وأنا أُقدِّر حقاً هذا منك. ولكن لا أستطيع أنْ أقبل هدايا منك. هذا غير لائق. أنت زبون"

" لا عليك. إذا أردتُ أنْ أعطي شيئاً لنادلتي المُفضّلة، فمَنْ يمنعني؟ أنا رجلَ عجوز، والعجائز أحرار يفعلون ما يُريدون "

قالت " أنتَ لا تعرف روبرتو. إنه شديد الغيرة. ولا يريد أنْ أقبل أشياء من رجالٍ آخرين"

قلت " أنا لستُ أي رجل ؛ أنا مجرد صديق يُريد أنْ يُسعدك "
عند هذه النقطة، أضاف توم أخيراً مُساهمته السقيمة إلى النقاش.
قال " أنا واثق من أنه لا يقصد أنْ يُسبب أي أذى. أتعرفين مَنْ هو ناثان، يا مارينا. إنه شخص مجنون - دائماً يقوم بأعمال جنونية، متهورة "

قالت " هو مجنون، حقاً. وأيضاً لطيف جداً. كل ما في الأمر هو أني لا أريد أي مشاكل. أنتَ تعلم كيف. الأمور تتوالى، ثم يحدث الانفجار"

قال توم " انفجار؟ "

أجابت " نعم، انفجار. ولا تطلب مني أنْ أشرح معنى هذا "

قلت، وقد فهمتُ فجأةً أنَّ زواجها كان أشد هدوءاً مما ظننت. "حسن، أعتقد أنَّ لديَّ حلاً. فلتحتفظ مارينا بالقلادة، ولكن لا تأخذها معها إلى المنزل، بل تبقيها هنا في آلة المُحاسبة سحابة الليل. ويمكن لنا أنا وتوم أنْ نأتي في كل يوم ونمتّع أبصارها بجمال القلادة، وهكذا لن يعرف روبرتو أي شيء "

كان ذلك أمراً مستحيلاً، كان عرضاً ماكراً، مُغالطة مُخادعة، هزيلة، حتى إنَّ توم ومارينا انفجرا بالضحك.

قالت مارينا " واو، أنتَ رجلٌ عجوز جبان، يا ناثان "

قلت " لستُ عجوزاً إلى هذه الدرجة "

سألتْ " وماذا يحدث إذا نسيتُ أن ألبس القلادة ؟ ماذا يحدث إذا ذهبتُ إلى المنزل ذات ليلة وأنا ما أزال أضعها ؟ "

قلت " لن تفعلي هذا أبداً. أنت أذكى من ذلك "

وهكذا فرضتُ هدية عيد الميلاد على الشابة البريئة مارينا لويسا سانشيث غونثاليث، وتلقّيتُ مقابل جهودي التي بذلتُها قُبلةً على الخد، قُبلة طويلة ورقيقة سأظل أذكرها حتى آخر يوم في حياتي. تلك هي المنحة المُقدَّرة للحمقى من الرجال. وأنا لا شيء إذا لم أكن رجلاً أحمق، أحمق. نلتُ قبلتي وابتسامتي المشرقة كتعبير عن الشُكر، لكني نلتُ أكثر مما انتظرت الحصول عليه. اسمه مشاكل، وعندما سأصل في قصتي إلى النقطة التي يتم عندها تقديمي إلى السيد مشاكل، سوف أروي بالتفصيل ما حدث. لكنَّ الآن لسنا أبعد من بعد ظهيرة يوم الجمعة، وهناك مسائل أخرى، أكثر إلحاحاً يجب الاعتناء بها. وعطلة الأسبوع توشك أنْ تبدأ، وبعد أنْ غادرنا أنا وتوم مطعم كوزميك بأقلّ من ثلاثين ساعة، كنا جالسَين معاً في مطعمٍ آخر مع هاري برايتمن، يتناولون وجبة العشاء، ويشربون النبيذ، ويُصارعون ألغاز الكون.

ليلة من الأكل والشرب

مساء يوم سبت. ٢٧ أيار، عام ٢٠٠٠ . مطعم فرنسي في شارع سميث في بروكلن ؛ ثلاثة رجال جالسون حول طاولة في الزاوية اليُسرى الخلفية من المكان : هاري برايتمن (المعروف سابقاً بدنكل) ، وتوم وود ، وناثان غلاس. لقد أملوا طلباتهم تواً للنادل (ثلاثة أنواع من المُشهيات، ثلاثة أنواع من الوجبات الرئيسة، زجاجتين من النبيذ - واحدة أحمر، وواحدة أبيض) وتابعوا شرب فاتح الشهية الذي جلبوه إلى المائدة فور وصولهم إلى المطعم. كأس توم مملوء بالبوربون (ماركة الديك الرومي البري) ، وهاري يرشف الفودكا مارتيني، وبينما ناثان يبتلع جرعة أخرى من كأس الويسكي الصافي، الأحادي الملت (ما كالان عمره ١٢ عاماً) ، يتساءل إنْ كان في المزاج المناسب لتناوُل مشروب آخر قبل تقديم الوجبة. يكفي وصفاً للمشهد. حالما يبدأ الحديث، تبقى التوجيهات على خشبة المسرح في أدنى مستوياتها . ويرى المؤلّف أنَّ الكلمات الوحيدة التي تتفوه بها الشخصيات الآنفة الذكر هي التي لها أي أهمية بالنسبة إلى القصة. لهذا السبب، لن يكون هناك وصف للملابس التي ترتدي، ولا تعليقات على الأكل الذي ستأكل، ولا فترات توقف تنهض إحداها خلالها لتزور مرحاض الرجال، ولا فترات يُقاطع خلالها النادل، ولا كلمة تعليق واحدة على كأس النبيذ الأحمر الذي يُراق على بنطلون ناثان.

توم : " أنا لا أتحدث عن إنقاذ العالم. عند هذه النقطة، أنا فقط أريد إنقاذ نفسي. وبعض الناس الذين يهمني أمرهم. مثلك أنت، يا ناثان، وأنت، أيضاً، يا هاري "

هاري : " ما سبب هذه الكآبة، يا بُنيّ ؟ أنتَ مُقبل على تناول أفضل وجبة عشاء تناولتها منذ سنين، أنت أصغر فردٍ جالس على هذه الطاولة، وحسب علِمي، لم تُصَب بعد بأي مرضٍ خطير. أنظر إلى ناثان هناك. لقد أُصيبَ بسرطان الرئة، وهو لم يُدخّن مرة في حياته. وأنا أُصبت بنوبتين في القلب. أترانا مُكتئبَين؟ إننا أسعد رجلَين في العالم "

توم : " كلا أنتما لستما كذلك. لستما أقلّ بؤساً مني "

ناثان : " هاري على حق، يا توم. إنَّ الوضع ليس بهذا السوء "

توم : " بل هو كذلك. وأسوأ "

هاري : " أرجو أنْ تُعرِّف الضمير "هو". أنا حتى لم أعد أعرف عمّا تتحدث "

توم : " عن العالم. الثقب الأسود الهائل الذي نُسميه العالم "

هاري : " آه، العالم. حسن طبعاً. هذا لا يحتاج إلى كلام. العالم فاسد. كل إنسان يعلم هذا. لكننا نبذل أقصى جهدنا لنتجنبه، أليس كذلك؟ "

توم : " كلا ليس صحيحاً. إننا غارقون في قلبه، سواء أحببنا أم لم نُحب. إنه يكتنفنا، وكلما أرفع رأسي وألقي نظرة عليه، يملؤني إحساس بالاشمئزاز. بالحزن والاشمئزاز. قد تعتقد أنَّ الحرب العالمية الثانية قد حلَّت المشاكل، على الأقلّ على مدى مئتي سنة قادمة. لكننا ما نزال نمزق بعضنا بعضاً، أليس كذلك ؟ ما نزال نتبادل الكراهية كما كنا دائماً "

ناثان : " إذن فهذا ما نتحدثُ فيه. السياسة"

توم : " نعم. من بين أشياء أخرى. وفي الاقتصاد. والجشع. والمكان الرهيب الذي تحوَّل إليه هذا البلد. وفي المهووسين في حزب اليمين المسيحي. وفي شبكة أصحاب الملايين الذين لا يتجاوزن العشرين. وفي قناة رياضة الغولف. وقناة الدعارة. وقناة التقيّؤ. وانتصار الرأسمالية، التي لم يعُد هناك ما يقف في وجهها. وعنا جميعاً نحن الشديدي الأناقة، المسرورين جداً بأنفسنا، بينما نصف العالم يموت جوعاً ونحن لا نرفعُ إصبعاً لتقديم المساعدة. لم أعد أستطيع التحمُّل، أيها السادة. أريد أنْ أخرج ".

هاري : " تخرج ؟ وإلى أين ستذهب ؟ إلى المُشتري ؟ إلى بلوتو ؟ إلى أحد الكويكبات في المجرّة التالية؟ مسكين يا توم أيها الوحيد، كالأمير الصغير المنبوذ على صخرته في وسط الفضاء ".

توم : "أخبرني أنت إلى أين أذهب. أنا منفتح أمام كل الاقتراحات"

ناثان : " إلى مكانٍ تعيش فيه حياةً بشروطك. هذا ما نتحدث فيه، أليس كذلك؟ زيارة أخرى إلى "جِنانٍ وهمية". ولكن لكي تفعل ذلك، ينبغي أنْ تكون راغباً في نبذ المجتمع. هذا ما قلته لي. حدث ذلك قبل زمنٍ بعيد، ولكن أعتقد أنكَ استعملتَ كلمة ***شجاعة***. هل تتحلّى بالشجاعة، يا توم ؟ هل يتحلّى أيٌّ منا بالشجاعة اللازمة لفعل ذلك؟ "

توم : " أنت ما تزال تذكُر تلك الورقة القديمة، هه؟ "

ناثان : " لقد تركت أثراً بليغاً عليّ "

توم : " كنتُ على وشك التخرج حينئذٍ. لم أكن أعرف الكثير، لكنني كنتُ ربما أشدّ ذكاءً مما أنا عليه الآن "

هاري : " ما الذي تُشير إليه ؟ "

ناثان : " إلى الملجأ الداخلي، يا هاري. المكان الذي يلجأ إليه الإنسان عندما لا تعود الحياة في العالم الحقيقي ممكنة "

هاري : " أوه. ذات يوم كان لدي واحد. حسبتُ أنَّ كل إنسان لديه واحد "

توم : " ليس بالضرورة. الأمر يتطلَّبُ مُخيلة خصبة، فكم من الناس لديهم منها ؟ "

هاري : ***(يُغمض عينيه ؛ ويضغط إبهامَيه على صدغيه)*** :

"الذكرى كلها تعود إليّ الآن. فندق إكزيستنس (الوجود). لم أكن قد تجاوزت العاشرة من العمر، ولكن ما أزال قادراً على التذكُّر بدقة اللحظة التي عثرتُ فيها على الاسم. كان الوقت بعد ظهيرة يوم أحد أثناء الحرب. كان جهاز الراديو مفتوحاً، وكنتُ جالساً في غرفة الجلوس في منزلنا في بوفالو مع نسخة من مجلة "لايف"، أتفرَّج على صور القوات الأميركية في فرنسا. لم أكن قد ولجتُ أيّ فندق، لكنني مررت بعدد كافٍ منها أثناء جولاتي في المدينة مع أمي بحيث أعرف أنها أماكن خاصة، حصون تحمي المرء من قذارة الحياة اليومية وخسّتها. لقد أحببتُ الرجال ببزاتهم الزرقاء الذين وقفوا أمام رِمنغتون آرمزَ. أحببتُ لمعان التركيبات النحاسية على الأبواب الدوارة في فندق الإكسيليسيور. أحببتُ الشمعدان الهائل المُعلّق في بهو فندق الريتز. كان الهدف الوحيد للفندق هو أنْ يجعل المرء سعيداً ومرتاحاً، وحالما يوقِّع باسمه في السجل ويصعد إلى الطابق العلوي إلى غرفته، فإنَّ كل ما عليه أنْ يفعله هو أنْ يطلب شيئاً فيُلبّى له على الفور. كان الفندق يُمثل الوعد بعالمٍ أفضل، بمكانٍ هو أكثر من مجرد مكان، بل فرصة، فرصة للعيش داخل أحلامه "

ناثان : " هذا يُفسّر الجزء الخاص بالفندق. أين عثرتَ على كلمة وجود ؟ "

هاري : " سمعتها عبر الراديو بعد ظهيرة يوم الأحد ذاك. كنتُ أصغي جزئياً إلى البرنامج، لكنّ كان أحدهم يتكلّم عن الوجود الإنساني، وأعجبني رنينها. ***قوانين الوجود*** ، كما قال الصوت، ***والأخطار التي علينا أنْ نواجهها في سياق وجودنا*** . الوجود كان أكبر من مجرد الحياة. كان حياة كل إنسان مجتمعة، وحتى إذا كنتَ تعيشُ في بوفالو، أو نيويورك، ولم ترَ قط أكثر من مسافة عشرة أميال بعد المنزل، فإنكَ تشكّلُ أيضاً جزءاً من اللغز. لم يكن يهمّ مدى ضآلة حياتك. فإنّ ما كان يحدث لكَ لا يقلُّ أهمية عما يحدث لأي شخص آخر.

توم : " لا أزال لا أفهم. أنتَ اخترعتَ مكاناً اسمه ***فندق الوجود*** ، ولكن أين يقع؟ ماذا كان الغرض منه؟ "

هاري : " الغرض؟ لا شيء، حقاً. إنه مُنتجع، عالم أستطيع أنْ أزوره في عقلي. هذا ما نتحدث عنه، أليس كذلك؟ إنه هروب "

ناثان : " وإلى أين هرب هاري ذو الأعوام العشرة؟ "

هاري : " أه. هذا سؤال مُعقّد. في الواقع، هناك اثنان من فندق الوجود. الأول، الذي اخترعته بعد ظهيرة يوم الأحد ذاك أثناء الحرب، ثم الثاني، الذي لم يظهر إلا عندما وصلت إلى مرحلة الدراسة الثانوية. يؤسفني أنْ أقول، إنّ الأول كان مجرد فكرة مبتذلة صرف وعاطفيّة صِبيانية. لكني كنتُ مجرد صبي صغير عندئذٍ. كنتُ أصغر من أنْ أقاتل، ولكن ككل الصبية الصغار البدينين والبلهاء، حلمتُ بأن أصبح جندياً. يا إلهي، آه، ويا إلهي أيضاً. يا لنا من بلهاء جُوف نحن البشر.

وهكذا تخيّلتُ أنَّ هذا المكان اسمه فندق الوجود، وعلى الفور حوّلتُه إلى ملجأ للأطفال الضائعين. أنا أتحدث عن الأطفال الأوروبيين، طبعاً. كان آباؤهم قد ماتوا في المعركة، وأمهاتهم كنَّ مطمورات تحت أنقاض الكنائس والأبنية، وبقوا هم، يهيمون على وجوههم في أرجاء بقايا المدن المقصوفة في برد الشتاء، يبحثون عن الطعام في الغابات، أطفال وحيدون، أزواجاً، أو ضمن مجموعات من أربعة أو خمسة أو عشرة، يُدثرون أقدامهم بالخرق بدل لبس الأحذية، ووجوههم الهزيلة ملوّثة بالطين. عاشوا في عالمٍ خالٍ من البالغين، ولأني كنتُ خائفاً جداً ومُحباً للغير، عيَّنتُ نفسي مُنقذهم. تلك كانت مهمّتي المقدسة، هدفي في الحياة، وفي كل يوم حتى آخر الحرب كنتُ أهبطُ إلى إحدى الزوايا المنكوبة من أوروبا لأنقذ الأولاد والبنات الضائعين. كنتُ أكافحُ في سفوح الجبال المُحترقة، وأسبحُ قاطعاً بحيراتٍ تنفجر، وأشقُ طريقي مع مدفع رشاش إلى أقبية الخمور المظلمة، وفي كل مرة أعثر على يتيم آخر، فأمسك الطفل من يده وأقوده إلى فندق الوجود. لم يكن يهم في أي بلد أكون. بلجيكا أو فرنسا، بولندا أو إيطاليا، هولندا أو الدنمارك - كان الفندق دائماً قريباً، ودائماً أنجحُ في إيصال الطفل إلى هناك قبل هبوط الليل. وحالما يمرون بشكليات التسجيل أمام طاولة المكتب، أستدير وأغادر. لم يكن من صُلب عملي أنْ أُدير الفندق - بل فقط أنْ أعثر على الأطفال وأوصلهم إلى هناك. على أي حال، الأبطال لا يرتاحون، أليس كذلك؟ لا يُسمح لهم بالنوم على أسرّة وثيرة مع أغطية من وبر الصوف وثلاث وسائد، وليس لديهم وقت ليجلسوا في مطبخ الفندق ليأكلوا حصّة من يخني لحم الحَمَل مع تلك البطاطا الريّانة والجزر

يتصاعد منه البخار في الوعاء. بل عليهم إنْ يعودوا إلى الليل وإلى أعمالهم. وعملي كان إنقاذ الأطفال. وحتى إطلاق آخر طلقة، وإلقاء آخر قنبلة، كان عليّ أنْ أخرج لأبحث عنهم.

توم : " وماذا حدث بعد انتهاء الحرب؟ "

هاري : " تخلّيتُ عن أحلامي بشجاعة رجوليّة وبتضحية نبيلة بالنفس. لقد أغلق فندق الوجود أبوابه، وعندما فتحها من جديد بعد ذلك ببضع سنين، لم يعد قائماً وسط المرج في الريف الهنغاريّ، ولم يعُد يُشبه قلعة على الطِراز الباروكي اقتُلعَتْ من جادات مدينة بادن-بادن. فندق الوجود الجديد كان أصغر حجماً وأكثر رثاثة، وإذا أردتَ أنْ تعثر عليه الآن، عليكَ أنْ تذهب إلى واحدة من تلك المدن التي لا تبدأ فيها الحياة الواقعية إلا بعد هبوط الظلام. إلى نيويورك، مثلاً، أو هافانا، أو إلى شارع جانبيّ قذر في باريس. وعندما تلج فندق الوجود تخطر في بالك كلمات مثل *مُسامرة، النور والعتمة والقَدَر*. يرمقك الرجال والنساء في البهو بتحفُّظ. وكل شيء هو مزيج من العطر والملابس الحريرية والبشرة الدافئة، والجميع يتجولون دائماً وهم يحملون بيد كأساً طويلاً من المشروب وسيجارة مشتعلة في الأخرى. كنتُ قد شاهدتُ ذلك كله في أفلام السينما، وعرفتُ كيف ينبغي أنْ يبدو. الزبائن الدائمون في الطابق السفلي في بار البيانو يرشفون المارتيني الصِرف. والكازينو في الطابق الثاني مع طاولة الروليت وحجارة النرد تقفز بصوت مكبوت على اللبّاد الأخضر، ومدير لعبة الباكارا يهمسُ بلكنة أجنبية متملّقة. وصالة الرقص في المستوى الأدنى بالكبائن الجلدية اللامعة والمغنية تحت بقعة الضوء بصوتها الضبابي والرداء الفضي الخفّاق. تلك كانت الأسس التي

ساعدتْ في وضع الأمور في نِصابها، ولكن لا أحد كان يأتي فقط من أجل المشروب أو للمقامرة أو لسماع الأغاني، وإنْ كانت المغنّية في تلك الليلة هي ريتا هيوارث، جاءت بالطائرة من بوينس أيريس لأداء حفلٍ واحد لا يرافقها إلا زوجها الحالي ومدير أعمالها، جورج مكريدي. كان ينبغي على المرء أنْ يشعر بارتياح بين الحشد، أنْ يشرب بضعة كؤوس قبل أنْ يباشر العمل. ليس عملاً، بالضبط، بل لعبة، اللعبة الممتعة إلى أقصى مدى بتقرير أي شخص تصطحبه إلى الطابق العلوي في وقتٍ لاحق من تلك الليلة. الخطوة الأولى دائماً تبدأ بالعينين - لا شيء غير العينين. تجعلهما تحومان متنقّلتين من هذا إلى ذاك لبضع دقائق، وأنتَ تشرب بهدوء مشروبك وتدخّن سيجارتك، تختبر الاحتمالات، تفتش عن نظرة سريعة لعلّها تصوّب نحوك، بل لعلها تغوي أحدهم بابتسامة صغيرة أو باحتكاك خفيف بالكتف لتبدأ بالنظر إليه. لا فرق عندي إنْ كانوا رجالاً أم نساء. في تلك الأيام كنتُ لا أزال طاهراً، لكني كنتُ أعرف ما يكفي عن نفسي لأعلم أني لا آبه. ذات مرة، جلس الممثل كاري غرانت إلى جواري على مقعد البيانو وبدأ يدلّكُ ساقي. وفي مرة أخرى، عادت المرحومة جين هارلو[١٦] من قبرها ومارست معي حباً مشبوباً في الغرفة رقم ٤٢٧. ولكن كانت هناك مُدرّستي للّغة الفرنسية، مدموازيل دو فوريه، الكيبيكيّة النحيلة ذات الساقين الجميلتين وأحمر الشفاه الأحمر البرّاق والعينين البنّيتين المائعتين. هذا بالإضافة إلى هانك ميللر، الظهير الربعي للمنتخب وزير النساء الجذاب للطبقة الراقية. ربما كان يمكن لهانك أنْ يضربني حتى الموت لو علِمَ ماذا أفعل له في

١٦ - جين هارلو ، ممثلة أميركية من أيام السينما الصامتة . - المترجم

أحلامي، لكنَّ الحقيقة هي أنَّه لم يعلم. عندئذٍ كنتُ فقط طالباً في السنة الثانية، وما كان يمكن أنْ أتحلّى بالشجاعة اللازمة لمخاطبة مثل تلك الشخصية المهيبة باسم هانك ميللر أثناء النهار، أما في الليل فكان في استطاعتي أنْ أقابله في بار فندق الوجود، وبعد شرب بضعة كؤوس وتبادل حديث وديّ قصير، كان يمكن أنْ أصطحبه إلى الطابق العلوي إلى الغرفة ٣٠١ وأطلِعه على أسرار العالم "

توم : " كاستمناء المراهقين"

هاري : " يمكنك أنْ تقول هذا. لكني أفضِّل أنْ أرى الأمر كنِتاج حياةٍ داخلية ثريّة "

توم : " إنَّ هذا لا يوصلنا إلى أي نتيجة"

هاري : " إلى أين تريدنا أنْ نصل، أيها العزيز توم؟ إننا جالسون هنا ننتظر طبق الطعام التالي، نشرب من زجاجة سانسيريه رائعة، ونتسلّى بقصص تافهة. لا خطب في هذا. في مُعظم أجزاء العالم، يُعتَبَر هذا أرقى سلوك مُتحضرٍّ".

ناثان : " الفتى مُكتئب، يا هاري، وهو في حاجة إلى التحدث"

هاري : " أنا أعي هذا. لدي عينان في رأسي، أليس كذلك ؟ إذا كان توم لا يوافق على فكرتي حول فندق الوجود، فربما يجب أنْ يخبرنا شيئاً عن هذا. كل إنسان لديه فكرته، كما تعلم. وكما أنَّه لا يوجد شخصان متشابهان، فإنَّ فكرة كل إنسان عن فندق الوجود تختلف عن الأفكار الأخرى كلها".

توم : " أنا آسف. لا أقصد أنْ أكون مملاً. من المفترض أنْ تكون هذه الليلة ممتعة، وأنا أفسِدها عليكما".

ناثان : " لا عليك. فقط أجِبْ عن سؤال هاري".

توم (صمت طويل ؛ ثم يقول بصوتٍ منخفض، وكأنه يُكلِّم نفسه) : " أريد أنْ أعيشَ بأسلوب جديد، هذا كل ما في الأمر. إذا لم يكن في استطاعتي أنْ أغيِّر العالم، فلأحاول أنْ أغيِّر نفسي على الأقلّ. ولكن لا أريد أنْ أفعل هذا وحدي. أنا وحيد أكثر مما ينبغي في وضعي الحالي، وسواءٌ أكان هذا خطأي أم لا فإنَّ ناثان على حق : أنا مُكتئب. منذ أنْ تحدثنا عن أورورا في ذلك اليوم، لم أكفَّ عن التفكير فيها. أنا مشتاقٌ إليها. أشتاق إلى أمي. أشتاق إلى كل مَنْ فقدته. أحياناً يجتاحني حزنٌ طاغ، ولا أصدِّق أني لا أقعُ ميتاً من وطأة الثقل الذي أرزحُ تحته. تسألني ما هو فندق الوجود، يا هاري ؟ لا أعلم. ولكن ربما له صِلة بالعيش مع الآخرين، بالفرار من هذه المدينة الشبيهة بجُحر الجرذان ومُشاركة الحياة مع أناسٍ أحبهم وأحترمهم "

هاري : " طائفة"

توم : " كلا، ليس طائفة - بل جماعة متوافقة. هناك فرق "

هاري : " وأين ستكون تلك الأرض المثالية؟ "

توم : " في مكان ما في الريف، أعتقد. مكان شاسع المساحة وفيه ما يكفي من الأبنية لكي تؤوي كل الذين يرغبون في العيش هناك "

ناثان : " كم عدد الناس الذين تتحدث عنهم؟ "

توم : " لا أعلم. هذا لا يعني أني فكرت في كل شيء حتى الآن. ولكن أنتما الاثنان مقبولان فيها "

هاري : " يُخجلُ تواضعي أنْ أحتلَّ مكانةً مرموقة على لائحتك. ولكن إذا انتقلتُ إلى الريف، ماذا سيحدث لعملي؟ "

توم : " سينتقل معك. لقد جمعتَ ٩٠٪ من مالك عبر البريد كما هو. فماذا يهم أي مكتب بريد تستخدم ؟ نعم، يا هاري، طبعاً أريد منك أنْ تشترك في المشروع. وربما فلورا أيضاً "

هاري : " عزيزتي المجنونة فلورا. ولكن إذا طلبتَ منها هذا، يجب أنْ تدعو بت أيضاً. إنها مريضة الآن كما تعلم. مربوطة إلى كرسي متحرّك وتعاني من مرض باركنسون، المسكينة. لا أستطيع أنْ أقول كيف ستكون ردّة فعلها، ولكن في النهاية قد ترحّب بالفكرة. ثم هناك روفوس "

ناثان : " مَنْ روفوس؟ "

هاري : " الشاب الذي يعمل خلف طاولة المُحاسبة في المتجر. الجامايكي الطويل القامة، ذو البشرة الفاتحة واللفاع الطويل الوردي اللون. وقبل بضع سنوات وجدتُه يبكي بحرقة أمام مبنى في ويست فيليج فأخذته إلى المنزل. أما الآن، فقد تبنّيته بصورة أو بأخرى. وعمله في المتجر يُساعده على دفع أجرة سكنه، لكنه أيضاً أحد أفضل الشواذ الذين يعملون في شوارع المدينة. إنه يعمل في العطل الأسبوعيّة تحت اسم تينا هوت. إنه ممثل بارع، يا ناثان. يجب أنْ تشاهد أداءه ذات يوم"

ناثان : " ولماذا يرغب في مغادرة المدينة؟ "

هاري : " لأنه يُحبني، هذا أولاً. ولأنه مُصاب بالإيدز ويكاد يجن من فرط الفزع. قد يفيده تغيير المكان"

ناثان : " عظيم. ولكن من أين سنجمع المال لكي نشتري عقاراً في الريف ؟ يمكنني أنْ أجمع بعضه، لكنه لن يكفي"

توم : " إذا أرادت بت أنْ تنضم إلينا، فربما ينبغي أنْ ترغب في فتح خزانتها وتساعدنا"

هاري : " هذا مستحيل. الرجل لديه كبرياء، يا سيدي، وأفضِّل أنْ أنعق عشر مرات على أنْ أطلب من تلك المرأة بنساً آخر"

توم : " حسن، إذا بعتَ بناءك الذي في بروكلن، فقد تجمع ما يكفي لنجاح المشروع "

هاري : "إنه مجرد نقطة في دلو. إذا كنتُ سأنفق سنوات شيخوختي في مكانٍ ناءٍ، فأريد أنْ أفعل ذلك بأسلوب فخم. لن أعيش حياة ريفية، يا توم. فإما أنْ أصبح صاحب أرض في الريف، أو لا اتفاق"

توم : " إذن، قليل من هنا، وقليل من هناك. سوف نفكّر في أناس آخرين يمكن أنْ يرغبوا في الانضمام، وإذا جمعنا مواردنا فقد نتمكن من أن ننجح "

هاري : " لا تقلقوا، يا شباب. العم هاري سيعتني بكل شيء. على الأقلّ هو يأمل أنْ يفعل. وإذا جرى كل شيء حسب الخطة، نستطيع أنْ نتوقَّع جمع مبلغ كبير من المال في المستقبل القريب. ما يكفي لقلب الميزان وتحقيق حلمنا. هذا ما نتحدث بشأنه، أليس كذلك ؟ عن حلم، الحلم بالابتعاد عن هموم وأحزان هذا العالم البائس وخلق عالم خاص بنا. مشوار طويل، نعم، ولكن مَنْ يقول إنه لن يتحقق؟"

توم : " ومن أين ستأتي " كمية المال " تلك ؟ "

هاري : " فلنقُل فقط إنَّ لديّ مغامرة تجارية في العمل، وسوف نُرجئ المسألة إلى أجلٍ غير مُسمّى. إذا أصبحتُ ثرياً، فإنَّ فندق الوجود الجديد سوف يُصبح حقيقة مؤكّدة. فإذا لم أصبح كذلك - حسن، سأكون على الأقلّ قد سقطتُ وأنا أقاتل ببسالة. لا يمكن لأي رجل أنْ يفعل

أكثر من ذلك، أليس كذلك ؟ أنا في السادسة والستين من العمر، وبعد كل النجاحات والإخفاقات في... ما يُعتَبَر مسيرتي المهنية المُريبة نوعاً ما، لعلّ هذه فرصتي الأخيرة لأختطف مبلغاً كبيراً من المال. وعندما أقول كبيراً، أعني كبيراً جداً. أكبر مما يمكن لأي إنسان أنْ يتخيّله.

استراحة لتدخين سيجارة

في ذلك الوقت، لم آخذ ذلك الكلام على محمل الجَد. لقد كان توم مُكتئباً - هذا كل شيء - وكان هاري ببساطة يُحاول أنْ يبثّ فيه المرح، أنْ يُبهجه ويُخرجه من حالة فتور الهمّة. ويجب أنْ أعترف أني أُعجِبتُ بهاري لأنه حاول إدخال البهجة إلى قلب توم ولعبثه طوال الوقت بخياله غير العملي، لكني وجدتُ أنَّ فكرة مغادرة هاري حقاً بروكلن وانتقاله إلى مستوطنة ريفية نائية هي محض هراء. الرجل خُلِقَ ليعيش في المدينة. إنه مخلوق للحشود والتجارة، والمطاعم الجيدة والألبسة الغالية، وإنْ كان نصف شاذ جنسياً، فإنَّ أقرب أصدقائه اتَّضح أنه أسود يميل إلى ارتداء ملابس النساء ذهبَ إلى العمل وهو يضع قرطاً بمشبك من حجر الراين ولفاعاً من الريش الوردي. ضعْ رجلاً كهاري برايتمن في مكان ناءٍ منعزل في الريف، وسوف يهرع جيرانه من الفلاحين وكل منهم يحمل مِذراة وسكين ويطردونه.

من ناحية أخرى، شعرتُ بثقة تامة بأنَّ مغامرة هاري التجارية حقيقية. كان الفاسد العجوز يُعِدُّ في الخفاء صفقة جديدة، وكنتُ أتحرَّق بالفضول لأعرف ما هي. وإنْ لم يرغب في التكلّم عنها أمام توم، وددتُ لو يستثنيني. وقد سنحت لي الفرصة بعد أنْ طلبنا الفاكهة بقليل، وذلك

عندما استأذن توم وانتقلَ إلى منطقة البار لكي يُدخّن سيجارة (وهو أحدث تكتيك لديه في الحملة الحالية لكي يُنفِق بعض الجنيهات).

علّقَتُ على كلام هاري " مبلغ كبير. يبدو شيئاً مُثيراً للاهتمام "

قال " إنها فرصة العمر"

" هل هناك سبب يدفعك إلى الامتناع عن التحدث عن الموضوع ؟ "

" أنا أخشى أنْ أُخيِّب أمل توم، هذا كل ما في الأمر. هناك بعض القضايا الفرعية ينبغي حلّها، وإلى أنْ يستقر الأمر، لا معنى للمبالغة في الحماس "

" في الواقع، أنا أوفر مبلغاً من المال. بل مبلغ كبير، في الحقيقة. إذا أردت مُستثمراً آخر ليُشاركك، قد أرغب في تقديم المُساعدة "

" هذا كرم ضافٍ منك، يا ناثان. ولحسن الحظ، أنا لا أفتش عن شريك. ولكن هذا لا يعني أني لا أرحّب بنصيحتك. أنا واثق تماماً من أنَّ شركائي مع الزيادة - لكني لستُ واثقاً مئة بالمئة. والشك ثقيل الوطأة لا يمكن التعايُش معه، ولاسيما بوجود الكثير من المشاكل"

" إذن، ما رأيك بعشاءٍ آخر؟ فقط نحن الاثنان. يمكنك أنْ تشرح لي الوضع كله، وأنا سأعطيك رأيي "

" ما رأيك في وقتٍ ما من الأسبوع القادم؟ "

" فقط عيِّن اليوم، وستراني معك "

عن حماقة الرجال (٢)

عند الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، توقفتُ في أحد محلات بيع المجوهرات المحلية لأشتري قلادة بديلة لراشيل. لم أرغب في إزعاج الـ أ.ج.م برن جرس منزلها في صباح يوم أحد، لكني طلبتُ من البائعة بالتحديد أنْ تعرض عليّ كل القِطع التي تحمل ماركة نانسي ماتزوكللي. ابتسمتْ المرأة، وقالت إنها صديقة قديمة لنانسي، ثم فتحت على عَجَل خزانة زجاجية أخذتْ منها ثماني أو عشرة عيّنات من عملها، ووضعتها على طاولة المُحاسبة واحدة بعد أخرى لأعاينها. وشاء الحظ أنَّ آخر قلادة كادتْ تكون مُطابقة تماماً لتلك التي كانت عندئذٍ هاجعة ليلاً في صندوق المُحاسبة في مطعم كوزميك.

كنتُ أُخطط للتوجه مباشرة إلى شقتي. وأثناء توجهي إلى المخزن تذكّرت نادرتين، وتقتُ للعودة إلى طاولة مكتبي لأضيفهما إلى كتابي الذي كان يتّسع باطّراد "***كتاب الحماقة الإنسانية***". ولم أكن قد أزعجتُ نفسي بعدّ المواد التي كتبتها حتى ذلك الحين، ولكن لابد أنه كان هناك حينئذٍ ما يُقارب المئة منها، ومن الطريقة التي كانت تتوارد عليّ، تجتاحني على مدار ساعات النهار والليل (أحياناً حتى في أحلامي)، خمّنتُ أنه أصبح هناك ما يكفي منها لإبقاء المشروع مستمراً على مدى

سنين طويلة. ولكن لم تمر عشرون ثانية على مغادرتي المحل حتى صادفتُ في طريقي نانسي ماتزوكللي، الـ أ.ج.م. كنتُ أُقيمُ في الجوار على مدى شهرَين، وكنتُ أتمشى مطوّلاً في فترتيّ الصباح وبعد الظهيرة، وترددتُ على عددٍ لا يُحصى من المحال التجارية والمطاعم، وجلستُ في الهواء الطلق في مقهى سيركل كافيه أراقبُ مئات الناس يقطعون الجادة جيئة وذهاباً، ولكن لم يُصادف مرة واحدة، حتى صباح يوم الأحد ذاك، أنْ لمحتُها بين الناس. لا أعني بقولي أنْ أُلَمح إلى أنها أفلتتْ من انتباهي. إنني أنظر إلى كل شخص، ولو كنتُ قد رأيتُ تلك المرأة من قبل (التي لم تكن أقلّ من الملكة الحاكمة لمنطقة بارك سلوب) لتذكّرتها. والآن، بعد لقائنا المُرتجَل أمام منزلها في يوم الجمعة، تغيَّر الأسلوب. وكأنّها كلمةٌ أضفتها إلى مفرداتك في مرحلةٍ متأخرة من حياتك - وبدأتَ تسمعها تتردَّد أينما ذهبت - أصبحتُ أجد نانسي ماتزوكللي فجأةً كيفما التفتُّ. بدأ الأمر بلقاء يوم الأحد ذاك، ومنذ ذلك الحين فصاعداً لم يمر يوم لا أصادفها في المصرف أو في مكتب البريد أو في الشارع في الحي. وأخيراً، عرَّفتني إلى ولدَيها (ديفون وسام)؛ وإلى أمها، جويس؛ وزوجها الفولي ووكر، جيم، الجيمس جويس الذي لم يكن جيمس جويس. وتحوّلتْ الـ أ.ج.م بسرعة من شخص غريب تماماً، إلى أحد الثوابت في حياتي. وإنْ كانت لن تُذكَر إلا نادراً في الصفحات التالية من هذا الكتاب، فإنها دائماً موجودة فيه. ميِّزها بين السطور.

في يوم الأحد الأول ذاك، لم نقُل شيئاً على أي قدرٍ من الأهمية. مرحبا ناثان، مرحبا نانسي، كيف حالك، لا بأس، كيف حال توم، الطقس جميل، تُسعدني رؤيتك، وما إلى ذلك. ثرثرة المدن الصغيرة في

قلب المدينة العظمى. إذا كان هناك تفصيل هام بقدرٍ كافٍ يجب ذِكره، فهو أنَّها لم تكن ترتدي رداء العمل. كان النهار دافئاً بصورة استثنائية، وكانت نانسي ترتدي الجينز وقميصاً رياضياً من القطن الأبيض. ولأنَّ القميص كان مدسوساً داخل البنطلون، استطعتُ أنْ أرى حَبَلَها، طبعاً، ولكن حتى لو لم تكن في الأيام الأولى من فصلها الدراسي الأول، فإنها لم تكن ترتدي زي العمل في يوم الجمعة لكي تُخفي بروز بطنها. وسجّلتُ في ذهني أنْ أخبر توم عن ذلك عندما أراه في المرة التالية.

أول ما فعلته في صباح يوم الاثنين كان أني أرسلتُ القلادة إلى راشيل، مُرفقة برسالة قصيرة (*أفكر فيكِ - مع حبي، والدك*)، ولكن مع بلوغ الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم كنتُ قد بدأتُ أقلق. لقد أودعتُ رسالتي البريد في ليل يوم الثلاثاء. على فرض أنها أُرسِلَتْ في صباح يوم الأربعاء الباكر، فيجب أنْ تكون قد وصلتْها بحلول يوم السبت - أو الاثنين على أبعد تقدير. لم تكن ابنتي قط تهوى كتابة الرسائل (كانت تقوم باتصالاتها كلها عبر الإيميل، ولم تكن لديّ مثل هذه الوسيلة)، ولذلك كنتُ أتوقع منها أنْ تتصل بي هاتفياً. وانقضى يوما السبت والأحد وانصرما دون أي كلمة، مما عنى أنَّه كان ينبغي أنْ تتصل في يوم الاثنين. في أي وقت بعد الساعة السادسة، بعد أنْ تعود إلى المنزل من العمل وتقرأ رسالتي. وجدتُ أنه، مهما كانت إهانتي لها كبيرة، من غير المفهوم ألا تجيب راشيل على ما كتبته إليها. لزمتُ الشقة في انتظار رنين الهاتف، ولكن حتى الساعة التاسعة لم يكن قد حدث شيء. وحتى إذا كانت قد أرجأتْ الاتصال بعد العشاء، فإنَّ العشاء سيكون قد انتهى عند الساعة التاسعة. وأخيراً استجمعتُ

الشجاعة، مع قليل من اليأس، وقليل من الخوف، وأكثر من قليلٍ من الحَرَج من مدى يأسي وخوفي، لكي أطلب الرقم. لا يوجد أحد. تكٌ المُجيب الآلي بعد أربع رنّات، ولكني وضعت السمّاعة قبل أنْ يصدر صوت بيب.

النتيجة نفسها في يوم الثلاثاء.

النتيجة نفسها في يوم الأربعاء.

قررّتُ أنْ أتّصل بإديث، لعدم معرفتي ماذا أفعل غير ذلك، وأسألها عمّا يحدث. كانت وراشيل على تواصُلٍ مستمر، وبينما شعرتُ بشيء من الخوف من التحدث إلى زوجتي السابقة، لم يكن هناك سبب يدعوني للافتراض أنها لن تُعطيني جواباً صريحاً. هناك علامة × على الموضوع، كما عبّر هاري بفصاحة. حينئذٍ، الاتصال الوحيد الذي أقمته مع زوجتي السابقة كان النظر إلى توقيعها على خلفيات شيكات النفقة المُلغاة. كانت قد تقدّمتْ بدعوى طلاق في شهر تشرين ثاني من عام ١٩٩٨ وبعد ذلك بشهر، وقبل صدور الحكم القضائي بوقتٍ طويل، كشف التشخيص الطبي أني مُصاب بالسرطان. وتفضّلتْ إديث بالسماح لي بالبقاء في المنزل قدر ما يستلزم الأمر، مما يُفسّر سبب توانينا في بيعه. وبعد البيع، سوف تستخدم جزءاً من مالها في شراء ملكية مشتركة في برونكسفيل - والذي كما أخبرتني راشيل عنه، بميلها المعتاد لاستخدام لغةٍ مُنمّقة، "جميل جداً". وكانت قد باشرتْ أيضاً في تلقّي دروس في ثقافةٍ خاصة بالبالغين في جامعة كولومبيا، وسافرتْ مرةً على الأقلّ إلى أوروبا، وكانت، إذا صحّتْ الإشاعة السارية، تُقيم علاقة مع محامٍ عجوز صديق لنا، جاي سوسمَنْ. كانت زوجته قد توفيتْ قبل

سنتين، ولما كان دائماً يشتهي إديث بشدّة (الأزواج بارعون في تقصّي مثل هذه الأشياء)، فمن الطبيعي أنْ يقوم بخطوة معها حالما أخرج من المشهد. الأرملة الطروب والمُطلّق المرح. حسن، حلال عليهما معاً. طبعاً كان جاي يتقدّم بسرعة نحو سن السبعين، ولكن مَنْ أنا حتى أعترض على دعوة أو اثنتين على عشاءٍ على إيقاع التانغو أو ركنٍ عند الغسق؟ وبصراحة تامة، لو كنتُ مكانه لما اعترضتُ على نيل جرعة من هذا.

قلت، عندما أجابت على الهاتف، " مرحبا إديث. أنا شبح من عيد ميلادٍ مضى"

" ناثان؟ ". بدت مندهشة من سماع صوتي - وأيضاً ممتعضة قليلاً.

" آسف لإزعاجك، ولكن أنا في حاجة إلى بعض المعلومات، وأنتِ الشخص الوحيد الذي يستطيع أنْ يُزوّدني بها "

" هذه ليست واحدة من نِكاتك السمجة، أليس كذلك؟ "

" أتمنى"

تنهّدتْ بصوتٍ عالٍ في السمّاعة. " أنا مشغولة الآن. أسرع، أوكيه؟ "

" مشغولة بالتسلية، على ما أفترض"

" افترِض كما تشاء. لستُ مُضطرة إلى إخبارك أيّ شيء. أليس كذلك ؟ " وأطلقَتْ ضحكة ثاقبة، غريبة - ضحكة تنطوي على مرارة شديدة، ومملوءة بالانتصار، وبالدوافع المتناقضة والمكبوتة، حتى لم أكد أعرف ماذا أفهم منها. لعلها ضحكة زوجة سابقة تحرّرتْ. آخر ضحكة.

" لا، طبعاً لا. أنتِ حرة في أنْ تفعلي ما تشائين. كل ما أطلبه هو بعض المعلومات"

" عمَّ؟ "

" عن راشيل. كنتُ أحاول الاتّصال بها منذ يوم الاثنين، ولكن يبدو أنَّ لا أحد في المنزل. أنا فقط أريد أنْ أتأكّد من أنها وتيرانس على ما يُرام "

" كم أنت أحمق، يا ناثان. ألا تعرف أيّ شيء؟ "

" يبدو أنْ لا "

" لقد ذهبا إلى إنكلترا في العشرين من شهر أيار ولن يعودا حتى الخامس عشر من حزيران. لقد انتهى فصل رتغرز الدراسي. وقد دُعيَتْ راشيل لكي تقدِّم أُطروحة في مؤتمر في لندن، والآن هما يقضيان بعض الوقت مع والديّ تيرانس في كورنوال"

" لم تخبرني قط "

" ولماذا ينبغي أنْ تُخبرك بأي شيء؟ "

" لأنها ابنتي، هذا هو السبب"

" لو كنتَ تتصرف كوالد أكثر مما تفعل، فربما كانت أخبرتك. إنَّ ما فعلته معها شيء حقير، يا ناثان، بالثورة في وجهها هكذا. مَنْ أعطاك الحق في ذلك؟ لقد تألّمتْ كثيراً... تألمت كثيراً جداً "

" لقد اتّصلتُ لأعتذر، لكنها أقفلت الخط في وجهي. وقد كتبتُ لها رسالة طويلة. إنني أحاول أنْ أربأ الصدع، يا إديث. أنا أحبها حقاً، وأنت تعلمين "

" إذن اركع واطلب الرحمة. ولكن لا تتوقع مني أي مساعدة. إنَّ أيامي كوسيطة قد انتهتْ "

" أنا لا أطلب مساعدتك. ولكن إذا ما تصادفَ واتصلتْ من

إنكلترا، فقد ترغبين في إخبارها أنَّ هناك رسالة في انتظارها عندما تعود إلى المنزل. وقلادة، أيضاً "

" انسَ هذا، يا بوب. لن أتفوّه بأي كلمة. ولا أي كلمة لعينة. أتفهم؟ "

كفى كلاماً عن أسطورة التسامُح والنيّة الطيّبة بين المُطلّقين. وعند انتهاء المحادثة، كنتُ تقريباً في مزاجٍ يدفعني إلى القفز إلى متن القطار التالي المتوجه إلى برونكسفيل وخنق إديث بيدَيّ المجرّدتين. النصف الآخر مني أراد أنْ يبصق. ولكن إذا أردتُ أنْ أُنصِفَ المرأة العجوز، أقول إنَّ غضبها كان من العنف، ولاذع في التعبير عن شجبه وامتعاضه، بحيث أعانني في الواقع على اتّخاذ قرار. لن أعاود الاتصال بها بعد الآن. حتى آخر حياتي. وفي ظل الظروف الراهنة، لن أتصل بها أبداً. لقد فكّكنا الطلاق في عينيّ القانون، حلّ الزواج الذي جمعنا معاً على مدى سنوات طويلة، ولكن مع ذلك، لم يعُد بيننا أي شيء مُشترك، ولأننا سوف نستمر بكوننا والديّ راشيل ما دمنا حيّين، افترضتُ أنَّ تلك الصِلة سوف تمنعنا من الغرق في حالةٍ من العِداء المستمر. ولكن لم يعُد هذا سارياً. فتلك المكالمة الهاتفية كانت النهاية، وبعد ذلك لن تكون إديث بالنسبة إليّ أكثر من اسم - أربعة أحرف تدل على شخصٍ لم يعُد له وجود.

في اليوم التالي، الخميس، تناولتُ طعام الغداء وحدي. كان توم بعد ظهيرة ذلك اليوم مع هاري في مانهاتن، يتفاوضان مع أرملةِ روائيّ توفى حديثاً حول الكتب التي تحتويها مكتبة الزوج. ووِفقاً إلى توم، بدا أنَّ ذلك الروائيّ يعرف كل كاتب هامّ ظهر خلال الأعوام الخمسين الأخيرة،

وكانت رفوفه مزدحمة بكتبٍ وُقِّعَتْ وأُهديَتْ إليه من قِبَل أصدقائه المشهورين. "نُسَخُ الزمالة"، كما كانت تُسمّى في المهنة، ولأنَّ جامعي الكتب يجتهدون في السعي وراء الحصول عليها، كما قال توم، كانوا دائماً يعرضون أسعاراً جيدة. وقال أيضاً إنَّ هذا النوع من النزهات هي أشدّ ما أعجبه في العمل لدى هاري. فهي ليس فقط تسمح له بالخروج من مُحتَجَز غرفة مكتب الطابق الثاني في بروكلن، بل تُتيح له فرصةً مراقبة رئيسه وهو يعمل. قال " إنه يؤدي عرضاً رائعاً. لا يكفّ عن الكلام. لا يكفّ عن المُساومة. يُداهن، يذمّ، يتزلّف - في سلسلة لا تنتهي من الخِداع والمراوغة. أنا لا أؤمن بالتجسُّد، ولكن لو كنتُ أؤمن به، لأقسمتُ على أنه تاجر سجّاد مراكشي في حياةٍ أخرى".

كان يوم الأربعاء هو يوم عطلة مارينا. وبغياب توم كرفيق، كنتُ أتطلّع إلى رؤيتها في يوم الخميس، ولكن عندما ولجتُ مطعم كوزميك عند الساعة الواحدة، لم تكن موجودة هناك. تحدثتُ إلى ديميتريوس، صاحب المطعم، وشرح لي أنها اتصلت في صباح ذلك اليوم وقالت إنها مريضة وقد تغيب بضعة أيام. فشعرتُ باكتئابٍ عميق وسخيف. فبعد أنْ ساطتني زوجتي السابقة بلسانها في تلك الليلة، أردتُ أنْ أعزِّز ثقتي في جنس الإناث، ومَنْ أفضل من مارينا غونثاليث ليُساعدني في ذلك ؟ قبل أنْ أدخل المطعَم، كنتُ قد تخيّلتُها تضعُ القلادة (هذا ما كان يحصل في يوميّ الاثنين والثلاثاء)، وعلِمتُ أنَّ مجرّد مرآها سوف يُسعدني أيّما سعادة. لذلك، تسللتُ إلى المقصورة الفارغة، مُثقل القلب، وأمليتُ طلبي على ديميتريوس، الذي كان يحلّ محل حبيبتي الغائبة. وكالمعتاد، كنتُ أحملُ كتاباً في جيب سترتي (" ***اعترافات***

زينو"[١٧]، كنتُ قد اشتريتها بتوصيةٍ من توم)، وبما أنه لم يكن هناك مَنْ أتحدث معه، فتحتُ رواية سفيفو وباشرتُ بالقراءة.

بعد قراءة فقرتين، جاء الرجل المُلقَّب بالسيد مشاكل يدقُّ على بابي. كنتُ قد ألمحتُ إلى هذه المقابلة قبل خمس عشرة أو عشرين صفحة، والآن وقد حانت اللحظة لكي أتكلّم عنها، أنكمشُ حين أتذكّر ما حدث بيننا. ذلك الشخص، وأفضّل أنْ أشير إليه بلقب مشاكل، ذلك الكائن الكابوس الذي ظهر من أعماق المجهول، مُتخفّياً بهيئة ناقل رسائل من شركة UPS في الثلاثين من العمر، ذو جسم مفتول العضل ومتناسق الأعضاء وتعبير غاضب في عينيه. كلا، إنَّ تعبير **غضب** لا يُنصِفُ ما شاهدته على وجهه حقّه. أعتقد أنَّ كلمة **حنق** أشد دقّة، أو ربما **هياج**، أو حتى ***جنون الإجرام***. وكائناً ما كان، عندما دخل المطعم كهبوب العاصفة وسألَ ديمتريوس بصوتٍ عالٍ، ميّال إلى القتال إذا كان المدعو ناثان موجوداً هناك، ناثان غلاس، أدركتُ أنَّ السيد مشاكل يُعرَف بالاسم الحركي روبرتو غونثاليث. وأدركتُ أيضاً أنَّ القلادة لم تعُد موجودة في صندوق المُحاسبة. لقد نسيتْ المسكينة مارينا أنْ تخلعها عندما ذهبت إلى المنزل في ليل يوم الثلاثاء. لعله خطأ صغير، ولكن لم يسعني إلا أنْ أفكّر كيف استخدمت كلمة ***انفجار*** عندما حاولتْ أنْ ترفض هديتي، وعندما قرنتُ هذه الكلمة بإعلان ديمتريوس أنها ستغيب " بضعة أيام"، تساءلتُ إلى أي مدى ذهب ابن الحرام في ضربها.

---

١٧ – «اعترافات زينو» رواية من تأليف الكاتب الإيطالي اليهودي إيتالو سفيفو (١٨٦٤ – ١٩٢٨).

استقرّ زوج مارينا على المقعد قبالتي مباشرةً ومال عبر الطاولة، وسألني " هل أنتَ ناثان؟ ناثان المنْيَكْ غلاس؟ "

قلت " هذا صحيح. لكنّ اسمي الأوسط ليس مَنْيَك. إنه جوزيف "

" أوكيه، أيها المتذاكي، قُلْ لي لماذا فعلتَ ذلك "

" فعلتُ ماذا؟ "

مدّ يده إلى جيبه ثم خبطَ القلادة على الطاولة. "هذا"

" كانت هدية عيد ميلاد"

" لزوجتي"

" نعم. لزوجتك. ما الخطأ في هذا ؟ إنَّ مارينا تقدِّم لي وجبة الغداء في كل يوم. إنها فتاة رائعة، وأردتُ أنْ أعبِّر لها عن مدى امتناني. إنني أنقدها إكراميةً عندما أُسدد الفاتورة، ألا أفعل ؟ حسن، اعتبرْ القلادة إكرامية كبيرة "

" هذا تصرف غير لائق، يا رجل. لا يجوز للمرء أنْ يعبث مع نساء متزوجات"

" أنا لا أعبث. أنا فقط قدّمتُ لها هدية، هذا كل ما في الأمر. أنا عجوز إلى درجةٍ أصلح أنْ أكون والدها "

" أليس لديك قضيب ؟ وما زال لديك خصيتان، أليس كذلك؟ "

" في آخر مرة نظرت، كانتا ما تزالان هناك "

" أنا أُحذِّركَ، يا سيد. ابتعد عن مارينا. إنها عاهرتي، وسوف أقتلك إذا اقتربتَ منها بعد الآن "

" لا تنعتها بالعاهرة. إنها امرأة. وأنت محظوظ لعين لأنكَ اتّخذتها زوجة "

قال، وهو يتناول القلادة ويُدلّيها أمام عينيّ، " أنا أسميها بما أشاء، يا حقير. وهذه، هذه القطعة من الخراء تستطيع أنْ تأكلها على الإفطار في صباح الغد "، وضمّها بكلتيّ يديه، وقطع السلسلة الذهبية نصفَين بحركة حادة واحدة من الرسغين. انزلقتْ بعض الخرزات وقفزتْ على طاولة الفورمايكا ؛ واستقر بعضها الآخر في راحة يده، وعندما وقف معتدلاً ليرحل، رماها في عيني. صرخَ " في المرة التالية، سأقتلك!"، وهو يهزُّ أصابعه باتجاهي كدُمية مخبولة، "ابتعد عنها، يابن الحرام، وإلا فأنتَ ميت! "

عندئذٍ، كان كل مَنْ في المطعم ينظر إلينا. لم يكن مألوفاً أنْ تجلس لتتناول طعام الغداء ويحدث معك مثل ذلك المشهد الطاغي، أما الآن بعد أنْ أمرني السيد مشاكل بأنْ أبتعد، بدا أنَّ المشهد قد انتهى. أو هكذا ظننت. كان غونثاليث قد استدار وبدأ يتوجه نحو الباب، لكنَّ الممر بين المقاصير والطاولات، وقبل أنْ يتمكن من الخروج، كان ديميتريوس، الضخم، العريض البطن يقفُ في طريقه. هكذا يبدأ الفصل الثاني. عندما وجد نفسه مُحاصَراً، وكان رأسه ما يزال يغلي، بدأ غونثاليث المهتاج يزعق بأعلى صوته. قال " أبعِدْ كيس القذارة ذاك عن هنا! " (في إشارة إليّ) " أبقِهِ بعيداً، وإلا فلن تعمل مارينا عندك بعد الآن ! إنها مُستقيلة ! "

قال صاحب مطعم كوزميك " فلتستقِلْ إذن. هذا مطعمي، ولا أحد يُملي عليّ ما أفعل في مطعمي أنا. دون زبائني، ليس عندي شيء. فاخرج من هنا وقُل لمارينا إنها مطرودة. لم أعد أريد أنْ أراها بعد الآن. وأنت - إذا وطأتَ محلي مرة أخرى، فسوف أستدعي الشرطة"

.

بعد ذلك حدث بعض الدفع والجذب، لكنَّ على الرغم قوة وعضلات غونثاليث، إلا أنَّ ديمتريوس كان أضخم من أنْ يتغلَبَ عليه، وأخيراً، بعد موجة أخرى من التهديدات والتهديدات المُضادة، اختفى زوج مارينا من المكان. لقد ضيَّعَ الأحمق على زوجته عملها. لكنَّ الأدهى من ذلك - بل الأدهى بكثير من ذلك - أني أدركتُ أني ربما لن أراها ثانية.

حالما استُعيد الهدوء إلى المطعم، اقتربَ ديمتريوس من طاولتي وجلس. اعتذر على الإزعاج وعرضَ أنْ يكون الغداء على حساب المحل، ولكن عندما حاولتُ أنْ أُقنعه بالعدول عن طرد مارينا، رفض أنْ يتزحزح. لقد كان شريكاً بإرادته في مؤامرة إيداع القلادة صندوق المحاسبة، لكنَّ الشغل شغل، كما قال، وعلى الرغم من محبته لمارينا "كثيراً كالجحيم"، لم يرغب في ركوب أي مُجازفة مع زوجها المجنون. ثم قال شيئاً لسعني كحديد الختم. قال "لا تقلق,إنها ليست غلطتك".

لكنها كانت غلطتي. أنا الملوم على الفوضى كلها، واحتقرتُ نفسي بسبب الخطأ الذي ارتكبته في حق مارينا البريئة. لقد كان حافزها الأول هو أنْ ترفض القلادة. كانت تعرف أي نوعٍ من الرجال زوجها، لكني بدل أنْ أصغي إلى ما قالت لي، أجبرتها على أخذها، وتلك الحركة الحمقاء، تلك الحركة الحمقاء، الحمقاء، لم تؤدِّ إلا إلى المشاكل. قلت لنفسي، لعنني الله. فليرمِ بجسمي إلى الجحيم، ولأحترق هناك على مدى ألف عام.

تلك كانت آخر مرة أتناول فيها طعام الغداء في مطعم كوزميك. وبقيتُ أمرُّ به في كل يوم أثناء سيري في الجادة السابعة، ولكن لم أستطع أنْ أستجمع شجاعتي لأعود إلى هناك.

عمل مُريب

في مساء ذلك اليوم (الخميس) قابلتُ هاري لنتناول طعام العشاء في محل الشِواء مايك أند توني عند تقاطُع الجادة الخامسة وشارع كارول. كان المَطعم هو نفسه الذي كان قد كشفَ فيه لتوم عن أسراره المزعجة قبل ذلك بشهرَين، وأعتقد أنه انتقاه لأنَّ جوّه مُريح. النصف الأمامي من البناء كان حانة للحي حيثُ يُشجَّع بحماس تدخين السجائر والسيجار، ويمكن مُشاهدة الأحداث الرياضية على شاشة تلفزيون ضخمة على الحائط بالقرب من المدخل. ولكن، ادخل إلى المكان، وافتحْ الأبواب ذات الزجاج المُضاعَف والسميك في المؤخرة، وستجد نفسك في جوٍ مختلف تماماً. كان مطعم مايك أند توني عبارة عن غرفة صغيرة ممدودة بالسجاد وفيها أرفف للكتب تغطي أحد الجدران، وعلى آخر عُلِّقَتْ صور فوتوغرافية بالأبيض والأسود، ولا يوجد أكثر من ثماني طاولات أو عشر. بعبارة أخرى، هو مطعم رخيص حميم، وهادئ، مُبارك بميزّة إضافيّة هي توزيع مناسب للصوت يسمح بسماعك حتى وأنتَ تهمس بصوت منخفض. وبالنسبة إلى هاري، لابد أنَّه كان يشعر أنَّ المكان مُكنكناً وخاصاً كمقصورة الاعتراف. على أي حال، هناك كان يحب أنْ يُدلي باعترافه - أولاً لتوم، والآن لي.

حسب علم هاري، كان فهمي لحياته السابقة في بروكلن يقتصر على بضع حقائق أَساسية : وُلِدَ في بوفالو، وهو زوج سابق لبت، ووالد فلورا، وأمضى بعض الوقت في السجن. لم يكن يعلم أنَّ توم قد زوّدني بحشدٍ من دقائق الأمور، ولكني لم أكنْ أنوي أنْ أدعه يعرف ذلك. لذلك، أديتُ دور الأبله بينما هاري يقودني خلال القصة المألوفة لارتباك أليك سميث وشجاره اللاحق مع غوردن دراير. في أول الأمر لم أفهم لماذا يُزعج نفسه بإخباري تلك الأشياء. ما صِلتها بصفقة عمله الحالية ؟ هكذا تساءلتُ، ثم، وأنا أشد تشوّشاً، طَرحتُ السؤال مباشرة على هاري. قال "اصبرْ عليّ. في الوقت المناسب، كل شيء سيتّضِح".

لم أقُلْ الكثير خلال الجزء الأول من الوجبة. في ذلك اليوم كان ضجيج المطعم يترك تأثيراً سيئاً عليّ، وبينما هاري يستمر في قص حكايته، أخذت أفكاري تشرد نحو مارينا وزوجها الأحمق وكامل سلسلة الظروف التي أدت بي إلى شراء تلك الحِلية الرخيصة اللعينة من الـ أ.ج.م. ولكنَّ رئيس توم كان في وضعٍ جيد في تلك الليلة، وبعونٍ من الويسكي والنبيذ اللذين شربتهما مع طبقٍ كبير من محار بلو بوينت قبل وجبة العشاء، خرجتُ تدريجياً من حالة الذعر وبدأتُ أركِّزُ على المسألة المطروحة بين يديّ. وتطابقت رواية هاري لجرائمه التي ارتكبها في شيكاغو تماماً مع ما أعاد توم روايته لي، ولكن مع فرقٍ واحدٍ ملحوظ ومُسلٍ. مع توم، انهار هاري وبكى. غلبه الندم، موبخاً نفسه لأنه تسبَّب بتدمير زواجه، ومصدر رزقه، واسمه. معي، من ناحية أخرى، بدا غير نادمٍ على الإطلاق، بل كان يتفاخر بالضربة الموفقة الرائعة التي نجح في الحِفاظ عليها على مدى سنتين كاملتين، وتذكَّرَ مغامرته في مجال

تزييف الأعمال الفنية بوصفها من أعظم فترات حياته. كيف يمكن تبرير هذه النبرة المختلفة تماماً ؟ هل كان يُمثّل أمام توم لكي يكسب تعاطفه وتفهّمه؟ أم، هل كان ذلك الاعتراف الأول، الذي حدث في إثر زيارة فلورا الكارثيّة لبروكلن، صرخةً صادقة من القلب؟ ربما. كل الرجال ينطوون على رجالٍ عِدّة داخلهم، ومعظمنا يقفز من ذاتٍ إلى أخرى دون أنْ نعرف مَنْ نحن. يومٌ في الأعلى ويوم في الأسفل ؛ نكتئب ونصمت في الصباح، ونضحك ونُطلق النكات ليلاً. كان هاري في حالة اكتئاب عندما تحدث مع توم، أما الآن وبعد أنْ بدأ العمل في المغامرة التجارية، كان غاية في الابتهاج معي.

جاء طلبنا من اللحم المشوي، وانتقلنا إلى زجاجة من النبيذ الأحمر، ثم، أخيراً، سقطت فردة الحذاء الأخرى. وأخبرني هاري كل شيء ما عدا أنه كان يُعِد مفاجأة، ولكن حتى إذا كان قد أتاح لي مئة فرصة لأخمِّن ما هي، ما كان يمكن أنْ أتوقع الخبر المذهل الذي خرج بهدوء من بين شفتيه.

قال " لقد عاد غوردون"

كررتُ، وأنا من فرط الذهول بحيث أقول أي شيء آخر، " غوردون. تعني غوردون دراير؟ "

" غوردون دراير. زميلي القديم في الإثم وفي المرح "

" كيف اقتفى أثرك بحق الله ؟ "

" إنكَ تجعل الأمر يبدو سيئاً، يا ناثان. إنه ليس كذلك. أنا سعيد جداً، جداً "

" بعد ما فعلته له، أعتقد أنه يرغب في قتلك"

" هذا ما ظننته في أول الأمر، لكنَّ الأمر انتهى الآن. الضغينة، والمرارة. لقد ارتمى المسكين بين أحضاني وطلب مني أنْ أسامحه. هل تتصور هذا ؟ لقد أراد مني أنا أنْ أسامحه **هو** "

" ولكن أنتَ مَن زجَّ به في السجن "

" نعم، لكنَّ الفكرة في الأصل كانت فكرة غوردون. ودون مساعدته في تنفيذها، لما دخل أيٌّ منا السجن. هذا ما يلوم عليه نفسه. لقد قام بالكثير من التأمل الروحي على مدى السنين، وقد أخبرني أنه نسي إلى درجة أنه لم يعُد يحتمل التعايش مع نفسه إذا اعتقدتُ أنه ما زال يحمل لي ضغينة. إنَّ غوردون لم يعُد طفلاً. إنه في السابعة والأربعين الآن، وقد كبر كثيراً منذ تلك الأيام الخوالي في شيكاغو "

" كم عاماً أمضى في السجن؟ "

" ثلاثة أعوام ونصف. ثم انتقلَ إلى سان فرانسيسكو وبدأ يرسم من جديد. ولكن يؤسفني أنْ أنقل عنه أنه لم يُحقق الكثير من النجاح. لقد حافظ على نفسه بإعطاء دروس خاصة في الرسم، وقام بأعمالٍ متفرقة مؤقتة هنا وهناك، ثم وقع في غرام رجل يعيشُ في نيويورك. ولهذا هو في المدينة الآن. لقد غادر سان فرانسيسكو وانتقلَ معه في أوائل الشهر الماضي"

" مع شخص غنيّ، فيما أعتقد "

" لا أعرفُ كل التفاصيل. لكني أعلم أنه يكسب من النقود ما يكفيهما معاً "

" غوردون محظوظ "

" ليس كثيراً. ليس حقاً، عندما تفكر في كل ما مرَّ به. ثم إنه أحبني أنا. إنه مرتبط كثيراً بصديقه، ولكنه يُحبني أنا. وأنا أبادله الحب"

" لا أقصد أنْ أتدخل في حياتك الخاصة، ولكن ماذا عن روفوس؟ "

" روفوس هو قلبي، لكنَّ علاقتنا أفلاطونية صِرف. وعلى مدى السنين التي عرفته خلالها، لم نقضِ معاً ليلة واحدة"

" لكنَّ الوضع مع غوردون مختلف"

" مختلف جداً. فهو لم يعُد شاباً، لكنه ما زال جميلاً. لا أستطيع أنْ أعبر لك كم هو لطيف معي. إننا لا نتقابل كثيراً، ولكنكَ تعلم كيف هي العلاقات السرية. تُلقى فيها الكثير من الأكاذيب، وتُعد الكثير من الإجراءات. ولكن مهما يحدث، تبقى الشرارة الأولى. حسبتُ أني انتهيتُ من هذا كله، ورميته وراء ظهري، ولكنَّ غوردون جدَّد شبابي. لم أتحمّل، يا ناثان. إنه الشيء الوحيد الجدير بالعيش من أجله"

"أحد الأشياء على أي حال، سأعترف لك بهذا"

" إذا استطعتَ أنْ تفكر في بديل أفضل، أخبرني به "

" حسبتُ أننا أتينا إلى هنا لنناقش العمل"

" هذا بالضبط ما نفعله. وغوردون هو جزء منه، في الواقع. نحن معاً فيه "

" من جديد؟ "

" إنها خطة رائعة. عبقرية، وكلما فكرت فيها يقشعرّ بدني "

" لماذا ينتابني ذلك الشعور الجنوني بأنكَ ستقول لي إنك متورط في عملية تزوير أخرى؟ هل العمل شرعي أم غير شرعي؟ "

" غير شرعي، طبعاً. أين المتعة إذا لم تكن هناك مجازفة؟ "

" أنتَ لا نفع فيك أبداً، يا هاري. بعد كل ما حدث لك، حسبتُ أنكَ أردتَ أنْ تستقيم وتتعظ حتى آخر حياتك"

" لقد حاولت. على مدى تسعة أعوام حاولت، ولكن لا فائدة. هناك حافز داخلي، وإذا لم أُخرجه مني بين حين وآخر ليقوم بعمل شرير، يصبح العالم مملاً بشكلٍ لعين. أكره أنْ أشعر بالتململ والضجر. أنا إنسان كلي حماس، وكلما أصبحت حياتي محفوفة بالخطر، أصبحت سعيداً أكثر. بعض الناس يلجؤون إلى المقامرة ولعب الورق. وبعض الناس يرتقون الجبال أو يقفزون من الطائرات. أنا أحب أنْ أخدع الناس. أحب أنْ أرى إلى أي مدى يمكن أنْ أصل في ذلك دون عقاب. حتى وأنا طفل، كان أحد أحلامي أنْ أنشر موسوعة كل المعلومات الواردة فيها زائفة. تواريخ مغلوطة لكل الأحداث التاريخية، مواقع خطأ لكل نهر، وسِيَرْ حياة أناس لم يوجدوا قط. أي نوع من الأشخاص هذا الذي يتخيَّل أنه يفعل مثل هذه الأشياء؟ أعتقد أنه مجنون، ولكن يا إلهي، كم كانت تلك الفكرة تجعلني أضحك. وعندما كنتُ في سلاح البحرية، كدتُ أُحاكم عسكرياً بتهمة وضع معلومات خاطئة على مجموعة من الخرائط البحرية. فعلتُ ذلك عمداً. لا أدري لماذا، ولكنَّ الدافع القوي استولى عليّ، ولم أقوَ على منع نفسي. وجعلتُ قائد الوحدة يعتقد أنها كانت مجرد غلطة بريئة، لكنها لم تكن كذلك. هذا أنا، يا ناثان. أنا كريم، أنا لطيف. أنا مخلص، لكني أيضاً أحبُ المزاح بالفطرة. قبل شهرين، أتى توم على ذِكر نظرية وضعها أحدهم حول الأدب الكلاسيكي. قال إنه مجرد خِدعة. أسخيلوس، هومر، سوفوكليس، أفلاطون، كلهم. لقد

اخترَعَتهم مجموعة من الشعراء الإيطاليين البارعين خلال عصر النهضة. أليس هذا أروع شيء سمعته في حياتك ؟ أعمدة الحضارة الغربية العظيمة كلها، مجتمعة كل على حِدة، زائفة. ها! كم كنتُ أحب أنْ أسهم بدور في تلك الخدعة الصغيرة "

" ما هي هذه المرّة ؟ المزيد من الرسوم الزائفة ؟ "

" كلا، بل مخطوط مزيّف. أنا أعمل الآن في مجال الكتب، ألا تذكُر؟ "

" هي فكرة غوردون، دون أدنى شك "

" في الواقع، نعم. كما تعلم، إنه صاحب ذكاء وقّاد، ويفهم نقاط ضعفي"

"هل أنتَ متأكد من أنكَ تريد أنْ تُطلعني على الأمر؟ ما أدراكَ أني أهل للثقة؟ "

" لأنكَ رجل شريف وذو تمييز"

" ما أدراك؟ "

" لأنكَ خال توم. وهو رجل شريف وذو تمييز أيضاً "

" فلماذا لا تُخبر توم؟ "

" لأنَّ توم شديد النقاء. إنه شديد الطيبة، ولا اهتمام لديه بالتجارة. أنتَ كنتَ قريباً من المكان، يا ناثان، وأنا أعتمد على تجربتك في الحصول على بعض النصائح الذكية"

" نصيحتي هي أنْ تتخلى عن الأمر كله "

" لا أستطيع. لقد ذهبتُ بالمغامرة بعيداً جداً ولم يعُد في استطاعتي أنْ أتراجع الآن. ثم إني لا أريد ذلك "

" حسن. ولكن عندما ينفجر الأمر في وجهك، لا تنسَ أني حذّرتك"

" *الحرف القرمزي*. تعرف هذا العنوان، أليس كذلك؟ "

" قرأنا الرواية في درس اللغة الإنكليزية في المرحلة الابتدائية. على يد المس أوفلاهرتي، الصف الرابع "

" كلنا قرأناها في المرحلة الثانوية، أليس كذلك ؟ من كلاسيكيات الأدب الأميركي. أحد أشهر الكتب قاطبة "

" هل تقصد أنْ تُخبرني أنكَ وغوردون تنويان أنْ تزيّفا مخطوط رواية " *الحرف القرمزي*"؟ وماذا عن مخطوط هوثورن الأصلي؟ "

" هذا هو جمال العملية. لقد اختفى مخطوط هوثورن. ما عدا العنوان الرئيسي - الذي يقبع الآن ونحن نتحدث في قبو مكتبة مورغن. ولكن لا أحد يعلم ماذا حدث لباقي الكتاب. بعض الناس يعتقدون أنه أُحرِق، إما على يد هوثورن نفسه أو في حريق أحد المستودعات.. وآخرون يقولون إنَّ الطابعين رموا بالأوراق ببساطة إلى القمامة - أو أنهم استخدموها في إشعال غلايينهم. وهذه هي نسختي المُفضّلة للتفسير. طاقم عمال مطبعة بوسطن الشعثون يُشعلون غلايينهم الرخيصة بأوراق " الحرف القرمزي". ولكن كائناً ما كانت القصة الحقيقية، هناك ما يكفي من الشك في هذه المسألة بحيث نتصور أنَّ المخطوط لم يضع قط. إنه فقط وُضِعَ في غير مكانه، إنْ صحَّ التعبير. ماذا لو أنَّ ناشر هوثورن، جيمس ت. فيلدز، أخذه معه إلى المنزل ووضعه في صندوق في مكان ما مع مجموعة أخرى من الأوراق؟ وأخيراً، نُقلَ الصندوق إلى العلّية. وبعد سنين، ورثَ الصندوق أحد أولاد فيلدز، أو أنه تُرِكَ في المنزل، وعندما بيع المنزل، أصبحَ الصندوق مُلكاً

للمُلاّك الجُدد. أترى ما أرمي إليه؟ هناك ما يكفي من الشك والغموض ينفعان أرضيّة جيدة لحدوث اكتشاف عبقريّ. حدث ذلك مع رسائل ملفيل ومخطوطاته المُخبّأة قبل بضع سنوات في منزلٍ في شمال ولاية نيويورك. فإذا كان في الإمكان العثور على أوراق ملفيل، فلماذا لا يحدث هذا مع هوثورن؟ "

" مَنْ الذي سيقوم بتزييف المخطوط ؟ غوردون ليس مؤهّلاً للقيام بمثل هذا العمل، أليس كذلك؟ "

" كلا. سوف يكون الشخص الذي يعثر عليه، أما العمل الحقيقي فسينفّذه رجلٌ اسمه إيان متروبوليس. لقد سمع غوردون عنه من شخصٍ قابله في السجن، ويبدو أنه أفضل الموجود، وعبقري قلباً وقالباً. لقد زيَّفَ لينكولن، وبو، وواشنطن إرفنغ، وهنري جيمس، وغرترود شتاين، ويعلمُ الله مَنْ أيضاً، ولكن خلال كل السنوات التي قام خلالها بذلك، لم يُقبض عليه ولا مرة. ليس له سجل، ولا شبهات تحوم حوله. كشبحٍ يكمنُ في الظلام. إنه عمل مُعقَّد ويتطلّبُ براعةً فائقة، يا ناثان. أولاً، هناك مسألة العثور على الورق الأمثل - من النوع الذي كان يُنتَج في منتصف القرن التاسع عشر الذي لا تؤثر فيه أشعة إكس وفحص الأشعة فوق البنفسجية. ثم يجب دراسة كل مخطوطات هوثورن الباقية وتعلُّم كيفية تقليد خط يده - وهي عملية قذرة جداً، بالمناسبة، وأحياناً يكون غير مقروء. لكنَّ إجادة التقنية العملية ما هي إلا جزء صغير من الأمر. إنها ليست فقط مسألة الجلوس مع نسخة مطبوعة من " ***الحرف القرمزي*** " ونقلها حرفياً باليد، بل يجب معرفة أقلّ حركات يد هوثورن الخاصة، والأخطاء التي ارتكبها، واستخدامه الحسّاس علامة الواصلة، وعدم

قدرته على تهجئة كلمات معيَّنة بشكلٍ صحيح. كلمة ceiling كان يكتبها دائماً cieling؛ وبدل steadfast كان دائماً يكتب stedfast؛ وكلمة subtle كانت دائماً subtile. وكلما كتب هوثورت Oh، كان مُنضدو الأحرف يُغيِّرونها إلى O. وما إلى ذلك. إنه يتطلَّب الكثير من الاستعدادات والعمل المُضني. لكنه يستأهل، يا صديقي. إنَّ مخطوطاً كاملاً قد يصل ثمنه من ثلاثة إلى أربعة ملايين دولار. عرضَ غودرون عليّ نسبة ٢٥ ٪ مقابل خدماتي، أي أننا نصبو إلى مبلغ يقترب من المليون دولار. لا بأس به، أليس كذلك؟ "

" وماذا يُفتَرَض بك أنْ تفعل مقابل نسبة الـ ٢٥ ٪ خاصتك؟ "

" أبيع المخطوط. أنا المُموّن المتواضع ولكن المُحترم للكتب النادرة، والمخطوطات، والتحف الأدبية. إنها تُضفي شرعيّة على المشروع "

" هل وجدتَ مشترياً لها ؟ "

" هذا هو الجزء الذي يُثير قلقي. لقد اقترحتُ أنْ نبيعه مباشرةً إلى إحدى المكتبات في المدينة - إلى مجموعة برغ، أو مكتبة مورغن، أو جامعة كولومبيا - أو نعرضها في مزادٍ علني في سوثبي. لكنَّ غوردون يهفو قلبه إلى التعامل مع جامع تحف خاص. يقول إنَّ من الأمان أكثر أنْ نُبقي العملية بعيداً عن العَلَن، وأعتقد أني أتفهَّم وجهة نظره. ومع ذلك، هذا يدفعني إلى التفكير فيما إذا كان يثقُ حقاً في عمل متروبوليس"

" ما هو رأي متروبوليس؟ "

" لا أعلم. أنا لم أقابله قط "

" أنتَ متورط في عملية احتيال بأربعة ملايين دولار مع رجلٍ لم تُقابله قط ؟ "

" إنه لا يسمح لأحد برؤية وجهه. ولا حتى لغوردون. كل اتّصالاتهما تمت عبر الهاتف "

" ثمة شيء مُريب في هذه الطريقة، يا هاري "

" نعم، أعلم. حتى أنا أشم رائحة مؤامرة. ومع ذلك، تبدو الأمور سائرة نحو الأمام الآن. لقد عثرنا على المُشتري، وقبل أسبوعَين أعطيناه صفحة كعيّنة. وصدّق أو لا تصدّق، لقد أخذها وعرضها على عددٍ من الخبراء، وقد أكّدوا جميعاً على أنها أصليّة. وقد استلمتُ منه تواً شيكاً بمبلغ عشرة آلاف دولار كدفعة نقدية، لكي لا نعرض المخطوط على أي جهة أخرى. ويُفتَرَض بنا أنْ نُتمم عملية البيع عندما يعود من أوروبا في يوم الجمعة القادم "

" ومن هو؟ "

" هو متعامل بالأسهم والسندات اسمه مايرون ترمبل. وقد قمتُ بزيارته. إنه أحد نبلاء جادة بارك، ويتمرّغ في المال بكل معنى الكلمة "

" وأين عثر غوردون عليه ؟ "

" إنه صديق صديقه، الرجل الذي يعيشُ معه الآن "

" والذي لم تُقابله أيضاً "

" كلا. ولا أريد أنْ أفعل. غوردون وأنا عشيقان في السر. فلماذا أريد أنْ أقابل غَريمي؟ "

" أعتقد أنكَ منقاد إلى فخ، أيها العجوز. إنهم يخدعونك "

" يخدعونني؟ ماذا تقول؟ "

" كم صفحة من المخطوط رأيت؟ "

" فقط واحدة. الصفحة التي سلّمتها إلى ترمبل قبل أسبوعين "

" ماذا لو أنَّها الوحيدة، يا هاري ؟ ماذا لو أنّه لا وجود لشخصٍ اسمه إيان متروبوليس؟ ماذا لو اتَّضَحَ أنَّ صديق غوردون الجديد ليس إلا مايرون ترمبل نفسه؟"

" مستحيل. ما الذي يدعو أياً كان ليقطع كل ذلك الشوط... "

" الانتقام. إنَّ عملاً شريراً يستحق رداً من نفس النوع. واحدة بواحدة. كل تلك الخِصال الرائعة التي تشتهر بها الكائنات البشرية. أخشى أنَّ صديقك غوردون ليس كما تعتقد أنه عليه "

" هذا تشاؤمٌ مُفرط، يا ناثان. وأرفض أنْ أصدّقه "

" هل أودعتَ شيك ترمبل المصرف؟ "

" لقد أودعته المصرف قبل ثلاثة أيام. في الواقع، لقد أنفقتُ نصف قيمته على كمية كبيرة من الملابس الجديدة "

" أعدْ النقود"

" لا أَريد"

" إذا لم يكن هناك ما يكفي في رصيدك، تستطيع أنْ تقترض الباقي مني لكي تسدد الفرق"

" شكراً لك، يا ناثان، ولكني لستُ في حاجةٍ إلى إحسانك "

" لقد أمسكوا بك من خصيتيك، يا هاري، وأنت حتى لا تعلم "

" اعتقدْ كما تشاء، ولكني لن أتراجع الآن. سوف أتقدَّم، سواء هطل البَرَد، أم المطر المتجمِّد، أم حدث فيضان. إذا كنتَ مُحِقاً بشأنْ غوردون، فإنَّ حياتي قد انتهت في كل الأحوال. فما الفرق ؟ وإذا كنتَ مُخطئاً - وهذا ما أنا متأكد منه - فسأدعوكَ إلى عشاءٍ آخر ويمكنك أنْ تشرب نخب نجاحي "

قرعٌ على الباب

في أيام السبت والآحاد كان توم ينام حتى وقت متأخر. وكان محل هاري يفتح أبوابه في أيام العطلة الأسبوعية، ولكنَّ توم لم يكن مضطراً إلى التوجه إلى العمل، وبما أنه ليست هناك مدارس في تلك الأيام، فإنَّ النهوض باكراً لا معنى له. ما كان ليجد الـ أ.ج.م على الدَرَج الأمامي لمنزلها تنتظر مجيء الحافلة لكي تأخذ ولديها، وبغياب هذا الإغراء ليُخرجه من بين أغطية سريره الدافئة، لم يُزعج نفسه بإعداد ساعة المنبّه لترن. كان ينام، والستائر مُسدلة، وجسمه مُغلّف في ظلام بيته الصغير الشبيه بالرحم، حتى تنفتح عيناه من تلقاء ذاتهما - أو، كما يحدث غالباً، يهزّه بعنف ضجيج صادر من مكانٍ ما من المبنى، ويوقظه. في يوم الأحد، الرابع من شهر حزيران (بعد تصادمي الكارثيّ مع روبرتو غونثاليث بثلاثة أيام، وكان أيضاً اليوم الذي تبادلتُ فيه حديثي المُحبِط مع هاري برايتمن)، كان الضجيج هو الذي انتزع نسيبي من أعماق النوم - في هذه الحالة، كان ضجيج يدٍ صغيرة تقرع برفق وتردُّد على بابه. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة ببضع دقائق، وحالما تمكّن توم من تسجيل الضجيج، حالما نهضَ من سريره وتعثَّر وهو يجتاز الغرفة لكي يفتح الباب، اتَّخذتْ حياته منعطفاً جديداً ومذهلاً. وبوضوح تام، تغيَّر

كل شيء بالنسبة إليه، والآن فقط، بعد الكثير من الاستعدادات المُضنية، بعد الكثير من عزق الأرض وحرثها، يبدأ سردي لمغامرات توم.

كانت لوسي. لوسي الصامتة، ذات السنوات التسع ونصف، والشعر الحالك القصير وعينيّ أمها البُندقيتيّ اللون والمستديرتين، فتاة ممشوقة القامة، توشك على ولوج مرحلة المراهقة، ترتدي بنطلونَ جينز أحمر اللون ورثّاً، وتنتعلُ حذاءً جلدياً بالياً أبيض اللون، مع قميصٍ رياضيٍ عليه عبارة كانساس سيتي رويالز. بلا حقيبة مدرسة، أو سترة أو كنزة تتدلى من ذراعها، لا شيء غير الملابس التي ترتدي. لم يكن توم قد رآها منذ ستة أعوام، لكنه تعرَّفَ عليها على الفور. كانت قد اختلفت تماماً بصورة ما، ومع ذلك بقيتْ بالضبط كما هي - على الرغم من الطقم الجديد الكامل للأسنان البالغة، على الرغم من القسمات الطويلة، والنحيلة لوجهها، على الرغم من البوصات العديدة التي زادت على طولها. كانت واقفة هناك عند الباب، تبتسم لخالها الأشعث، المُرهق من فرط النوم، تتفحّصه بعينين مُستغرقتين، لا تطرفان، تذكّرهما جيداً جداً من أيام شيكاغو السالفة. أين أمها؟ أين زوج أمها؟ لماذا هي وحدها؟ كيف وصلتْ إلى هنا؟ كان توم يسكت هنيهة بين الأسئلة، ولكن دون أنْ تخرج كلمة واحدة من فم لوسي. تساءلَ هنيهة إنْ كانت قد أضحت صمّاء، ولكن بعد ذلك سألها إذا كانت تتذكّره، فأومأتْ برأسها إيجاباً. فتحَ توم ذراعيه، وهرعتْ مسرعةً إلى حضنه، وضغط جبينها على صدره وبادلته العناق بأشدّ ما استطاعت. أخيراً قال توم " لابد أنكِ جائعة "، ثم فتح الباب واسعاً وأفسح لها المجال لتلج التابوت الكئيب الذي سمّاه غرفته.

أعدَّ لها مقدار طاس من حبيبات الشوكولاة، وصبَّ لها ملء كوب من عصير البرتقال، وحالما انتهى من إعداد إبريق من القهوة لنفسه، كان الطاس والكأس قد فرغا. فسألها إنْ كانت ترغب في المزيد، وحين أومأتْ برأسها دلالة الموافقة وابتسمتْ، باشر بإعداد قطعتين من الخبز الفرنسي المُحمَّص لأجلها، فغمستهما في مقدار من شراب القبقب وازدردتهما في غضون دقيقة ونصف. في أول الأمر، عزا توم صمتها إلى الإرهاق، إلى القلق، إلى الجوع، إلى أيٍ من أسبابٍ عدة معقولة، لكنَّ الحقيقة كانت أنَّ لوسي لم تبدُ مُتعبة، بل بدتْ مرتاحة تماماً مع ما حولها، والآن بعد أنْ التهمت الطعام، حُذِفَ بند الجوع أيضاً من اللائحة. ومع ذلك ظلتْ لا تنطق بأي كلمة كإجابة عن أسئلته. بضع إيماءات واهتزازات من الرأس، ولكن بلا كلام، بلا صوت، بلا محاولة لاستخدام لسانها بأي حال.

سأل توم " هل نسيتِ الكلام، يا لوسي ؟ "

هزّتْ رأسها نفياً.

" ماذا عن القميص الرياضي؟ هل يعني أنكِ أتيتِ إلى هنا من كنساس سيتي؟ "

لا جواب.

" ماذا تريدين أنْ أفعل بك ؟ يمكنني أنْ أعيدك إلى أمك إذا لم تخبريني أين تعيش "

لا جواب.

" هل تريدين مني أنْ أعطيك قلم رصاص ومجموعة من الأوراق ؟ إذا كنتِ لا تريدين أنْ تتكلمي، فربما تستطيعين أنْ تدوّني إجاباتك لي"

تهز رأسها نفياً.

" هل توقفتِ عن الكلام إلى الأبد؟ "

تهز رأسها من جديد نفياً.

" عظيم. أنا سعيد بسماعي هذا. ومتى يُسمح لكِ بالبدء بالكلام من جديد ؟ "

فكَّرتْ لوسي لحظة، ثم رفعت إصبعَين نحو توم.

" اثنان. ولكن اثنان ماذا ؟ أهما ساعتان ؟ أم يومان ؟ أم شهران؟ أخبريني، لوسي "

لا جواب.

" هل أمك على ما يُرام؟ "

إيماءة نعم.

" أما تزال متزوجة من ديفيد ماينور؟ "

إيماءة نعم أخرى.

" لماذا هربتِ، إذن ؟ هل يُعاملانكِ بشكل جيد ؟ "

لا جواب.

" كيف وصلتِ إلى نيويورك ؟ بالحافلة ؟ "

إيماءة نعم.

" أما تزالين تحتفظين بالإيصال؟ "

لا جواب.

" فلنرَ ماذا في جيوبك. قد نعثر على بعض الأجوبة هناك "

تكرَّمتْ لوسي عليه بإدخال يديها في جيوب بنطلونها الجينز الأربعة كلها وإخراج محتوياتها، ولكن لم يعثر على أي شيء ذي أهمية. مئة

وسبعة وخمسين دولاراً نقداً، ثلاث قطع من العلكة، ستة أرباع الدولار، قطعتي دايم، أربع بنسات، ومقطع من صحيفة تحمل اسم توم، وعنوانه، ورقم هاتفه مكتوبة عليها - ولكن لا إيصال حافلة، لا شيء يدله على مكان انطلاق رحلتها.

قال توم " حسن، يا لوسي. الآن بما أنكِ أصبحتِ هنا، ماذا تنوين أنْ تفعلي ؟ أين ستقيمين ؟ "

أشارتْ لوسي بإصبعها إلى خالها.

أطلقَ توم ضحكة قصيرة، مُرتابة. قال " انظري ملياً إلى المكان الذي أنتِ فيه. يكاد لا يوجد متسع لشخص واحد هنا. أين تعتقدين أنكِ ستنامين، أيتها الصغيرة ؟ "

هزّتْ كتفيها، ثم رسمتْ ابتسامة كبيرة، وجميلة دائماً - وكأنها تقول، *سوف نجد حلاً*.

ولكن لم يكن هناك مجال لأي حل، على الأقلّ ليس في مخيلة توم. لم يكن يعرف أي شيء عن التعامُل مع الأطفال، وحتى لو كان يُقيم في قصر من اثنتي عشرة غرفة وطاقم كامل من الخدم، فلن يكون لديه أدنى اهتمام في أنْ يُصبح بديل والديّ ابنة أخته. لو كانت طفلة طبيعية لشكّلَ ذلك تحدياً كافياً، لكنَّ طفلة ترفض أنْ تتكلم وتصرّ بعناد على ألا تعطي أي معلومات عن نفسها شكّلَ استحالةً بكل بساطة. ومع ذلك، ماذا سيفعل؟ في الوقت الحالي هو مُلزَم بها، وما لم يتمكن من إجبارها على إخباره عن مكان أمها، فلا سبيل إلى التخلُّص منها. وهذا لم يكن يعني أنه ليس مولعاً بلوسي أو أنه شعر بلامبالاة بصالحها، ولكنه كان يعلم أنها جاءت إلى الشخص غير المناسب. فمن بين كل الأشخاص الذين يمتّون إليها بأبعد صلةٍ، كان هو الأسوأ للقيام بالمهمة.

لم يكن لدي أي اهتمام أيضاً بالعناية بها، ولكن على الأقلّ كانت هناك غرفة إضافية في شقتي، وعندما اتصل بي توم لاحقاً في صباح ذلك اليوم وأخبرني عن ورطته (في صوته رعب، ويكاد يصرخ في الهاتف)، قلت إني مستعد لاستضافتها إلى أنْ نجد حلاً للمشكلة. ووصلا إلى منزلي في الشارع الأول بُعيد الساعة الحادية عشرة. ابتسمتْ لوسي عندما قدَّمها توم إلى خالها الأكبر نات، وبدتْ سعيدة باستقبالها القُبلة المُرحِّبة التي طبعتها على تاج رأسها، لكني سرعان ما اكتشفتُ أنها لم تكن راغبة في التكلُّم معي بقدر ما كانت كذلك مع خالها. وكنتُ آمل في أنْ أخدعها وأنتزع منها بضع كلمات، ولكنْ كل ما حصلتُ عليه هو الإيماءات واهتزازات الرأس نفسها التي خضعَ لها توم قبل ذلك. يا لها من مخلوق صغير غريب، مضطرب. لم أكن خبيراً في علم نفس الأطفال، ولكن بدا جلياً لي أنه لا خطب نفسياً أو عقلياً فيها. لا تخلُّف، لا علامات على التوحُّد، لا شيء عضوياً يعوقُ تفاعلها مع الآخرين. كانت تنظر في العينين مباشرةً، وتفهم كل ما يقال، وتبتسم كثيراً وبحب كأي طفلَين مُجتمعَين معاً. ما المشكلة، إذن؟ هل عانت من صدمة رهيبة أعاقت قُدرتها على الكلام؟ أم، ولأسباب ما زالت مُغلقَة، قررتْ أنْ تأخذ عهداً على نفسها أنْ تلزم الصمت، دافعةً بنفسها نحو حالة من التوحُّد الطوعي لكي تختبر إرادتها وشجاعتها - لعبة أطفال سوف تملّ منها في نهاية المطاف؟ كان وجهها وذراعاها خاليين من الرضوض، ولكن في وقتٍ ما من النهار صمّمتُ على إغوائها بالذهاب إلى الحمّام لكي ألقي نظرة على باقي جسدها. فقط لكي أقتنع بأنَّ لا أحد ضربها أو أساء إليها.

وضعتُها أمام جهاز تلفزيون في غرفة الجلوس وشغّلتُ الجهاز على قناةٍ تبثّ أفلاماً للصور المتحركة على مدار الساعة. أضاءت عيناها بالسرور عندما رأتْ أشكال الصور المتحركة تقفز عبر الشاشة - إلى درجة أنه خُيِّلَ إليّ أنها لم تتعوَّد على مشاهدة التلفزيون، وهذا ما قادني بدوره إلى البدء في التفكير في ديفيد ماينور وبخشونة معتقداته الدينية. هل كان زوج أورورا يمنع وجود جهاز تلفزيون في المنزل ؟ هل كانت معتقداته من القوة بحيث أراد أنْ يحمي ابنته بالتبنّي من مهرجان ثقافة البوب الأميركية المسعور - تلك التفاهة والقمامة الكافرة المُتاحة للجميع التي تتدفّق بلا توقف من الشاشة في كل أرجاء البلد ؟ ربما. لن يعلم أي شيء عن ماينور إلى أنْ تُخبرنا لوسي أين كانت تُقيم، أما الآن فهي لا تتفوه بأي كلمة. لقد خمَّنَ توم مدينة كنساس بسبب القميص الرياضي، لكنها رفضَتْ أنْ تؤكّد ذلك أو تنفيه، مما يعني أنها لا تريدنا أنْ نعرف - لسبب بسيط هو أنها كانت تخشى أنْ نعيدها إلى هناك. لقد هربتْ من المنزل. كان هذا مؤكَّداً، سواء أكان في المنزل جهاز تلفزيون أم لا.

مع استقرار لوسي على الأرض في غرفة الجلوس، تأكل البندق وتشاهد حلقة من "المفتش غادجيت"، انسحبنا تومي وأنا إلى المطبخ، حيث لا تستطيع أنْ تسترق السمع إلى حديثنا. وتحدثنا طوال ثلاثين أو أربعين دقيقة، ولكن دون طائل اللهم إلا المزيد من الفوضى المتراكمة والقلق. كان أمامنا الكثير من الأشياء الغامضة والمُبهمة علينا التعامُل معها، والقليل من الدليل لنبني عليه قضية مقبولة. أين عثرتْ لوسي على النقود من أجل رحلتها ؟ كيف عرفَتْ عنوان توم ؟ هل ساعدتها

أمها على الهرب؟ أم أنها فرّتْ وحدها؟ وإذا كانت أورورا مشتركة في الأمر، لِمَ لم تتصل بتوم مُسبقاً أو على الأقلّ تبعث إليه رسالة مع لوسي؟ وقُلنا، لعلّ كان هناك رسالة وأضاعتها لوسي. وبطريقة أو بأخرى، ماذا يُخبرنا رحيل الفتاة عن زواج أورورا ؟ أهي الكارثة التي خشينا وقوعها نحن الاثنان، أم هل عرفَتْ أخت توم أخيراً نور الإيمان وتبنَّتْ رؤيا زوجها عن العالم ؟ ومع ذلك، إذا كان الانسجام يسود المنزل، ماذا تفعل ابنتها في بروكلن؟ ودارت الأسئلة ودارت، ونحن الاثنان ندور في دوائر مُغلقة، نتكلم، ونتكلم، ونتكلم، ولكن دون أنْ نتمكن من الإجابة عن سؤالٍ واحد.

أخيراً قلت، غير راغبٍ في إطالة الألم، "الزمن كفيل بالإجابة. ولكن الأهم فالمهم. علينا أولاً أنْ نعثر على مكان لها لتعيش فيه. لا تستطيع أنْ تحتفظ بها، ولا أنا أستطيع. فماذا نفعل؟ "

قال توم " لن أضعها في مأوى للأيتام، إذا كان هذا ما تعني "

" طبعاً لا. ولكن لابد أنَّ هناك شخصاً نعرفه ويرغب في أخذها. مؤقتاً، أعني. إلى أنْ نعثر على مكان أورورا "

" هذا يستغرق الكثير وقتاً طويلاً، يا ناثان. قد يمتد حتى أشهر. وربما إلى الأبد "

" وماذا عن أختك من أبيك؟ "

" تعني باميلا؟ "

" قلتَ إنها ثرية. لديها منزل كبير في فرمونت، وولدان، وزوجها مُحام. إذا أخبرتها أنَّ المطلوب أنْ تُبقيها فقط حتى فصل الصيف، فلعلها تقبل "

" إنها تبغض روري. كل آل زورن يبغضونها. فلماذا ترغب في تكريس نفسها لابنة روري "

" الحب. الكرم. أنتَ قلت إنها تغيَّرتْ مع مرور السنين، أليس كذلك ؟ حسن، إذا وعدتُ بتغطية تكاليف لوسي كلها، فلعلها ترى في الأمر مغامرة أسرية جماعية. كلنا نتضامنُ معاً للخير العام "

" أنت فعلاً مُغفّل عجوز مُقنعِ "

" إنني فقط أحاولُ أنْ نخرج أنفسنا من مأزقنا، يا توم. لا أكثر "

" حسن، سأتصل بباميلا. سوف ترفض طلبي، ولكن يمكنني أنْ أقوم بمحاولة"

" هذه هي الروح العالية، يا بنيّ. اضرب الحديد وهو ساخن. إنها مهمة شاقة وعسيرة الهضم"

لكنه لم يرغب في الاتّصال من شقتي. ليس فقط لأنَّ لوسي موجودة هناك، كما قال، بل لأنَّه سيشعر بخجل شديد بسبب وجودي معه. توم الرقيق، الصعب الإرضاء، صاحب أشد الأرواح حساسية في العالم. أجبت، لا مشكلة، ولكنه ليس مُضطراً إلى العودة إلى منزله سيراً على قدميه. يمكن أنْ نخرج أنا ولوسي، ويمكن أنْ يُصبح وحده عندما يتحدث مع باميلا. علاوة على أنه سيتمكن من إضافة تكاليف المكالمة الخارجية إلى حسابي. قلت " لقد رأيتَ ماذا ترتدي الطفلة : ذلك الجينز والحذاء الخفيف البالي. هذا لا يجوز، أليس كذلك ؟ اتصل أنتَ بفرمونت، وأنا سآخذ الطفلة ونخرج لأشتري لها بعض الملابس "

وبُتَّتْ المسألة. فبعد إعداد وجبة غداء سريعة من حساء البندورة، والبيض المخفوق، وشطائر السجق، خرجنا أنا ولوسي لنقوم باحتفال

التسوُّق. بدا أنها تستمتع بالرحلة، صامتة أم لا، كأي طفلة أخرى في مثل تلك الظروف : حرية مُطلقة في اختيار ما تشاء. في أول الأمر التزمنا غالباً بالأساسيات (الجوارب، والألبسة الداخلية، والبناطيل الطويلة، والبناطيل القصيرة، والبيجامات، والكنزات الفضفاضة ذات غطاء الرأس، وسترة قصيرة من النايلون، وقصّاصات الأظافر، وفرشاة أسنان، وفرشاة شعر، إلى آخره)، ولكن تبع ذلك حذاء خفيف بمئة وخمسين دولاراً بلون زُرقة النيون، ونسخة مُطابِقة لقلنسوة فريق بروكلن دودجرز للعبة البيسبول المشغولة بالصوف الحر، وأيضاً، كم دُهِشتُ لذلك، حذاء ميري جين لامع من الجلد الأصلي المدبوغ، بالإضافة إلى ثوب من القطن الأبيض والأحمر اشتريناه في الختام - على الطراز الكلاسيكي القديم، مع الياقة المستديرة والحزام الذي يُربَط من الخلف. في الوقت الذي حملنا فيه الغنيمة إلى شقتي، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بكثير، ولم يكن توم موجوداً هناك. ووجدتُ ملاحظة مستقرة على مائدة المطبخ.

عزيزي ناثان:

لقد وافقت باميلا. لا تسألني كيف فعلتُ ذلك، لكني اضطررتُ إلى بذل الجهد معها طوال ساعة كاملة قبل أنْ تستسلم. كان أشد ما أجريته تعذيباً وإرهاقاً من الأحاديث. حالياً، الأمر يقتصر على "أساس التجربة"، لكنّ الخبر الجيد هو أنها تريد أنْ نذهب بلوسي إليها غداً. الأمر له صِلة بجدول أعمال تد وبشجارٍ ما وقع في نادٍ ريفي محلي. أعتقد أننا نستطيع أنْ نستخدم سيارتك، أليس كذلك؟ سأقوم بالقيادة

بنفسي إذا لم ترغب أنتَ بذلك. سوف أذهب إلى محل بيع الكتب الآن لأتحدث مع هاري حول منحي إجازة. سأنتظرك هناك. أسرع.

توم

لم يخطر في بالي أنَّ الأمور ستحدث في مثل تلك السرعة. وطبعاً شعرتُ بالارتياح، فرحتُ لأنَّ مشكلتنا قد حُلّتْ أخيراً بسرعة شديدة وبطريقة فعّالة، ولكنَّ جزءاً مني أيضاً بقيَ مُحبَطاً، وربما حتى شعرت بأني محروم قليلاً. كنتُ قد بدأتُ أحب لوسي، وخلال رحلة تسوّقنا كلها في الحي، تسلّل إليّ الأمل في أنْ أحتفظَ بها بعض الوقت - أياماً، كما تصورت، وربما حتى أسابيع. وهذا لا يعني أني كنتُ قد غيَّرتُ رأيي حول الوضع (إذ ما كان يمكن لها أنْ تمكث في شقتي إلى الأبد)، ولكنَّ فترة قصيرة كان يمكن أنْ تكون أكثر من مقبولة بالنسبة إليّ. لقد فوَّتُ على نفسي العديد من الفُرَص مع راشيل عندما كانت صغيرة السن، والآن، فجأةً، ها هي طفلة صغيرة في حاجةٍ إلى مَنْ يعتني بها، في حاجةٍ إلى مَنْ يشتري لها ملابس ويُزوِّدها بالطعام، في حاجةٍ إلى شخصٍ بالغ يتوفّر لديه ما يكفي من الطعام ليوليها انتباهه ويُحاول أنْ يُخرِجها من صمتها المُحيِّر. ولم يكن لديّ أي اعتراض على تولّي ذلك الدور، ولكن يبدو أنَّ مسرح الأحداث ينتقل من بروكلن إلى نيو إنغلند، وتمَّ استبدالي بُمثل آخر. وحاولتُ أنْ أواسي نفسي بالتفكير في أنَّ لوسي ستكون في حالٍ أفضل في الريف مع باميلا وأولادها، ولكن ماذا كنتُ أعرف عن باميلا؟ أنا لم أرها منذ سنين، ولقاءاتنا القليلة في الماضي تركت لدي مشاعر باردة.

أرادتْ لوسي أنْ ترتدي ثوبها الجديد وحذاء ميري جين عند ذهابنا إلى محل بيع الكتب، ووافقتُ شريطةَ أنْ تستحم أولاً. قلتُ، أنا خبير قديم في تحميم الأطفال، ولكي أُثبِتَ كلامي أخرجتُ ألبومَ صورٍ فوتوغرافية من خزانةِ الكتب وعرضتُ عليها بعض صور راشيل - كانت إحداها، ويا للعجب، تبيِّنُ ابنتي جالسة وسط فقاقيع الصابون وهي في سن السادسة أو السابعة. قلت " هذه ابنة خالك. هل تعلمين أنَّها وأمكِ لا يفصل بين عُمريهما أكثر من ثلاثة أشهر ؟ لقد كانتا صديقتين حميمتين ". هزّتْ لوسي رأسها وأشرقت على وجهها أكبر ابتسامة لها في ذلك اليوم. وشعرتُ أنها بدأتْ تثقُ بالخال نات، وبعد هنيهة كنا في طريقنا إلى الحمّام. بينما كنتُ أملأ الحوض بالماء، تجرّدتْ لوسي من ملابسها برضا تام وخاضت فيه. لم يكن عليها أي خدش، اللهم ما عدا جُرح صغير، ومتيبِّس على رُكبتها اليسرى. ظهرها أملس، ونظيف : وساقاها أملسين ونظيفين ؛ ولا وجود لتورُّم أو كشط حول عضوها التناسلي. كان مجرد فحص عيني سريع، ولكن كائناً ما كان سبب صمتها، لم أرَ ما يوحي بأنها تعرّضتْ لسوء المعاملة أو للتحرُّش. واحتفالاً باكتشافي، غنّيتُ لها النصّ الكامل لأغنية " بولي وولي دودل" وأنا أغسل لها شعرها وأشطفه.

بعد أنْ أخرجتُها من المغطس بخمس عشرة دقيقة، رنَّ جرس الهاتف. كان المتكلم توم، يتّصل من متجر الكتب، ويتساءل ماذا حدث لنا. لقد انتهى من حديثه مع هاري (الذي لبّى له طلبه وأعطاه إجازة بضعة أيام) وكان توّاقاً للخروج من هناك.

قلت " أنا آسف. لقد استغرقَ التسوُّق منا أطول من المتوقَّع، ثم قرَّرتُ أنَّ في استطاعة لوسي أنْ تستحم. قُلْ وداعاً للملابس الرثَّة، يا توم. إنَّ فتاتنا تبدو وكأنها ذاهبة لحضور حفل عيد ميلاد في قصر وندسور "

تبعَ ذلك نقاشٌ قصير حول ما سنقدم على مائدة العشاء. بما أنَّ توم أراد ننطلق في وقتٍ مُبكّر من الصباح، رأى أنَّ الأفضل ربما لو قرّرنا أنْ ننطلق عند نحو الساعة السادسة. ثم، أضاف، إنَّ شهيّة لوسي مفتوحة على آخرها، وستكون ربما عندئذٍ قد أضحتْ شديدة الجوع في كل الأحوال.

استدرتُ نحو لوسي وسألتها عن رأيها في البيتزا. وعندما أجابت بلعق شفتيها والربت على بطنها، طلبتُ من توم أنْ يُقابلنا في مطعم "رصيف روكو" - الذي يُقدِّم أفضل بيتزا في المنطقة. قلت " في الساعة السادسة. وحتى ذلك الحين، سنذهب لوسي وأنا إلى محل شرائط الفيديو ونبحث عن فيلمٍ سينمائي نستطيع أنْ نشاهده معاً بعد العشاء.

اتّضح أنَّ الفيلم هو " ***الأزمنة المعاصرة*** "، الذي فاجأني بأنه اختيار مُثير بصورة غريبة. ليس فقط لأنَّ لوسي لم تكن قد شاهدت أو سمعتْ أي شيء عن تشابلن (وهذا دليل آخر على انهيار الثقافة الأميركية)، بل لأنَّ في هذا الفيلم ينطق المتشرد للمرة الأولى. ربما كان الكلام غير مفهوم، لكنَّ الأصوات كانت تخرج من فمه برشاقة، وتساءلتُ إنْ كانت تلك اللحظة يمكن أنْ تُثير في لوسي شيئاً، أو ربما تمنحها فرصة للتأمُّل في معنى صمتها العنيد. قلتُ في نفسي، في أفضل الأحوال قد تُخرجها منه إلى الأبد.

ظلّ سلوكها في أفضل حالاته حتى جلسنا لنتناول وجبة العشاء في مطعم روكو. كانت تُلبي كل ما أطلبه منها حباً وطاعةً، ولم يتغضّن جبينها بالعبوس مرة واحدة. لكنَّ توم ألقى بسرعة، في حركة طائشة نادرة، نبأ قيامنا برحلتنا الوشيكة إلى فرمونت بعد أنْ جلسنا إلى المائدة بدقائق. لم يكن هناك تدرُّج، لا دعاية تُطري عجائب برلينغتُن، لا جِدال حول السبب في أنها ستكون في حالٍ أفضل وهي مع باميلا مما هي مع خالين في بروكلن. هنا رأيتها تتجهَّم للمرة الأولى، ثم تبكي للمرة الأولى، ثم تبقى عابسة خلال القسم الأكبر من تناول الوجبة. وعلى الرغم من أنها لابد كانت جائعة، إلا أنها لم تلمس حصّتها من البيتزا عندما وُضعَتْ أمامها، ولم يُنقذنا مما كان يمكن أنْ يتصاعد ليُصبح حرب أعصاب مُستعرة إلا حديثي الذي لم يتوقّف. بدأتُ بوضع الأساس الذي نسيَ توم أمره: التراتيل والتقريظ، رقصة نقر أقدام غرفة التجارة، المديح المطوَّل لرقة باميلا الأسطورية. وعندما فشلتْ تلك المحاضرات في إعطاء النتائج المرجوّة، غيَّرت التكتيك ووعدتُها بأنْ نمكث أنا وتوم معها إلى أنْ تستقر بكل ارتياح، ثم تماديتُ أكثر وقمتُ بالمُجازفة القصوى وأكّدتُ لها بأنَّ القرار برُمّته رهن موافقتها. فإذا لم تُعجبها الإقامة هناك، فسوف نحزم أمتعتها ونعود بها إلى نيويورك. وقلت، ولكن يجب أنْ تقوم بمحاولةٍ حقيقية، لا تقلّ عن ثلاثة أيام أو أربعة. اتّفقنا؟ هزّت رأسها موافقة. ثم، للمرة الأولى منذ نصف ساعة، ابتسمتْ. هتفتُ للنادل وسألته إنْ لم يكن في الأمر إزعاج أنْ يُعيد تسخين البيتزا في المطبخ. بعد عشر دقائق عاد بها إلى الطاولة، وانهالت لوسي عليها.

لم تُعطِ تجربة تشابلن إلا نتائج متفاوتة. ضحكت لوسي، مُصدِرةً أول صوت سمعناه منها طوال النهار (حتى دموعها على مائدة العشاء تدحرجت على وجنتيها في صمت)، ولكن قبل أنْ نصل إلى مشهد المطعم ببضع دقائق، في الموقع من الفيلم حيث ينطلق تشارلي في أغنية تافهة لا تُنسى، كانت عيناها قد أُغمضتا واستسلمتْ للنوم. مَنْ يستطيع أنْ يلومها؟ كانت قد وصلت إلى نيويورك في صباح ذلك اليوم، وقطعتْ يعلم الله كم مئة ميل، مما كان يعني أنها أمضت غالبية الليلة السابقة إذا لم نقُل كلها وهي جالسة في الحافلة. حملتُها إلى غرفة النوم الاحتياطية بينما فتح توم الصوفا المُعدَّة مُسبقاً لتكون سريراً ومدَّ الشرشف العلوي والملاءة. لا أحد يستغرق في النوم كالصغار، ولاسيما المُرهقين منهم. حتى وأنا أضعُ جسدها على الفراش وأدسّها داخله، لم تفتح عينيها مرة واحدة.

اليوم التالي بدأ بحدثٍ غريب ومزعج. فعند الساعة السابعة، دخلتُ على الطفلة النائمة حاملاً كأساً من عصير البرتقال، وطبقاً من البيض المخفوق، وقطعتين من الخبز المُحمَّص الممسوح بالزبد. وضعت الطعام على الأرض ومددتُ يدي وهززتُ ذراعها برفق. قلت " أفيقي، يا لوسي. حان وقت الإفطار " بعد بضع لحظات فتحتْ عينيها، ثم، بعد هنيهة من الحيرة الصِرف (***أين أنا؟ مَنْ هذا الرجل الغريب الذي ينظر إليّ؟***)، تذكَّرتْ مَنْ أنا وابتسمتْ. سألتها " كيف كان نومك؟ "

أجابتْ، ناطقةً الكلمات بتلك اللكنة الجنوبية، " نمت جيداً جداً، خال نات. كحجرٍ كبير قديم في قعر البئر "

بانغ. ها قـد حـدث. لوسي تكلّمتْ. دون إلحـاح أو تشـجـيع، دون تفكير فيما تنوي أنْ تفعل، لقد فتحت فمها بهدوء وتكلّمتْ. وتسا ءلتُ، تُرى هل انتـهت فترة هيـمنة الصمت رسميـاً، أم أنها ببـسـاطة نسـيَتْ أمره في غمرة ذهول الخروج إلى اليقظة ؟

قلت، غـيـر راغبٍ في جلب النحس على الأشـيـاء بذِكـر مـا كـان قد حدث، " أنا سعيد "

سألتْ " ألا زلنا سنذهب إلى فرمونت القذرة اليوم ؟ "

كل كلمة جديدة، كل جُملة جديدة زادت من شعوري الحذِر بالأمل.

قلت " في غـضـون سـاعـة. انظري، يا لوسي، عـصـيـر وخبز مُـحـمّص وبيض "

عندما انحنيتُ لأرفع الطعام عن الأرض، رسمت ابـتسـامـة أخرى من ابتساماتها العريضة. أعلنتْ " إفطار في السرير. كأني الملكة نفرتيتي "

حسبتُ عندئذٍ أننا خرجنا من المشكلة، ولكن ماذا أعلم - ماذا أعلم عن أي شيء ؟ حـملتُ كـأس العـصـيـر بيـدي اليُـمنى، وحـالما مـدّتْ يدها لتأخذه مني، كـأنَّ السمـاء سقطتْ على قـمة رأسها. إنني نادراً ما شهدتُ وجهاً تتغيَّر ملامحه بأسرع مما حدث لوجهها في تلك اللحظة. ففي سرعة البرق، تحـوَّلتْ الابتـسـامـة المُشـرقـة إلى نظرة رعب نافذة، مُـدمِّرة. شدّتْ يدها على فمها، وفي غضون لحظات كانت الدموع تغمرُ عينيها.

قلت " لا تقلقي، يا حبيبتي. أنتِ لم ترتكبي أي خطأ "

لكنهـا كـانت قـد فـعلتْ. بالنسـبـة إليـهـا فعلتْ، ومن النظرة المرتسـمـة على وجهـهـا الصـغيـر المُعذّب، بدا كـأنهـا ارتكبتْ إثمـاً لا يُـغـتَـفَـر. وفي عاصفة مُفاجئة من الغضب من نفسها، بدأتْ تضرب جانب رأسها بكعب

يدها اليسرى، كمشهدٍ إيمائيّ عنيف يُعبِّر عن إحساسها بحماقتها الشديدة. كرّرت ذلك ثلاث مرات، وأربع مرات، وخمس مرات، ولكن حين هممتُ بالقبض على ذراعها لأجبرها على الكفّ، أبرزتْ يدها اليُسرى رافعة أحد أصابعها، وطعنتها بقوة باتجاه وجهي. كانت شديدة الحنق. وعيناها تلتهبان بالاشمئزاز واحتقار الذات، وأخذتْ تصفع يدها اليُسرى بيدها اليُمنى، كأنها تُعنِّفُ اليد لوقاحتها بإبراز إصبعها. ثم توقف الصفع، وعادت إلى إقحام يدها اليُسرى. هذه المرة كانت أبرزت إصبعَين. وكما فعلتْ في السابق، راحت تطعن الهواء بإلحاح. أولاً بإصبع، ثم بإصبعَين. ماذا كانت تحاول أنْ تُخبرني ؟ لم أكن متأكداً، لكني اعتقدتُ أنه أمر له صِلة بالوقت، بعدد الأيام المتبقّية لها قبل أنْ يُسمح لها بالتكلُّم من جديد. لقد أسقطَتْ يوماً عندما أفاقت في ذلك الصباح، أما الآن وبعد أنْ انزلقت بعض الكلمات بالمصادفة من فمها، كان عليها أنْ تُعاقب نفسها بإضافة يوم إلى صمتها. ولذلك، أصبح اليوم يومين.

سألتُها " أهذا كل شيء ؟ أتقولين لي إنك ستعودين إلى الكلام بعد يومين ؟ "

لا جواب. كرّرت السؤال، لكنّ لوسي لم تكن توشك أنْ تُفشي سرّها. لم تومئ برأسها إيجاباً، ولم تهزّ رأسها نفياً. لا شيء. جلستُ إلى جوارها وبدأتُ أمسّد على شعرها.

قلت، وأنا أناولها كأس عصير البرتقال، " خذي، لوسي. حان وقت تناول إفطارك "

الانطلاق إلى الشمال

كانت السيارة من بقايا حياتي القديمة. لم أكن في حاجةٍ إليها في نيويورك، لكني كنتُ أكسل من أنْ أزعج نفسي ببيعها، وهكذا استقرّتْ في مرأبٍ في شارع الاتحاد بين الجادّتين السادسة والسابعة. لم أقدها مرة أو ألقِ عليها نظرة منذ أنْ انتقلتُ إلى بروكلن. أولدزموبيل كتلاس بلون أخضر زيزفوني طراز عام ١٩٩٤، قبيحة قُبحاً صادماً. لكنَّ السيارة كانت تقوم بواجبها، وبعد شهرَين طويلَين من الكسل، اشتغلَ المُحرِّك مع أول دورة للمفتاح.

كان توم هو الربّان؛ جلستُ أنا ساكناً؛ وجلست لوسي في المقعد الخلفي. وعلى الرغم من الوعود التي كنتُ قد قطعتها لها في الليلة السابقة، ظلّتْ لا تريد أنْ تسمع أي شيء عن باميلا وفرمونت، وكرهَتْ اصطحابنا لها إلى هناك رُغماً عنها. منطقياً، كانت على حق. إذا كان القرار النهائي راجع إليها، فما الهدف من قطع ثلاثمئة ميل بالسيارة لإيصالها إلى هناك في حين أنَّ النتيجة الوحيدة ستكون قطع ثلاثمئة ميل أخرى لإعادتها؟ كنتُ قد قلتُ لها إنها يجب أنْ تمنح تجربة باميلا فرصة حقيقية. وتظاهرَتْ بالموافقة، لكني أدركتُ أنَّها كانت قد اتخذتْ قرارها مُسبقاً وأنَّ لا شيء سيغيِّره. وهكذا جلسَتْ في المقعد الخلفي من

السيارة، تبدو كئيبة ومنزوية، كضحية متجهّمة، بريئة، لمكيدتنا القاسية. استغرقتْ في النوم أثناء عبورنا ضواحي بريدجبورت على الطريق ١-٩٥، ولكنها حتى ذلك الحين كل ما فَعَلَته كان التحديق عبر النافذة، وهي تضمر دون شك أفكاراً شريرة عن خاليها الشريرين. وكما برهنت الأحداث اللاحقة، كنتُ على خطأ في ذلك. لقد كانت لوسي أشدّ دهاءً مما تخيّلت، وبدل أنْ تجلس هناك تغلي من الغضب، كانت تُخطط وتفكِّرُ، مُستخدمةً ذكاءها الخارق في نسج مؤامرة تقلب الطاولات كلها علينا ويجعلها تتحكّم في مصيرها. لقد كانت خطة لامعة، في رأيي، خطة وضيعة حقاً، ولا يسع المرء أمامها إلا أنْ يرفع قبعته احتراماً لإبداعٍ وصل إلى الذروة. ولكن سأورد المزيد عن هذا لاحقاً.

بينما لوسي تستغرق في التفكير وتغفو في المقعد الخلفي، كنتُ مع توم نتحدث في المقعد الأمامي. لم يكن قد قاد سيارة منذ أنْ ترك عمله كسائق سيارة أجرة في شهر كانون ثاني، ومجرد فكرة أنه عاد إلى القيادة بدا أنها تعمل عمل لُمنشِّط لجسمه. كنتُ ألازمه كل يوم تقريباً منذ أسبوعين، ولم يبد لي خلالها أشد جزلاً وسعادة مما بدا في صباح ذلك اليوم من أوائل شهر حزيران. وبعد أنْ تفاوضَ معنا ونحن نخترق حركة مرور المدينة، وصلنا إلى أول عدد كبير من الطرق العامة التي تأخذنا شمالاً، وعلى تلك الطرق المفتوحة بدأ يسترخي، ويزيح أعباء بؤسه ويكفُّ مؤقتاً عن كراهية العالم. وعندما يسترخي توم يُصبح ثرثاراً. وذلك حُكم التجربة بالنسبة إلى الدكتور ثمب السابق، ومنذ الساعة الثامنة والنصف صباحاً تقريباً وحتى بعد الظهيرة بوقت طويل، كان يُمطرني بسيلٍ من الكلمات - سيل حقيقي من القصص، والنكات، والمحاضرات حول مسائل وثيقة الصِلة ومُلغّزة معاً.

بدأ الأمر بتعليق على "*كتاب الحماقة الإنسانية*"، كتابي الصغير، الرديء الناقص. أراد أنْ يعرف كيف يجري العمل عليه، وعندما أخبرته أني أتقدم فيه ولا يبدو أنه سينتهي في المستقبل المنظور، وأنَّ كل قصة كتبتها يبدو أنها تلد قصة أخرى ثم أخرى ثم أخرى، أمسك بي بقوة من كتفي بيده اليمنى ونطق بهذا الحكم المُذهل: "أنت كاتب، يا ناثان. أنتَ مشروع كاتب حقيقي"

قلت "أنا لستُ كذلك. أنا مجرد بائع بوالص تأمين على الحياة متقاعد ليس لديه شيء آخر أفضل يفعله بنفسه. إنه يُساعد على تمضية الوقت، هذا كل شيء"

"أنت مُخطئ، يا ناثان. فبعد أنْ تجولت طويلاً في الصحراء، عثرتَ أخيراً على هدفك الحقيقي. والآن بعد أنْ استغنيت عن العمل من أجل المال، ها أنتَ تقوم بالعمل الذي خُلِقتَ كي تقوم به طوال الوقت"

"هذا هراء. لا أحد يُصبح مؤلفاً في سن الستين"

تنحنحَ الطالب المتخرج السابق والفقيه الأدبي واستأذن بالاختلاف معي. قال إنه لا وجود لقواعد فيما يخص الكتابة. انظر بتمعُّن إلى حياة الشعراء والروائيين، ولن تخرج منها إلا بكتلة من العماء الصِرف، بخليطٍ لا متناهٍ من الاستثناءات. ذلك لأنَّ الكتابة مرض، تابع توم، يمكن أنْ تسميه عدوى أو أنفلونزا يُصيب الروح، ولذلك يمكنه أنْ يُصيب أي شخص في أي وقت. الشاب والكهل، القوي والضعيف، السكران والصاحي، العاقل والمجنون. تفحّص قائمة العمالقة وأشباه العمالقة، وسوف تكتشف كُتّاباً احتضنوا كل ميل جنسي، وكل منعطف سياسي، وكل صفة إنسانية - من أرقى مثاليّة إلى أسفل فساد. كانوا مجرمين ومُحامين، جواسيس وأطباء، جنوداً وعوانس، رحّالة ومُنزوين. وإذا لم

يكن أحدٌ مُستثنى، فما الذي يمنع بائع بوالص تأمين على الحياة سابق يُشرف على سن الستين من أنْ ينضمَّ إلى صفوفهم ؟ أي قانون أعلن أنَّ ناثان غلاس ليس مُصاباً بعدوى المرض ؟

هززتُ كتفيَّ استخفافاً.

قال توم " جويس كتب ثلاث روايات. وبلزاك كتب تسعين رواية. هل هذا يُشكّل فرقاً بالنسبة إلينا الآن؟ "

قلت " ليس بالنسبة إليَّ "

" كافكا كتبَ قصّته الأولى في ليلة واحدة. وستاندال كتب "***صومعة بارما***" في تسعة وأربعين يوماً. ملفيل كتب " ***موبي ديك*** " في ستة عشر شهراً. فلوبير أمضى خمس سنين في كتابة " ***مدام بوفاري*** ". ميوزيل عمل طوال ثمانية عشر عاماً على " ***رجل بلا صفات*** "ومات قبل أنْ يتمكن من إتمامها. هل تأبه لأي من هذه المعلومات الآن؟ "

لم يبدُ لي أنَّ السؤال يستدعي إعطاء جواب.

" ميلتون كان كفيفاً. ثرفانتث كان بذراعٍ واحد. كريستوفر مارلو طُعنَ حتى الموت خلال شجار في حانة قبل أنْ يبلغ الثلاثين من العمر. يبدو أنَّ الخنجر اخترقَ عينه مباشرةً. فماذا يُفترَض أنْ يكون رأينا في هذا؟ "

" لا أعلم، يا توم. أخبرني أنت "

" لا شيء. لا شيء على الإطلاق"

" أميل إلى الاتّفاق معك "

" توماس وينتورث هيغنسن[١٨] "صحّحَ" قصائد إميلي ديكنسن. وجاهل منفوخ قال عن " ***أوراق العشب*** " أنه كتاب لا أخلاقي تجرّأ على

---

١٨ – توماس وينتوورث هينغسن (١٨٢٣ – ١٩١١) : أميركي . وزير ، وكاتب ومُصلح مُنادٍ بإلغاء الرق وبتحرير المرأة – المترجم .

النيل من المقدّسة إميلي. والمسكين بو، الذي مات مجنوناً وسكيراً في مجرور في بالتيمور، كان من سوء حظّه أنه انتقى روفوس غريسوالد[19] ليكون مُنفِّذ وصيته الأدبية. وقليلون يعلمون أنَّ غريسوالد هذا كان يحتقره، بحيث إنَّ ذلك الصديق الدعيّ والداعم له أمضى سنين طويلة في محاولة تدمير سمعته "

" مسكين بو "

" إيدي لم يكن محظوظاً. ليس في حياته، ليس قبل أنْ يموت. لقد دفنوه في مقبرة في بالتيمور في عام ١٨٤٩، ولكن لم يوضع شاهد لقبره قبل مرور ستة وعشرين عاماً. فقد كلَّفَ أحد أقربائه بصنع واحد على الفور بعد وفاته، لكنَّ العمل انتهى أمره في أحد تلك الأماكن المُضحكة المُبكية التي تدفعك إلى التساؤل مَنْ المسؤول عن العالم. تكلَّم عن الحماقة الإنسانية، يا ناثان . لقد تصادفَ أنْ كان فناء حجر الرخام موجوداً مباشرةً تحت مقطع من سكة الحديد المرفوعة. وعندما أوشك النقش على الشاهد على الانتهاء، وقع حادثُ خروجِ قطارٍ عن مساره. وسقط القطار على الفناء وهشَّمَ الحجر، ولأنَّ القريب لم يكن لديه ما يكفي من النقود ليطلب تنفيذ حجرٍ آخر، أمضى بو الربع قرن التالية مُمدّداً في قبرٍ بلا شاهد"

" من أين لك كل هذه المعرفة، يا توم؟ "

" معلومات عامة "

" ليست كذلك بالنسبة إليّ "

١٩- روفوس ويلموت غريسوالد (١٨١٥ - ١٨٥٧) : مُحرر ، وشاعر وناقد أدبي أميركي . كان بينه وبين بو منافسة وكراهية . بعد وفاة بو المُريبة ، هجاه غريوالد وادّعى بأنَّ بو عيَّنه وصياً على تركته ، وعمد إلى تشويه سمعته كشاعر . مات بالسل - المترجم .

" أنتَ لم تذهب قط إلى مدرسة ثانوية. فبينما كنتَ هناك في الخارج تجعل العالم آمناً من أجل الديموقراطية، كنتُ أنا جالساً في مقصورة الكتب، أحشو ذهني بمعلومات عقيمة "

" مَنْ الذي دفع أخيراً ثمن الشاهد؟ "

" لقد كوّنتْ مجموعة من المدرّسين المحليين جمعية من أجل جمع المال. واستغرق الأمر عشر سنين، صدِّق أو لا تصدِّق. وعندما انتهى العمل على الصرح، نُبِشَتْ رُفات بو، وحُمِلَتْ على عربة عبر المدينة، وأُعيدَ دفنها في فناء إحدى كنائس بالتيمور. وفي صباح يوم رفع الستار، أُقيمت مراسم خاصة في ما سُمي بالثانوية الغربية للإناث. عنوان غريب، ألا تعتقد؟ ***الثانوية الغربية للإناث***. ودُعيَ إليها كل الشعراء الأميركيين الهامّين، لكنَّ ويتيير، ولونغفيلو وأوليفر ويندل هولمز جميعاً وجدوا أعذاراً لعدم حضورهم. وحده والت ويتمن أزعجَ نفسه وقطع المسافة. وبما أنَّ أعماله أهم من أعمال الآخرين كلهم مُجتمعين، فإني أنظر إلى الأمر بوصفه من عمل عدالة شعرية سامية. والمُثير للاهتمام أنَّ ستيفان مالارميه كان موجوداً هناك في ذلك الصباح. ليس بلحمه ودمه - بل بسوناتته الشهيرة "Le Tombeau d'Edgar Poe" (ضريح إدغار بو) التي ألّفها للمناسبة، وحتى لو لم يتمكن من الانتهاء منها في الوقت المناسب من أجل المراسم، لكنّه كان حاضراً مع ذلك بروحه. أحب هذا، يا ناثان. ويتمن ومالارميه، الأبوان التوأم للشعر الحديث، واقفان معاً في الثانوية الغربية للإناث ليُشرِّفا سَلَفهما المُشترَك، المُهان والمُحتقَر إدغار ألن بو، أول كاتب حقيقي تُنجبه أميركا للعالم "

نعم، كان توم في أحسن حالاته في ذلك اليوم. أعتقد أنه كان مهووساً، بصورة ما، ولكن لا ريب في أنَّ حديثه الملتوي، المنطوي على

معرفة واسعة، ساعد على كسر رتابة القيادة. كان يتبختر في أحد الاتجاهين قليلاً، ويُصادف مفترق طرق، ثم ينطلق بحِدّة في اتّجاه آخر، دون أنْ يتوقف ليُقرِّر إنْ كان الاتّجاه الأيسر أفضل من الأيمن أو العكس بالعكس. كل الدروب تؤدي إلى روما، إنْ صحّ التعبير، وبما أنَّ روما ليست إلا الأدب كله (الذي بدا أنه يعرف كل شيء عنه)، لم يكن هاماً القرار الذي يتخذه. ومن بو، قفزَ فجأة نحو الأمام إلى كافكا. والصِلة المشتركة كانت سن الرجلين عند موتهما : بو توفي في سن الأربعين وتسعة أشهر، وكافكا في سن الأربعين وأحد عشر شهراً. كانت حقيقة غامضة من النوع الذي لا يمكن إلا لتوم أنْ يتذكّرها أو يهتم بها، ولكن بما أني أمضيتُ نصف حياتي أدرسُ قوائم التأمين على الحياة وأفكّرُ في معدلات وفيات الرجال في مهنٍ مختلفة، وجدتُ ذلك مُثيراً للاهتمام.

قلت "سن مبكرة جداً. لو أنهما عاشا في عصرنا هذا، لكانت هناك فرصة في أنْ تتمكن العقاقير ومُضادات الالتهاب من إنقاذهما. انظر إليّ. لو أني أُصِبتُ بالسرطان قبل ثلاثين أو أربعين عاماً، فربما ما كنتُ الآن جالساً في هذه السيارة ".

قال توم " نعم، سن الأربعين مُبكرة جداً. ولكن فكّر في كل الكُتّاب الذين لم يتمكنوا حتى من العيش إلى مثل هذه السن ".

" كريستوفر مارلو "

" توفي في سن التاسعة والعشرين. وكيتس في الخامسة والعشرين. جورج بوخنر في الثالثة والعشرين. تصورّ. أعظم كاتب مسرحي ألماني في القرن التاسع عشر توفي في الثالثة والعشرين. لورد بايرون توفي في السادسة والثلاثين. إميلي برونتي توفيت في الثلاثين. وشارلوت برونتي في التاسعة والثلاثين. شيللي، توفي قُبيل بلوغه الثلاثين بشهرٍ واحد.

سير فيليب سيدني في الحادية والثلاثين. ناثانيل ويست في السابعة والثلاثين. ويلفريد أوين في الخامسة والعشرين. جورج تراكل في السابعة والعشرين. ليوباردي، وغارسيا لوركا، وأبولينير كلهم توفوا في الثامنة والثلاثين. باسكال في التاسعة والثلاثين. فلانري أوكونور في التاسعة والثلاثين. رامبو في السابعة والثلاثين. والأخوان كرين، ستيفن وهارت، في الثامنة والعشرين والثانية والثلاثين على التوالي. وهاينريش فون كلايست - الكاتب المُفضَّل عند كافكا - توفي في الرابعة والثلاثين في عمليةِ انتحارٍ مزدوجة مع عشيقته "

"وكافكا هو كاتبكَ المفَضَّل"

" أعتقد ذلك. من كُتّاب القرن العشرين، على أي حال "

" لماذا لم تكتب أطروحتك عنه؟ "

" لأني أحمق. ولأنه من المُفترَض أني موالٍ للثقافة الأميركية "

" هو كتب " ***أميركا*** " أليس كذلك ؟ "

" ها ها . لفتة جيدة. لِمَ لم أفكر في هذا ؟ "

" أذكُرُ وصفَه لتمثال الحرية. بدل المِشعل، الفتاة تحمل بيدها سيفاً مشهوراً. صورة لا تُصدَّق. تُثير الضحكَ، ولكن في الوقت نفسه تُخيف حتى الموت. وكأنها لقطة من كابوسٍ مُروع "

" إذن فقد قرأتَ كافكا "

" بعضه. الروايات وربما عدداً من القصص القصيرة. مرَّ على ذلك وقتٌ طويل الآن، عندما كنتُ في مثل سنّك. لكنَّ المُميَّز في كافكا أنه يبقى معك. فما أنْ تُبحر في أعماله، لا تنساه أبداً "

"هل اطّلعتَ على اليوميات والرسائل؟ هل قرأت أياً من السِيَر عنه"

" أنتَ تعرفني. يا توم. أنا لستُ شخصاً جاداً جداً "

" شيء مؤسف. فكلما عرفتَ أكثر عن حياته، ازددتَ اهتماماً بأعماله. إنَّ كافكا لم يكن فقط كاتباً عظيماً، في الحقيقة، بل كان إنساناً رائعاً أيضاً. هل سمعتَ مرةً القصة التي تدور حول الدمية؟ "

" لا أذكر "

"أه. إذن أصغِ جيداً. أقدّمها إليك بوصفها أول دليل يدعم قضيتي"

" لستُ متأكداً من أني سأتابعك "

" الأمر غاية في البساطة. الهدف هو أنْ أُثبت أنَّ كافكا كان بالفعل شخصاً استثنائياً. لماذا أبدأ بهذه القصة بالذات؟ لا أدري. ولكن منذ أنْ ظهرت لوسي في صباح يوم أمس، لم أتمكن من طرحها من ذهني. لابد أنَّ هناك صلة في مكانٍ ما. ولم أفهم كيف بالضبط بعد، ولكني أعتقد أنَّها تضمُ رسالةً موجّهة إلينا، ما يُشبه الإنذار حول كيف ينبغي لنا أنْ نتصرَّف"

" هذا تمهيد طويل جداً، يا توم. باشر فوراً واحكِ الحكاية "

" أنا أثرثر من جديد، أليس كذلك؟ كل أشعة الشمس هذه، كل هذه السيارات، كل هذا الاندفاع بسرعة ستين وسبعين ميلاً في الساعة. إنَّ رأسي يكاد ينفجر، يا ناثان. أشعر أني مملوء، ومستعد لأي شيء "

" عظيم. والآن احكِ لي الحكاية"

" حسن. القصة. قصة الدمية... إنها آخر سنة في حياة كافكا، وهو واقع في حب دورا ديامانت، الصبية ذات التسعة عشر أو العشرين عاماً التي هربت من أسرتها الحصيدية[٢٠] في بولندا وتعيش حالياً في

---

٢٠ - الحصيديّة أو الحسيدية : مذهب في الباطنية اليهودية المتشددة. نشأ في بولندا في عام ١٧٥٠. (لمزيد من الشرح والاستفاضة حول أصل هذا المذهب أحيل القارئ إلى "الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية"، تأليف الدكتور عبد المنعم الحفني، إصدار دار المسيرة، بيروت) - المترجم.

برلين. إنها تبلغ نصف عمره، لكنها هي التي بثّتْ فيه الشجاعة على مغادرة براغ - وهو ما كان يرغبُ في فعله منذ سنوات طويلة - وتصبح المرأة الأولى والوحيدة التي يعيش معها. ويصل إلى برلين في خريف عام ١٩٢٣ ويموت في الربيع التالي، ولكن تلك الأشهر الأخيرة هي ربما أسعد أشهر حياته. على الرغم من تدهور صحته. على الرغم من الأحوال الاجتماعية في برلين : قلّة الطعام، أعمال الشغب السياسية، وأسوأ تضخم مالي في تاريخ ألمانيا. وعلى الرغم من معرفته المؤكَّدة من أنه لم يعُد ينتمي إلى هذا العالم.

" كان كافكا يخرج بعد ظهيرة كل يوم ليتمشى في الحديقة العامة. وغالباً ما كانت دورا تصطحبه. وذات يوم، صادفا طفلة صغيرة تبكي، تجهشُ من أعماق قلبها. فسألها كافكا عمّا بها، فأخبرته أنها أضاعت دميتها. وعلى الفور بدأ ينسج قصة ليشرح لها ما حدث. قال " لقد ذهبتْ دميتك في رحلة ". سألته الطفلة " وكيف عرفت هذا؟ "، قال كافكا " لأنها كتبت لي رسالة ". بدا الارتياب على وجه الفتاة. سألته "وهل هي معك؟ "، قال " كلا، أنا آسف. لقد تركتها في المنزل خطأً، لكني سأحضرها معي غداً ". لقد كان مُقنعاً إلى درجة أنَّ الفتاة لم تعُد تعرف ماذا تعتقد. أيمكن أنَّ ذلك الرجل الغامض يقول الحقيقة؟

" يعودُ كافكا من فوره إلى المنزل ليكتب رسالة. يجلس على طاولة المكتب، وبينما دورا تراقبه وهو يكتب، تلاحظُ الجدّية والتوتُّر نفسيهما اللذين أبداهما وهو يؤلّف أحد أعماله. إنه ليس بصدد الثرثرة مع فتاة صغيرة. بل هذا جهد تأليف أدب حقيقي، إنه يُصرّ على إخراجه بأفضل ما يمكن. وإذا استطاع أنْ يخلص إلى سبك كذبة جميلة مُقنعة، فسوف

يستبدل خسارة الطفلة بحقيقة مختلفة - حقيقة زائفة، ربما، لكنها شيء حقيقي ويُصدَّق طِبقاً لقوانين الكتابة الأدبية.

" في اليوم التالي اندفعَ كافكا عائداً إلى الحديقة العامة حاملاً الرسالة. كانت الفتاة الصغيرة في انتظاره، وبما أنها لم تكن قد تعلّمتْ القراءة بعد، قرأها لها بصوتٍ عالٍ. إنَّ الدمية آسفة جداً، لكنها ملّتْ العيش في كنف الأناس أنفسهم طوال الوقت، وتحتاج إلى الخروج ومشاهدة العالم، وعقد صداقات جديدة. وهذا لا يعني أنها لا تحب الفتاة الصغيرة، لكنها تتوق إلى تغيير المشهد العام، ولذلك يجب أنْ تفترقا لبعض الوقت. ثم تعِدُ الدمية بأنْ تكتب رسالة للفتاة كل يوم وتُطلِعها على نشاطاتها.

" هنا تبدأ القصة بفطر قلبي. من المدهش حقاً أنَّ كافكا تكبد مشقة تأليف تلك الرسالة الأولى، لكنه بعد ذلك كرَّسَ نفسه لمشروع كتابة رسالة جديدة في كل يوم - دون أي سبب آخر غير مواساة الفتاة الصغيرة، التي تصادفَ أنْ كانت غريبة تماماً عنه، طفلة مرَّ بها مُصادفةً بعد ظهيرة أحد الأيام في الحديقة العامة. أي نوعٍ من الرجال يقوم بمثل ذلك العمل؟ استمرَّ على ذلك على مدى ثلاثة أسابيع، يا ناثان. ثلاثة أسابيع. أحد ألمع الكُتّاب على مرّ الزمن يُضحّي بوقته - وقته الذي يُصبح نفيساً ويتضاءل باطّراد - ليصيغَ رسائل وهمية مُرسلة من دُمية ضائعة. وتقول دورا إنه كتب كل جُملة مع عناية مُعذِّبة بالتفاصيل، وإنَّ النثر كان دقيقاً، مُسلياً، ويشدّ الانتباه. بعبارة أخرى، كان نثر كافكا، وكان في كل يوم وعلى مدى ثلاثة أسابيع يذهب إلى الحديقة العامة ويقرأ رسالة أخرى للفتاة. وكبرت الدمية، وذهبتْ إلى المدرسة، وتعرّفتْ

إلى أناسٍ آخرين. واستمرّت تؤكّد للفتاة أنها تحبها، لكنها أشارت إلى بعض التعقيدات التي برزت في حياتها تجعل من المستحيل عليها أنْ تعود إلى المنزل. وشيئاً فشيئاً، أعدَّ كافكا الفتاة من أجل اللحظة التي ستختفي فيها الدمية من حياتها إلى الأبد. وجاهد كي يخرج بنهاية مُرضية، وهو قلق من أنه إذا لم ينجح فسوف ينكسر السِحر. وبعد اختبار احتمالات مختلفة، قرّر أخيراً أنْ يجعل الدمية تتزوج وتبتعد. وأخذ يصِف الرجل الذي أحبّته، وحفل الخطبة، وحفل الزفاف في الريف، وحتى المنزل الذي تعيشُ فيه الدمية مع زوجها الآن. ثم، في آخر سطر، تودِّع الدمية صديقتها القديمة والحبيبة.

" طبعاً، عند هذه النقطة، لم تعُد الطفلة تشتاق إلى الدمية. لقد منحها كافكا شيئاً آخر بديلاً، وعندما وصلت تلك الأسابيع الثلاثة إلى نهايتها، كانت الرسائل قد شفتْها من تعاستها. أصبح لديها القصة، وعندما يكون المرء محظوظاً بقدرٍ كافٍ بحيث يعيش داخل قصة، داخل عالمٍ وهميّ، تختفي آلام هذا العالم. فما دامت القصة مُستمرة، لا يعود للواقع وجود".

فتاتنا، أو إنها كوكا كولا

توجد طريقان للانتقال من نيويورك سيتي إلى برلينغتُن، فلامونت : الطريق السريعة والطريق البطيئة. لقطع ثُلثيّ الرحلة الأولَين، اخترنا الطريق السريعة، مساراً منحنياً يتضمّنُ طرقاً مدينيّة مثل جادّة فلاتبوش، والـ BQE (الطريق الواصلة بين منطقتيّ كوينز وبروكلين)، غراند سنترال باركواي، وطريق ٦٧٨ . وبعد أنْ اجتزنا جسر وايتْستون إلى حي برونكس، تابعنا اتجاهنا شمالاً عدة أميال إلى أنْ وصلنا إلى طريق ١-٩٥، التي تؤدي بنا إلى خارج المدينة، خلال الجزء الشرقي من مقاطعة ويستشستر، ثم خلال أسفل كونكتيكت. في نيو هيفن، انعطفنا إلى ١-٩١ . على هذه الطريق أمضينا القسم الأكبر من رحلتنا، نقطع ما تبقّى من ولاية كونكتيكتْ وكل ولاية ماساتشوستس إلى أنْ وصلنا إلى الحدود الجنوبية لفرمونت. لكي نصل أسرع إلى برلينغتُن لزمنا طريق ١-٩١ وحتى تقاطع وايت ريفر ثم انعطفنا غرباً على طريق ١-٨٩، ولكن حالما وجدنا أنفسنا في ضواحي براتلبورو، أعلنَ توم أنه سئمَ الطرق الشاسعة وفضّلَ الانتقال إلى الدروب الريفية الأصغر، الأقلّ زحاماً. وهكذا كان وتخلينا عن الطريق السريعة إلى الطريق البطيئة. كان ذلك سيضيف ساعة أخرى أو ساعتين إلى زمن رحلتنا، كما قال،

لكننا على الأقلّ، ستتوفر لنا فرصة مشاهدة شيء مختلف عن موكب من السيارات السريعة، الخالية من الحياة. غابات، مثلاً، وأزهار برية على طول حافة الطريق، بالإضافة إلى البقر والخيول، والمزارع والمروج، وخُضرة الريف ووجهاً إنسانياً بين حين وآخر. لم أُمانع في إجراء ذلك التغيير على الخطة. ما كان يهمني هو إذا كنا سنصل إلى منزل باميلا عند الساعة الثالثة أم الخامسة ؟ والآن بعد أنْ فتحت لوسي عينيها من جديد وراحت تُحدق من النافذة الجانبية، شعرتُ بالذنب لِما كنا ننوي أنْ نفعله لها حتى إني وددتُ لو نُرجئ وصولنا إلى هناك أطول مدة ممكنة. فتحت أطلس طريق راند ماكنالي ورحتُ أدرسُ مُخطط فرمونت. قلتُ لتوم "انطلق من المخرج الثالث. إننا نبحث عن الطريق رقم ثلاثين، الذي يرتفع بخطٍ منحنٍ نحو الشمال الشرقي. وبعد قطع ما يُقارب الأربعين ميلاً، سوف نبدأ نهتز ونتمايل إلى أنْ نصل إلى رتلاند، اعثر على طريق رقم سبعة، ونظلّ عليه حتى برلينغتُن "

لماذا أتلكّأ عند هذه التفاصيل التافهة؟ لأنَّ حقيقة القصة تكمن في التفاصيل، ولا خيار لدي إلا أنْ أحكي القصة بحذافيرها وكما حدثت. ولو لمْ نتخذ ذلك القرار بالابتعاد عن الطريق العامة عند براتلبورو وتبعنا أنوفنا إلى طريق ٣٠، لما وقع العديد من أحداث هذا الكتاب. وعندما أقول هذا أفكّر خاصةً في توم. أنا ولوسي استفدنا أيضاً من القرار، أما توم، البطل صاحب المعاناة الطويلة لحماقات بروكلن هذه، فلعله كان أهمّ قرار اتّخذه في حياته. في ذلكَ الوقت، لم تكن لديه أدنى فكرة عن عواقبه، ولا معرفة بالزوبعة التي أثارها. فهو مثل دمية كافكا، اعتقدَ أنه ببساطة كان يصبو إلى تغيير المشاهد، ولكنْ لأنه تركَ

طريقاً وسار في أخرى، فتحَ الحظ ذراعيه واسعاً فجأةً وحمل الفتى إلى عالمٍ مختلف.

كان خزّان الوقود فارغ تقريباً ؛ وبطوننا أيضاً خاوية ؛ ومثاناتنا ممتلئة. عند الميل الخامس عشر أو العشرين إلى الشمال الغربي من براتلبورو، توقفنا لنتناول طعام الغداء في مطعمٍ زريّ على جانب الطريق يُدعى مطعم دوت. *طعام ووقود* ، كما أشارتْ اللافتة المنصوبة على الطريق العام بكل وضوح، وهذا هو الترتيب الذي اخترنا أنْ نلبّي وِفقه حاجتنا. الطعام والوقود في مطعم دوت، ثم المزيد من الوقود في محطة شيفرون على الجانب المقابل من الطريق. هنا، أيضاً، اتّضحَ أنَّ قرارنا الاعتباطي بالقيام بالأفعال بطريقة ما دون أخرى له تأثيرٌ ذو دلالة على القصة. فلو أننا ملأنا خزان الوقود أولاً، لما تمكّنتْ لوسي من أداء عملها الجسور الصادم، ولكنّا حتماً تابعنا طريقنا حتى برلينغتُن كما خطّطنا. ولكن لأنَّ الخزّان كان ما يزال فارغاً عندما جلسنا لنأكل، سنحت الفرصة فجأةً، ولم تتردَّد الطفلة. شعرتُ كأنَّ كارثة قد حلّتْ في ذلك الوقت، ولكنْ لو أنَّ فتاتنا لم تفعل ما فعلَتْ، لما وقع فتانا بين ذراعيّ السيد الحظ الداعمتين، ولَما كان لترك الطريق العام أو عدم تركه أي أهمية.

حتى الآن، لا أستطيع أنْ أفهم تماماً كيف فعلتْ ذلك. لقد عمل ضبط النفس لصالحها، ولكن حتى إذا أخذنا بعين الاعتبار لحظات الحظ القليلة، كان هناك شيء يكاد يكون شيطانياً في تخريبها الجسور والفعّال. نعم، كان المطعم بعيداً عن الطريق بمقدار مئة قدم، مما حماها من عيون راكبي الدراجات المارين. نعم، كل أماكن التوقف أمام المطعم مباشرة كانت ممتلئة، مما اضطرّنا إلى إبقاء سيارتنا بعيداً على الجانب،

بعيداً عن مجال رؤية النافذتين الموجودتين على واجهة بناء متداعٍ من طابق واحد. ونعم، كان من باب المزيّة الإضافية أنني وتوم جلسنا وظهرانا يواجهان تينك النافذتين. ولكن كيف بحق الله استطاعت أنْ تفكّر بتلك السرعة بحيث تحوِّل وجود آلة بيع الكوكاكولا في الخارج (وكانت بالمصادفة موضوعة على بُعد عشرة أقدام من سيارتنا المتوقف) إلى سلاح في قتالها ضد حل برلينغتُن؟ دخلنا نحن الثلاثة معاً إلى المطعم، وأول ما فعلنا كان أننا توجهنا من فورنا إلى المراحيض. ثم جلسنا على إحدى الموائد وطلبنا شطائر الهامبرغر وسلطة التونا وشطائر الجبن المشوية. وحالما انتهت النادلة من نقل طلباتنا، أعلمتنا لوسي بالإشارة إلى حجرها أنَّ هناك المزيد مما تريد أنْ تفعله في الحمّام. قلت، لا مشكلة، وذهبت، تبدو كأي فتاة أميركية أخرى ببنطلونها الصوفي القصير وحذائها الخفيف ذي اللون الأزرق النيوني وبسعر مئة وخمسين دولاراً. وأثناء غيابها، تحدثنا أنا وتوم عن متعة الابتعاد عن المدينة، حتى ونحن جالسون في مكانٍ مظلم وقذر كمطعم دوت، مُحاطون بسائقي شاحنات ومزارعين يعتمرون قلنسوات لعبة البيسبول الصفراء والحمراء المُزخرفة بشعارات من الشركات التي صنعت أدوات عمل وآليات ثقيلة. كان توم ما يزال يُحلِّق في حيويته اللفظية، وكنتُ منغمساً فيما يقول بحيث إني فقدتُ أثر لوسي. عندئذٍ لم نكن نعلم (لم تظهر الحقائق إلا لاحقاً) أنَّ فتاتنا قد غادرتْ المطعم من الباب الخلفي وكانت تزوِّد آلة بيع الكوكاكولا بالقطع النقدية وبأوراق الدولار في الخارج. اشترتْ على الأقلّ عشرين علبة من ذلك المزيج الدبِق، المُثقل بالسُكّر، وراحت تُفرِغ محتوى كل منها واحدة بعد أخرى في خزّان

الوقود لِما كانت ذات مرة سيارتي الأولدزموبيل كتلاس. ما أدراها أنَّ السُكّر هو بمثابة السُمّ الزُعاف بالنسبة إلى مُحركات الاحتراق؟ كيف أمكن للطفلة أنْ تكون على ذلك القدر الهائل من الذكاء ؟ فهي ليس فقط قضَتْ على رحلتنا بسرعة ونهائياً، بل نجحتْ في تنفيذ ذلك في زمنٍ قياسيّ. أعتقد أنه استغرق منها خمس دقائق، أو سبع على أبعد تقدير. ومهما كان الوقت، عندما عادت إلى المائدة كنا ما نزال ننتظر مجيء الطعام. فجأةً عادتْ إلى الابتسام من جديد، ولكن كيف كان يمكن لي أنْ أُخمِّن سبب سعادتها ؟ ولو أني أزعجتُ نفسي بالتفكير في الأمر أصلاً، لافترضتُ أنَّ سببه هو أنها قامت بتغوّط جيد.

بعد انتهائنا من تناول الطعام استقللنا السيارة من جديد، فأصدر المُحرِّك أشد أنواع الضجيج غرابة في تاريخ السيارات. وقد جلستُ هنا أفكّرُ في ذلك الضجيج على مدى عشرين دقيقة، دون أنْ أتوصّل إلى الكلمات الدقيقة لوصفه، إلى العبارة الوحيدة التي لا تُنسى وتُنصفه. ***أكان ضحكاً أجشاً ؟ أم نقراً على أوتار الكمان بالأصابع يُشبه الفوَاق ؟ أم عاصفةٌ من التجشّؤ ؟*** لعلي لستُ مؤهلاً للقيام بالمهمة - أو أنَّ اللغة أداة أضعف من أنْ تأسُر ما سمعتُ، شيئاً يمكن أنْ يخرج من منقار إوزّة تختنق أو من فم قرد تشامبانزي سكران. وأخيراً، تحوّل التجشّؤ إلى نبرة أحاديّة، طويلة، تجشؤ عالٍ، يُشبه صوت البوق يمكن أنْ يُظن أنه تجشؤ إنساني. ليس بالضبط كالذي يُطلِقه شارب بيرة منتشٍ، بل صوت يُذكِّرُ بالضجيج البطيء، المؤلم لحالة الإمساك، بانبثاقٍ صوت عميق منخفض لدفق هواء ينزّ من حنجرة شخص مُصاب بُحرقة ختامية في المعدة. أوقفَ توم المُحرك وحاول من جديد، لكنَّ دورة المفتاح الثانية لم تُصدِر أكثر من

أنين خافت. أما الثالثة فنتج عنها صمت مُطبِق. وانتهت السيمفونية الجميلة، وأُصيبت سيارتي بالسكتة القلبية.

قال توم " أعتقد أنَّ الوقود قد نفد منا "

كان ذلك هو الاستنتاج المعقول الوحيد، ولكن عندما ملتُ إلى يساري ونظرتُ إلى مقياس الوقود، وجدتُ أنه يُبيّن أنَّ الخزان مملوءٌ ثُمنه. وأشرتُ بإصبعي إلى المؤشّر الأحمر. قلت " ليس بالنسبة إلى هذا"

هزّ توم كتفيه استخفافاً. " لابد أنه مُعطَّل. من حُسن حظّنا أنَّ هناك محطة وقود عبر الشارع ".

بينما توم يُقدِّم تشخيصه الأعرج لحالة السيارة، التفتُّ لألقي نظرة على محطة الوقود المذكورة عبر النافذة الخلفية - كانت عبارة عن مرأب متهدِّم، بمضخّتين، بدا كأنه لم يُدهَنْ منذ عام ١٩٥٤ . وعندما فعلتُ ذلك تواصلت عيناي مع عينيّ لوسي. كانت جالسة خلف توم مباشرةً، ولأنه لم تكن لدي أدنى فكرة عن أنها المسؤولة عن الفوضى التي وجدنا أنفسنا فيها، شعرتُ بالحيرة من الرضا الصافي، الخارق تقريباً، الذي رأيته مرتسماً على وجهها. كان المُحرك قد أصدر تواً مزيجه الهمجي من النغمات المتنافرة، وفي الظروف الاعتيادية يعتقد المرء أنّ تلك الأصوات المُضحكة سوف تنتزع منها ردة فعل صاخبة : رعباً، تسلية، غضباً، شيئاً ما. لكنَّ لوسي كانت منطوية عميقاً داخل نفسها - تطفو بلا وزن على سحابة من اللا مبالاة، روحاً صِرفاً منفصلة عن جسدها. أنا أفهم الآن أنها كانت تبتهجُ لنجاحها في مُهمتها، تقدِّمُ شُكراً صامتاً لصاحب القوة الكُلّية لمساعدته لها في إنجاز مُعجزة. لكني وأنا جالسٌ معها في السيارة بعد ظهيرة ذلك اليوم، كنتُ فقط محتاراً.

سألتها " أما تزالين معنا، يا لوسي؟ "

رمتني بتحديقٍ طويل، هادئ، ثم أومأتْ برأسها إيجاباً.

تابعتُ قائلاً " لا تقلقي، سوف نُصلح السيارة فوراً "

لا داعي للقول إني كنتُ مُخطئاً. هناك ما يُغري بإعطاء سردٍ مُفصّل للمهزلة التي تلت، لكني لا أريد أنْ أختبر صبر القارئ بمناقشة مسائل لا تمتُّ بصِلة، بالمعنى الصارم للكلمة، إلى القصة. وفي حالة السيارة، النتيجة هي كل ما يهم. لذلك، سأستغني عن جرّ وعاء الوقود العالي الأوكتان عائداً من المرأب عبر الطريق (بما أنه لم يُساعدنا) وألغي أي إشارة إلى شاحنة السحب التي سحبت سيارة كتلاس إلى المرأب نفسه (أي خيار آخر كان لنا؟). الحقيقة الوحيدة التي تستحق الذِكر هي أنَّ أياً من الشخصين اللذين كانا يُديران المرأب (أبٌ وابنه آل الأكبر وآل الأصغر) لم يستطع أنْ يفهم ماذا جرى للسيارة. والرجلان كانا تقريباً في مثل سن توم وسني، على التوالي، ولكن في حين أني كنتُ نحيلاً وتوم ضخم الجثة، كان جسما آل الأصغر وآل الأكبر يُشبهان جسمينا ولكن بالعكس : الابن كان نحيلاً، والأب كان بديناً.

بعد أنْ تفحّصَ آل الأصغر المُحرِّك بضع دقائق دون أنْ يعثر على شيء أغلق الغطاء بضربة قوية. قال " سوف أُضطر إلى فكّ هذه الحلوة "

أجاب " حالتها سيئة جداً، هه ؟ "

" أنا لا أقول إنها سيئة. لكنها أيضاً ليست جيدة جداً. لا يا سيدي، ليست جيدة جداً على الإطلاق "

" كم سيستغرق إصلاحها ؟ "

" حسب. ربما يوم، ربما أسبوع. أولاً، يجب أنْ أُحدِّد المشكلة. إذا كانت بسيطة، فلن نتعب. وإذا لم تكن كذلك، فقد نضطر إلى أنْ نطلب لك قطعاً جديدة من التاجر، وهذا قد يستغرق بعض الوقت".

بدا ذلك تخميناً معقولاً وصادقاً، وبما أني كنتُ جاهلاً تماماً في موضوع السيارات، لم أر أمامي شيئاً آخر أقوم به غير أنْ أسند إليه العمل - مهما استغرق ذلك من وقت. وأثنى توم، الذي بدوره لم يكن ميكانيكياً، على الحل. ربما كان كل شيء جيد وعلى ما يُرام، ولكن الآن بعد أنْ جنحنا على دربٍ خلفيّة في ريف فرمونت، ماذا سنفعل بينما الثنائي آل يعملان على بث الحياة في آلتنا المريضة؟ أحد الحلول كان أنْ نستأجر سيارة وننطلق إلى برلينغتُن، ثم نُمضي ما تبقّى من الأسبوع مع باميلا ونستعيد الأودلزموبيل في طريق عودتنا إلى نيويورك. أو، ببساطة أشدّ، نستأجر غرفاً في نُزُل محليّ ونتظاهر بأننا نقضي إجازة إلى أنْ تُصبح السيارة جاهزة.

قال توم " لقد اكتفيت من القيادة هذا اليوم. أنا أُصوِّتْ لصالح أنْ نلزم مكاننا. على الأقلّ حتى الغد "

كنتُ أميل إلى الاتفاق معه. أما بالنسبة إلى لوسي - لوسي الصامتة، اليقظة دائماً - كان جلياً أنه لا اعتراض لديها على قرارنا.

أوصى آل الأكبر بمكانين في نيوفين، وهي قرية كنا قد مررنا بها قبل عشرة أميال. ذهبتُ إلى المكتب واتصلتُ بالرقمَين، ولكن اتَّضحَ أنه لا توجد غرف شاغرة في أيٍ من النزلَين. وعندما أبلغتهم عما حدث، بدا الاستياء على الرجل الضخم. قال " سيّاح حقيرون. ما نزال في الأسبوع الأول من شهر حزيران، والصيف أصبح على أشُدّه "

وقفنا جميعاً، على مدى دقيقة ونصف، وأيدينا في جيوبنا، نراقب الأب والابن يفكران. وأخيراً، كسر آل الأصغر الصمت. " ماذا عن ستانلي، يا أبي؟ "

قال والده " هممم، لا أدري. ما الذي يدفعك إلى الاعتقاد أنه عاد إلى المهنة؟"

أجاب الشاب "سمعتُ أنه يُخطط للافتتاح هذا العام. هذا ما أخبرتني به ميري إلين. لقد قابلت ستانلي مُصادفة في مكتب البريد في الأسبوع الفائت "

سألتُ " مَنْ ستانلي؟ "

قال آل الأكبر، وهو يرفع ذراعه ويُشير جهة الغرب، " ستانلي تشودر. كان لديه نُزُل يقع على بُعد ثلاثة أميال من هنا أعلى ذلك التل هناك"

كرَّرتُ " ستانلي تشودر. يا له من اسمٍ غريب"

قال آل الضخم " نعم، لكنَّ ستانلي لا يأبه. أعتقد أنه يُعجبه "

قلت، وقد أدركتُ فجأةً أني أستمتع بالحديث مع الثنائي آل، " ذات مرة تعرَّفتُ إلى رجل اسمه إلمر دودلبوم. ما رأيك في أنْ ترتبط بهذا اللقب طوال حياتك؟ "

كشَّر آل الأكبر. " لا أعتقد، يا سيد. لا أعتقد أبداً. ولكنَّ الناس على الأقلّ سيتذكّرونه. لقد كنتُ آل ويلسون منذ اليوم الذي وُلِدتُ فيه، وهو يُعادل ربما كوني نكرة. لا شيء في مثل هذا الاسم ما يجعلك تتذكّره. لابد أنَّ هناك آلافاً اسمهم آل ويلسون في فرمونت وحدها "

قال آل الأصغر " أعتقد أني سأحاول مع ستانلي. مَنْ يدري. إذا لم يكن في الخارج يجزّ مرجه، فقد يرفع الـ... "

عندما توجه الابنُ النحيل إلى غرفة المكتب لكي يُجري تلك المكالمة، اتّكأ والده البدين من جديد على سيارتي، وأخرج سيجارة من جيب قميصه (وضعها في فمه لكنه لم يُشعِلها)، ثم حكى لنا حكاية نُزُل تشودر الحزينة.

قال " هذا ما يفعله تشودر الآن ؛ يجزُّ مرج منزله. منذ الصباح الباكر وحتى وقتٍ متأخّر من بعد الظهيرة يمتطي الآلة ويجزّ مرجه. يبدأ الأمر بعد أنْ يذوب الثلج في نيسان، ولا ينتهي إلا عندما يبدأ الثلج بالتراكُم من جديد في شهر تشرين ثاني. كل يوم، أكان مُمطراً أم صحواً، تراه هناك يمتطي الآلة ويدور في أرجاء أرضه، يجزّ المرج على امتداد ساعات طوال. وعندما يحلُّ الشتاء، يلزم المنزل ويُشاهد التلفزيون. وعندما يملّ مشاهدة التلفزيون، يركب سيارته وينطلق إلى أتلانتيك سيتي. ويحجز غرفة في أحد فنادق الكازينو ويلعب البلاك جاك طوال عشرة أيام. أحياناً يربح، وأحياناً يخسر، لكنَّ ستانلي لا يأبه. إنَّ لديه ما يكفي من المال ليستمر في هذه الحياة، وإذا بدّد بعض النقود بين حينٍ وآخر، فأي ضير في هذا ؟

" إني أعرفه منذ زمن بعيد - أكثر من ثلاثين عاماً، أعتقد. كان يعملُ مُحاسباً في سبرينغفيلد، ماساتشوستس. في عام ١٩٦٨ أو ١٩٦٩ تقريباً اشترى هو وزوجته بيغ ذلك المنزل الأبيض الكبير الذي فوق التل، وبعد ذلك أصبحا يأتيان لقضاء عطل نهاية الأسبوع وفي الإجازات الصيفية، وعُطل عيد الميلاد، كلما تسنّى لهما ذلك. كان أكبر أحلامهما أنْ يُحوّلا المكان إلى نُزُل ويعيشان فيه طوال الوقت بعد أنْ يتقاعد ستانلي. وهكذا قبل أربع سنوات، ترك ستانلي عمله كمُحاسب،

وباع هو وبيغ منزلهما في سبرينغفيلد، وانتقلا إلى هنا لكي يفتتحا نُزُل تشودر. لن أنسى ما حييت كم بذلا من جهد في ذلك الربيع الأول، يندفعان لإعداد كل شيء من أجل الافتتاح في عطلة يوم الذكرى[٢١]. وسار كل شيء حسب الخطة. واستأجرا طبّاخاً وخادمتين ثم، عندما أوشكا أنْ يسجلا أول الحاجزين، أُصيبتْ بيغ بسكتة دماغية وماتت. هناك في المطبخ في منتصف النهار. في الدقيقة الأولى كانت حية، تتحدث إلى ستانلي وطبّاخه، وفي الدقيقة التالية كانت مُكوَّمة على الأرض، تلفظ آخر أنفاسها. وقع الأمر بسرعة كبيرة، ماتت حتى قبل أنْ تغادر سيارة الإسعاف المستشفى.

" لهذا ترى ستانلي يجزّ مرجه. بعض الناس يعتقدون أنه أُصيبَ بقدرٍ من الجنون، ولكن كلما تحدثتُ معه، أجد أنه ستانلي العزيز نفسه الذي قابلتُه قبل ثلاثين عاماً، الرجل نفسه الذي كان عليه دائماً. إنه حزين على بيغ، هذا كل ما في الأمر. بعض الرجال يُدمنون على شرب الخمر. وبعضهم الآخر يفتشون عن زوجة أخرى. أما ستانلي فيجزُّ مرجه. لا ضير في هذا، أليس كذلك؟

" أنا لم أره منذ مدة، ولكن كانت ميري إلين قد صدقَتْ في نقل الحكاية - ولا أعرف عنها غير ذلك - فهذا خبر جيد. إنه يعني أنَّ حالة ستانلي في تحسُّن، وأنه يريد أنْ يبدأ بالعيش من جديد. لقد غاب آل الأصغر مدة دقيقتين حتى الآن. قد أكون على خطأ، ولكن أعتقد أنَّ ستانلي رفع سماعة الهاتف، وهما يعملان على وضع الاستعدادات

---

٢١ - يوم الذكرى : في الولايات المتحدة ، هو يوم ٣٠ من شهر أيار الذي يتم الاحتفال فيه بذكرى شهداء الحرب .

لاستقبالكما أنتم الثلاثة هناك فوق التل. سيكون هذا حدثاً مشهوداً، أليس كذلك ؟ إذا باشر ستانلي العمل، ستكونون أول الزبائن الذين يدفعون نقوداً في تاريخ نُزُل تشودر. يا سلام يا سلام. سيكون ذلك حقاً حدثاً مشهوداً، أليس كذلك؟ "

أيامٌ كالحلم في فندق الوجود

أريد أنْ أتكلّم عن السعادة والرخاء، عن تلك اللحظات النادرة، غير المتوقَّعة عندما يصمت الصوت في رأسك وتشعر بأنكَ متّحد مع العالم.

أريد أنْ أتكلّم عن طقس أوائل شـهـر حـزيران، عن التناغُم والاسترخاء الممتع، عن عصافير أبو الحنّاء والحساسين الصفراء والعصافير الزرقاء وهي تندفعُ بسرعة مارة بأوراق الأشجار النضرة.

أريد أنْ أتكلّم عن منافع النوم، عن مسرات الطعام والشراب، عن السعادة كما يراها عقلك عندما تخطو في ضياء شمس الساعة الثانية وتشعر بالعناق الدافئ للهواء المُحيط بجسدك.

أريد أنْ أتحدث عن توم ولوسي، عن ستانلي تشودر والأيام الأربعة التي أمضيناها في نُزُل تشودر، عن الأفكار التي راودتنا والأحلام التي تراءتْ فوق ذلك التل في جنوب فرمونت.

أريد أنْ أتذكّر أوقات الغروب بزُرقتها السماوية، وأوقات الفجر الواهنة، الوردية، والدببة وهي تعوي في الغابة ليلاً.

أريد أنْ أتذكّرها كلها. إذا كانت هذه الطلبات كلها كثيرة، فبعضها. كلا، بل أكثر من بعضها. كلها تقريباً. كلها تقريباً، مع فراغات محجوزة للأجزاء المفقودة.

* * *

ستانلي تشودر الصموت ولكن الممتلئ بالحيوية، الخبير في جزّ المروج، ولاعب بوكر داهية وشيخ من شيوخ لعبة البينغ-بونغ، ومولع بالسينما الأميركية القديمة، مُحارب قديم في الحرب الكورية، وأب لابنة في الثانية والثلاثين من العمر تحمل اسماً غريباً هو هني - مُدرّسة في مدرسة حكومة للصف الرابع الابتدائي وتعيش في براتلبورو. ستانلي في السابعة والستين لكنه متماسك بالنسبة إلى سنّه، رأسه غزير الشَعر وعيناه صافيتان زرقاوان. يقترب طوله من المترين، ممتلئ البنية، قبضته شديدة عندما يُصافح.

نزل بسيارته من التل لكي يقلّنا. بعد أنْ حيى آل الأصغر وآل الأكبر، قدَّمَ نفسه إلينا ثم أخذَ يُساعدنا ونحن ننقل الحقائب من صندوق سيارتنا إلى خلفية سيارته الفولفو ستيشن واغن. لاحظتُ أنه سريع الحركة، ويكاد يندفع في انتقاله بين السيارتين. وكانت إيماءاته تتصف بالرشاقة، والعصبية والبراعة. ستانلي لا يُضيع وقته. الكسل يولّد الفكر، والأفكار يمكن أنْ تكون خطرة، وهذا شيء يفهمه على الفور كل مَنْ يعيش وحده. وبعد أنْ أصغيتُ إلى سرد آل الأكبر لوفاة بيغ، بتُّ أرى ستانلي كشخص ضائع ومُعذَّب. مُجامل ومُتسامح مع الخطأ، لكنه رجل ملول، ممزق، يُكافحُ ليلملمَ شتات نفسه.

ودَّعنا آل ويلسون وشكرناهما على مساعدتهما ؛ ووعَدَني آل الأصغر بإمدادي بتقارير يومية متوالية عن حالة سيارتي.

درب قذرة شديدة الانحدار تحفّها من الجانبين الغابة ؛ تضاريس وعرة ؛ وبين حين وآخر أغصانٌ متدلية تحفّ بحاجب الريح ونحن نرتقي إلى أعلى التل. اعتذر ستانلي مُقدّماً عن أي مشكلة قد تُصادفنا في

النُزُل. لقد كان يعمل وحده على الأسبوعَين الأخيرين في مُحاولة لإبرازه في أحسن شكل، ولكن ما يزال هناك الكثير من العمل في انتظاره. كان يُخطط ليفتتح في الرابع من شهر تموز، ولكن بعد أنْ اتّصل به آل الأصغر وكلّمه عن ورطتنا، "لم يكن ليُسامح نفسه" لو أنه لم يستضِفنا عنده لبضعة أيام. لم يُعيِّن هيئة إدارة بعد، لكنه سيُعدّ الأسرّة ويسهر على أنْ تكون مريحة بقدر ما تسمح الظروف. لقد تحدث تواً مع ابنته في براتلبورو، وقد وافقتْ على المجيء إلى النُزُل في كل يوم وتُعد لنا العشاء. وأكّدَ لنا أنها تُحسِن الطبخ. وشكرناه أنا وتوم على لطفه. ومن شدة انشغاله بتلك الهموم المُضاعَفة، لم يُلاحظ ستانلي أنَّ لوسي لم تتكلم بعد.

منزل أبيض اللون من ثلاثة طوابق وست عشرة غرفة وشُرفة أمامية تُحيط بالمنزل من جوانبه كلها. اللافتة المُعلّقة على حافة ممر السيارات تقول " *نُزُل تشودر* "، لكنَّ جزءاً مني فهم فوراً أننا أتينا إلى فندق الوجود. في ذلك الوقت، قررتُ ألا أشارك توم معي في هذه الفكرة.

قبل أنْ يُرينا غرفنا، اتصل توم بباميلا من صالون الطابق الأرضي ليشرح لها ما حدث لنا. ستانلي كان في الطابق العلوي يُعد الأسرّة. وتجوّلتْ لوسي باتجاه الصوفا، وبعد هنيهة إذا بها تركع على رُكبتيها وتُداعب كلب ستانلي، وهو من نوع لابرادور عجوز أسود اللون اسمه سبوتْ (بقعة). إنني، رُغماً عني، أفكر في هاري وفي الكلمات التافهة التي علقتْ في ذاكرتي على مدى الأسبوعين الأخيرين: علّم البقعة. لقد تحوّلت البقعة الآن إلى حيوان بأربع قوائم، وبينما كنتُ أراقبُ الكلب

يلعق وجه لوسي، اقتربتُ من توم على أمل أنْ أُستدعى لأقول بضع كلمات لباميلا. ولم أُستدعَ، ولكن بينما كنتُ أصغي إلى توم وهو يُنهي محادثته، دُهشتُ من جواب أخته من أبيه الغاضب لسماعها أنَّ وصولنا إلى برلينغتُن سيتأخر. وكأنَّ عطل السيارة هو بسببنا، وكأنَّ الأحداث غير المتوقعة لا تقع دائماً. لكنَّ باميلا كانت قد أمضتْ ساعة ونصف في السوبرماركت وهي الآن في المطبخ " تعمل بيديها وقدميها " لتُعِدَّ العشاء لنا قبل أنْ نصل. وكبادرة ضيافة وترحيب، خطّطتْ لتقديم وجبة ممتازة، متعددة صنوف الأطباق تتضمن كل شيء من حساء الغازباكو إلى فطيرة جوز البقان المُعدّة في المنزل، وقد انزعجت، كلا بل حنقتْ، عندما علِمتْ أنَّ جهودها ذهبت هباءً. وقدَّم توم لها حشداً من الاعتذارات، لكنَّ باميلا استمرتْ في تقريعها له. أهذه هي باميلا الجديدة المُحسّنة التي سمعتُ الكثير عنها ؟ إذا لم يكن في استطاعتها أنْ تتقبَّل خيبة أمل صغيرة تتعثر بها في طريقها، فأي نوع من الأم البديلة ستكون للوسي؟ إنَّ آخر ما تحتاج إليه الطفلة هو امرأة بورجوازية عُصابيّة تنهال عليها بطلبات نزقة ومستحيلة الإنجاز.

حتى قبل أنْ يُعيد توم السماعة إلى مكانها، قرّرتُ أنَّ حل برلينغتُن قد مات. حذفتُ اسمَ باميلا من اللائحة وعيّنتُ نفسي مؤقتاً وصياً على لوسي. فهل أنا مؤهَّلٌ أكثر من باميلا للاعتناء بلوسي ؟ كلا، ربما لا من أغلب النواحي، لكنَّ دخيلتي تُنبئني بأني مسؤول عنها - شئتُ أم أبيت.

أعاد توم السماعة إلى مكانها وهزّ رأسه مستنكراً، وهو يقول "هذه واحدة غضبتْ"

أجبته " انسَ أمر باميلا "

" ماذا تعني؟ "

" أعني أننا لن نذهب إلى برلينغتُن "

" أوه ؟ منذ متى ؟ "

" منذ الآن. سوف نبقى هنا إلى أن تُصلّح السيارة، ثم سنعود أدراجنا معاً إلى بروكلن"

" وماذا تنوي أنْ تفعل بلوسي ؟ "

" سوف تعيش معي في شقتي "

" عندما تحدثنا بهذا الشأن بالأمس، قلتَ أنكَ غير مُهتم "

" لقد غيَّرتُ رأيي "

" إذن قطعنا كل تلك المسافة بالسيارة إلى هنا بلا طائل "

" ليس بالضبط. انظر حولك، يا توم. لقد توقفنا في الجنة. وبعد يومين من الراحة والاسترخاء، سوف نعود إلى المنزل ونحن نشعر كأننا وُلِدنا من جديد "

كانت لوسي التي تقفُ على بُعد عشرة أقدام منا ونحن نتبادل هذه الكلمات، وسمعتْ كل حرف نطقناه. وعندما التفتُّ لأنظر إليها، إذا بها تُرسل إليّ القبلات بكلتا يديها - وذراعاها تمتدان بعد كل قبلة من شفتيها، كسيدة مسرح عظيمة مجيدة في حفلة الافتتاح. شعرتُ بالسعادة لرؤية سعادتها الغامرة، لكني أيضاً خفتُ. هل لديّ أدنى فكرة عما أنوي أنْ أورّط نفسي فيه؟

فجأةً، تذكّرتُ جملة من فيلمٍ سينمائيّ كنتُ قد شاهدته في أواخر السبعينيات. عنوانه يروغ مني، والقصة والشخصيات غاصوا في عالم

النسيان، لكنَّ الكلمات ما زال يتردّد صداها في رأسي، وكأني سمعتها بالأمس القريب. " الأطفالُ عزاء لكل شيء - ما عدا إنجاب الأطفال"

بينما كان ستانلي يُرينا غرفنا في الطابق العلوي، شرح لنا أنَّ بيغ، المرحومة السيدة تشودر (التي توفيت قبل أربع سنين)، هي المسؤولة عن انتقاء قطع الأثاث، ومفارش الأسرّة، وورق الجدران، والستائر الفينيسيّة، والسجاد، والمصابيح، والأغطية، وكل غرض من الأغراض الصغيرة العديدة الموجودة على مختلف أنواع الطاولات، الكبيرة والصغيرة، ومنضدة الكتابة : مناديل الطاولات المُخرّمة، ومنافض السجائر، وحاملات الشمعدانات، والكتب. قال " كانت صاحبة ذوقٍ لا يُعلى عليه ". وحسب رأيي، كان الديكور في العموم فاخرا، مُحاولة تحنَّ إلى الماضي لإعادة خلق جو منطقة نيوإنغلند البائد الذي كان في الواقع أشد تجهماً وشحّاً من الغرف الرقيقة، ذات الطابع الأنثوي التي كنتُ أنظر إليها عندئذٍ. ولكن لا بأس، فكل شيء نظيف ومُريح، وهناك عنصر واحد مُخلّص يُخفف من نبرة النثريات والتنميق الغالبة : إنها اللوحات المُعلّقة على الجدران. وخِلافاً لِما للتوقعات، لم تكن هناك قطع مشغولة بالإبرة، ولا لوحات مائية رديئة التنفيذ لمشاهد طبيعية في فرمونت يُغطيها الثلج، ولا نسخ من لوحات نفّذها كريير وأيفز[٢٢]. الجدران مكسوة بصور فوتوغرافية بالأبيض والأسود وبقياس ثمانية بعشرة لنجوم الكوميديا القدامى في هوليوود. كان ذلك إسهام ستانلي الوحيد في مظهر الغرف، لكنَّ شكّلَ كل الفرق، بتلقيح المكان الرصين

---

٢٢ - ناثانيل كرير وجيمس أيفز : هما أول من صنعَ نسخاً من اللوحات الفنية في القرن التاسع عشر وجعلوها مُتاحة للجماهير الواسعة .

بجرعة من الظُرف والخفّة. إحدى الغرف الثلاث التي أعدّها لأجلنا كانت مُخصصة للإخوة ماركس، والأخرى لبستر كيتن، والأخيرة للوريل وهاردي. أنا وتوم تركنا للوسي الخيار الأول، فآثرتْ غرفة ستان وأولي[٢٣] الواقعة في آخر الرواق. واختار توم غرفة بستر، وانتهى بي الأمر بينهما مع غروشو، وهاربو، وتشيكو، وزيبو[٢٤] ومارغريت دومونت.

النظرة الأولى المتمعنة للأرض المحيطة بالنُزُل. بعد أنْ أفرغنا حقائبنا مباشرة، خرجنا لنقوم بزيارة مرج ستانلي الشهير. على مدى عدة دقائق، كنتُ فريسة لدفقٍ مستمر من الأحاسيس المتبدلّة. ملمس العشب الناعم، المقصوص جيداً، تحت قدمي. صوت أزيز ذبابة خيل مرّت بجانب أذني. رائحة العشب. روائح أزهار صريمة الجدي وأكمات أزهار الليلك. أزهار التوليب الحمراء البراقة المزروعة حول حافة المنزل. بدأ الهواء يهتز، وبعد هنيهة هبّت نسمة خفيفة على وجهي.

اندفعتُ ورفاقي الثلاثة والكلب، نفكّر في أشياء سخيفة. أبلغنا ستانلي أنَّ الملكية تمتد على رقعة تبلغ مئة أكر، وتخيّلتُ كم سيكون أمراً بسيطاً لو بنينا المزيد من الأبنية إذا ما ازداد عدد نزلاء فندق الوجود وتجاوز قدرة البناء الرئيسي على الاستيعاب. كنتُ أحلم حلم توم وأعبثُ بالاحتمالات. ستون أكر من الغابات. بركة. بستان تفاح مُهمَل، مجموعة من خلايا النحل المهجورة، كوخ في الغابة من أجل تقطير شراب

---

٢٣ – ستان وأولي : اللقبان اللذان كان لوريل وهاردي يُنادي به أحدهما الآخر في الأفلام . – المترجم

٢٤ – هذه ألقاب الإخوة ماركس ، الممثلون الهزليون في السينما الأميركية القديمة . –المترجم

القبقب. وعشب مرج ستانلي - العشب الجميل، المترامي، المنتشر من حولنا وأبعد.

قلتُ لنفسي، لن يحدث هذا أبداً. إنَّ خطة هاري محكوم عليها بالفشل، وحتى إذا لم تفشل، ما الذي يدعوني إلى افتراض أنَّ ستانلي سيرغبُ في بيع منزله ؟ ومن ناحية أخرى، ماذا لو مكثَ ستانلي معنا وأصبح شريكاً في المشروع ؟ هل هو من النوع الذي يفهم ما يأمل توم في إنجازه ؟ وقررتُ أنْ أتعرَّف إليه بصورة أفضل، وأنْ أقضي برفقته أطول وقت ممكن.

بعد مرور عشرين دقيقة أو نحوها، عدنا أدراجنا إلى المنزل. اندفعَ ستانلي إلى المرأب ليُحضِرَ بعض الكراسي للجلوس على المرج لأجلنا، وحالما استقرينا استأذن منا واختفى داخل المنزل. كان لديه عمل يؤديه، لكنَّ أول دفعة من الضيوف تدفعُ نقوداً في تاريخ نُزُل تشودر حرّة في أنْ تتسكّع تحت أشعة الشمس قدر ما تشاء.

راقبتُ لوسي مدة دقيقتين وهي تركض على المرج ترمي عصي ليلتقطها الكلب. إلى يساري كان توم يقرأ مسرحيةً لدون ديليلو[٢٥]. رفعتُ بصري إلى السماء وتمعّنت في السحب العابرة. دخلَ صقر إلى مجال الرؤية ثم تلاشى. وعندما عاد الصقر، أغمضتُ عينيّ. بعد لحظات، استغرقتُ في النوم.

عند الساعة الخامسة، ظهرتْ هني تشودر للمرة الأولى، تقتربُ من واجهة المنزل مُحمّلة بالبقالة وبصندوقَين من النبيذ. حينئذٍ كنتُ وتوم قد

---

٢٥ - دون ديليلو : كاتب أميركي معاصر كبير . من رواياته : العالم السُفلي ، ماو الثاني ، ضجيج أبيض ، فنانة الجسد ، وكوزموبوليس (التي أهداها دون ديليلو لمؤلف هذا الكتاب : بول أوستر . ولاحقاً - في عام ١٩٩٢ أهدى بول أوستر نفسه كتابه "اللوياثان " إلى دون ديليلو) - المترجم

تركنا كراسي المرج وجلسنا على الشرفة، وتحدثنا في السياسة. قطعنا شجبنا لبوش الثاني وللحزب الجمهوري، وهبطنا الدَرَج نحو سيارة الهوندا البيضاء، وقدّمنا نفسينا لابنة ستانلي.

كانت امرأة ضخمة، ذات وجه يغطّيه النمش وساعدين ممتلئين وقبضة يد تسحق العِظام ؛ تطفحُ بالثقة في النفس، والفكاهة، والودّ. ربما كانت متغطرسة قليلاً، ولكن ماذا يمكن أنْ تتوقع من مُدرّسة للصف الرابع الابتدائي ؟ كان صوتها عالي النبرة وأجشاً قليلاً، ولكن أعجبني منها أنها جاهزة دائماً للضحك، ولا تخشى ضخامة شخصيتها. وقررتُ أنها فتاة كفء، وعملية، ولا ريب في أنَّ صحبتها في السرير مرحة. ليست جميلة، ولكنها أيضاً ليست قبيحة ؛ ذات عينين زرقاوَين، وشفتين ممتلئتين، وكثّة من الشعر الكثيف الأشقر المائل إلى الحُمرة. بينما كنا نساعدها في حمل أكياس البقالة من صندوق السيارة، رأيتُ أنها ترمقُ توم بنظرات تتجاوز الفضول الصِرف. المغفّل لم يُلاحظ أي شيء، لكني بدأتُ أتساءل إنْ كانت تلك الشابة الذكية والنزّاعة الى السيطرة لا تمثّل الاستجابة على صلواته. إنها ليست ***الأم المثالية الجميلة***، بل امرأة غير متزوجة تتوق إلى الإيقاع برجل. مِحدلة بخارية. إعصار. امرأة جائعة، سريعة الكلام يمكنها أنْ تُثبِّت صاحبنا حتى يستسلم.

للمرة الثانية من بعد ظهيرة ذلك اليوم، قرّرتُ أنْ أحتفظ بأفكاري لنفسي ولا أبوح بأي كلمة لتوم.

كما وعدنا ستانلي، أعدَّتْ لنا عشاءً ممتازاً. حساء قُرّة العين، ولحم خاصرة خنزير مشوي، بازيلاء مع اللوز، والحلوى كريم كاراميل، والكثير من النبيذ. وشعرتُ بلمسة تعاطف مع باميلا والوليمة المُجهَضة التي

كانت تُعدّها لأجلنا، ولكني شككتُ في أنَّ الطعام في برلينغتُن كان يمكن أنْ يتفوّق على ما تزخر به المائدة التي مُدَّت لنا في نُزُل تشودر.

ظهرت لوسي المنتصرة، التي تحررتْ من عبوديتها الوشيكة، على المائدة ترتدي ثوبها ذي المربعات البيضاء والحمراء، وتنتعل حذاءها الأسود ذا الجلد المدبوغ، وخلخال كاحلها الأبيض وتعلوه أهداب مُخرّمة. لا أدري إنْ كان ستانلي لا يتأثّر بسلوك الآخرين أم أنه شديد التكتُّم، لكنه لم يكن قد علّقَ بعد على صمت لوسي. ولكن بعد بدء وجبة العشاء بعشر دقائق، بدأتْ ابنته الفظّة، الحادّة النظر، تطرح الأسئلة.

قالت " ما خطبها ؟ ألم تتعلّم الكلام ؟ "

أجبت " طبعاً تعلمتْ. هي فقط لا تريد أنْ تتكلم "

قالت هني " لا تريد؟ وما معنى هذا؟ "

شرحتُ، مُطلِقاً أول كذبة خطرتْ على بالي، " إنه اختبار. قبل أيام كنتُ أتكلم مع لوسي عن الأشياء الصعبة، وقرّرنا أنَّ الامتناع عن الكلام هو أصعب شيء يمكن أنْ للإنسان أنْ يفعله. وهكذا وقّعنا ميثاقاً. ووافقتْ لوسي على ألا تنطق بأي كلمة على مدى ثلاثة أيام. إذا استطاعت أنْ تصمد حتى نهاية الاتفاقية، وعدتُ بأنْ أعطيها خمسين دولاراً. أليس كذلك، يا لوسي؟ "

هزّتْ لوسي رأسها موافقة.

تابعتُ " وكم يوماً تبقّى؟ "

رفعت لوسي إصبعيها.

قلتُ لنفسي، هكذا إذن. أخيراً قُيِّدتْ الطفلة. بعد يومين آخرَين، سينتهي العذاب.

زمَّتْ هني عينيها، ريبةً وخوفاً معاً. إنَّ الأطفال من اختصاصها، قبل كل شيء، وهي تشعر بأنَّ هناك شيئاً غير صحيح. لكني غريب عنها، ويدل أنْ تضغط عليّ لتعرف مني اللعبة الغريبة الأطوار والمؤذية التي كنتُ ألعبها مع تلك الفتاة الصغيرة، تناولتْ المشكلة من زاوية أخرى.

سألتْ " لماذا ليست الطفلة في المدرسة ؟ اليوم الاثنين، الخامس من حزيران. والعطلة الصيفية لن تبدأ إلا بعد ثلاثة أسابيع أخرى "

قلت، وأنا أجتهد كي ألفّقَ أكذوبة أخرى، "لأنَّ... لوسي تذهب إلى مدرسة خاصة... والسنة الأكاديمية أقصر هناك من تلك التي في المدرسة الحكومية. لقد تلقّتْ آخر درسٍ لها يوم الجمعة الفائت".

من جديد، أنا مُقتَنِع بأنَّ هني لم تصدقني. ولكن قبل أنْ تتعدى الخط وتنتقل إلى الفظاظة غير المقبولة، لم تستطع أنْ تواصل استجوابها لي حول مسألة لا تهمّها في شيء. لقد أعجَبَتني ابنة تشودر المكتنزة، الصريحة تلك، وأعجبني والدها أيضاً، الجالس على الطرف المقابل لي من المائدة، وهو يمضغ بهدوء طعامه ويرشف نبيذه، ولكن لم تكن لديّ نيّة أنْ أطلعهما على أسرارنا الأسرية. ليس لأنني كنتُ خجلاً مما نحن عليه - ولكن يا إلهي، هكذا قلتُ لنفسي، يا لنا من أسرة. يا لنا من مجموعة متنافرة من الأشخاص المختلطين، المتخبطين. يا لنا من أمثلة مذهلة على النقص الإنساني. أبٌ لا تريد ابنته أنْ تكون لها أي صِلة به. وأخ لم يرَ أو يسمع عن أخته أي شيء منذ ثلاث سنوات. وفتاة صغيرة هربت من منزلها وترفض أنْ تتكلم. كلا، لم أكن بصدد أنْ أكشف لآل تشودر عن حقيقة قبيلتنا الصغيرة، المُتشرذمة، العديمة الفائدة. ليس في هذه الليلة. ليس في هذه الليلة، ولا شك في ذلك.

لابد أنَّ الأسئلة نفسها كانت تدور في خلد توم، ذلك أنه دخل علينا على عجل وحاول أنْ يُدير دفة حديث المائدة نحو وجهة أخرى. وبدأ بسؤال هني عن عملها. منذ متى وهي تمارسه، وما الذي دفعها إلى أنْ تصبح مُدرِّسة أصلاً، وما رأيها بنظام براتلبورو التعليمي، وما إلى ذلك. كانت أسئلته بليدة، مُحبِطة من شدة ابتذالها، وبينما كنتُ أنظر إلى وجهه وهو يُكلِّم هني، فهمتُ أنه لا يضمر أي اهتمام بها - لا كامرأة، ولا حتى كإنسان. لكنَّ هني كانت من الصلابة بحيث تدع لا مبالاة توم تمنعها من إعطاء أجوبة ذكية وفاتنة، وسرعان ما أصبحت هي التي تُدير دفة الحديث، وهي تنهال على الفتى بوابلٍ من الأسئلة من عندها. وجعلت عِدوانيتها توم يتراجع بعض الوقت، ولكن عندما أدركَ أنَّ مُحاوِرَته لا تقل مهارة عنه، انتهز الفرصة وبدأ يُقدم أفضل ما عنده. أما ستانلي وأنا فكدنا لا ننطق بكلمة، لكننا تسلينا بالمباراة الكلامية التي بدأتْ أمام أعيننا. وطبعاً، مالتْ دفة الحديث نحو السياسة والانتخابات القادمة في شهر تشرين ثاني. وشجب توم استيلاء الحزب اليميني على الحكم في أميركا. واستشهد باقتراب دمار كلينتون، والحركة المُناهضة للإجهاض، ولوبي السلاح، والدعاية الفاشستية في الأحاديث الإذاعية، وجُبن الصحافة، ومنع تعليم الارتقاء في بعض الولايات. قال " إننا نتراجع. في كل يوم نخسر قطعة أخرى من بلدنا. وإذا ما انتُخبَ بوش، لن يتبقّى أي شيء ". كم دُهِشتُ عندما وجدتُ هني تتفق تماماً معه. ساد السلام نحو ثلاثين ثانيةَ، ثم أعلنتْ أنها تنوي أنْ تصوت لصالح نادر[٢٦].

٢٦ - رالف نادر : سيناتور أميركي من أصل لبناني . - المترجم

قال توم " لا تفعلي. مَنْ يُصوت لنادر كأنما يُصوت لبوش"

قالت هني " كلا الأمر ليس كذلك. إنه تصويت لنادر. ثم إنَّ غور سوف يفوز في فرمونت. ولو لم أكن متأكدة من ذلك، لصوتُّ لصالحه. وبهذه الطريقة أقدم اعتراضي الصغير وأُبقي بوش بعيداً عن سدّة الحكم"

قال توم " لا أعرف شيئاً عن فرمونت، ولكني أعرف أنَّ نتائج الانتخابات ستكون متقاربة. وإذا فكَّر عددٌ كافٍ من الناس مثلكِ في الولايات الكبرى، فسوف يفوز بوش"

كافحتْ هني لتكبت ابتسامة. كان توم صارماً في جدّيته، وكانت هي تتوق إلى إيقاعه عن حصانه العالي بملاحظة مدوّخة، ومدمرة. وعرفتُ أنَّ في الأمر نكتة، وصالبتُ إصبعيّ كي تكون مُضحكة.

سألته هني " هل تعلم ماذا حدث في آخر مرة أصغتْ الأمة إلى أحد أفراد آل بوش؟ "

لم ينطق أحد بكلمة.

" هامَ شعبٌ على وجهه في الصحراء طوال أربعين عاماً "

انفجر توم ضاحكاً رُغماً عنه.

وصلتْ المبارزة إلى نهايتها الحاسمة، المفاجئة، وفازت هني فوزاً ساحقاً.

لا أريد أنْ أتمادى، لكني اعتقدتُ أنَّ توم عثر على نصفه الثاني. أما ما إذا نتج شيء عن ذلك فهذه قصة أخرى، سيحكيها الزمن وميول اللحم الغامضة. وأمرتُ نفسي بالبقاء وسماع المزيد من التطورات.

في صباح اليوم التالي، اتصلتُ بآل الأصغر من محطة الوقود، لكنه لم يكن قد حلَّ لغز السيارة بعد. قال " إنني أعمل على هذا الآن. حالما أعرف السبب سأتصل بك "

تعجّبتُ من قلّة تأثير ذلك الخبر عليّ. وإذا كان هناك أي أثر عليّ فكان سعادتي لأننا علقنا فوق التل ليومٍ آخر، سعيد لأننا لم نكن مضطرين بعد إلى التفكير في العودة إلى نيويورك.

في صباح ذلك اليوم كان لدي عمل أنجزه، ولكن كان من المستحيل جعل ستانلي يجلس مدة كافية وإشراكه في حديث جدّيّ. كان يطبخ ويُقدم لنا الإفطار، ولكن حالما يضع الأطباق أمامنا، يندفع خارج المطبخ ويرتقي الدَرَج ليُرتّب الأسرّة. وبعد ذلك، ينشغل بمشاريع شتى في أرجاء المنزل : تثبيت المصابيح، نفض السجاد، إصلاح أُطُر النوافذ المكسورة. لم يكن أمامي غير أنْ أتحيَّن فرصةً في وقتٍ لاحق من النهار.

كان هواء الصباح بارداً والضباب سائداً. كنا نرتدي السترات الصوفية عندما نخرج إلى الشرفة الأمامية ونستعرض المرج الرطب، المُشبَّع بالندى. وأخيراً، سوف تزول الغيوم وسوف نحظى بفترة بعد ظهر أخرى مُشرقة. أما الآن فالأكمات والأشجار تكاد لا تُرى.

وجدت لوسي كتاباً في غرفتها، فحملته معها إلى الشرفة. كان صغيراً وذا غلاف ورقيّ، وبما أنَّ يدها كانت تغطي العنوان، سألتها عنه. كان " ***فرسان الحكيم القرمزي*** " لزين غراي[٢٧]. سألتها إنْ كان جيداً، فأعطتني إيماءة استحسان حماسية. بدا أنها تقول لي إنه ليس فقط جيد، بل تحفة فنية تصلح لكل زمن. وجدتُه اختياراً غريباً بالنسبة إلى

---

٢٧ - زين غراي (١٨٧٥ - ١٩٣٩) ، كاتب قصص مغامرات الويسترن أميركي . الكتاب المذكور صدر عام ١٩١٢ . - المترجم

طفلة في التاسعة من العمر، ولكن مَنْ أنا حتى أعترض ؟ الطفلة تحب القراءة، قلتُ لنفسي، وأنا أعتبر ذلك تطوراً إيجابياً، ودليلاً على أنَّ طفلتنا الهاربة ليست متخلفة عقلياً.

تمركز توم على الكرسي المجاور لكرسيّ بينما تمددتْ لوسي على المنزلق مع قصة الويسترن. أشعل سيجارة بعد الإفطار وقال " هل تعتقد أنَّ آل الأصغر سيتوصل إلى إصلاح السيارة ؟ "

أجبت " ربما، لكني لست مستعجلاً للخروج من هنا. وأنت؟ "

" كلا، ليس كثيراً. لقد بدأتُ أحب هذا المكان "

" أتذكُرْ عشاءنا مع هاري في الأسبوع الفائت؟ "

" عندما سفحتَ النبيذ على بنطلونك ؟ كيف أنساه ؟ "

" كنتُ أفكر في بعض الأشياء التي قلتها في تلك الليلة "

" حسب ما أذكر، قلتُ أشياء كثيرة. مُعظمها أشياء تافهة. أشياء تافهة بامتياز "

" كنتَ مُنحرف المزاج. لكنكَ لم تقُل أي شيء تافه "

" لابد أنكَ كنتَ مُفرِط السُكر فلم تلاحظ "

" سواء أكنت سكران أم لا، هناك أمر واحد أود أنْ أعرفه. هل كنتَ جاداً في رغبتك في مغادرة المدينة - أم أنه كان مجرد كلام؟ "

" كنتُ جاداً، ولكنه كان أيضاً مجرد كلام "

" لا يمكن أنْ يكون الاثنين معاً. إما هذا أو ذاك "

" كنتُ جاداً، ولكني أعلم أيضاً أنه لن يتحقق أبداً. لذلك، كان مجرد كلام "

" وماذا عن صفقة هاري؟ "

" مجرد كلام. كان ينبغي أنْ تكون قد عرفت هذا الآن عن هاري. إذا كان هناك شخص واحد في العالم اختصاصه "مجرد كلام" فهو صاحبنا العزيز هاري برايتمن"

" لن أُخالفك الرأي. ولكن فقط من باب النقاش، تخيَّل أنه يقول الحقيقة. تخيَّل أنه مُقبل على كسب مبلغ كبير من المال ويرغب في هدره على منزلٍ ريفيّ. فماذا تقول عندئذٍ؟ "

" أقول : " هيا بنا لننضم إليه "

" عظيم. والآن فكِّر جيداً. إذا كان في وسعك أنْ تشتري أي مكانٍ في العالم، أين تريد أنْ يكون؟ "

" إنَّ تفكيري لم يبتعد إلى هذا الحد. ولكن، سيكون مكاناً منعزلاً. مكان لا يكون هناك أناس يسكنون فيه فوقنا "

" مكان كنُزُل تشودر؟ "

" نعم. وبما أنكَ ذكرته، هذه البقعة تناسبني تماماً "

" لِمَ لا نسأل ستانلي إنْ كان يرغب في بيعه؟ "

" لماذا ؟ ليس لدينا ما يكفي من المال لشرائه "

" لقد نسيتَ هاري "

" كلا لم أنسه. لهاري صفات جيدة، لكنه آخر إنسان في العالم يمكن أنْ أعتمد عليه في أمرٍ كهذا "

" أعترفُ بأنَّ نسبة الفرصة هي واحد في المليون، ولكن فقط في حال نجح هاري، لِمَ لا نتحدث مع ستانلي ؟ فقط من باب التسلية. إذا أثرنا اهتمامه، فعلى الأقلّ سنعرف ما هو فندق الوجود "

" وإنْ لم نعش هنا "

" بالضبط. وإنْ لم نرجع قط لنرتاح بضعة أيام "

اتَّضحَ أنَّ ستانلي كان يُفكِّر في بيع المكان منذ سنين. وحده الكسل وفتور الهمة منعاه من "إمساك الثور من قرنيه"، كما قال. ولكن إذا كان السِعرُ جيداً، فسوف يبيعه على الفور. إنه لم يعُدْ يطيق العيش مع شبح بيغ ؛ ولا فصول الشتاء القاسية ؛ ولا العزلة. لقد سئمَ فرمونت، وكل ما يحلم به هو الانتقال إلى المناطق الاستوائية، إلى جزر الكاريبي حيث الطقس دافئ في كل يوم من أيام السنة.

إذن ما الداعي إلى بذل الجهد الشاق لتحسين صورة نُزُل تشودر ؟ سألته. قال، بلا أي سبب. ليس لديه عمل أفضل يقوم به، وهو يُساعده على تفادي الملل.

حان موعد الغداء. جلسنا نحن الأربعة حول طاولة غرفة الطعام، نأكلُ اللحم البارد، والفاكهة، والجبن. ولما كان الضباب قد زال، سطعت أشعة الشمس من خلال النوافذ المفتوحة، وبدا كل غرض في الغرفة أشدَّ وضوحاً، وحياة، ومُشبّعاً بالألوان. وراح مُضيفنا يُمطرنا بأحزان حياته، لكنني شعرت بسعادة فائقة لمجرد وجودي هناك، جالساً داخل جسدي، أنظر إلى الأشياء التي على الطاولة، وأتنفّسُ الهواء وأزفره من رئتيّ، أتلذَّذُ بحقيقة أني ببساطة حيّ. قلت لنفسي، خسارة أنْ تنتهي الحياة، خسارة أنه لا يُسمح لنا بالاستمرار في العيش إلى الأبد.

شرح توم قائلاً إنه ليس لدينا مالاً نقدمَ به عرضاً لشراء المنزل الآن، ولكن قد نكون في موقع يخولنا أنْ نفعل ذلك خلال الأسابيع القادمة. قال ستانلي إنه لا يعلم كم يُساوي المكان، ولكن يستطيع أنْ يتصل بسمسار عقارات محلي ويعرف منه. وكلما تكلمنا، ازدادت حماسته. ولا أدري إنْ كان صدَّق كلمةً مما قلنا، ولكنْ بدا أنَّ مجرد كونه قادراً على تخيُّل حياة جديدة له حوّله إلى إنسانٍ مختلف.

لماذا شجّعتُ مثل ذلك الهراء ؟ كان كل شيء مُعلّق على بيع مخطوط " *الحرف القرمزي* " الزائف، ولم أكنْ أُعارضُ خطة هاري الإجرامية أخلاقياً فقط، بل لم أؤمن بها أصلاً. والأهم من ذلك أنه حتى لو فعلت، لما كان لدي الاهتمام بالانتقال إلى فرمونت. كنتُ قد بدأتُ حديثاً حياة خاصة بي، وكنتُ راضياً تماماً بقرارٍ اتّخذته بالاستقرار في بروكلن. لقد وجدتُ، بعد كل تلك السنين من العيش في الضواحي، أنَّ المدينة تتوافقُ معي، وقد أصبحتُ مرتبطاً بمنطقتي، بخليطها المتبدل من ألوان الأبيض والبُني والأسود، وجوقتها المتعددة طبقات الصوت من اللكنات الأجنبية، وأطفالها وأشجارها، وبأُسَرِها الكادحة من الطبقة المتوسطة، وبسحاقياتها، وبمخازن بقالياتها الكورية، وبرجل الدين الهندي المُلتحي بأرديته البيضاء وهو ينحني لي احتراماً كلما عبرتُ الشارع، بأقزامها ومُعاقيها، بمتقاعديها المسنين وهم يهرشون أنفسهم على طول الرصيف، وبنواقيس كنيستها وبقرعها الذي لا ينتهي، وبسكان تحت الأرض المنعزلين، ومشرديها من ناهبي القمامة، وهم يدفعون عربات الشراء على طول الجادات وينقّبون القمامة بحثاً عن زجاجات.

لا أريد أنْ أترك هذا كله، لماذا دفعتُ توم إلى خوض ذلك النقاش العقيم حول عقارٍ مع ستانلي تشودر؟ لأرضيه، أعتقد. لأريه أنَّ في استطاعته أنْ يعتمد عليّ في دعم مشروعه، على الرغم من أنَّ كلينا يفهم أنَّ فندق الوجود الجديد بُنيَ على أساس من "مجرد كلام". إنني أشارك توم اللعبة لأُثبت أني أقِفُ إلى جانبه، ولأنَّ توم استحسنَ تلك اللفتة، لعب معي. إنها ممارسة مشتركة من خِداع الذات الصريح. ولن

ينتج عنهـا أي شيء، ولذلك يمكننا أنْ نحلم مـعـاً دون أنْ تقلق بشـأن العواقب. والآن بعد أنْ جررنا ستـانلي إلى لعبتنا الصغيـرة، بدأت تبدو حقيقية. لكنها ليست كذلك. إنها مجرد وهم وخيال عقيم، فكرة زائفة كفكرة هاري عن مخطوط هوثورن - الذي ربما لا وجود له. لكنَّ ذلك لا يعني أنَّ اللعبة ليست مُسلّية. وإذا لم تستمتع بالحديث عن أشياء غريبة فأنتَ ميِّتْ، وأي مكان أفضل لفعل ذلك من قمة تل في وسط فيافي نيو إنغلند الهادئة؟

بعد تناول الغداء، تحدّاني ستانلي الذي استعاد شبابه في مباراة بينغ-بونغ في الحظيرة. قلتُ له إنه تعوزني اللياقة البدنية، وإني لم ألعب منذ سنين، لكنه رفض اعتذاري. قال إنَّ التمرين سيفيدني، "دع الدم يجري في عروقك"، وهكذا وافقتُ على مضض على لعب دور أو اثنين. رافقتنا لوسي إلى الحظيرة لكي تشاهد المباراة، لكنَّ توم لزم مكانه على الكرسي في الشرفة لكي يُدخِّن ويقرأ.

سرعان ما أدركتُ أنَّ ستانلي لا يلعب نوع البينغ-بونغ الذي تعوّدتُ عليه. المضارب والكرة هي نفسها، ولكن بين يديه لا يعود الأمر نشاط صالونات مُهذّب بقدر ما هو رياضة عنيفة بكل معنى الكلمة، شكل مُصغَّر، شيطاني، للعبة كرة المضرب. كان يُسدد ضربات الإرسال من زاوية عالية مُدمِّرة، لا تُردّ، ويقفُ على مسافة عشرة أقدام من الطاولة، ويُقابل كل ضربة أوجّهها وكأنَّ مهارتي لا تتجاوز مهارة صبي في الرابعة من عمره. غلبني ثلاثة أشواط على التوالي - ٢١-٠، ٢١-٠، ٢١-٠. وبعد انتهاء المذبحة، لم يبقَ أمامي غير أنْ أنحني بتواضُع للمُنتصر وأجرّ جسمي المُنهك إلى خارج الحظيرة.

عـدتُ، وأنا أنضحُ بالعـرق إلى المنزل لآخـذ دشـاً سـريعـاً وأبدِّل ملابسي. وبينما كنتُ أرتقي درج الشُـرفة الأمامية مع لوسي، أخبرني توم أنه اتصل ببروكلن قبل خمس عشرة دقيقة. كان هاري قد خرج في مهمة، لكنَّ توم ترك له كلمة مع روفوس لكي يتصل به. قال توم "أردتُ أنْ أرى إنْ كان لا يزال مُهتماً للأمر. لا داعي لبعث آمال ستانلي إذا كان هاري قد غيَّر رأيه"

لم أمكث في الحظيرة أكثر من نصف ساعة، ولكن خلال تلك الفترة الوجيزة أحسستُ أنَّ توم قد استغرقَ عميقاً في التفكير. أنبأني شيء في عينيه بأنَّ حديثنا على مائدة الغداء مع ستانلي غيَّرَ موقفه بشأن فندق الوجود الجديد. لقد بدأ يؤمن بأنه يمكن أنْ يتحقق. بدأ يستعيد الأمل.

بينما هذا يحدث رنَّ جرس الهاتف لحظة خطوتُ إلى الرواق الأمامي. رفعتُ السماعة، وإذا به برايتمن نفسه، يغرد على الطرف الآخر من خط الهاتف. أخبرته عن العطل الذي ألمَّ بسيارتنا، وعن نُزُل تشودر، وعن توق ستانلي إلى عقد صفقة معنا. وتابعتُ "هذا هو المكان المثالي. ربما بدتْ فكرة توم غريبة بعض الشيء عندما كنا جالسين في ذلك المطعم في المدينة، ولكن ما أنْ أتينا إلى هنا حتى بدا كل شيء معقولاً تماماً. لهذا اتصل بكَ. ليرى ما إذا كنتَ ما تزال معنا".

هدرَ هاري، كممثلٍ شبه مجنون من القرن التاسع عشر، "معكم ؟ طبعاً معكم. لقد تصافحنا بهذا الشأن، ألم نفعل؟"

"لا أذكر"

" حسن، ربما لم تكن مُصافحة بالمعنى الحرفي للكلمة. ولكننا اتفقنا جميعاً. أنا أذكر هذا جيداً "

"مُصافحةً ذهنية"

" بالضبط. مُصافحة ذهنية. لقاء حقيقي للأدمغة "

" كل شيء متوقف على نتيجة صفقتك الصغيرة، طبعاً "

" طبعاً. دون أدنى شك "

" إذن ما تزال تنوي أنْ تستمر فيها "

" أعلم أنكَ تميل إلى الارتياب، ولكن كل شيء تمٌ فجأة بشكلٍ صحيح"

" أحقاً؟ "

" نعم. ويُسعدني أنْ أنقل إليك خبراً ممتازاً. لا تعتقد أني لم آخذ بنصيحتك، يا ناثان. لقد أخبرتُ غوردن أني أعيد التفكير، وإذا لم يُحضّر للقاء بيني وبين الغامض السيد متروبوليس، فسوف أنسحب"

" ثم؟ "

" قابلته. أحضره غوردن إلى المحل، وقابلته. رجل مُثير للاهتمام إلى أقصى حد. لم يكد ينطق، لكني علِمتُ أني في حضرة شخص مُحترف حقيقي "

" هل جلب عيّنات من عمله؟ "

" جلبَ رسالة حب موجّهة من تشارلز ديكنز إلى عشيقته. عيّنة جميلة"

" أتمنى لك التوفيق، يا هاري. إذا لم يكن لك، فعلى الأقلّ لتوم "

" سوف تفخر بي، يا ناثان. بعد حديثنا في تلك الليلة، قررتُ أني بحاجة إلى أخذ بعض الاحتياطات. تحسُّباً فيما إذا سارت الأمور بشكلٍ خاطئ. هذا لا يعني أنَّ هذا ما سيحصل - ولكن لو أنكَ عشتَ طويلاً مثلي، لكنتَ أحمق إذا لم تأخذ في حسبانك الاحتمالات كلها "

" لا أعتقد أني أفهم"

" لا داعي لأنْ تفهم. ليس الآن، على الأقلّ. إذا حان الوقت وأزف، ستفهم كل شيء. لعلها أذكى حركة قمت بها في حياتي. إنها إيماءة ضخمة، يا ناثان. أفخم العروض. كبجعة بهيّة تقوم تغوص في عَظَمة أبدية "

لم أفهم عمّا يتحدث. كان هاري مملوء بالتحليق الطنّان، يُطلِقُ عباراته المُلغّزة تعبِّرُ عن استمتاعه بانغماسه الذاتي، الصرِف، بإصغائه إلى صوته الخاص، ولم أرَ داعياً لإطالة الحديث. كان توم عندئذٍ واقفاً بجواري. أعطيته جهاز الهاتف، دون أنْ أُزعج نفسي بقول أي كلمة، ورحتُ أرتقي الدرج لآخذ دشاً.

في صباح اليوم التالي، فتحت لوسي فمها أخيراً وتكلّمت.

توقّعتُ سماع أجوبة وكشفاً عن أمور، وإماطة اللثام عن ألغاز مُستترة، كشعاع عظيم من النور يُضيء الظلام. كان يجب أنْ أكون أذكى من أنْ اعتمد على اللغة بوصفها الشكل الأشد فعالية للتواصُل من الإيماءات وهز الرأس. لقد قاومت لوسي محاولاتنا لانتزاع شيئاً منها طوال ثلاثة أيام كاملة، وعندما سمحت لنفسها بالكلام، لم تكن كلماتها أكثر عوناً لنا من صمتها.

بدأتُ بسؤالها أين تعيش.

قالت، وهي تتشدق المقاطع باللكنة الجنوبية النائية نفسها التي كنتُ قد سمعتها في صباح يوم الإثنين، "في كارولاينا"

" في كارولاينا الشمالية أم كارولاينا الجنوبية؟ "

" كارولينا كارولينا "

" لا وجود لمثل هذا المكان، يا لوسي. أنتَ تعلمين ذلك. أنت فتاة كبيرة. فإما في كارولاينا الشمالية أو في كارولاينا الجنوبية "

" لا تغضب، خال نات. قالت لي الماما ألا أخبرك "

" هل كانت فكرة أمك أنْ تذهبي إلى الخال توم في بروكلن؟ "

" الماما قالت لي اذهبي، فذهبت "

" هل كنتِ حزينة لفراقها ؟ "

" حزينة جداً. أنا أحب الماما، لكنها تعرف ما هو الصواب "

" وماذا عن والدك ؟ هل يعرف ما هو الصواب ؟ "

" حتماً. إنه أشد الناس صواباً تحت الشمس "

" لماذا لم تتكلمي، يا لوسي؟ لماذا لزمتِ الصمت طوال عدة أيام؟ "

" لقد فعلتُ ذلك من أجل الماما. لكي تعلم أني أفكّر فيها. هذا ما نفعله هناك في المنزل. البابا يقول إنَّ الصمتَ يُنقّي الروح، ويُعِدّنا لتلقّي كلمة الرب "

" هل تحبين والدك بقدر ما تحبين أمك؟ "

" إنه ليس والدي الحقيقي. أنا مُتبنّاة. لكني خرجتُ من رحم الماما. لقد حملتني داخلها تسعة أشهر، لذا فأنا أنتمي إليها "

" هل أخبرتكِ لماذا تريد منكِ أنْ تأتي إلى الشمال ؟ "

" قالت اذهبي، فذهبت "

" ألا تعتقدين أنَّ توم وأنا يجب أنْ نكلمها ؟ إنه أخوها، كما تعلمين، وأنا خالها. أختي كانت أمها"

" أعلم. جدتي جون. كنتُ أعيش معها، لكنها الآن ميتة "

" إذا أعطيتني رقم هاتفكم، لسهَّلَ ذلك علينا الأمور أكثر. لن أُعيدكِ إذا لم ترغبي في ذلك. أنا فقط أريد أنْ أتكلَّم مع أمك "

" ليس لدينا هاتف "

" ماذا؟ "

"البابا لا يحب الهواتف. كان عندنا واحد، لكنه أعاده إلى المحل"

"حسنٌ إذن. ماذا عن عنوانكم؟ لابد أنْ تعرفي هذا"

" نعم، أعرفه. لكنَّ الماما قالت ألا أقوله، وعندما تأمرني الماما بشيء أفعله"

جرت تلك المحادثة -الاختراق، التي تُثير الجنون عند الساعة السابعة صباحاً. كانت لوسي قد أيقظتني بالقرع على الباب، وجلستْ إلى جانبي على السرير وأنا أعرك عيني لكي أفتحهما وأبدأ استجوابي العقيم. في الغرفة المجاورة، كان توم ما يزال نائماً في غرفة بستر كيتون، ولكن عندما هبط الدَرَج ليتناول طعام الإفطار بعد ذلك بساعة من الزمن، لم يُحالفه الحظ أكثر مني في استخلاص معلومات منها. وتابعنا معاً استجوابنا القاسي لها طوال نصف فترة الصباح، لكنَّ الطفلة كانت صلبة كالفولاذ ولم تتزحزح. رفضَتْ أنْ تخبرنا عن نوع العمل الذي يقوم به والدها (" إنَّ لديه عملاً") أو ما إذا كانت والدتها ما تزال تحتفظ بالوشم على كتفها الأيسر (" أنا لم أرها دون ملابسها قط "). والحقيقة الوحيدة التي أبدتْ رغبة في مشاركتنا فيها لم تكن لها أي صِلة بأهدافنا: إنَّ أفضل صديقاتها فتاة اسمها أودري فيتزسيمنز. أودري تضعُ نظارات، كما أخبرتنا، لكنها أفضل مَن

يتصارع بالأذرع في الصف الرابع. وهي لم تكتفِ بضرب الفتيات كلهن، بل هي أقوى من الفتية كلهم أيضاً.

أخيراً، استسلمنا للإحباط، ولكن ليس قبل أنْ تُذكّرني بأني وعدتُ بأنْ أدفع لها خمسين دولاراً حالما تُعاود الكلام.

قلت لها " أنا لم أقُل هذا "

أجابت " نعم فعلت. في تلك الليلة على مائدة العشاء. عندما سألتكَ هني عن سبب صمتي"

" كنتُ أحاول أنْ أحميك. لم أكن أعني حقاً ما قلت "

" إذن فأنت كاذب. البابا يقول الكذّابون هم أشدّ الديدان خِسّة في الكون. أهذا ما أنت عليه، خال نات؟ شرير، دودة خسيسة؟ "

فجأةً انفجر توم بالضحك، وكان قبل لحظة على شفا أنْ يدقّ عنقها. قال " يُستحسن أنْ تعطيها. لأنّك لا تريدها أنْ تفقد احترامها لك، أليس كذلك يا ناثان؟"

هتفت لوسي "نعم، أنتَ تريدني أنْ أحبك، أليس كذلك، خال نات؟"

أخرجتُ محفظتي، على مضض، وسلّمتها الدولارات الخمسين.

غمغمتُ " ما أشدّ براعتك، يا لوسي"

قالت، وهي تدسّ الأوراق النقدية في جيبها وتباركني بواحدة من ابتساماتها الكبيرة، أعلمُ هذا. الماما دائماً تقول لي أنْ أدافع عن نفسي. الاتفاق هو اتفاق، أليس كذلك ؟ لو تركتكَ تتهرب من الدفع فلن تحبني بعد ذلك. كنتَ اعتقدتَ أني ضعيفة".

سألتها " ما الذي يدفعك إلى الاعتقاد أني أحبك؟ "

قالت " لأني ظريفة جداً، ولأنكَ غيّرتَ رأيك بشأنْ باميلا "

لعل الأمر كله شديد الغرابة، ولكن حالما راحت تركض وتلعب مع الكلب، التفتُّ إلى توم وسألته، " كيف ستجعلها تتكلم بحق الجحيم؟ "

قال " ستتكلم. كل ما في الأمر أنها لا تقول الكلمات المطلوبة"

" ربما يجب أنْ أهددها "

" هذا ليس أسلوبك، يا ناثان "

" لا أعلم. ماذا لو أقول لها إني غيَّرتُ رأيي من جديد؟ فإذا لم تُجِبْ عن أسئلتك، سوف نوصلها إلى باميلا ونغرقها هناك. دون تردُّد "

" فرصة رائعة"

" أنا قلق على روري، يا توم. إذا لم تتكلم الطفلة، فلن نعرف أبداً ما الذي يحدث "

" أنا أيضاً قلق. على مدى السنوات الثلاث الماضية، كل ما فعلته هو القلق. ولكن إخافة لوسي لن يُساعدنا بعد الآن. لقد صمدت بقدر كاف "

عند الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم نفسه، اتصل آل الأصغر من المرأب في أسفل التل وأخبرني أنَّ المشكلة قد حُلَتْ. قال إنه كان هناك سُكّر في خزان الوقود وفي أنابيب الوقود. هذا الإعلان كان شديد الغموض بالنسبة إليَّ، ولم أفهم ما قال.

كرّرَ " سُكّر. يبدو أنَّ أحدهم صبَّ خمسين علبة من الكوكاكولا في الخزان. إذا أردتَ أنْ تُعطّل سيارة أحدهم، فهذه أسرع وأبسط طريقة لفعل ذلك "

قلت " يا إلهي. أتريد أنْ تقول لي أنَّ أحدهم فعل ذلك عن عمد؟ "

" هذا ما أقوله. عُلب الكوكاكولا ليس لها أقدام، أليس كذلك؟ وليس لها أيدٍ أو أصابع لتفتح نفسها بنفسها. التفسير الوحيد هو أنَّ أحدهم قصدَ أنْ يفعل ذلك بسيارتك"

" لابدّ أنَّ ذلك حدث بينما كنا نتناول طعام الغداء. كانت السيارة تسير على أحسن ما يرام إلى أنْ أوقفناها أمام المطعم. والسؤال هو : ما الذي يدعو أي شخص إلى القيام بمثل هذا الفعل القذر؟ "

" هناك مئة سبب، يا سيد غلاس. بعض الأولاد المشاكسين، ربما. كما تعلم، حفنة من المراهقين الضجرين يخرجون ويمارسون مزحة. ذلك النوع من التخريب المتعمَّد يحدث في هذه النواحي طوال الوقت. أو ربما كان شخصاً لا يحب القادمين من نيويورك. لقد رأى لوائح الإذن على سيارتك وقرر أنْ يُلقنك درساً "

" هذا سخف "

" سوف تُدهَش. ولكن هناك كثيرين يمقتون مَن هم من خارج الولاية في هذا الجزء من فرمونت. من نيويورك وبوسطن في الغالب، بل إني رأيتُ بعض البلهاء يفتعلون الشجار مع الناس من نيو هامبشير. حدث ذلك قبل أيام في حانة ريك في الشارع الثلاثين. دخل رجل قادمٌ من كين، في نيو هامبشر، الملاصقة تقريباً لفرمونت، فحطَّمَ سكّيرٌ من المحليين - لن أذكر أسماء - كرسياً على رأسه. وكان يصرخ " فرمونت لأهلها ! اخرج من نيو هامبشر ! " وتحول الأمر إلى مباراة حقيقية في الملاكمة. وفهمت مما قيل لي أنه كان يمكن أنْ تستمر طوال الليل لو لم يُنهها رجال الشرطة "

" إنكَ تجعل الوضع يبدو كأننا نعيش في يوغوسلافيا "

" نعم، أعلم ماذا تعني. إنَّ لكل أبله بقعة يدافع عنها، واللعنة على الغريب المسكين الذي لا ينتمي إلى قبيلتك "

ثرثر آل الأصغر لدقيقة أخرى أو دقيقتين، مشتكياً من حال العالم بصوتٍ كئيب،غير مُصدِّق، وتخيلته يهز رأسه مع إيقاع خروج الكلمات من فمه. وأخيراً، عدنا إلى الحديث عن تخريب سيارتي الخضراء، وقال لي إنه سيباشر غسل المُحرك وأنابيب الوقود وتنظيفها. ويجب أنْ أضع شموع اشتعال جديدة، وكبسولة توزيع جديدة، وأجزاء أخرى كثيرة مُستبدلة، ولكن كل ما كان يهمني هو أنْ تستعيد سيارتي القديمة عافيتها وتسير من جديد. وتوقع آل الأصغر أنْ تكون في أحسن حال مع نهاية النهار. وإذا ما توفر له ولوالده الوقت فسوف يرتقون التل بسيارتين ويسلمونني الكتلس في مساء ذلك اليوم. وإذا لم يتم العمل، فعليّ أنْ أتوقع وصولهما في صباح اليوم التالي. ولم أزعج نفسي بسؤاله عن تكاليف الإصلاحات. كان ذهني مُثبَّتاً مؤقتاً على يوغوسلافيا، وكنتُ أفكر في الفظائع التي ارتُكِبَتْ في صربيا وكوسوفو، في آلاف الأبرياء الذين ذُبحوا فقط لأنهم اعتُبِروا مُختلفين عن الذين قتلوهم.

لازمتني الأفكار المتشائمة حتى موعد الغداء، ورحت أتمشى في أرض المكان وحدي، تاركاً توم ولوسي مع أدواتهما. كانت تلك الفترة الكئيبة القصيرة الوحيدة خلال مكوثي في نُزُل تشودر، ولكن كل شيء سار على ما يُرام في صباح ذلك اليوم، وفجأةً شعرتُ كأنَّ العالم ينقضُّ عليّ من كل جانب. تملُّصُ لوسي الرشيق، الصارم؛ قلقي المتعاظِم حول

أمها ؛ الهجوم الماكر الذي تعرّضتْ له سيارتي ؛ التأمُّل الكئيب المستمر في المذابح التي تجري في أماكن نائية - هذه الأشياء كلها انهمرتْ في رأسي وذكَّرتني بأنه لا مهرب من البؤس المتفشّي في الأرض. ولا حتى على أعلى نقطة من قمة التل في جنوب فرمونت. ولا حتى خلف الأبواب الموصدة والأروقة المُعمَّدة المُرتجة للحَرَم المزعوم المعروف باسم فندق الوجود.

بحثتُ عن طرفٍ في مناقشة، عن فكرة تحقق التوازُن، وأخيراً أخذتُ أفكر في توم وهني. لا شيء مؤكد حتى تلك اللحظة، ولكن على مائدة عشاء الليلة السابقة أحسستُ بتراخٍ شديد في موقفه منها. كانت هني تتوسل إلى والدها منذ سنين كي ينتقلا، وعندما أخبرها ستانلي عن اهتمامنا المُحتَمَل في شراء المنزل، رفعَتْ كأسها وعرضَتْ شرب نخب الشُكر. ثم استدارتْ نحو توم وسألته عن سبب رغبته بمقايضة حياته في المدينة بدرب قذرة في فرمونت ؟ وبدل أنْ يسخر منها مُحاكياً بجواب طريف، قدَّمَ شرحاً كاملاً ومدروساً، مُكرراً بشكلٍ مُضجِرِ العديد من النقاط التي كان قد عرضها على مائدة العشاء الذي تناولناه مع هاري في شارع سميث في بروكلن، لكنه بصورة ما كان أشدّ فصاحة مما بدا في تلك الليلة - وازداد إلحاحاً، وإقناعاً مع غوصه داخل يأسه من مستقبل أميركا. لقد كان توم في أفضل حالات تألّقه، وراقبتُ هني وهي ترمقه عبر الطاولة، ورأيتُ دموعاً قليلة تتجمع عند زاويتيّ عينيها، وعلمت، علمتُ دون أدنى ظل من شك، أنَّ ابنة ستانلي ذات الصدر الناهد، والقلب الكبير، كانت مُتيّمة بابن أختي.

ولكن ماذا عن توم؟ لقد استطعتُ أنْ أدرك أنه بدأ ينتبه إليها،

ويتحدثُ معها بطريقة أقلّ حَذَراً وعِدائيّة، ولكن ماذا يعني هذا ؟ كان يمكن أنْ يعني دلالة على ازدياد الاهتمام، وكان يمكن أيضاً أنْ يعني مجرد حُسن سلوك.

لحظة صغيرة واحدة من نهاية الأمسية. سواء أجابتْ عن السؤال أم لا، أقدّمها كدليلٍ نهائيّ.

عندما انتهينا من تناول حلوى بعد الطعام، كانت لوسي قد ارتقت إلى الطابق العلوي وأوتْ إلى سريرها، والأشخاص الأربعة البالغون الباقون كان الخمر قد لعب برؤوسهم قليلاً. اقترحَ ستانلي لعب مباراة ودّية بالبوكر، وبينما هو يوزع الأوراق ويتحدث عن حياته الجديدة في المناطق الاستوائية (جالساً تحت شجرة نخيل يحمل كأس رَم بنش في يد ورواية الكونت دو مونت كريستو في الأخرى، ويراقبُ الأمواج تتدحرج جيئة وذهاباً على الشاطئ الأبيض عند الغروب)، أخذ يتقدَّم بهدوء ويُجردنا من ملابسنا، وهو يربح ثلاثة من أصل أربعة أدوار لعبناها. وبعد الهزيمة المُنكرة التي مُنيتُ بها بعد ظهيرة في لعبة البينغ-بونغ، كيف كان يمكن أنْ أتوقع أقلّ من ذلك ؟ بدا وكأنّ لا شيء هناك لا يستطيع الرجل أنْ يتفوّق فيه، وضحك توم وهني من قلة كفاءتهما، وراهنا بمبالغ أكبر فأكبر واستمر ستانلي في إثبات تفوق ذكائه علينا جميعاً. شعرتُ أنه كان ضحك المُشاركين في جريمة واحدة، وبذلتُ جهداً واعياً بعدم المشاركة، وأتفحّصُ الشابين من خلف حجاب أوراق اللعب. ثم، بعد انتهاء اللعب، قال توم شيئاً أدهشني. قال لهني" لا تعودي إلى براتلبورو. لقد تجاوز الوقت منتصف الليل، وأنتِ أسرفتِ في الشرب".

أهو حسن سلوك عادي - أم خدعة مراوغة لجرّها إلى السرير؟

أجابت هني " أستطيع أنْ أقود السيارة على هذا الدرب وأنا مُغمضة العينين. فلا تقلق عليّ، يا بُنيّ ".

وتابعت تشرح بقولها إنَّ عليها أنْ تستيقظ باكراً ولاسيما صباح الغد (لأمر له صِلة باجتماع الأساتذة وأولياء الأمور)، لكنني فهمتُ أنْ عزلة توم أثّرتْ فيها، أو على الأقلّ هكذا تصورّت. ثمَّ قبّلتْ كلاً منا قبلة الوداع. أولاً الوالد، ثم قبلة خفيفة على فكّي، وأخيراً توم. وهو لم يتلقَّ فقط قبلة على الشفتين، بل وعناقاً أيضاً - عناق شديد، استمر بضع لحظات أطول مما يستدعي الموقف.

قالت هني، وهي تلوّح بيدها وتبتعد نحو الباب الأمامي، "تصبحون على خير، جميعاً. أراكم في الغد يا شباب ".

ظهرتْ في اليوم التالي عند الساعة الرابعة، حاملة خمسة من جراد البحر، وثلاث زجاجات من الشمبانيا، ونوعين مختلفين من حلوى بعد الطعام. وأُعِدَّت لنا وليمة أخرى على يديّ طباختنا الموهوبة إلى حدٍ بعيد، والآن بعد أنْ رغبتْ لوسي في الانضمام في الحديث، اشتركتْ مُدرّسة الصف الرابع وتلميذة الصف الرابع في حديث عن المشتريات طوال الجزء الأكبر من الوجبة، وهما تتبادلان ذِكر عناوين كتبهما المفضّلة. ولم يكن آل الأصغر وآل الأكبر قد ظهرا بعد مع السيارة، لكنني أعلنتُ أنَّ السيارة قد تم إصلاحها وستكون بين أيدينا في الغد. ومع وجود حديث شائق يدور على المائدة، أهملتُ ذكر سبب العطِل، بما أني لم أرغب في إفساد الجو بإثارة مثل ذلك الموضوع المزعج. وكان توم قد علِمَ بالأمر حينئذٍ، ولكن هو أيضاً كره أنْ يُعلّق على الخِدعة القذرة التي

مورست علينا. وغنت هني ولوسي أغانٍ سخيفة وهما يأكلان سرطان البحر، فما الداعي إلى مُقاطعة مرحهما بسردٍ مُخيب للآمال للأحقاد الطبقية والأعمال العدائية الريفية؟

عندما رافقتُ لوسي إلى الطابق العلوي لتنام، أدركتُ أني من شدة الإرهاق بحيث أسهر حتى وقت متأخر لليلة الثانية على التوالي، وأنا أشرب كأساً بعد أخرى من النبيذ مع الآخرين. يمكن لآل تشودر أنْ يحتفظا بخمرهما، وكان في استطاعة توم، بما يتصف به من جثة ضخمة وشهية مُعجزة، أنْ يُجاريهما في الشرب، لكنني نحيل الجسم ومريض سابق بالسرطان وصاحب شهية ضعيفة، وخشيتُ أنْ أستيقظ في الغد مُصاباً بآثار السُكر.

جلستُ على حافة سرير لوسي وقرأتُ لها من رواية زين غراي إلى أنْ أغمضتْ عينيها واستسلمت للنوم. وعندما سرتُ عائداً إلى غرفتي المجاورة، استطعتُ أنْ أسمع الضحك يتناهى إليّ من غرفة الطعام في الأسفل. سمعتُ ستانلي يقول شيئاً عن كونه " أُرهِق " ثم أضافت هني شيئاً عن "غرفة تشارلي تشابلن" و " لعلها ليست فكرة سيئة ". كان من الصعب تمييز ما كانوا يتحدثون بشأنه، ولكن كانت هناك إمكانية واحدة : كان ستانلي يستعد للإيواء إلى السرير، وهني كانت من فرط السُكر بحيث تعجز عن قيادة السيارة إلى المنزل وتخطط لقضاء الليل في النُزُل. وإذا لم أكن مُخطئاً، فإنَّ غرفة تشارلي تشابلن كانت تقع مباشرة بجوار غرفة توم.

زحفتُ إلى سريري وطفقتُ أقرأ في رواية إيتالو سفيفو " ***بينما الإنسان يتقدم في العمر*** ". كانت الرواية الثانية على التوالي التي

أقـرأها لسفـيفـو في أقلّ من أسبوعَين، لكنَّ رواية " *اعترافات زينو* " أثّرتْ فيَّ تأثيراً بالغاً، إلى درجة أني قررتُ أنْ أقرأ كل ما يمكن أنْ يقع تحت يدي مما كتبه ذلك المؤلف. العنوان الأصلي بالإيطالية هو Senilita، وقد وجدته كتاباً مثالياً بالنسبة إلى ضرطة عجوز مثلي. عجوز وعشيقته الشابة. أحزان الحب. آمال مُحطّمة. وبعد كل فقرة أو اثنتين كنتُ أتوقف عن القراءة هنيهة وأفكر في مارينا غونثاليث، وأتوجع لدى التفكير في أني لن أراها أبداً. ورغبتُ في الاستمناء، لكني قاومتُ الإلحاح لأنَّ نابض السرير الصدئ يمكن أنْ يفضحني. ومع ذلك، كنتُ بين حين وآخر أدسُّ يدي تحت الأغطية وأداعب قضيبي قليلاً، فقط لأتأكد من أنه ما يزال موجوداً، لكي أطمئن إلى أنَّ صديقي القديم ما يزال معي.

بعد ذلك بنصف ساعة، سمعتُ وقع أقدام ترتقي الدرَج. زوجان من السيقان، صوتان يتهامسان : توم وهني. سارا على طول الرواق باتجاه غرفتي، ثم توقفا. ضبطتُ نفسي لكي ألتقط بضع كلمات من حديثهما، ولكنهما كانا يتكلمان بصوت منخفض إلى درجة أني لم أتوصل إلى سماع أي شيء. أخيراً، سمعتُ توم يقول " تصبحين على خير" وبعد هنيهة فُتِحَ باب غرفة تشارلي تشابلن ثم أُغلِق. بعد ذلك بثلاث ثوان، حدث الأمر نفسه لباب غرفة بستر كيتن.

الجدار الفاصل بيني وبين توم كان رقيقاً - من أرقّ أنواع شيتروك - وكنت أسمع كل صوت يصدر عنه. سمعته وهو يخلع حذاءه ويفك حزامه، وسمعته وهو يُنظف أسنانه عند المغسلة، وسمعته يتنهد، وسمعته يُدندن، وسمعته يزحف تحت أغطية سريره الصارّ. أوشكُ أنْ أغلق كتابي

وأطفئ النور، ولكن ما أنْ مددتُ يدي نحو المصباح سمعتُ قرعاً خافتاً على باب توم. قال صوت هني : " أنمت؟" فقال توم لا، وعندما سألته هني إنْ كان في استطاعتها أنْ تدخل، قال فتانا نعم، وبموافقته أوشك الهدف الخفي لانعطافنا عن الطريق العام الدولي على الطريق ٣٠ يتحقق.

الضجيج شديد الوضوح بالنسبة إليّ، لم أجد مشقّة في متابعة كل تفصيل في العملية التي تجري على الجانب الآخر من الجدار.

قالت هني " لا تدع الأفكار تراودك. هذا لا يعني أني أمارس هذا في كل يوم "

أجاب توم " أعلم "

" كل ما في الأمر أنه مرّ وقت طويل منذ أنْ فعلت "

" وأنا أيضاً. وقت طويل جداً "

سمعتها تتسلل إلى السرير معه، وسمعتُ كل ما حدث بعد ذلك. الجنس عمل غريب وقذر، فما الداعي إلى وصف كل قرقعة وأنين تلا ؟ لقد استحق توم وهني خصوصيتهما، ولهذا السبب سوف أنهي تقريري عن نشاطات الليل هنا. إذا اعترض بعض القرّاء، فسوف أطلب منهم أنْ يُغمضوا عيونهم ويستعينوا بمخيّلتهم.

في صباح اليوم التالي، رحلتْ هني قبل أنْ يستيقظ باقي سكان المنزل بوقت طويل. كان يوماً رائعاً آخر، وربما أجمل يوم في فصل الربيع، ولكن اتّضحَ أنه أيضاً يوم المفاجآت، وفي النهاية سوف تطغى تلك الهزات على كمال المشهد العام وعلى حالة الطقس، وتدفعها إلى

مؤخرة رأسي. وإذا كنتُ أذكر ذلك اليوم، فذلك فقط كأنه أحجية صور مقطوعة لا تُحل، رُكام من الانطباعات المنعزلة. بقعة من السماء الزرقاء هنا ؛ وشجرة بتولا فضيّة هناك، تعكسُ ضوء الشمس بعيداً عن لحائها. والسحب التي تبدو أشبه بوجوه إنسانيّة، أشبه بخرائط البلدان، أشبه بحيوان في الأحلام بعشرة قوائم. لمحة مفاجئة لحيّة تشق طريقها ملتوية خلال العشب. أنين من أربع نغمات لطائر مُحاكي غير مرئي. ألف ورقة خضراء لشجرة حور رجراج ترفرفُ كعثٍ جريح مع انزلاق الريح خلال الأغصان. واحد بعد آخر، كل العناصر موجودة، لكنَّ التناسق بينها مفقود، الأجزاء غير متلائمة، وكل ما في وسعي أنْ أفعله هو أنْ أفتش عن بقايا نهار لا وجود له بشكلٍ كامل.

بدأ بوصول آل الأصغر وآل الأكبر عند الساعة التاسعة. كان توم ما يزال في الطابق العلوي في غرفة بستر كيتن يغط في سبات عميق بعد عبثه طوال الليل مع هني. وكنت ولوسي قد استيقظنا منذ الساعة الثامنة، وعلى وشك أنْ نغادر المنزل لنتمشّى عندما ظهر الثنائي ويلسون مع موكب من سيارتين : سيارة موستانغ حمراء ذات غطاء متحرّك وسيارتي الكتلس الخضراء الجيرية. تركتُ يد لوسي لأصافح تينك السيدين الضخميّ الجثة. أخبراني أنَّ سيارتي أصبحت جيدة كأنها جديدة، وقدم لي آل الأكبر الفاتورة عن خدماتهما ، فحررتُ لهما شيكاً على الفور. ثم، في اللحظة التي اعتقدتُ أنَّ عملية التسليم قد انتهتْ، ألقى آل الأصغر القنبلة الأولى في ذلك اليوم.

قال، وهو يربت على سقف السيارة، " الغريب في الأمر، يا سيد غلاس، هو أنَّ من الجيد أنَّ ذلك الأحمق عبثَ بخزان وقودك "

قلت، عندما لم أعرف كيف أؤوّل هذا التصريح الخاص، "ماذا تعني؟ "

" بعد حديثنا في صباح الأمس، حسبتُ أنَّ العمل سينتهي في غضون ساعتين. ولهذا قلتُ إننا سنتمكن من تسليم السيارة في الليلة الفائتة. أتذكُر؟ "

" نعم، أذكُر. لكنكَ قلتَ أيضاً إنها قد لا تنتهي حتى هذا اليوم "

" نعم، قلت ذلك، لكنَّ السبب الذي ذكرته لك حينئذٍ ليس هو الذي منعنا من المجيء حتى الآن "

" أحقاً؟ وماذا حدث في تلك الأثناء؟ "

" أخذتُ سيارتك في جولة، فقط لأتأكد من أنَّ كل شيء عاد طبيعياً. لكنه لم يكن كذلك "

" أوه؟ "

" زدتُ سرعة السيارة إلى خمسة وستين، وسبعين، ثم حاولتُ أنْ أُبطئ. إنَّ ذلك صعب جداً عندما تكون المكابح معطوبة. من حُسن حظي أني لم أُقتَل "

" المكابح... "

" نعم، المكابح. وأعدتُ السيارة إلى المرأب وألقيتُ عليها نظرة. كانت البطانة متهرئة، تكاد تقع "

" ماذا تقول؟ "

" أقول لو لم تحدث لديك تلك المشكلة الأخرى في خزان الوقود، لما توصلتَ إلى اكتشاف أمر هذه المشكلة مع المكابح. لو أنكَ تابعتَ القيادة مسافة أطول، لصادفتَ مُشكلة من النوع الثقيل. حادث مرور. وموت. وشتى أنواع المشاكل "

" إذن القذر الذي صب الكوكاكولا في خزان الوقود أنقذَ حياتنا في واقع الأمر "

" هكذا يبدو. أمر شديد الغرابة، هه؟ "

بعد أنْ رحل ثنائي ويلسون في سيارتهما الحمراء ذات الغطاء المتحرك، بدأتْ لوسي تشدّني من كُمّي.

قالت " لم يكن الذي فعل ذلك شخص ق[٢٨]، خال نات "

أجبتُ " ق؟ ماذا تقولين؟ "

" أنتَ نطقت كلمة قذرة. وليس مسموحاً لي أنْ ألفظها "

" آه، فهمت. ق. هي اختصار للكلمة المعروفة "

" نعم، كلمة ق "

" أنتِ على حق يا لوسي. ما كان ينبغي أنْ أستخدم مثل تلك اللغة في حضورك"

" ينبغي ألا تستخدمها، أبداً. سواء في حضوري أو في غيابي "

" لعلكِ على حق. لكني كنتُ غاضباً، وعندما يكون المرء غاضباً، لا يستطيع دائماً أنْ يتحكّم فيما يقول. هناك شخص شرير حاولَ أنْ يُخرِّب سيارتنا. من دون أي سبب. لمجرد أنْ يكون فظاً، ليؤذينا. آسف لأني استخدمتُ تلك الكلمة، ولكن لا يمكنكِ أنْ تلومينني على انزعاجي"

" لم يكن مَنْ فعل ذلك رجلاً شريراً. بل فتاة شريرة "

" فتاة ؟ كيف عرفتِ ذلك ؟ هل رأيتِ الحادث ؟ ".

---

٢٨ - الكلمة التي استخدمها كانت قذرة جداً . - المترجم

تراجعتْ هنيهة داخل صمتها القديم، وهي تومئ برأسها إيجاباً كجواب على سؤالي. وبدأتْ الدموع تتجمع تواً في عينيها.

سألتها " لِمَ لم تُخبريني ؟ ما دمتِ قد رأيتِ الحادث، كان ينبغي أنْ تُخبريني، يا لوسي. كان يمكن أنْ نقبض على الفَتاة ونودعها السجن. ولو أنَّ الرجلين في المرأب عرفَا طبيعة المشكلة لأصلحا السيارة فوراً "

قالت، وهي تحني رأسها، خوفاً من النظر في عينيّ، "أنا خائفة".

أصبحت الدموع التي تذرفها قد أضحت جادّة عندئذٍ، ورأيتها تستقرّ على التراب الجاف في الأسفل - هباء مالح، كُريات لامعة اسودَّتْ على الفور ثم تلاشتْ في التراب.

" خائفة ؟ ولماذا تخافين؟ "

بدل أنْ تُجيب عن سؤالي، تشبّثت بذراعي الأيمن ودفنتْ وجهها بين أضلعي. وبدأتُ أمسّد على شعرها، وبينما كنتُ أشعر بجسمها يرتعش على جسمي، فهمتُ فجأةً ما كانت تحاول أنْ تخبرني به. وسجّلتُ لحظة من الصدمة الحقيقية، ثم شعرتُ بموجة من الغضب سَرتْ فيَّ، ولكن حالما عبرَتْ الموجة، تلاشت. الغضب أفسح المجال للشفقة، وأدركتُ أنه إذا بدأتُ بتقريعها الآن، فقد أخسر ثقتها فيَّ إلى الأبد.

سألتها " لماذا فعلت ذلك؟ "

قالتْ، وهي تشدّ قبضَتها عليّ وتنتحبُ داخل قميصي، " أنا آسفة. أنا حقاً، حقاً آسفة. كأني أصبحت مجنونة، يا خال نات، وقبل أنْ أعرف ماذا أفعل، كنتُ قد فعلته. الماما أخبرتني عن باميلا. إنها شخص خسيس، ولم أرد أنْ أذهب إلى هناك "

" أنا لا أعرف إنْ كانت خسيسة أم لا، ولكن اتّضح أنَّ كل ما حدث كان لصالحنا، أليس كذلك؟ لقد أخطأتِ، يا لوسي. خطأ فادح، ولن

أسمح لكِ أبداً أنْ تفعلي مثل هذا مرة أخرى. أما هذه المرة - المرة الوحيدة - فتحول الخطأ إلى صواب، أيضاً "

" كيف يمكن للخطأ أنْ يتحول إلى صواب ؟ وكأنكَ تقول إنَّ الكلب تحوّل إلى قطة، أو الفأر إلى فيل "

" ألا تذكرين ما قاله لنا آل الأصغر عن المكابح ؟ "

" نعم، أذكر. لقد أنقذت حياتك، ألم أفعل؟ "

" وحياتكِ أنت. وحياة توم، أيضاً ".

وأخيراً، انفكّت عن قميصي، ومسحت دموعها عن عينيها، ورمتني بنظرة مُركّزة، متأملة. " لا تخبر الخال توم أني فعلتها، أوكيه؟ "

" ولِمَ لا ؟ "

" لن يُحبني بعد الآن "

" طبعاً سيحبك "

" كلا لن يفعل. وأريده أنْ يحبني "

" أنا ما أزال أحبك، أليس كذلك ؟ "

" أنتَ مختلف "

" من أي ناحية؟ "

" لا أعلم. أنتَ لا تتناول الأمور بشدّة مثل الخال توم. أنتَ لست جدياً مثله "

" هذا لأني أكبر سناً "

" فقط لا تخبره، أوكيه؟ احلف لي بأنكَ لن تُخبره "

" حسن، يا لوسي. أحلف "

عندئذٍ ابتسمتْ، وللمرة الأولى منذ ظهورها في صباح يوم أحد،

لمحتُ فيها قبساً من أمها وهي فتاة صغيرة . أورورا. أورورا الغائبة، الضائعة في أرض كارولاينا كارولاينا الأسطورية، فتاة استعراض بعيدة عن منال الأحياء. إنْ كانت في أي مكان الآن، ففي وجه ابنتها وحده، في ولاء الفتاة الصغيرة لها، في وعد لوسي الصارم بألا تُخبرنا أين هي.

أخيراً استيقظ توم. ووجدتُ صعوبة في معرفة حالته الذهنية، التي بدا أنها تتراوح ما بين الرضا الصاحي والخجل الأخرق، المتململ. على مائدة الغداء لم ينطق بأي كلمة حول أحداث الليلة السابقة، وأحجمتُ عن طرح أي أسئلة، على الرغم من إحساسي بالفضول لمعرفة ما حدث حسب روايته. وتساءلتُ، هل أصبحَ مُتيَّماً بالفائرة المس تشودر، أم أنه يُخطط للتخلُّص منها واعتبارها علاقة ليلة عابرة؟ هل الأمر كله يتعلق بالجنس لا أكثر ولا أقل، أم أنَّ المشاعر مُتضمّنة في المعادلة أيضاً ؟ وبعد أنْ انتهينا من تناول غدائنا، انطلقتْ لوسي مع ستانلي لتركب التراكتور وتساعده في جزّ المرج. ولجأ توم إلى الشرفة للتدخين بعد الطعام، واستقريت على الكرسي بجانبه.

سأل " كيف كان نومك في الليلة الفائتة، ناثان؟ "

أجبتُ " جيداً. وإذا أخذنا بعين الاعتبار رقّة الجدران، كان يمكن أنْ يكون أسوأ بكثير"

"هذا ما كنتُ أخشاه"

" ليس الذنب ذنبك. أنتَ لم تبنِ المنزل "

" كنتُ طوال الوقت أطلب منها أنْ تُخفض صوتها، ولكن أنت تعلم كيف يكون الأمر. إنَّ المرء ينجرف، ولا سبيل إلى تفادي ذلك "

" لا تقلق. أقول لك الحق، كنتُ سعيداً. كنتُ سعيداً من أجلك "

" أنا أيضاً. كنتُ سعيداً، لليلة واحدة "

" سوف تحصل على ليالٍ أخرى، أيها العجوز. هذه كانت فقط البداية "

" مَنْ يدري؟ لقد غادرت في وقتٍ مُبكّر من صباح هذا اليوم، وكأننا لم نتحدث مطولاً أثناء وجودها هنا. لا أعلم ماذا تريد "

" الأهم من هذا - ماذا تريد أنت؟ "

" ما زال الوقت مُبكراً جداً لمعرفة هذا. لقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة، ولم يتوفر لدي الوقت الكافي للتفكير"

" على الرغم من أنكَ لم تطلب رأيي، إلا أني أعتقد أنكما أنتما الاثنان يناسب كل منكما الآخر"

" نعم، بدينان يتلاحمان في الليل. إنني متفاجئ لأنَّ السرير لم يتداع "

" هني ليست بدينة. إنها كما يُقال "كالتمثال" "

" إنها ليست من النوع الذي يروق لي، يا ناثان. شديدة الصلابة. شديدة الثقة بنفسها. تزخر بالآراء. ولم يسبق لي أنْ انجذبتُ إلى نساء مثلها"

" لهذا هي مناسبة لك. سوف تدعمك "

هزَّ توم رأسه نفياً وتنهّد. " لن ينفع ذلك. سوف تُرهقني قبل أنْ يمر شهر "

" إذن فأنت مستعد للاستسلام بعد ليلة واحدة "

" لا خطأ في هذا. ليلة واحدة جيدة، وكفى "

"وماذا سيحدث إذا ما تسللت من جديد إلى سريرك؟ هل ستطردها؟"

أشعلَ توم السيجارة الثانية، ثم سكت هنيهة طويلة. أخيراً قال "لا أعلم. سنرى"

لسوء الحظ، لم تُتَحْ لتوم ولا لأي شخص آخر الفرصة لأنْ يرى. كانت ما تزال هناك مفاجأة تنتظرنا، وهذه أثبتتْ أنها من الضخامة، والإيلام، وهول عواقبها، بحيث لم يبقَ أمامنا من خيار غير أنْ ننطلق بعد ظهيرة ذلك اليوم. لقد انتهتْ عطلتنا في نُزُل تشودر نهاية مُفاجئة ومُحيِّرة.

الوداع أيها التل. الوداع أيها المرج. الوداع هني.

الوداع لحلم فندق الوجود.

نطق توم بكلمة "سنرى" عند الساعة الواحدة. فبعد أنْ ركبت لوسي التراكتور مع ستانلي، رافقتها لنسبح في البركة. وعند عودتنا إلى المنزل بعد ذلك بأربعين دقيقة، أفضى إليّ توم بالنبأ. لقد توفي هاري. اتصل به روفوس من بروكلن وهو يبكي على الهاتف، ويكاد لا يقوى على نطق أي كلمة، لكي يُخبرني بأنَّ هاري قد توفي، بأنه رحل. واستناداً إلى توم، كان روفوس مختنقاً ولم يتمكن من قول المزيد. ولم نفهم شيئاً. وما عدا حقيقة أنَّ علينا أنْ نغادر فرمونت على الفور، لم نفهم أي شيء.

دفعنا لستانلي ما له علينا. أبلغته، وأنا أوقع على الشيك بيد مرتعشة، أنَّ شريكنا قد مات ولم نعُد في وضعٍ يؤهلنا لشراء المنزل. هزَّ ستانلي كتفيه استخفافاً. قال " كنتُ أعلم أنَّ المسألة ليست جدية. ولكن هذا لا يعني أني لم أستمتع بالحديث عن الأمر ".

ناوله توم قطعة من صحيفة عليها عنوانه ورقم هاتفه. قال " من فضلك أعطِ هذه إلى هني، وقُلْ لها أنا آسف".

حزمنا حقائبنا، وركبنا السيارة. وانطلقنا.

خيانة

أنا اعتبرتُها جريمة قتل. لا يهم إنْ لم يكن أحدٌ قد مسّه، أو يُطلِق عليه الرصاص أو يطعنه في صدره، أو يدهسه بالسيارة. وإنْ كان سلاحَ القتلة الوحيد هو الكلمات، العنف الذي مارسوه عليه لا يقل من الناحية الجسدية على ضربة بالمطرقة على الرأس. إنَّ هاري لم يكن صغير السن. لقد عانى خلال السنوات الثلاث الأخيرة مرتين من الانسداد التاجي، وضغط دمه كان عالياً، وكانت شرايينه في حالة من الانهيار الوشيك. فكم من التعذيب يمكن لجسد في هذه الحالة أنْ يتحمَّل ؟ ليس كثيراً، في رأيي. ليس كثيراً على الإطلاق.

لم يكن هناك غير شاهد واحد على الاعتداء، ولكن على الرغم من أنَّ روفوس سمع كل كلمة قالوها، إلا أنه لم يفهم إلاّ أقلّ القليل. ذلك لأنَّ هاري لم يُزعج نفسه ويُطلعه على الخطة التي كان يضعها هو وغوردن دراير، وعندما دخل دراير إلى المحل في وقتٍ مبكر من بعد ظهيرة ذلك اليوم مع مايرون ترامبل، اعتقدَ روفوس أنهما اثنان من التجار الزملاء القدامى. فقادهما إلى غرفة مكتب هاري في الطابق العلوي، ولأنَّ هاري بدا شديد التوتر والحماس عندما فتح الباب، وليس على طبيعته، وهو يشدّ على أيدي زائريه ويهزّها كأنها دُمى، بدأ

روفوس يشعر بالرعب. وبدل أنْ يعود إلى موقعه على طاولة المُحاسبة في الأسفل، قرّر أنْ يبقى حيث هو ويُصغي إلى الحديث بضغط أذنه على الباب.

تلاعبا بهاري بضع دقائق ثم شهرا عليه خنجريهما، وأعدّاه للقتل. تحيات وديّة طوال الوقت، وملاحظات عابرة عن حالة الطقس، ومديح متملّق لذوق هاري في انتقاء قِطع أثاث غرفة المكتب، وإبداء الإعجاب بصفوف الطبعات الأولى الأنيقة المُكدسة على طول الأرفف. ولابد أنَّ هاري شعر بالحيرة من كل ذلك المُزاح. لم يكن متروبوليس قد أنهى عمله على المخطوط، ولم يفهم سبب وصول غوردن المفاجئ الآن، من دون العمل الكامل الزائف لكي يُسلّمه إلى ترامبل. قال " يُسعدني دائماً أنْ أراكما، ولكن لا أريد أنْ أُخيِّب أمل السيد ترامبل. المخطوط مُخبّأ في قبو مصرف سيتيبانك في الشارع الثالث والخمسين في مانهاتن. لو أنكما اتصلتما مُقدماً، لجلبته لكما اليوم. ولكن إذا لم أكن مُخطئاً، لم يكن من المفترض أنْ نجتمع قبل بعد ظهيرة يوم الإثنين القادم ".

قال غوردن " في قبو المصرف؟ إذن هناك تُخبّئ اكتشافي. لم أكن أعلم "

تابع هاري، مرتجلاً الكلام، وما يزال عاجزاً عن فهم سبب زيارة غوردن وترامبل قبل موعدهم المُقرر بأربعة أيام، "فكّرتُ في أنْ أخبركما"

قال ترامبل " لقد غيّرتُ رأيي "

أضاف غوردن بسرعة قبل أنْ تُتاح الفرصة لهاري بالإجابة، " نعم. في الواقع، يا سيد برايتمن، لا يمكن الاستخفاف بصفقة كهذه. ولاسيما عندما يتعلّق الأمر بمبلغ ضخم من المال".

قال هاري " أنا أعي ذلك. ولهذا جعلنا أولئك الخبراء يتفحّصون الصفحة الأولى. ليس واحداً فقط، بل اثنين "

قال ترامبل " ليس اثنين، بل ثلاثة "

" ثلاثة ؟ "

قال غوردن " ثلاثة. لا ضير في المبالغة في الحرص، أليس كذلك ؟ مايرون أيضاً أخذها إلى قيِّم في مكتبة مورغان. أحد المتفوقين في مجالهم. وقد أعطى حكمه هذا الصباح، وهو مُقتنع بأنها زائفة "

تلعثمَ هاري قائلاً " حسن، اثنان من أصل ثلاثة لا بأس بذلك. لماذا تثقان برأي هذا الرجل دون الاثنين الآخرين؟ "

قال ترامبل " إنه مُقنِعٌ جداً. إذا كنتُ سأشتري ذلك المخطوط، فينبغي ألا يكون هناك أي شك حوله. أي شك مهما قلّ "

قال هاري، وهو يُكافح للتملُّص من الفخ الذي وضعاه فيه، لكنه كان دون أدنى شك قد بدأ يقنط، ويرتبك إلى أبعد الحدود، " فهمت. أريدكما فقط أنْ تعرفا أني تصرفت بدافع من إيمان صادق، يا سيد ترامبل. لقد عثر غوردن على المخطوط في عليّة جدّته وباعها لي. وقد تفحّصناها ووجدنا أنها أصلية. وأنتما أبديتما اهتمامكما في شرائها. فإذا غيّرتما رأيكما، فكل ما لدي أقوله هو أنا آسف. يمكننا أنْ نلغي الصفقة حالاً ".

قال غوردن " لقد نسيتَ العشرة آلاف دولار التي أخذتها من مايرون "

أجاب هاري " كلا لم أنس. سأعيد المال، ثم ننتهي "

قال ترامبل "لا أعتقد أنَّ الأمر سيتم بهذه السهولة، يا سيد

برايتمن، أم هل أدعوك السيد دنكل ؟ لقد أخبرني غوردن الكثير عنك، يا هاري. شيكاغو. أليك سميث. أكثر من عشرين لوحة زائفة. سجن. هوية جديدة. أنتَ بطل في الكذب، يا هاري، وبوجود سجل كهذا، أفضّل أنْ تحتفظ بالعشرة آلاف دولار. وبهذه الطريقة سأتمكن من توجيه الاتهام. لقد كنتَ تخطط لسرقتي، أليس كذلك ؟ أنا لا أحبّ أنْ يُحاول أحد سرقة مالي. أنا أغضب "

قال هاري، وقد أخذ صوته فجأة يرتعش، ويخرج عن سيطرته، "مَنْ هذا الرجل، يا غوردن؟ "

أجاب غوردن " إنه مايرون ترامبل. المُحسن إليّ. صديقي. عشيقي"

قال هاري " إذن هذا هو. لم يكن هناك قط أي رجل آخر "

ردَّ غوردن " فقط واحد. دائماً لم يكن هناك إلا واحد "

أنَّ هاري " كان ناثان على حق. كان ناثان على حق طوال الوقت. اللعنة، لِمَ لمْ أُصغِ إليه؟ "

سأل غوردن " مَن ناثان؟ "

قال هاري " رجل أعرفه. لا يهم. شخص أعرفه. عرّاف "

قال غوردن " أنتَ لا تأخذ بالنصيحة الجيدة أبداً، أليس كذلك يا هاري ؟ أنتَ شديد الجشع. شديد الأنانية "

هنا بدأ هاري ينهار. كانت القسوة في صوت غوردن شديدة الوطأة عليه، ولم يعُد في مقدوره أنْ يدّعي أنه يتحدث في الأعمال، ويُناقش محاسن ومثالب الصفقة التي فشلتْ. كانت علاقة حب فشلت، غشاً في الميزان لم يُقابله من قبل، والألم الذي ترتب عنه دمَّرَ أي قوة كان يمتلكها لمقاومة الانقضاض.

قال " لماذا، يا غوردن ؟ لماذا تفعل بي هكذا ؟ "

قال عشيقه السابق " لأني أكرهك. ألم تفهم هذا حتى الآن؟ "

" كلا، يا غوردن. أنت تحبني. ولطالما أحببتني"

" إنَّ كل شيء فيك يُثير اشمئزازي، هاري. أنفاسك الكريهة. أوردتك المتوسعة. شعرك المصبوغ. نكاتك الرديئة. بطنك البدينة. ركبتيك المتصلّبتين. وأيرك السقيم. كل شيء. كل جزء منك يُثير اشمئزازي "

" لماذا رجعتَ إذن بعد كل تلك السنين ؟ أما كان أفضل لك بكثير لو بقيتَ وحدك؟ "

" بعد ما فعلتَه بي ؟ أمجنون أنت ؟ أنت دمّرتَ حياتي، هاري. والآن جاء دوري لأدمر حياتك "

" أنتَ الذي تخليت عني، يا غوردن. أنت خنتني "

" أعِدْ التفكير، هاري. مَنْ الذي سلّمني لرجال الشرطة ؟ مَنْ الذي أنقذَ نفسه بتوجيه إصبع الاتّهام إليّ؟ "

" والآن جاء دورك لتسلّمني لرجال الشرطة. اثنان مخطئان لا يجعلهما مُصيبين "، يا غوردن. على الأقلّ أنتَ حيّ. على الأقلّ أنتَ شاب بقدرٍ كافٍ ليكون لديك ما تصبو إليه. إذا أعدتني إلى السجن، فسوف أنتهي. سوف أموت "

قال ترامبل، عائداً فجأةً إلى سياق الحديث، " لا نريدك أنْ تموت، هاري. بل نريد أنْ نعقد صفقة معك "

" صفقة ؟ أي نوع من الصفقات؟ "

" نحن لا نسعى إلى سفك الدماء ؛ نحن فقط نسعى إلى تحقيق العدالة. لقد عانى غوردن بسببك، والآن نحن نشعر أنه يستحق بعض

التعويض. قبل كل شيء، العدل عدل. إذا تعاونتَ معنا، لن نفشي أي كلمة للقانون "

" لكنكَ ثريّ. وغوردن لديه كل المال الذي يحتاج "

" إنَّ بعض الأفراد من أسرتي أثرياء. ولسوء الحظ، لستُ منهم "

" أنا لا أملك نقوداً. أستطيع أنْ أُدبِّر لك العشرة آلاف التي أُدين بها إليك، ولكن لا أكثر "

" قد لا يكون لديك نقود، ولكن لديك ممتلكات أخرى نرغب في أنْ نتوصل إلى نصفّي الأمر مقابلها "

" ممتلكات أخرى؟ عمَّ تتحدث؟ "

" أنظر حولك. ماذا ترى ؟ "

" كلا. لا يمكنك أنْ تفعل هذا. لا بد أنكَ تمزح "

" أنا أرى كتباً، يا هاري، ألا تراها ؟ أرى مئات الكتب. وليست أي كتب، بل الطبعات الأولى، طبعات أولى وموقَّعة. هذا غير ما يستقر في الأدراج والخزائن في الأسفل. مخطوطات. رسائل. دفاتر تواقيع. أعطنا محتوى هذه الغرفة، وسوف نعتبر أنَّ الحساب قد سُدِّد "

" سوف أُدمَّر. سوف أمّحي "

" فكِّر في البدائل، يا سيد دنكل-برايتمن. ماذا تفضِّل : القبض عليك بتهمة التزييف، أم حياةً هادئة، تملؤها السكينة، لصاحبِ مخزنِ كتبٍ مُستعملة ؟ فكِّر في الأمر بعناية. غوردن وأنا سنعود غداً مع سيارة نقل ضخمة وفريق من عمال النقل. ولن يستغرق الأمر أكثر من ساعتين، وبعد ذلك ستتخلّص منا إلى الأبد. إذا حاولتَ أنْ تمنعنا، فسوف أرفع سماعة الهاتف ببساطة وأستدعي الشرطة. إنه قرارك، يا

هاري. إما الحياة أو الموت. إما غرفة خاوية - أو رحلة ثانية إلى السجن. وإذا لم تُعطنا الكتب غداً، فسوف تخسرها في كلتا الحالتين. هل تفهم ما أقول ؟ كُن ذكياً، يا هاري. ولا تقاوم. إذا استسلمتَ بلا مقاومة، فسوف تقدم معروفاً للجميع - ولاسيما لنفسك. توقّع وصولنا بين الحادية عشرة ومنتصف النهار. أتمنى لو استطعتُ أنْ أكون أكثر دقّة، ولكن من الصعب جداً توقُّع حالة حركة المرور هذه الأيام. A demain، هاري، تا تا "

ثم فُتِحَ الباب، وحالما شقَّ درايز وترامبل طريقهما إلى الخارج مارّين بروفوس، ألقى هذا الأخير نظرة إلى داخل غرفة المكتب ورأى هاري جالساً على طاولة مكتبه ورأسه بين يديه، يجهشُ بالبكاء كصبي صغير. ولو أنَّ هاري مكث هناك بضع دقائق أخرى وأخذ وقته في التفكير فيما كان قد حدث تواً، لفهِمَ أنَّ درايز وترامبل ليس لديهما أي شيء ضده، وأنَّ التهديد بتسليمه إلى الشرطة ليس أكثر من خدعة ساذجة، خرقاء. كيف كان في وسعهما أنْ يُثبتا أنَّ هاري حاول أنْ يبيعهما مخطوط زائف بعِلمِهِ دون أنْ يتورّطا هما نفسهما في الأمر؟ إنهما باعترافهما بمعرفتهما بأمر التزييف سيُضطران إلى تسليم المُزيِّف إلى رجال الشرطة، وما هي فُرَص اعتراف إيان متروبوليس بأنه متورط في عملية الخداع ؟ هذا، طبعاً، بافتراض وجود شخص اسمه إيان متروبوليس، الذي أعتقد أنه أمر مُستبعَد. والشيء نفسه فيما يخص الخبراء الثلاث المزعومين الذين يُفتَرَض أنهم عاينوا عمله. وقال لي حدسي إنَّ درايز وترامبل زيّفا صفحة هوثورن بنفسيهما، وبوجود رجلٍ ساذج كهاري ضحية لهما، كم كان سيكون صعباً إقناعه بأنه يتعامل مع مُزيِّف مُحترف لخط اليد؟

وكان هاري قد أخبرني بأنه قابل متروبوليس أثناء وجودنا في فرمونت، ولكن كيف كان يمكن له أنْ يتأكّد من أنَّ ذلك الرجل هو مَنْ يدّعي ؟ إنَّ رسالة ديكنز لم يكن لها أي قيمة. وسواء أكانت أصلية أم زائفة، لا صِلة للرسالة بقصتنا. لقد كانت مؤامرة القضاء على هاري، من بدايتها وحتى نهايتها، عملية من تنفيذ رجلَين، مع مُساهمة متواضعة من طرفٍ ثالث يدّعي أنه شخص آخر. مُخادعان ليسا على درجة عالية من الدهاء ورفيقهما المجهول الهوية. كلهم أولاد حرام.

ولكنَّ هاري لم يكن صافي التفكير في ذلك اليوم. كيف يمكنه أنْ يُفكِّر وقد تحوَّلَ عقله إلى جرح مفتوح، إلى كتلة مختلطة من مادة المخّ المتقيِّحة، من الخلايا العصبية المتفجّرة، والحوافز الكهربائية ذات الدارة القصيرة ؟ أين كان العقل عندما أهانكَ حبيب عمرك بترتيلٍ من الاتّهامات الشنيعة، مُمزِّقاً ذاتَك العاثرةِ الحظ بضرباتٍ قوية من احتقاره؟ أين كان التوازن العقلي عندما أعلن ذلك الرجل نفسه وصاحبه الجديد عن نواياهما بتجريدك من كل ما تملك وشعرتَ بأنكَ عاجز عن إيقافهما ؟ هل كان في استطاعة أحد أنْ ينتقدَ هاري لافتقاره إلى المال الكافي ليفكِّر على المدى الطويل ؟ هل كان في استطاعة أحد أنْ يُبيِّن له خطأه لكونه في حالة من الرعب الحيواني الصرف ؟

عندما ولجَ روفوس غرفة المكتب، نهضَ هاري واقفاً عن طاولة مكتبه وبدأ يولول. كان عندئذٍ قد تجاوز مرحلة الكلام، أصبحَ عاجزاً عن صياغة جملة واحدة متجانسة، والأصوات التي انبعثتْ من حنجرته كانت مُخيفة، حسب قول روفوس، وشديدة الإيلام في تعبيرها عن العذاب، حتى إنه بدأ يرتعش من الخوف. كان درايرو ترامبل ما يزالان يهبطان

الدَرَج إلى الطابق الأرضي، دون أنْ يُزعج هاري نفسه بالتعرُّف على وجود روفوس، قام من خلف طاولة المكتب وبدأ يركض خلفهما. تبعه روفوس - ولكن ببطء، وحذَر، وكاد لا يتحرك من شدة خوفه. وحين وصلَ إلى أسفل الدَرَج، كان درايز وترامبل قد غادرا المحل وكان هاري يفتح الباب الأمامي بحركة قوية - وهو ما يزال يولول، ما يزال يُلاحقهما. كانت هناك سيارة أجرة صفراء متوقفة عند حافة الطريق ومحركها وعدادها يعملان، والرجلان يرتقيان إلى المقعد الخلفي قبل أنْ يتمكن هاري من اللحاق بهما. وهزَّ قبضة يده في وجه السيارة المبتعدة، وتوقفَ هنيهة لكي يصرخ بكلمتين - ***قَتَلَة ! قَتَلَة !*** - ثم، بدأ، وقد فقد عقله تماماً، ينطلقُ في الجادة السابعة بكل ما أوتيتْ قدماه من قوة، وهو يرتطم بالمارة، ويترنح، ويقع، وينهض، ولكن دون أنْ يتوقف إلى أنْ وصل إلى المنعطف التالي وغابت سيارة الأجرة عن الأنظار. راقبَ روفوس هذا كله عن بُعد، وهو يُتابع شكل جسم هاري غير الواضح والدموع تنهمر على وجهه.

حالما توقف هاري عند المنعطف، ظهرت نانسي ماتزوكيللي من المنعطف نفسه واقتربتْ من رئيسها السابق في العمل، وذُهلتْ لرؤيتها له وهو في تلك الحال المخيفة. كانت وجنتاه متوردتين براقتين، وكان يلهثُ ليتنفّس، وكان مرفق سترته ممزقاً، وشعره المُصفَّف دائماً يتطاير على كل أنحاء جمجمته.

قالت " هاري، ما الأمر؟ "

أجاب هاري، وهو يقبض على صدره ويواصل اللهاث طلباً للهواء، " لقد قتلاني، يا نانسي. غرزا خنجراً في قلبي وقتلاني".

أحاطته نانسي بذراعيها برفق وربتت على ظهره. قالت " لا تقلق، سيكون كل شيء على ما يُرام".

لكنَّ ذلك يكن صحيحاً ؛ لم يكن قط على ما يُرام. وبعد أنْ نطقت نانسي تلك الكلمات، أطلقَ هاري أنيناً خافتاً، طويلاً، ثم شعرت بجسده يتراخى على جسمها. حاولتْ أنْ ترفعه، لكنه كان أثقل وزناً من قدرتها على فعل ذلك، وشيئاً فشيئاً غاصا معاً في الأرض. وهكذا حدث أنَّ هاري برايتمن، الذي كان يُعرَف ذات يوم بهاري دنكل، والد فلورا والزوج السابق لبت، توفي على رصيفٍ في بروكلن بعد ظهيرة يوم حار ودبق من عام ٢٠٠٠، بين أحضان ***الأم المثالية الجميلة***.

هجومٌ مُضادّ

قاد توم السيارة بسرعة، وعدنا أدراجنا إلى بارك سلوب في أقلّ من خمس ساعات، وتوقفنا أمام المحل حالما بدأتْ الشمس بالغروب. كان روفوس ونانسي في انتظارنا في الطابق العلوي لشقة هاري، رابضَين معاً في غرفة النوم المظلمة. شعرتُ أنَّ حضورها مُناسب، لكنني لم أفهم سبب وجودها هناك إلا بعد أنْ بدأ روفوس يحكي لي عما حدث في وقتٍ مُبكّر من ذلك اليوم. ولم يخطر في بالي أنْ أسأل بسبب تزاحم العديد من الأمور التي يجب إنجازها.

لم يكن أيٌ منهما قد قابل لوسي من قبل، لذا كان التقديم هو أول عمل قمنا به. ثم اصطحبَ توم فتاتنا إلى غرفة الجلوس وأجلسها أمام جهاز التلفزيون. في المعتاد كان ذلك عملي، ولكن أعتقد أنَّ توم فوجئ كثيراً بمقابلة الأم المثالية الجميلة وسط جو غير مُلائم على الإطلاق حتى أنه اضطرَّ إلى الانسحاب هنيهة ليلتقط أنفاسه. لقد عادتْ ملكته إلى الظهور من جديد كما المعجزة، ولا ريب في أنَّ قلبه كان يخفقُ بقوة، يضرب كالمجنون على صدره السقيم.

كان روفوس أشدّ هدوءاً مما بدا على الهاتف بعد الظهر. كانت الصدمة قد بدأتْ تتلاشى قليلاً، وأصبحَ قادراً على سرد القصة دون

الكثير من المقاطعات. كان جالساً مع نانسي على السرير، وكلما انهار وبكى، كانت تطوقه بذراعيها بقوة حتى يكف عن البكاء. وكانت هي نفسها تميل إلى البكاء، لكنّ الرقة كانت اختصاصها، وقد فهمتْ أنّ من بين كل الذين اجتمعوا في الشقة في تلك الليلة، كان روفوس هو الأشدّ تأثّراً، والأشدّ حاجة إلى المواساة. وأثناء استمراره في التحدث إلينا بصوته البطيء، ذي الإيقاع الجامايكي، كان ذهني يستحضر صوراً لجثة هاري، المُسجّاة داخل براد في المستشفى الميثودية، على مَقرُبة من المكان الذي كنا نجلس فيه.

لم أعرف هاري معرفة جيدة، لكني أولعتُ به بطريقة خاصة (مزيج من الافتتان، والخوف، وعدم التصديق)، ولو أنه مات في ظل ظروفٍ أخرى مختلفة، فإني أشكُّ في أني كنتُ سأتأثّر كما فعلت عندئذٍ. كانت أكثر من صدمة، أكثر من حزن، كنتُ ممتلئاً بالغضب من الأمر الغريب الذي حدث له. لم يكن لينفع توقُّعي خيانة دراير، ولا كون غرائزي أنبأتني بأنّ تزييف كتاب هوثورن ما هي إلا خدعة، خدعة دقيقة التحضير داخل خدعة، وهذا الانتقام كان هو الدافع الوحيد منذ البداية. ما نفع المعرفة إذا لم تستخدمها لتمنع الدمار عن أصدقائكَ؟ لقد حاولتُ أنْ أحذّر هاري، لكني كنتُ حاسماً كثيراً - لم أعطِ ما يكفي من الوقت ولا بذلتُ ما يكفي من الجهد لأدفعه إلى أنْ يفهم لماذا كان ينبغي عليه أنْ ينسحب من الصفقة. والآن ها هو قد مات - قُتِلَ بدمٍ بارد، وقُتِلَ بطريقةٍ تجعل قَتَلَته يفلتون من العقاب على جريمتهم.

بعد أنْ أنتهى روفوس من الكلام، كان الدافع الفوري الذي انتابني هو أنْ أقوم بالانتقام على طريقتي الخاصة. لم يكن لدى توم أدنى فكرة

عن طبيعة الخلاف مع دراير وترامبل (كان يعلم أنْ له صِلة بصفقة هاري بصورة ما، ولكن لا أكثر)، وكان روفوس ونانسي غافلَين عن كل ما يجري. وخِلافاً لتوم، لم يكونا حتى قد سمعا بغوردن دراير، ولم يكن أي منهما يعرف عن ماضي هاري أقلّ من أنه رائع. ولم أُحمِّل نفسي مشقّة إعطائهما التفاصيل. فلا فائدة من ذلك. أهمّ شيء كان أنْ نتصل هاتفياً بأسرع ما يمكن - ونحرص على ألاّ تأتي أي سيارة نقل إلى المحل في صباح اليوم التالي. لعلّ دراير وعشيقه قتلا هاري، لكني لم أكن أنوي أنْ أدعهما يسرقانه أيضاً.

طلبتُ من توم مفتاح مكتب الطابق السفلي، وبما أنه كان في حالةٍ قصوى من الارتباك في تلك اللحظة (يندب الموت غير المتوقَّع لرئيسه، ويرتعش من الفرح والرعب لاقترابه المُفاجئ من الأم المثالية الجميلة، ويبذل كل ما في وسعه لمواساة الجميع ما عدا روفوس العصيّ على المواساة)، مدَّ يده بشرود إلى جيبه وأعطاه لي. ولم يعُد إلى صوابه مدة كافية ليسألني ماذا أفعل، إلا بعد أنْ خرجتُ من الباب. قلت بغموض "لا شيء. أنا فقط في حاجة إلى تفحُّص شيء ما. سأعود حالاً".

جلستُ على طاولة مكتب هاري وفتحتُ الدرج المركزي العلوي، مُفكِّراً في أنه يمكن أنْ يكون مكاناً منطقياً بالنسبة إليه ليضع فيه رقم هاتف دراير. كنتُ مستعداً للاتصال بالاستعلامات وتعقُّب آثار ترامبل عند الضرورة، لكني أردتُ أنْ أوفِّر بعض الوقت بالبحث في الدرج أولاً. وللمرة الأولى في حياتي كنتُ محظوظاً. ففي آخر الدرج ثُبِّتَ على مُغلَّفٍ بحجم مراسلات الأعمال قُصاصة ورق خضراء دُوِّنَت عليها بقلم حبر كلمتان: " **صومعة غوردن** "، ثم رقم من عشرة أعداد يبدأ بـ ٩١٧ هو

رمز منطقة. وعندما نزعتُ القُصاصة عن المُغلّف وألصقتُها على طاولة المكتب بجوار الهاتف، وجدتُ أنَّ هناك كتابةً أيضاً على المُغلّف: "***يُفتَح في حال الوفاة***"

في الداخل كانت هناك اثنتي عشرة صفحة مطبوعة مطوية، هي وصية أخيرة أعدّتها شركة فلين القضائية في كورت ستريت، برنشتاين وفاليرو، موقَّعة، ومزوّدة بالشهود كما ينبغي، ومُنفّذة في الخامس من حزيران من عام ٢٠٠٠، قبل أنْ أتحدث مع هاري عبر الهاتف في نُزُل تشودر بيوم واحد فقط. تفحّصتُ محتويات الوثيقة، وفهمتُ في غضون ثلاث دقائق ما كان يعني بـ "***إيماءة فخمة***"، و "***فخر المفاخر***"، و "***طائر البجع الهائل يغوص في العَظَمة الأبدية***". لقد كان يُشير إلى الوصية التي أحملها بيدي، التي كانت حقاً شيئاً عظيماً، شيئاً هو في العموم مُدهش وعظيم، وأثبتَ أنه أصغى إلى تحذيراتي بحرص أشدّ مما توقعت. وعلى الرغم من أنه رفضَ أنْ يتبع نصيحتي، إلا أن حمى رهاناته بقبول إمكانية أنْ ينقلبَ غوردن ضده، ولو قُيِّضَ لتلك الخيانة أنْ تتم، لشعر بأنَّ حياته قد انتهتْ - إن لم يكن حرفياً، فعلى الأقلّ بمعنى أنَّ الدمار الداخلي سيكون أفدح من طاقته على تحمُّله. لقد قال لي هذا كله على مائدة عشائنا في الأول من شهر حزيران : ***إذا صحّ ما قلته عن غوردن، فإنَّ حياتي ستكون قد انتهت في كل الأحوال***. إنَّ التفكير في غوردن كمُنتقم مُنافق كان يعني أيضاً التفكير في موته. وطبعاً الفكرة الأولى تؤدي إلى الثانية، وفي النهاية فإن الفكرتين هما فكرة واحدة. أي الوصية. لعلها كانت خطوة أوسع مما ينبغي، أقرب إلى الإجابة الهستيرية على الأسى المُضطرب داخله، ولكن مَنْ كان يستطيع أنْ

يُخطِّئه في رغبته في اتخاذ (حسب تعبيره) ***بعض الاحتياطات***؟ وعلى ضوء ما حدث في وقت مبكّر من ذلك اليوم، اتَّضَحَ أنه عمل ينطوي على حِكمة سامية.

إن المُستفيدَين اللذَين ذُكر اسماهما في الوصية كانا توم وود وروفوس شبراغ. كانا سيرثان المبنى القائم في الجادة السابعة بالإضافة إلى المتجر المُسمّى بـ " عليّة برايتمن "، مع كل البضائع والمال المُتعلق بتلك التجارة. وتم ذِكر أيضاً موروثات أخرى، أضأل قيمة - تشكيلة من الكتب، واللوحات، وقطع من المجوهرات تُعطى لأناسٍ أسماءهم غير مألوفة لديّ - لكنَّ كامل عقار هاري سوف يذهب إلى توم وروفوس، مع كل دخل برايتمن آتيك الذي سيوزّع بالتساوي بينهما. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنه لا يوجد رهن على البناء، وأنَّ قيمة الكتب والمخطوطات في الغرفة التي كنتُ أجلس فيها عندئذٍ، فإنَّ الإرث سوف يصل إلى ما يُشبه الثروة الصغيرة، وهو مقدار من المال يفوق ما حلُمَ أيٌّ منهما في الحصول عليه. لقد قام هاري، في آخر لحظة ممكنة، بإيماءته العظيمة، بأفخم عرض. لقد اعتنى بصديقيه.

عندئذٍ أدركتُ كم أسأتُ تقديره. لعلَّ الرجل تحول إلى إنسان مؤذٍ ووغد، لكنَّ جزءاً منه بقيَ الطفل ذا العشر سنوات الذي حلُمَ بإنقاذ الأيتام من مدن أوروبا التي دمّرتها القنابل. وعلى الرغم من كل أجوبته المُهينة البارعة، وهفواته وأعمال التزييف التي قام بها، إلا أنه لم يكفّ مرةً عن الإيمان بمبادئ فندق الوجود. يا لهاري برايتمن العزيز الطيب. يا لهاري برايتمن العزيز المضحك. لو كانت هناك زجاجة من مشروبٍ ما على طاولة المكتب، لصببتُ لنفسي كأساً وشربتُ نخب ذِكراه. بدل ذلك،

رفعتُ سماعة الهاتف وطلبتُ رقم غوردن. على المدى الطويل، لعلَّ هذا آل إلى الشيء نفسه.

لم يُجِب، ولكن وصلتني رسالة بعد أربع رنّات وسمعتُ صوته للمرة الأولى - شعرتُ أنَّه صوت هادئ هدوءاً غريباً، وحذِر، مع قليل من التكلُّف والالتواء. لحُسن الحظ، أعطى رقماً آخر يمكن الاتصال به عليه (افترضتُ أنه رقم ترامبل)، مما وفَّر عليَّ عناء البحث عنه بنفسي. طلبتُه مرة أخرى، متوقعاً ألا أجد أحداً، متخيّلاً أنَّ دراير وترامبل قد خرجا إلى مكان ما ليمرحا، احتفالاً بالنصر الذي أنجزاه في بروكلن بعد ظهر ذلك اليوم. وما أنْ بدأتُ أتساءل إنْ كان يجب أنْ أترك رسالة على الجهاز، كفَّ الهاتف عن الرنين وسمعتُ صوت دراير للمرة الثانية خلال ثلاثين ثانية. من باب الأمان، سألتُ إنْ كان في استطاعتي أنْ أتحدث مع غوردن دراير، على الرغم من أني عرفت يقيناً أنه الرجل المطلوب على الطرف الآخر من الخط.

قال " أنا هو. مَنْ يتكلَّم؟ "

أجبتُ " ناثان. نحن لم نتقابل قط، ولكن أعتقد أنكَ سمعتَ عني. أنا صديق هاري برايتمن. العرّاف"

" لا أفهم عمّا تتحدث "

" طبعاً تفهم. عندما قمتَ مع صديقك بزيارة هاري اليوم، كان هناك شخص واقفٌ على الجانب الآخر من الباب، يُصغي إلى حديثكم. وخلاله أتى هاري على ذكر اسمي. قال " كان ينبغي أنْ أصغي إلى ناثان "، وسألته أنت " مَنْ ناثان؟ ". وعندئذٍ أخبركَ هاري أني عرّاف. هل تذكّرت الآن ؟ نحن لا نتحدث عن ماضٍ سحيق، يا سيد دراير. لقد سمعتَ هذه الكلمات قبل بضع ساعات مضتْ "

" مَنْ أنت؟ "

" أنا رسـول الأنبـاء السـيئـة. أنا الرجل الذي يُصـدر التـهـديدات والتحذيرات، الذي يُخبر الناس بما ينبغي أنْ يفعلوا "

" أوه ؟ وما يُفتَرَض بي أنْ أفعل ؟ "

" تعـجبني سخريتك، يا غوردن. أسمعُ تلك البرودة في صوتك، وهي تؤكِّد مشاعري نحوك. شكراً لك. شكراً لك لأنكَ يسَّرتَ مهمّتي "

" إنَّ كل مـا عليّ أنْ أفعله هو أنْ أضع سماعـة الهـاتف، وأُنهي المكالمة "

" لكنكَ لن تفعل، أليس كذلك ؟ أنتَ خائف حتى الموت، وستفعل كل ما في وسعك لكي تطّلع على ما أعرف. هل أنا على صواب أم لا ؟"

" أنت لا تعرف أيّ شيء "

" خـمِّنْ من جديد، يا غوردن. دعني أجـرِّبْ بعض الأسـمـاء عليك، وسوف نرى ما أعرف وما لا أعرف "

" أسماء؟ "

" الإخوة دنكل. أليك سميث. ناثانيـيل هوثورن. إيان متروبوليس. مايرون ترامبل. ما رأيكَ؟ هل أتابع؟ "

" حسن، إذن فأنتَ تعرف مَنْ أنا. أمر خطير"

" نعم، أمر خطير. ولأني أعرف ما أعرف، فإني في موقع يُخولني أنْ أحصل على ما أريد منك "

" آه، إذن هذا هو مربط الفرس. تريد مالاً. تريدُ منّا أنْ نشركك في صفقتنا "

" تُخطئ من جديد، يا غوردن. أنا لستُ مـهـتـمـاً بالمال. هناك أمر

واحد عليك أنْ تفعله لأجلي. أمر سهل جداً. لن يستغرق منك أكثر من دقيقة "

" أمر واحد؟ "

" اتصلْ بشركة النقل التي استأجرتها من أجل الغد والغِ الأمر. قُل لهم إنكَ غيرَتَ رأيك وإنكَ لستَ في حاجة إلى سيارة النقل "

" وما الذي يُجبرني على فِعل هذا ؟ "

" لأن تزييفك عاد بالضرر عليك، يا غوردن. لقد انفجر الوضع كله في وجهك بعد أنْ غادرت محل هاري بحوالي خمس دقائق "

" ماذا تعني؟ "

" لقد مات هاري "

" ماذا؟ "

" مات هاري. لقد ركضَ خلفكما على طول الجادة السابعة بعدما انطلقتما بسيارة الأجرة. لقد كان الضغط شديداً عليه. توقف قلبه، ومات هناك في الشارع "

" لا أصدقكَ "

" صدِّق، أيها الضخم. لقد مات هاري، وأنتَ الذي قتلته. هاري المسكين، الأحمق. كل ذنبه هو أنه أحبك، وأنتَ قابلت ذلك بتوريطه في مؤامرة ابتزاز حقيرة. عمل جيد، يا فتى. لابد أنكَ فخور بنفسك "

" هذا غير صحيح. هاري على قيد الحياة "

" إذن، اتّصل بالمشرحة في المستشفى الميثودية في بروكلن. لستَ مُضطراً إلى التسليم بما أقول. فقط اسأل الذين يرتدون المعطف الأبيض "

" سأفعلْ. هذا بالضبط ما سأفعله "

" عظيم. حتى ذلك الحين، لا تنسَ أنْ تتصل بشركة النقل. كتب هاري ستبقى في محل هاري. إذا رأيتكَ في برايتمن أتيك غداً، سأدقّ عنقك. ثم سأسلّمك لرجال الشرطة. هل تفهم، يا غوردن ؟ إني أسهّل عليك الأمر. أنا أعرف كل شيء عن صفحة المخطوط المُزيّفة، وشيك العشرة آلاف دولار، كل شيء. كل ما في الأمر أني لا أريد لاسم هاري أنْ يُقحَم فيه. الرجل مات، ويلعنني الله إنْ كنتُ سأفعل أي شيء لأشوّه سمعته الآن. لكنٌ هذا لن يتحقق إلا إذا تصرّفت كفتى طيب. افعلْ ما أمرتك به، وإلا سأنتقل إلى الخطة البديلة وألاحقكَ بكل ما لدي ضدك. أتسمعني ؟ سأجعلهم يضربونك ويودعونك السجن. سوف أؤذيك، ولن ترغب في العيش"

وداعاً

لم يكن روفوس يُريد أي نصيب من المبنى أو المحل، أو نصيب من مدينة نيويورك، أو نصيب من أميركا. أميركا الوحيدة التي آمنَ بها كانت تلك التي تضم هاري بريتمن، والآن بعد أنْ رحل هاري عن البلد، شعرَ روفوس بأنَّ الوقت قد حان بالنسبة إليه كي يذهب إلى منزله.

قال " سأعيشُ مع جدّتي في كينغستن. إنها صديقتي، صديقتي التي ليس لدي غيرها في العالم".

هكذا كانت ردّة فعله على خبر وصيّة هاري. أما توم، فاكتفى بالجلوس هناك في صمت، لا يدري بماذا يُفكِّر.

رجعتُ إلى شقة الطابق العلوي بُعيد الساعة العاشرة. كانت نانسي قد ذهبت تواً إلى منزلها لتكون مع طفليها؛ وكانت لوسي قد استغرقتْ في النوم وهي أمام جهاز التلفزيون وكانت قد حُملَتْ منذ ذلك الحين إلى سرير هاري، حيث تمدّدتْ فوق الأغطية وما تزال ترتدي ملابسها وفمها مفتوح تقرقرُ بهدوء في ليل نيويورك الدافئ ؛ كان توم وروفوس في غرفة الجلوس، جالسَين على الكراسي ويُدخنان. بدا التفكير العميق على توم وهو يسحب الدخان من سيجارة كامل بالفلتر. وبدا روفوس، الذي كان ينفثُ الدخان على ما بدا أنه مفصل، كأنما مسّه شيء من الخبل.

سواء أكان ثملاً أم لا، كان يتكلّم بصفاء جمّ بعد أنْ قرأتُ وصيّة هاري عليهما. كان قد عقد عزمه، وعلى الرغم من كل ما قاله له توم، لم يتزحزح عن موقفه. الشيء الوحيد الذي أراده هو أنْ يتكلّم عن هاري، وهو ما تابع فعله بتفصيلٍ شديد، بجُملٍ ملتوية، وسردٍ عاطفيّ عن لقائهما الأول - كان روفوس يذرف الدموع، بعد أنْ طُرِدَ من الشقة التي كان يتقاسمها مع صديقه تايرون، وظهر هاري من الظلام، وأحاط كتفيه بذراعه وسأله إنْ كان في وسعه أنْ يقدم له أي مساعدة - ثم انتقل إلى الألف عمل إيثاري الذي قام بها هاري لأجله على مدى السنوات الثلاث الماضية، ولاسيما العمل الذي وفّره له، ولكن أيضاً دفع ثمن الأزياء والمجوهرات التي استخدمها في استعراضاته بشخصية تينا هت، ناهيك عن الكلام عن كرم هاري الضافي في تسديد فواتير الأطباء ورغبته في الإسراع بتوفير الأدوية الغالية التي كانت تُبقي على حياة روفوس. فهل هناك رجل بطيبة هاري برايتمن؟ هكذا سأل. وأجابَ على سؤاله نفسه، إنه لا يعرف أحداً مثله. ثم، وللمرة العشرة وعشرين في تلك الليلة، انفجر بالبكاء.

قال، خارجاً أخيراً عن صمته المذهول، " ليس لديك أي خيار، سواء أمكثتَ هنا أم لم تفعل، المال يخصّنا نحن الاثنين. نحن شريكان، ومن المستحيل أنْ أسرق حصّتك. النصف بالنصف، يا روفوس. سنتقاسم كل شيء بالنصف".

همس روفوس " فقط أرسل لي نقوداً لأشتري دوائي، ولا أريد أي شيء آخر"

قال توم " سوف نبيع البناء والمتجر. سوف نتخلّص من كل شيء ونتقاسم الأرباح "

قال روفوس " كلا، يا تومي. احتفظ بها. أنتَ شديد الذكاء، يا رجل، وسوف تُصبح ثرياً إذا صمدت. إنّ هذا المكان لا يُناسبني. أنا لا أفهم أي شيء عن الكتب. أنا إنسان غريب الأطوار، يا رجل، إنسان ضئيل وملوّن وغريب الأطوار لا ينتمي إلى هذا المكان. أنا فتاة في جسد فتى. فتى يحتضر يُريد أنْ يرحل إلى وطنه ".

قال توم " لن تموت. إنَّ صحتك جيدة "

قال روفوس، وهو يُشعِلُ مفصلاً آخر، " نحن جميعاً نحتضر، ياعزيزي، فلا تأخذ الأمر بجدّية. أنا هادئ بهذا الشأن، يا رجل. سوف تعتني جدّتي بي جيداً. فقط تذكَّر أنْ تتصل بي مرةً كل حين، أوكيه؟ عدني بذلك، يا تومي. إذا نسيتَ عيد مولدي، أعتقد أني لن أسامحك أبداً ".

بينما كنتُ أُصغي إل ذلك الحديث المتبادل بين الشابّين، بدأتُ أنا نفسي أشعر بما يُشبه الغصّة. لم يكن من شيمي أنْ أستسلم للمشاهد العاطفية القوية، لكني كنتُ ما أزال مضطرباً من أثر حديثي مع درايرِ، الذي استنزفني أكثر مما توقعت. وكنتُ قد تلبّستُ دور الرجل الشديد من أجل المواجهة، وانقضضتُ عليه بضراوة جعلته يبدو أشبه بعضو في عصابة أجش الصوت في فيلم قديم من الدرجة الثانية. وهذا لا يعني أنَّ دراير لم يكن يستحق تلك المعاملة برمتها، ولكن قبل أنْ أنطق بأي كلمة، لم أكن أعلم أني قادر على مثل تلك الخشونة، تلك الوحشية. والآن، بعد انتهاء ذلك الحديث ببضع دقائق، عدتُ من جديد إلى شقة الطابق العلوي، أصغي إلى روفوس شبراغ وهو يرفض الشيء نفسه الذي أراد دراير أنْ يسرقه من هاري. كان التبايُن صارخاً وكاملاً بحيث لابد

أنْ أشعر بالفروق بين الرجلَين. ومع ذلك وقعَ هاري في حب الاثنين، بُهِرَ بكلٍ منهما بالاتّقاد اليائس نفسه، بالانجراف الأعمى نفسه. فكيف يُعقل هذا؟ سألتُ نفسي. كيف يمكن لشخص أساء الحُكم على رجل بشكلٍ كامل وفي الوقت نفسه كان دقيقاً في النفاذ إلى الشخصية الحقيقية لآخر؟ لم يكن روفوس قد تجاوز السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين من العمر. من الناحية الجسدية، كان يُشبه مخلوقاً غريباً من كوكبٍ غريب، وبرأسه الصغير المثالي، ووجهه ذي لون العسل، وأطرافه النحيلة، الطويلة، كان تجسيداً تاماً للشخص الضعيف، العاجز والشاذ جنسياً. ولكن كان فيه أيضاً شيء ضارٍ، نوع غريب من المثالية ترفض التوافه والرغبات التي تجعل من بقيّتنا شديدي الضعف أمام إغراء العالم. وإكراماً له، تمنّيتُ أنْ يُغيِّر رأيه بشأن الميراث. تمنّيتُ أنْ يبدأ في التفكير مثلنا جميعاً ويقبل الملكيّة التي ورثها، ولكن بينما كنتُ أصغي إلى توم يُجادله على مدى الساعتين التاليتين، أدركتُ أنَّ ذلك لن يحدث أبداً.

اليوم التالي كُرِّسَ للأعمال الروتينية. مكالمات هاتفية مع أصدقاء هاري (أجراها روفوس)، ومكالمات أخرى إلى بت في شيكاغو وإلى زملاء في تجارة الكتب في نيويورك (أجراها توم)، ومكالمات إلى وكالات دفن موتى مختلفة في أرجاء بروكلن (أجريتها بنفسي). في وصيته، كان هاري قد ترك تعليمات تقول بأنْ يُحرَق جثمانه، ولكن لم يقُلْ كيف ولا أين يجب أنْ يُنثَر الرماد. وبعد نقاشٍ مُطوَّل، تقرَّرَ أنْ ننثره في المنطقة المُشجَّرة من بروسبكت بارك. وحسب قانون مدينة نيويورك، ممنوع رمي رماد الموتى من البشر في الأماكن العامة، ولكننا

اعتقدنا أننا إذا وجدنا ركناً معزولاً نائياً، لا تكاد تطأه قدم، فلن يُلاحظنا أحد. وصلت تكلفة حرق جثمان هاري وحِفظ رفاته في صندوق معدني إلى أكثر من ألف وخمسمائة دولار. ولما لم أجد شخصاً آخر في المكان يُسهم فيها، سدّدتُ المبلغ كله من جيبي الخاص.

بعد ظهيرة يوم إقامة المراسم - الأحد، الحادي عشر من شهر حزيران - تركتُ لوسي مع جليسة أطفال وانتقلتُ إلى الحديقة العامة مع توم، حاملاً صندوق الرماد داخل حقيبة تسوُّق خضراء عليها شعار برايتمن أتيك. وكان الطقس كريهاً منذ بداية عطلة الأسبوع، انقضاضاً شديد القيظ، ثقيلاً، بدرجة حرارة تصل إلى منتصف الثلاثينات من الرطوبة والضوء الساحق، وكان يوم الأحد هو أسوأ الأيام على الإطلاق، واحد من تلك اللحظات التي يكاد لا يستطيع المرء خلالها أنْ يلتقط أنفاسه عندما تتحول نيويورك إلى مركز متقدِّمٍ من غابة استوائية، أشد الأماكن حرارة، وقذارة على الأرض. كان مجرد الحركة يجعلك تشعر بأنَّ جسمك يسبح بالعَرَق.

لعلَّ الطقس كان المسؤول عن قلّة المارّة. وكان أصدقاء هاري في مانهاتن اختاروا أنْ يمكثوا في بيوتهم في شُقَقهم المُكيَّفة الهواء، ولذلك اختُزِلَتْ أرقامنا إلى عددٍ قليل متناثر من أوفياء الحي. ومن بينهم كان ثلاثة أو أربعة من أصحاب الدكاكين في الجادة السابعة، صاحب المحل الذي تعوّدَ هاري أنْ يتناول الغداء عنده، والمرأة التي قصَّتْ شعرها وصبغته. نانسي ماتزوكيللي كانت حاضرة، طبعاً، وكذلك زوجها، بديل جيمس جويس، الشهير بجيم أو جيمي. كانت تلك المرة الأولى التي أقابله فيها، ويؤسفني أنْ أعلن أني لم أُعجَب به كثيراً. لم يكُن يقلُّ

طولاً ووسامة عمّا قاله عنه توم، لكنه ظلّ يتذمّر من الحرّ والبعوض الذي يعجُّ به الدغل، واعتبرتُ تلك الشكاوى كدلالة على الصبيانية وعلى اهتمامٍ غير مُلائم بالذات، ولاسيما عندما تقدّمَ ليُقدّمَ آخر عبارات الاحترام إلى رجلٍ لم يعُد يحظى بمتعة الشكوى من أي شيء.

ولكن لا يهم. كان هناك شيء واحد له اعتباره في ذلك اليوم، لا صِلة له بزوج نانسي أو بحالة الطقس. كان يتعلّق كله بروفوس، الذي ظهر بعد مرور عشرين دقيقة على اجتماع باقي الحضور. تقدَّمَ بخطواته الواسعة من الأيكة التي تعجّ بالبعوض وكنا أوشكنا أنْ نبدأ المراسم من دونه. قبل ذلك، ساد اعتقادٌ بأنه قد جبُن، بأنّ توقُّع رؤية هاري يُختَزَل إلى ملء جرّة صغيرة من الرماد كان ثقيل الوطأة عليه، ولم يكن مؤهّلاً لمواجهة المحنة. ومع ذلك، برّأناه لعدم كفاية الأدلة، ونحن متجمعين في الجو المنتفخ، الخانق طوال كل تلك الدقائق ونمسح وجوهنا ونتفقّد الوقت في ساعات أيدينا، آملين أنْ نكون مُخطئين. وعندما ظهر أخيراً، مرتْ بضع دقائق قبل أنْ يتعرّف عليه الجميع. لم يكن روفوس شبراغ هو الذي انضمَّ إلينا - كان تينا هوت، وكان التحوُّل كاملاً ومُذهلاً إلى درجة أنني في الحقيقة سمعتُ أحدهم خلفي يشهق.

كان أجمل امرأة وقعت عليها عيناي. يتسربل بزي الأرملة الكامل، مع ثوب أسود ضيّق، وحذاء أسود بعلوّ ثلاث بوصات، وقبعة صغيرة سوداء مستديرة مع خِمار أسود رقيق، وحوّل نفسه إلى تجسيد للأنوثة المُطلقة، إلى فكرة الأنثى التي تكبتْ كل ما يوجد في عالم الأنوثة الطبيعية. بدا الشعر المُستعار الأسمر المحمرّ كالشَعر الحقيقي ؛ وبدا الثديان كثديين طبيعيين ؛ كانت المساحيق قد وُضِعَتْ بمهارة ودقّة ؛

وساقا تينا كانتا طويلتين وجميلتي المنظر، ومن المستحيل تصديق أنهما لرجل.

لكنَّ الأثر الذي تركتْه خلقَ أكثر من مجرّد زخارف سطحية، أكثر من مجرد ملابس أو شعر مستعار أو مساحيق تجميل. لقد كان النور الداخلي للأنثى حاضراً أيضاً، وكانت هيئة تينا الجليلة، المُجللة بالحزن أكمل تمثيل للترمُّل المتألم، عرضاً تؤديه ممثلة صاحبة موهبة هائلة. لم تتفوه بأي كلمة طوال فترة المراسم، ووقفتْ بيننا يلفّها صمتٌ تام والناس يُلقون كلماتهم القصيرة عن هاري، ثم فتحَ توم العلبة ونثر الرماد على الأرض. وبدا أنَّ عملنا قد انتهى، ولكن قبل أنْ نستدير لنرحل ظهر صبي بدين أسود في نحو الثانية عشرة من بين أهداب دغلٍ صغير واقتربَ من المجموعة. كان يحمل على ذراعيه الممدودتين مُشغِّل محمول لأقراص السي دي، وكأنه تاج على وسادة من المخمل. وضع الصبي، الذي عُرِفَ لاحقاً بأنه قريب لروفوس، مُكبّر الصوت عند قدميّ تينا وضغط الزر. وفجأةً، فتحتْ تينا فمها، ومع انسياب أول نغمات الموسيقى الكلاسيكية من مُكبرات الصوت، بدأتْ شفتاها تتحركان مع وقع كلمات الأغنية التي تلتْ. وبعد لحظة أو اثنتين، ميَّزتُ صوت لينا هورن، تغني أغنية قديمة من المسرحية الغنائية " قارب الاستعراض "، "لا أستطيع إلا أنْ أحبَّ ذلك الرجل ". هكذا كانت تينا هوت تمثّل في عروضها في الكاباريه في ليالي أيام السبت : ليس كمغنّية، بل كمغنّية زائفة، تنطق كلمات ألحان العرض وأغاني الجاز التقليدية كما تؤديها أساطين المغنيات. كان شيئاً رائعاً وسخيفاً ؛ مُضحكاً ويحبس الأنفاس ؛ مؤثّراً وهزلياً. كان كل ما كان عليه وكل ما لم يكُنه. وها هي تينا،

تومئ بذراعيها وتتظاهر بنطق كلمات الأغنية. كان وجهها مشحوناً بالرقة وبالحب، وعيناها مُبللتين بالدمع، ووقفنا جميعاً هناك كالمشلولين، لا نعرف هل نبكي معها أم نضحك. وبالنسبة إليّ، كانت تلك من أغرب لحظات حياتي وأشدّها إبهاماً.

على السمك أنْ يسبح، وعلى الطيور أنْ تطير
عليّ أنْ أحبّ رجلاً واحداً حتى يوم مماتي...

في مساء ذلك اليوم، استقلّ روفوس طائرةً متوجهاً إلى وطنه جامايكا. وحسب علِمي، لم يرجع من هناك قط.

مزيد من التطورات

كان توم مُشوشاً. لقد حدث الكثير خلال فترة قصيرة من الزمن، وشعرَ أنه ليس مُهيَّئاً للتعامُل مع احتمالات الثراء التي فُتِحَتْ أمامه. هل أراد أنْ يحلّ محلّ هاري في إدارة العمل ويقضي ما تبقّى من حياته يُتاجر في الكتب النادرة والمُستعملة من متجر بارك سلوب؟ أم، كما اقترح في ليلة وفاة هاري، يقوم ببساطة ببيع الأشياء كلها ويتقاسم العائد مع روفوس؟ ورفضُ روفوس للمال لم يكن له أي أهمية. فالمبنى كان ذا قيمة عالية، وإذا أصرَّ روفوس على رفض نصيبه في نصف البيعة، فسوف يحرص على جعل جدّته تقبله نيابة عنه. البيع سوف يُدخّل مبلغاً ضخماً من المال، لا يقلّ عن عدة مئات الآلاف من الدولارات لكلٍ منهما، وبنصيبه سوف يتمكن توم من تجديد نفسه من رأسه وحتى قدمه، والتحليق في أي اتجاه يشاء. ولكن ما الذي يُريده ؟ هذا هو السؤال الجوهري، ولكن في الوقت الحاضر سيبقى سؤالاً بلا جواب. هل كان توم ما يزال مُهتماً بتحقيق فكرة فندق الوجود؟ أم هل سيفضّل أنْ يعود إلى خطّة ما قبل مرحلة ميتشيغان الأصلية ويبحث عن عمل كمُدرِّس للغة الإنكليزية للمرحلة الثانوية ؟ وإذا كان الأمر كذلك، فأين؟ هل يرغب في البقاء في نيويورك، أم هو مستعد للانتقال إلى الريف؟

وقد ناقشنا هذه المسائل مئة مرة في الأيام اللاحقة، ولكن بدل أنْ يتخلى توم عن شقّته الصغيرة ويستقر مؤقتاً في شقة هاري فوق المخزن، ظلَّ يُغمغمُ، ويكتئب، ويتجهَّم. ولحسن الحظ، لم يكن مُستعجلاً لاتّخاذ قرار. كانت وصيّة هاري على وشك أنْ تقوم برحلتها الشاقة لإثبات صحّتها، وسوف تمر أشهر عديدة قبل أنْ ينتقل صك ملكية البناء إلى المُستفيدَين. أما بالنسبة إلى منقولات هاري الأخرى - حسابه الضئيل في البنك، وبضعة سندات وصكوك تأمين - فكانت هي الأخرى مُجمَّدة. لقد كان توم جالساً على جبلٍ من الذهب، ولكن حتى ينتهي المُحامون في شركة فلين، برنشتاين وفاليرو من مشاكل عقار هاري، سيصبح حاله أسوأ مما كان من قبل. فقد خسرَ راتبه الأسبوعي، لكنه رفضَ أنْ يفكّر في الأمر. ولم يكن متحمّساً لاقتراحي بإغلاق المحل خلال الصيف والذهاب في إجازة طويلة مع لوسي ومعي. لقد تعهّد لهاري بأنْ يُبقي برايتمن أتيك ناشطاً، كما قال. إنه دَين أخلاقي، وقد شعر بأنه مُرتبطٌ أخلاقياً بتحمُّل المشقات حتى النهاية. قلت، عظيم. ولكن كيف ستتمكن من إدارة المحل وحدك ؟ روفوس رحل، وهذا يعني أنه لم يعد لديك موظف مبيعات. ولا تستطيع تحمُّل تكاليف تشغيل شخص آخر، أليس كذلك؟ فمن أين ستدفع له راتبه؟

للمرة الأولى طوال تلك السنين التي عرفته خلالها، فقد توم أعصابه. قال ": اللعنة، ناثان. مَنْ يهتم لهذا ؟ سوف أجد حلاً. فقط اهتم بشأنك أنت، أوكيه؟ "

لكنَّ شأن توم كان شأني أنا أيضاً، وآلمني أنْ أراه في مثل ذلك الموقف الصعب. عندئذٍ تبرّعتُ بتقديم مُساعدتي للقضية - مقابل راتب

اسمي مقداره دولار واحد في الشهر. قلت إني سأقوم بعمل روفوس، وسوف أُعلّق تقاعدي ما دام لذلك ضرورة لأتولى مسؤوليات الضرائب التي يؤديها موظف المبيعات على أرض محل برايتمن أتيك. وإذا شاء توم، سوف يُسعدني أيضاً أنْ أخاطبه بـ ريِّس.

وهكذا بدأتْ مرحلة جديدة من حياتنا. سجّلتُ لوسي في مُخيَّم للفنون الصيفية في مدرسة بركلي كارول في لينكولن بليس، وكنتُ في صباح كل يوم بعد أنْ أمشي معها المسافة الفاصلة بين الشقة والمُخيَّم، أتمشّى على طول الجادة لأحتل مكاني خلف طاولة المُحاسبة في المتجر. وقد تأثَّر عملي في كتاب " ***كتاب الحماقة الإنسانية*** " سلباً بسبب تغيير الروتين، لكنني التزمتُ بعملي قدر استطاعتي، أخربشُ قليلاً خلال الساعات المتأخرة من الليل بعد أنْ تأوي لوسي إلى النوم، وأسرقُ خمس عشرة دقيقة من هنا أو عشرين دقيقة من هناك كلما أبطأ إيقاع العمل في المحل. وكان من دواعي أسفي أنَّ وجبات الغداء التي كنتُ أتناولها مع توم توقفت. ببساطة لم يعد هناك وقت كافٍ للانغماس في متعة الجلوس الطويل لتناول وجبة الغداء، وبدل ذلك تحولنا إلى عمال سُمر، نأكل الشطائر ونشرب قهوتنا المُثلّجة في جو المحل الخانق، ونبتلع طعامنا في غضون دقائق. عند الساعة الرابعة، كان توم يُريحني من واجباتي خلف الطاولة لكي أتمكن من جلب لوسي من المخيم. فأعيدها إلى المحل، وتتسلى بقراءة واحد من أربعة آلاف ومئتي كتاب مصفوفة على الرفوف في الطابق الأرضي، حتى يحين موعد الإغلاق في الساعة السادسة.

بقيتْ لوسي لغزاً بالنسبة إليّ. من نواحٍ عديدة، كانت طفلة مثالية، وكلما تعرّف أحدنا على الآخر أكثر، أحببتها أكثر، واستمتعتُ بصُحبتها

أكثر. وإذا وضعنا جانباً مسألة أمها هنيهة، نجد أنَّ هناك ألف شيء إيجابي يُمكن أنْ يقال عن فتاتنا. فعلى الرغم من كونها غريبة تماماً عن حياة المدينة الكبيرة، إلا أنها تأقلمتْ بسرعة مع مُحيطها الجديد وبدأتْ تشعر بألفة على الفور تقريباً في الحي. وأينما كان موقع كارولاينا كارولاينا، فإنَّ اللغة الوحيدة التي تُستعمَل هناك هي الإنكليزية. أثناء سيرنا في الجادة السابعة، مارّين بمحل التنظيف على البخار، ومحل البقالة، والخبّاز، وصالون التجميل، وكشك بيع الصحف، والمقهى، كان ينهمرُ عليها سيلٌ من اللغات المختلفة. كانت تسمع الإسبانية والكورية، الروسية والصينية، العربية واليونانية، واليابانية، والألمانية والفرنسية، ولكن بدل أنْ تشعر بالخوف أو بالارتباك، كانت تبتهج بتلك التشكيلة من الأصوات الإنسانية. وذات صباح، أثناء خروجنا من باب إحدى المؤسسات شاهدنا امرأة ضئيلة قذرة تصرخُ في وجه رجلٍ عجوز، فقالت لي " أريد أنْ أتكلّم هكذا "، ثم قالت، مُحاكيةً صوت المرأة بدقّة بارعة، " مايرا ! مايرا ! مايرا ! هومبريه ! غاتو ! سوسيو ! ". بعد دقيقة، قدّمتْ الأداء نفسه لرجلٍ يُنادي أحدهم عبر الشارع بالعربية - بكلمات لا أقدر على نُطقها وإنْ كانت حياتي متوقفة عليها. كان للطفلة أذن حسّاسة، وعينان ترى بهما، وعقل تفكر فيه، وقلب تشعر به. ولم تُتعب نفسها بتكوين أصدقاء في المُخيَّم، ومع نهاية الأسبوع الأول كانت قد تلقّت دعوات من ثلاث فتيات مختلفات لمشاهدة مسرحيات. ولم تكن تنفر من قبلات وعناقات قبل النوم ؛ ولم تكن صعبة الإرضاء بشأن الطعام ؛ ونادراً ما أثارت مشكلة حول أي شيء. وعلى الرغم من استخدامها المتكرر للنحو الرديء جداً (التي قرّرت ألا أُصححه لها)

وعلى الرغم من ثباتها على مشاهدة أفلام الكرتون في التلفزيون (قرّرت أنْ أحدد لها ساعةَ مُشاهدةٍ واحدة في اليوم)، ولم أندم مرة واحدة على أني استقبلتُها عندي.

ومع ذلك، بقيتْ هناك الحقيقة المُقلِقة بشأن رفضها الكلام عن أمها. كانت أورورا هي الشخص الخفي الذي يسكن بيتنا الصغير، ومهما طرحتُ عليها من أسئلة، ومهما حاولتُ أنْ أخدع لوسي لأدفعها إلى إفشاء معلومات صغيرة بهذا الشأن، كنتُ دائماً أفشل. وأعتقد أنه كان هناك شيء يُثير الإعجاب في قوة الإرادة تلك عند مخلوق صغير هكذا، لكنني وجدته يُثير الحنق، وكلما تواصل تحفّظها، ازداد إحساسي بالإحباط.

ذات ليلة سألتها " ألا تشتاقين إلى أمك، يا لوسي ؟ "

قالت " أشتاق إليها بشكل فظيع. أشتاق إليها كثيراً، حتى يؤلمني قلبي "

" ألا ترغبين في رؤيتها من جديد ؟ "

" أكثر من أي شيء آخر. في كل ليلة أصلي لله كي تعود إليّ "

" سوف تعود. كل ما عليكِ أنْ تفعلي هو أنْ تخبريني أين يمكن أنْ نجدها "

" لا أعتقد ذلك، خال نات. أنا دائماً أقول لك الشيء نفسه، ولكن يبدو أنكَ لا تسمع ما أقول "

" أنا أسمعك. كل ما في الأمر أني لا أريدك أنْ تشعري بالحزن أكثر من هذا "

" لا أستطيع أنْ أتحدث عن هذا. لقد قطعتُ عهداً، وإذا خرقتُ العهد، سأحترق في جهنم. جهنم أبدية، وأنا ما أزال فتاة صغيرة. لستُ مستعدة للاحتراق إلى الأبد "

" لا وجود للجحيم، يا لوسي. ولن تحترقي، ولا لدقيقة واحدة. الجميع يحبون أمكِ، وكل ما نريد أنْ نفعل هو مُساعدتها "

" كلا، يا سيدي. ليس هذا واقع الأمر. أرجوك، خال نات. لا تسألني أي أسئلة أخرى عن الماما. إنها على ما يُرام، وذات يوم ستعود إليّ. هذا ما أعرفه، وهذا هو الشيء الوحيد التي أستطيع قوله لك. إذا بقيتَ تلحّ عليّ، فسأعود إلى ما كنتُ عليه عندما أتيت أول مرة إلى هنا. سأُطبِقُ شفتيّ ولن أقول أي كلمة لك. إلى أين سيؤدي ذلك بنا ؟ لقد أمضينا وقتاً ممتعاً عندما كنا نتحدث معاً. وما دمت لا تسألني عن الماما، فأنا أقضي أمتع وقت. أعني، الحديث معك. أنتَ رجل عجوز جداً، خال نات. ولا نريد أنْ نُفسِد الوقت الطيب، أليس كذلك ؟ "

ظاهرياً، بدا أنها أسعد الأطفال وأشدهم رضا، ولكن ما أقلقني هو التفكير في العذاب الذي لابد أنها كانت تعيشه لكي تتمسك بسرّها. إنَّ الطلب من طفلة في التاسعة أنْ تحمل معها مثل تلك المسؤوليات الثقيلة شيء كثير جداً. لقد تعرَّضتْ للأذى، ولم تكن لدي أي وسيلة لإيقافه. وتحدثتُ مع توم عن إرسالها إلى مُعالِج نفسي، لكنه قال لي إنَّ ذلك لن يكون إلا هدراً للوقت وللمال. إذا كانت لوسي ترفض أنْ تتكلَّم معنا، فهي حتماً لن تتكلَّم مع شخص غريب. قال " يجب أنْ نتجمَّل بالصبر. وعاجلاً أو آجلاً سوف يُصبح الأمر فوق طاقتها على تحمّله، وحينئذٍ سوف تبوح بكل شيء. لكنها لن تنطق بأي كلمة إلى أنْ تصبح

جاهزة ومستعدة لذلك ". أخذتُ بنصيحة توم وأخفيتُ مؤقتاً فكرة الطبيب، لكنَّ ذلك لم يعنِ أني فكّرتُ كثيراً في رأيه. إنَّ الطفلة لن تصبح جاهزة أبداً. لقد كانت قوية جداً، وعنيدة، وشديدة الصلابة، حتى اقتنعتُ بأنها قادرة على الصمود إلى الأبد.

بدأتُ العمل لصالح توم في الرابع عشر من الشهر، بعد نثر رفات هاري في بروسبكت بارك ورحيل روفوس إلى جدّته في جامايكا بثلاثة أيام. وفي اليوم التالي لذلك، عادت ابنتي من إنكلترا. وكنتُ أفكّرُ في اليوم الخامس عشر منذ أنْ أجريتُ حديثي الكارثيّ مع تلك التي الآن لا تُسمّى وربّتْ ابنتي، لكنَّ في خضم الاضطراب العظيم للأحداث التي تلتْ مغادرتنا السريعة لنُزُل تشودر، كنتُ من فرط الانشغال بحيث لم أعُد أتابع تسلسل التواريخ. إنه حقا الخامس عشر من شهر حزيران، لكنه حينئذٍ كان غائباً عن ذهني. فبعد إغلاق المخزن عند الساعة السادسة، تناولنا أنا ولوسي وتوم عشاءً مُبكّراً في سيكند ستريت كافيه، ثم عدنا أنا ولوسي إلى شقتي، حيث كنا قد عزمنا على تمضية الأمسية في التباري في لعبة المونوبولي أو كلو. عندئذٍ سمعتُ رسالة راشيل على الآلة المُجيبة. لقد حطّتْ طائرتها عند الساعة الواحدة ؛ ووصلتْ إلى المنزل عند الثالثة ؛ وقرأتْ رسالتي عند الخامسة. وفهمتُ من نبرة صوتها وهي تلفظ كلمة رسالة، أنها غفرتْ لي كل شيء. قالتْ " شكراً، يا أبي. ليست لديك فكرة كم أنَّ هذا أمر هامّ بالنسبة إليّ. لقد وقعتْ أمور سيئة جداً مؤخراً، وهذا بالضبط ما أحتاج إلى سماعه. إذا استطعتُ أنْ أتّكل عليك الآن، فأعتقد أني سأتمكن من تجاوز كل شيء "

في الليلة التالية، لازمَ توم لوسي، وتناولتُ العشاء مع راشيل في مانهاتن في وسط المدينة، ليس بعيداً عن مكتبي القديم في شركة ميد-أتلانتيك للتأمين على الحياة وضد الحوادث. ما أسرع ما يتغيَّر العالم من حولنا ؛ ما أسرع ما تحل مشكلة محل أخرى، دون أنْ تتوفر لنا لحظة واحدة للاستمتاع بانتصاراتنا. وعلى مدى ما يُقارب الشهر، انتابني القلق على الرسالة التي كنتُ قد أرسلتُها إلى ابنتي الغاضبة، المغتربة، وصليتُ كي يجتاز اعتذاري المُذلّ سنوات الاستياء ويمنحني فرصة ثانية معها. وحققت الرسالة، بفعلِ مُعجزةٍ ما، كل ما تمنيت. وعاد الوئام بيننا على أساس صلب، وبعد أنْ نسينا مصاعب الماضي كلها، كان ينبغي أنْ تكون وجبة العشاء تلك مناسبةً مُفرحة للمّ الشمل، للنكات والضحك والذكريات الغريبة. ولكن ما أنْ ثبُتَ موقعي كوالدٍ لراشيل حتى استدعتني لأقدم لها يد المساعدة في أسوأ ورطة مرّتْ بها في حياتها البالغة. لقد كانت ابنتي تمر "بوضعٍ سيئ". كانت في أزمة، وإلى مَنْ ستلجأ إذا لم تلجأ إلى والدها - على الرغم من كونه أحمقَ عاجزاً ؟

حجزتُ طاولة لنا في مطعم لا غرينوي، وهو يُشبه المطعم الفرنسي ذا الأسعار العالية، والزخرفة الدقيقة على طراز مدينة نيويورك الذي كنتُ اصطحبتُ (اسمه محذوف) إليه للاحتفال بعيد مولدها الثامن عشر. ظهرتْ مرتديةً قلادة كنتُ قد أرسلتها إليها، وهي توأم تلك التي سبَّبتْ الكثير من الأسى في مطعم كوزميك، وعلى الرغم من سعادتي لمدى ملاءمتها لها، ولجاذبيتها التي برزتْ وسط سواد عينيها وشعرها، لم يسعني إلا أنْ أفكِّر في القلادة الأخرى في الوقت نفسه، التي أثارتْ الكثير من وخز الندم وأنا أستعيد ذكرى الكارثة التي سبَّبتُها لمارينا غونثاليث. قلتُ في نفسي، هناك العديد من الصبايا في أواخر

عشرينيات وأوائل ثلاثينيات أعمارهم، والعديد من حيوات النساء الصغيرات تدور حولي. مارينا. هني تشادر. نانسي ماتزوكيللي. أورورا. راشيل. ومن بين تلك المجموعة من النساء كلها، أدهشتني ابنتي بكونها أشدّهن اتزاناً ونجاحاً، وصلابة، وأقلّهن احتمالاً في أنْ تغرق في المشاكل، ومع ذلك ها هي جالسة على الطرف المقابل لي من الطاولة والدموع في عينيها، تُخبرني بأنَّ زواجها يتهاوى.

قلت " لا أفهم. في لقائنا الأخير، كان كل شيء يجري على ما يُرام. كان تيرانس ممتازاً. وأنت كنتِ رائعة. وكنتما تحتفلان بعيد زواجكما الثاني، وأخبرتني بأنهما كانَتا أسعد سنتين في حياتك. متى كان ذلك ؟ أواخر شهر آذار ؟ أم أوائل شهر نيسان ؟ إنَّ الزيجات لا تنهار بهذه الطريقة. ولاسيما عندما يكون الزوجان متحابّين "

أجابت راشيل " أنا ما أزال أحبه. لكني قلقة على تيرانس "

" لقد لحق الرجل بك وقطع نصف العالم ليُقنعكِ بالزواج منه. ألا تذكرين ؟ كان هو الذي سعى إليك. في أول الأمر، لم تَكوني مُتأكّدة من أنه يُعجبك "

" ذلك كان قبل زمن بعيد. ونحن الآن في الحاضر "

" في آخر مرة تحدثنا عن الوقت الحاضر، قلتِ إنكما تفكران في إنجاب أطفال. قلتِ إنَّ تيرانس يكاد يموت من شدة اشتياقه ليُصبح أباً. ليس أباً في المُطلَق - بل أباً لطفل منك. هذا ما يقوله الرجال عندما يعشقون زوجاتهم "

" أعلم. هذا ما اعتقدته أنا، أيضاً. لكننا بعد ذلك ذهبنا إلى إنكلترا "

" أميركا. إنكلترا. ما الفرق ؟ أنتما نفسيكما أينما ذهبتما "

" لعلَّ هذا صحيح. لكنَّ جورجينا ليست في أميركا. هي في إنكلترا "

" آه. إذن هذه هي المشكلة. لماذا لم تقولي ذلك مباشرة ؟ "

" إنه أمر صعب. إنَّ مجرد ذِكر اسمها يُصيبني بالغثيان "

" إنه اسمٌ سخيف، إنْ كان هذا يُريحك. جورجينا. إنه يُذكّرني بفتاة فيكتورية بحلقات شعر ذهبية وتضع أحجار كريمة كبيرة حمراء، تضحك ضحكاً مكبوتاً "

" إنها شقراء ضئيلة تشبه الفأر، شعرها مزيِّت وبشرتها مريضة "

" لا تبدو لي أنها قادرة على مُنافستك "

" لقد كانت مع تيرانس في الجامعة. كانت حبّه الأول. ثم أحبّتْ شخصاً آخر وانفصلتْ عنه. عندئذٍ جاء إلى أميركا. كان مُبتئساً جداً، يا أبي. قال لي إنه فكّر في الانتحار"

" والآن خرج ذلك الشخص الآخر من الصورة "

" لستُ متأكدة. كل ما أعرفه هو أنه عندما كنا في لندن، تناولنا نحن الثلاثة العشاء معاً، ولم يرفع تيرانس عينيه عنها. وكأني لستُ موجودة. بعد ذلك، لم يكفّ عن التحدُّث عنها. جورجينا شديدة الذكاء. جورجينا مضحكة جداً. جورجينا طيبة جداً. وبعد ذلك بيومَين، تناول طعام الغداء معها وحدهما. ثم ذهبنا إلى كورنويل لزيارة والديه، لكنه بعد مرور ثلاثة أيام أو أربعة استقلَّ القطار عائداً إلى لندن ليتحدث مع ناشره حول الكتاب الذي كان يؤلّفه. أو هذا ما قاله. أعتقد أنه عاد ليكون مع البلهاء جورجينا واطسن، حب حياته. كان شيئاً فظيعاً جداً. لقد تركني ببساطة هناك في الريف مع والديه اليمينيين، المُعاديَين

للسامية، وكل ما استطعت أنْ أقوم به هو أنْ أتظاهر بأني أستمتع بكل دقيقة. لقد ضاجعها. أنا متأكدة. ضاجعها، والآن لم يعُد يُحبني "

" هل سألته؟ "

" فعلتُ حتماً. حالما رجع إلى منزل والديه. وأثار شجاراً عنيفاً. أسوأ شجار صدر عنه "

" وماذا قال؟ "

" لقد أنكر. قال إني غيور وأختلقُ القصص "

" هذه إشارة جيدة، يا راشيل "

" جيدة ؟ ماذا تعني بجيدة ؟ لقد كذب عليّ، ولن أتمكن بعد الآن من وضع ثقتي فيه "

" لنفترض الأسوأ. لنفترض أنه ضاجعها ثم رجعَ وكذبَ عليك. ما زالت إشارة جيدة "

" كيف تستطيع أنْ تُكرر هذا القول؟ "

" لأنه يعني أنه لا يريد أنْ يخسرك. لا يُريد أنْ يُنهي زواجه بك "

" أي نوع من الزيجات هذا ؟ عندما لا أستطيع أنْ أثقَ في زوجي، وكأنني لستُ متزوجة أصلاً "

" اسمعي، أيتها الحمقاء، إنَّ آخر ما أفكر فيه أنْ أعطيك نصيحة. عندما يتعلّق الأمر بالزواج، أنا آخر شخص مؤهّل في العالم لأقول لكِ ما ينبغي أنْ تفعلي. لقد عشتِ معي في المنزل نفسه طوال أول ثمانية عشر عاماً من عمرك، ولستُ مُضطراً إلى أنْ أذكّركِ كيفَ أفسدتُ حياتي مع أمك. أحياناً عندما كنتُ أشعر بالاشمئزاز منها، كنتُ حقاً أتمنى الموت. كنتُ أتخيل حادث تحطم سيارة، أو اصطدام قطار، أو السقوط من أعلى

عدد هائل من الدرَج. إنَّ هذا اعتراف فظيع، ولا أريد منك أنْ تعتقدي أني فخور بنفسي - ولكن من المهم أنْ تفهمي ما هو الزواج السيئ. لقد تبادلنا الحب فترة من الوقت، ثم ساءت الأمور كلها. ومع ذلك تحمّلنا الوضع مدة طويلة، وعلى الرغم من وضعنا السيئ، نجحنا في إنجابك. أنتِ النهاية السعيدة للقصة المأساوية كلها، ولأنك كما أنت، لا أندم أبداً على أي شيء. هل تفهمين، يا راشيل ؟ أنا لا أَعرف تيرانس معرفة جيدة حتى أعطي رأيي فيه. ولكني أعرف أنَّ زواجك ليس سيئاً. إنَّ الناس يرتكبون الهفوات. يرتكبون أفعالاً حمقاء. لكنَّ جورجينا موجودة على الطرف المقابل للمحيط الأطلسي الآن، وإذا لم تكوني قد ارتبطتِ بزير نساء لا علاج له، فأعتقد أنَّ تلك الحادثة الصغيرة قد انتهت وانقضَتْ. تحمّلي الوضع فترة من الوقت وانظري ماذا يحدث. لا تتهوري. قال لكِ إنه بريء، ومَنْ قال إنه لا يقول الحقيقة ؟ علاقات الحب القديمة من الصعب التخلُّص منها. لعلّ رأس تيرانس دارت برهة من الزمن، أما الآن فقد عاد إلى أميركا وأصبحَ معكِ، وإذا كنتِ تُحبينه بقدر ما تقولين، فهناك فرصة جيدة في أنْ ينجح كل شيء. وما دام لم ينقلب مثلي إلى نوع حقير من الأزواج، فهناك أمل. الكثير من الأمل. أمل في مستقبل سعيد معاً. أمل في إنجاب أطفال. أمل للقطط والكلاب. أمل للأشجار والأزهار. أمل لأميركا. أمل لإنكلترا. أمل للعالم كله ".

لم أكنْ أعرف ماذا أقول. كانت الكلمات تتدحرج من فمي في تدفقٍ مجنون، كفيضٍ لا يوقفه شيء من الهراء والعواطف المُغالية، وعندما انتهيتُ من إلقاء خطبتي السخيفة، وجدتُ راشيل تبتسم، تبتسم

للمـرة الأولى منذ أنْ ولجتْ المطعم. لعلّ ذلك كـان أقـصى مـا يمكنني إنجازه. أنْ أجعلها تعلم أني معها، وأني أؤمن بها، وأنَّه لعلَّ الوضع لم يكن سيئاً كما اعتقدتْ. لقد أنبأتني الابتسامة، إنْ كانت قد أنبأتني بأي شيء، أنها بدأتْ تهدأ، ومع استمراري بالكلام، أبعدتُها ببطء عن مسار الموضوع المطروح، لعِلمي أنَّ أفضل دواء هو جعلها تنسى تيرانس بعض الوقت، منعها من التركيز على المشكلة التي كانت تشغلها منذ أسابيع طويلة. ملأتها، فصلاً بعد فصل، بكل ما وقع لي منذ أنْ اجتمعنا آخر مرة. في الأساس، كان نسخةً مُقتَضَبة من كل ما دوّنته في هذا الكتاب حتى الآن. كلا، ليس بالضبط كل شيء - بما أني حذفتُ قصة مارينا والقِلادة الأخرى (الحزينة جداً، المُهينة جداً)، ولم أذكر شيئاً عن المكالمة الهاتفية الشنيعة التي أجريتها مع الشخص المُغفل الاسم، ووفرتُ عليها التفاصيل المؤلمة عن عملية تزييف رواية " الحرف *القرمزي*". لكنَّ العناصر الأخرى كلها تقريباً كانت مُبرّرة : "*كتاب الحماقة الإنسانية* "، ابن الأخت توم، هاري برايتمن، لوسي الصغيرة، الرحلة إلى فرمونت، والعلاقة التي أقامها توم مع هني تشودر، ومحتوى وصية هاري، وتينا هوت وهي تقول " لا أستطيع إلا أنْ أحبّ ذلك الرجل". أصغتْ راشيل بانتباه، باذلة أقصى جهدها لتستوعب أكبر قدرٍ من المعلومات المُذهلة وهي تبتلع طعامها وتشرب نبيذها. أما أنا، فكلما تكلّمتُ أكثر، استمتعتُ بما أفعل. لقد تلبّستُ دور بحّار قديم، وكان في وسعي أنْ أواصل غزل الحكايات حتى نهاية الليل. وأبدت راشيل لهفة خاصة لرؤية لوسي، وهكذا رتّبنا الأمر لها لكي تقوم بزيارة شقتي في يوم الأحد التالي - مع زوجها أو من دونه، حسب ما تشاء. وكانت أيضاً

تصبو إلى رؤية توم، كما قالت، ثم سألتْ السؤال الذي يُساوي أربعة وستين ألف دولاراً : " وماذا عن هني ؟ هل تعتقد أنَّه سيحدث أي شيء؟ "

قلت " أشك في هذا. لقد ترك توم رقم هاتفه مع والدها وطلبَ منه أن يُعطيه لها، لكنها لم تتصل. وحسب علمي، توم لم يتصل بها. ولو كنتُ مُراهناً، لقلتُ إننا لن نرى هني بعد الآن. أمر مؤسف جداً، ولكن يبدو أنَّ القَضية قد أُغلقَتْ "

كالمعتاد، كنتُ مُخطئاً. فبعد أسبوعَين بالضبط من تناولي العشاء مع راشيل، في آخر يوم جمعة من الشهر، جاءت هني تشودر تتقدم بخطوتها الواسعة إلى المتجر ترتدي ثوباً صيفياً أبيض اللون وتعتمر قبعة كبيرة من القش ذات حافة ليّنة. كانت الساعة الخامسة عصراً. وكان توم جالساً خلف نضد المُحاسبة الأمامي، يقرأ طبعة قديمة ذات غلاف ورقي من " أوراق عضو فدرالي". وكنتُ قد جلبتُ تواً لوسي من المُخيَّم، وكنا أنا وهي في خلفيّة المحل، نُعيد ترتيب الكتب في قسم التاريخ. ولم يكن قد دخل زبون واحد منذ ساعتين، والصوت الوحيد المسموع كان رفرفة دوران المروحة الكهربائية.

أشرقَ وجه لوسي عندما رأتْ هني تدخل. وأوشكتْ أنْ تهرع نحوها، لكني وضعتُ يدي على ذراعها وهمست، " ليس الآن، يا لوسي. أعطهما بعض الوقت ليتحدثا أولاً ". لم تلاحظ هني، التي كانت عيناها مُثبتتين على توم، وجودنا. واختفينا، محسوبكم المخلص وفتاتنا، خلف إحدى خزائن الكتب ورحنا نتابع الحديث التالي.

قالت هني، وهي تضع كيس نقودها على النضد، " مرحبا، توم ". ثم نزعتْ قبعتها وهزّت شعرها الطويل، الغزير، " كيف الحال؟ "

رفعَ توم بصره عن كتابه وقال " يا لله، هني. ماذا تفعلين هنا ؟ "

" سوف نصل إلى هذا لاحقاً. أولاً، أريد أنْ أعرف كيف حالك "

" لا بأس. مشغول، ومتوتر قليلاً، ولكن لا بأس. لقد حدث الكثير منذ أنْ رأيتك آخر مرة. لقد توفي رئيسي، ويبدو أني ورثتُ هذا المتجر. وما أزال أحاول أنْ أعرف ماذا أفعل به "

" أنا لا أتحدث عن الأعمال. أنا أتحدث عنك. الإنجازات الداخلية لقلبك "

" قلبي ؟ إنه ما زال ينبض. اثنتين وسبعين نبضة في الدقيقة "

" وهذا يعني أنكَ ما زلتَ وحيداً، أليس كذلك ؟ لو أنكَ وقعتَ في حب أحد، لخفق بسرعة أكبر من ذلك "

" حب؟ عمَّ تتحدثين؟ "

" أنتَ لم تُقابل أحداً خلال الشهر الفائتْ، أليس كذلك ؟ "

" كلا. طبعاً لا. لقد كنتُ شديد الانشغال "

" أتذكُر فرمونت؟ "

" وكيف أنساها ؟ "

" والليلة الأخيرة التي اجتمعنا فيها هناك. أتذكرها ؟ "

" نعم. أذكر تلك الليلة "

" ثم؟ "

" ثم ماذا؟ "

" ماذا ترى عندما تنظر إليّ، توم؟ "

" لا أدري، هني. أراكِ أنتِ. هني تشودر ؛ امرأةٌ تحملُ اسماً مستحيلاً. امرأة مستحيلة تحمل اسماً مستحيلاً "

" أتعلم ماذا أرى عندما أنظر إليك، توم ؟ "

" لستُ متأكداً من أني أريد أنْ أعرف "

" أرى رجلاً عظيماً، هذا ما أرى. أرى أروع إنسان قابلته في حياتي "

" أوه ؟ "

" نعم، أوه. ولأنَّ هذا ما أرى عندما أنظر إليك، رميتُ كل شيء وأتيتُ إلى بروكلن لأكون جزءاً من حياتك "

" رميتِ كل شيء؟ "

" هذا صحيح. العام الدراسي انتهى قبل يومين، وقدّمتُ لهم إشعاراً باستقالتي. وأنا حرة كالعصفور"

" ولكن يا هني، أنا لا أعشقك. إنني أكاد لا أعرفك "

" سوف تفعل "

" أفعلُ ماذا ؟ "

" أولاً، توثّق معرفتك بي. ثم ستبدأ بعشقي"

" هكذا ببساطة "

" نعم. هكذا ببساطة ". سكتتْ هنيهة وابتسمتْ. "بالمناسبة، كيف حال لوسي؟"

" لوسي بخير. إنها تعيش مع ناثان في الشارع الأول"

" مسكين ناثان. إنه ليس مؤهلاً لهذا العمل كله. الفتاة تحتاج إلى أم. من الآن فصاعداً ستعيشُ معنا "

" أراكِ شديدة الثقة في نفسك؟ "

" ينبغي أنْ أكون كذلك، يا توم. لو لم أكن شديدة الثقة في نفسي، لما كنتُ هنا ؛ لما كانت حقائبي كلها تنتظر في الخارج في السيارة ؛ لما عرفتُ أنكَ رجل حياتي ".

عندئذٍ، أدركتُ أنَّ كلاً منهما قال ما يكفي للآخر، وتركتُ لوسي تخرج من مخبئها. اندفعت عبر أرض الغرفة، متوجهة مباشرةً نحو هني.

قالت المُدرّسة السابقة، " ها أنتِ ذي، يا محبوبتي الصغيرة "، وضمّتْ الفتاة الصغيرة بين ذراعيها ورفعتها عن الأرض. وعندما أعادتها من جديد إلى الأرض، سألت " هل سمعتِ ما كنا نقوله أنا وتوم؟ "

هزّتْ لوسي رأسها إيجاباً.

" وما رأيكِ؟ "

قالت لوسي " أعتقد أنها خطة جيدة. إذا عشتُ معكِ ومع الخال توم، لن أُضطر بعد الآن إلى تناول الطعام في المطاعم. سوف تملئينني بأنواع الطعام اللذيذ التي ستطبخينه. ويستطيع الخال توم أنْ يأكل معنا كلما رغب. وعندما تخرجان أنتِ وخال توم إلى المدينة، يستطيع أنْ يُجالسني "

كشّرَت هني. " وستكونين أنتِ فتاة عاقلة، أليس كذلك ؟ أفضل فتاة في العالم".

قالت لوسي، وهي تبادلها النظر بوجهٍ جامد جمود الموتى، "كلا، يا سيدتي. سأكون شريرة. سأكون أشدّ الفتيات الصغيرات شراً، وخِسّة، وعناداً في خليقة الله كلها "

شارع Hawthorn أم شارع Hawthorne؟

مرت أشهر طويلة. وبحلول منتصف شهر تشرين أول، كان المُحامون قد انتهوا من عملهم في عقار هاري، وأصبح توم وروفوس المالكَين الشرعيين لبرايتمن أتيك وللمبنى الذي يضمه. وكان توم وهني قد تزوجا حينئذٍ، وانتقلت لوسي، التي بقيَتْ تلزم الصمت المُطبِق حول موضوع مكان وجود أمها، إلى الصف الخامس في مدرسة حكومية محلية، م.ح ٣٢١ . وبقيتْ راشيل مع تيرانس. وبعد حفل الزفاف وود-تشودر بأسبوع اتصلتْ بي لتُخبرني بأنها حبلى منذ شهرين.

تابعتُ عملي في محل بيع الكتب، ولكن بعد ظهور هني المُفاجئ في نهاية شهر حزيران بدأنا نتقاسم العمل، مما عنى أنّه باتَ عليّ أنْ أتواجد هناك فقط نصف الوقت. وفي أيام عطلتي تابعتُ تدوين النوادر في "كتاب الحماقة الإنسانية "، وكما اقترحَتْ لوسي، عملتُ عمل جليس أطفال كلما خرج توم وهني ليلاً. وخلال الأشهر الأولى من زواجهما ، كان ذلك يحدث كثيراً. لقد شعرت هني وهي في الأقاليم بالحرمان، والآن بعد أنْ استقرّتْ في نيويورك، أرادتْ أنْ تستفيد من كل ما يمكن للمدينة أنْ تقدّمه لها : مسرحيات، أفلام سينمائية، حفلات موسيقية، حفلات رقص، جلسات قراءة الشِعر، رحلات ممتعة تحت ضوء القمر على متن

العبّارة ستاتون أيلند. وقد أراحني أنْ أرى كم انتعشَ توم الكسول، البليد، تحت التأثير الحيوي لزوجته الجديدة. وفي غضون أيام من وصول هني، كفَّ عن القلق حول ما ينبغي أنْ يفعله بالإرث وقرّر أنْ يطرح المبنى للبيع في السوق. وبنصف المبلغ الذي سيحصده من البيع، سيكون لديهما مبلغ أكثر من كافٍ من المال لشراء شقة تحتوي غرفتين - بل ثلاث غرف نوم في الجوار، بالإضافة إلى مبلغ إضافي يُعيلهما إلى أنْ يعثرا على عمل دائم - غالباً كمُدرّسَين في مدرسة خاصة للعام الدراسي التالي. ومرت أشهر، وبحلول منتصف شهر تشرين أول كان توم قد فقدَ ما يُقارب العشرين رطلاً من وزنه، مما جعله يُشبه قليلاً الشاب الدكتور ثمب أيام زمان. كان جلياً أنَّ الأكل المنزلي قد وافقه، وعلى الرغم من أنه تكهّن بالعكس، لم تُرهِقه هني أو تهزمه أو تسحق روحه. ويوماً بعد يوم، حولّته إلى الرجل الذي طالما قُدِّرَ له أنْ يكونه.

مع كل تلك التطورات الإيجابية في شقّة الحب، قد يميل القارئ إلى الاعتقاد أنَّ السعادة الشاملة عمَّتْ حينّا في بروكلن. للأسف، ليس كل الزيجات يُقدَّرُ لها أنْ تدوم. كل إنسان يعلمُ هذا، ولكن مَنْ منّا كان يمكن أنْ يُخمّن أنَّ الشخص الأقلّ سعادة في الحي خلال تلك الأشهر كانت حب توم القديم، ***الأم المثالية الجميلة*** ؟ صحيحٌ أنَّ زوجها تركَ انطباعاً سيئاً لديّ في دغل بروسبكت بارك، ولكن ما كان يمكن لي ولا خلال مئة عام أنْ أفترض أنه غبي إلى درجة أنْ يستخفَّ بزوجةٍ كزوجته. إنَّ مثيلات نانسي ماتزوكيللي في هذا العالم قليلات ولا يظهرن إلا على فترات مُتباعدة، وإذا كان الرجل محظوظاً إلى درجة الفوز بقلب فتاة من طراز ماتزوكيللي، تُصبح مهمته منذ تلك اللحظة فصاعداً هي

أنْ يبذل أقصى جهده كي لا يفقده. لكنَّ الرجال (كما بيَّنتُ بإفاضة في فصول مُبكّرة من هذا الكتاب) مخلوقات غبية، والفتى الجميل جيمس جويس اتَّضحَ أنه أشدّهم غباءً. ولأنني عقدتُ صداقة مع أم نانسي في صيف ذلك العام (سأورد المزيد عن هذا لاحقاً)، أصبحتُ ضيفاً أترددُ على مائدة عشاء الأسرة، وفي تخوم منزلهم في شارع كارول عرفتُ بأمر آثام جيمي الماضية وشهدتُ على تهشُّم زواجه من نانسي. وبدأتْ الحماقة حتى قبل ظهور تلك الشخصية المُسمّاة *الأم المثالية الجميلة* - وذلك قبل ستة أعوام مضت، عندما كانت نانسي حُبلى بطفلها الأول، ديفون. وعندما سمعت عن علاقة زوجها بنادلة في بار تريبيكا، طردته لفترة من الوقت من المنزل، ولكن بعد أنْ وُلِدَ الطفل، لم تعُد تقوى على مقاومة وعوده الباكية بأنَّ ذلك لن يحدث مرة أخرى. لكنَّ الكلام لا قيمة له في مثل تلك المسائل، ومَنْ يدري كم من علاقة سرّية تلت ذلك ؟ في تقدير جويس، كانت هناك لا أقلّ من سبع أو ثماني علاقات، إذا وضعنا في الحسبان العلاقات العابرة والمضاجعات السريعة التي تجري في مطلع الدَرَج الخلفي في مركز العمل. وكانت نانسي، المُسامحة والغافرة للذنوب بطبيعتها، تستخفّ بتلك الإشاعات. ولكن بعد ذلك وقع جيم في غرام زميلة له تعمل فولي ووكر مثله اسمها مارتا آيفز، وكانت تلك هي القاصمة. قال إنه وقع في شِباك الحب، وفي الحادي عشر من شهر آب عام ٢٠٠٠، بعد أنْ رأيته للمرة الأولى بشهرَين في قداس جنازة هاري، حزم أمتعته ورحل.

بعد ذلك باثنيّ عشر يوماً، أخبرني طبيب الأورام أنَّ رئتيّ ما زالتا نظيفتين.

بعـد أربعـة أيام، وضـعتْ راشـيل، بـالاتفـاق مع تـوم وهني، خطة شيطانية لخداعي ودفعي إلى الاعـتـقاد بأني سأحضر مبـاراة بكرة القدم في ملعب شيا - في حين أنها كانت في الواقع حفلة مُفاجأة بمناسبة عيد ميـلادي الستين. وقضتْ الخطة أنْ أصطحب توم من شقتـه، ولكن حالما ألج من البـاب، يحـتـشـد عـدد من الناس حـولي ويُمطرونني بالعناق والقُبل، والربت على الظهر، بالإضافة إلى هدير من الصراخ والغناء. ولم أكنْ مُستعداً قط لمثل ذلك الوابل من حُسن النيّة، وكدتُ أتقيّأ من قوة الصدمة التي تلقّتها أعصابي. واستمرت الاحتفالات حتى وقت متأخر من الليل، وخلالها أقنعوني بعد إلحاح بالوقوف وإلقاء كلمة. وحينئذٍ كانت الشمبانيا قد لعبت برأسي منذ وقتٍ طويل، وأعتقد أني قلتُ كلاماً مُفكّكاً لبعض الوقت، مُطلقاً نكاتٍ مُختلطة وغير مترابطة وجمهوري شبه السكران يُجاهد كي يُتابع ما أقول. والشيء الوحيد تقريباً الذي خرجتُ به من تلك الخطبة الفاشلة هو حديث جانبي قصير حول الفِطنة اللغوية لكيسي شتنغل. وإذا كانت ذاكرتي ما زالت تسعفنيَ، أعتقد أني أنهيتُ حديثي بمُقتَطَف من الأستاذ نفسه. قلت "إنهم لم يُطلقوا عليه لقب البروفسور العجوز من فراغ. فهو لم يكن فقط المدير الأول لمحبوبنا فريق ميتز[٢٩]، بل، وما هو جوهريّ أكثر لخير الإنسانية العام، كان مؤلِّف لعدد لا يُحصى من الجُمل التي أعادتْ تشكيل فهمنا للغة الإنكليزية. وقبل أنْ أجلس، اسمحوا لي أنْ أترككم مع هذه الدُرّة النفيسة، التي لا تُنسى، وتُلخّص تجربتي بدقّة أكثر من أي

٢٩ - نيويورك ميتز ، فريق لعبة البيسبول الأميركي الشهير .

تصريح سمعته على مدى الأعوام الستين التي عشتها داخل جسمي : "يأتي وقتٌ في حياة كل الإنسان، وقد مررتُ به مرات عدّة ".

وصلتْ نشرة سَبْواي سيريز[٢٠] وذهبت : تحول الطقس إلى بارد ؛ وترشّحَ غور ضد بوش. وبالنسبة إليّ، لم يكن هناك شكٌ في النتيجة. حتى مع الفوضى التي أثارها نادر، بدا من المستحيل أنْ يُهزَمَ الديموقراطيون، وكنتُ كلما مشيتُ في الحي، أجدُ كل مَنْ أتحدث معه يحمل الرأي نفسه. وحده توم، أشد الرجال تشاؤماً فيما يتعلق بالسياسة الأميركية، بدا قلقاً. رأى أنَّ النتيجة متقاربة جداً إلى درجةِ أنه لا داعي لتسمية الفائز، وقال، إذا ما فاز بوش يمكننا أنْ ننسى كل ذلك الهراء عن " النزعة المُحافظة الرحيمة". فالرجل لم يكن مُحافِظاً ؛ بل أيديولوجياً من اليمين المُتطرِّف، وحالما يُدلي بالقسم لتسلُّم منصبِه، سوف يُهيمن المجانين على الحكومة.

قبل الانتخابات بأسبوعٍ واحد، ظهرتْ أخيراً أورورا - ولكن فقط لتختفي بعد ثلاثين ثانية. حدث اللقاء عبر اتصالٍ هاتفي جاء لتوم، ولكن في صباح ذلك اليوم لم يكن هناك أحد في الشقة، ولذلك لم يكن لدينا ما نعمل عليه غير رسالة مُقتَضَبة تُرِكَتْ على الآلة المُجيبة. لا أدري كم مرة أصغيتُ إلى تلك الرسالة مع توم وهني، لكننا أعدنا تشغيل الشريط مرات كافية بحيث نحفظ كل جملة فيها غيباً. وكلما أصغيتُ إلى صوتها، بدا يائساً، ومتوتراً، وخائفاً أكثر من ذي قبل. كانت تتكلم بصوت خافت، يكاد لا يرتفع عن مستوى الهمس من أوله

---

٣٠ - سبواي سيريز : نشرة أنباء لعبة البيسبول التي تصدر أثناء المباريات في فترات الاستراحة .

إلى آخره، لكنَّ كلماتها كانت توحي بشدّة بالموت، بحيث إنها كانت تحمل كل تأثير الصراخ :

" توم. إنه أنا، روري. إنني أتّصل من هاتف للإيجار، وليس لدي الكثير من الوقت. أعلم أنكَ ربما يئستَ مني، لكنني أشتاق إلى لوسي كثيراً. أريد فقط أنْ أعرف كيف حالها. لا تظن أنني كنتُ ألهو، يا تومي. لقد فكرت كثيراً ومطولاً، لكني لم أجد غيرك أستطيع أنْ اعتمد عليه. لم يعُد في استطاعتها أنْ تمكث هنا بعد الآن. إنَّ كل شيء ينهار. والأخبار سيئة. لقد حاولتُ أنْ أنقذ نفسي أنا أيضاً، لكنَّ الأمر غاية في الصعوبة، أنا لستُ وحدي أبداً... ابعث لي رسالة، أوكيه ؟ ليس لدي هاتف، ولكن يمكنكَ أنْ تلاقيني في رقم سبعة وثمانين في شارع هوثورن في... اللعنة. يجب أنْ أذهب. آسفة. يجب أنْ أذهب "

وُضِعَتْ سمّاعة الهاتف بقوة في مكانها، وقُطِعَتْ المكالمة التي طال انتظارها فجأةً، دون أنْ تنتهي. وافترضَتْ أشد وساوسنا تشاؤماً ثقل وطأة الحقيقة، ومع ذلك لم نعلم أين هي. وكان توم قد مرّ بلحظات مُشابهة في الماضي مع أخته، وعلى الرغم من أنَّ قلقه لم يقلّ عن قلقي عليها، إلا أنَّ رعبه كان مُلطّفاً بالإرهاق، والغضب، بسنين من الخيبة والندم. قال " إنها أشد مَنْ عرفت تجرّداً من الإحساس بالمسؤولية. أخيراً بدأتْ لوسي تستقر معنا، والآن، بعد مرور العديد من الأشهر، ها هي تتصل لتقول إنها تشتاقُ إليها. أيُ أمٍ هذه ؟ إنها تريد مني أنْ أراسلها، ومع ذلك لا تخبرنا في أي بلدة تُقيم. هذا ليس عدلاً، يا ناثان. هني وأنا نبذل أقصى جهدنا لتقديم المساعدة، وآخر ما نحتاج إليه هو المزيد من الفوضى، والدراما. إلى هنا وكفى "

قلتُ " قد لا يكون ذلك مُنصفاً، ولكنَّ روري متورطة في مشكلة ما، ويجب أنْ نعثر عليها. ليس أَمامنا خَيار. وفِّر عليَّ أحكامك حتى وقتٍ لاحق، اتفقنا؟ "

بعد ذلك تغيَّر العالم بأسره بالنسبة إليّ. كانت انتخابات عام ٢٠٠٠ الكارثية ستحل بعد أيام قليلة، ولكن حتى بينما جلس توم وهني يملؤهما الرعب أمام جهاز التلفزيون على مدى الأسابيع الخمسة التالية، يُراقبان أعضاء الحزب الجمهوري يدعون سفّاحيهم ليتحدّوا ولاية فلوريدا في دورة الإياب ثم ليتلاعبوا بالمحكمة العليا لكي تفتعل انقلاباً شرعياً لصالحهم، وعلى الرغم من أنَّ تلك الإهانات كانت تُرتَكَب ضد الشعب الأميركي واشتركَ ابن أختي وزوجته بالمظاهرات، وأرسلا رسائل إلى مرشحهم في مجلس الشيوخ، ووقّعا على عدد لا يُحصى من الاحتجاجات والعرائض، إلا أني كنتُ منهمكاً بشيء واحد : أنْ أعثر على روري وأُعيدها إلى نيويورك.

رقم سبعة وثمانين في شارع هوثورن Hawthorn. أو ربما كان شارع Hawthorne، على اسم رجل وليس اسم الشُجيرة[٢١] - ولعله حتى اسم ناثانييل هوثورن، الروائي الذي توفي قبل زمن بعيد وتسبَّبَ دون قصد بمقتل صديقنا الحزين، العاثر الحظ. اقتران مرير، يدل على القليل أو على لا شيء على الإطلاق، لكنه مُخيف لهذا كله، وكأنَّ الكلمة نفسها التي تظهر في سياقَين مُختلفَين أسّستْ صِلة خفيّة بين هاري وأورورا :

---

٢١ - كلمة Hawthorn ، من دون حرف e في نهايتها تعني نبات الزعرور البري ، بينما تلك التي مع حرف e فهي اسم عَلَم ، ويحمله الكاتب الأميركي صاحب رواية " الحرف القرمزي " و " تمثال إله المراعي الرخامي " ، ناثانييل هوثورن . - المترجم

واحد رحل إلى الأبد، والأخرى لا سبيل إلى الوصول إليها، والاثنان مجهولا الإقامة. وبعيداً عن هذا المفتاح الوحيد، كل شيء كان تخميناً أعمى، ولكنْ لأنَّ لوسي تتكلَّم بلكنة جنوبية، ولأنّها وضعتْ أمّها في أرضٍ لا وجود لها اسمها كارولاينا كارولاينا، قرّرتُ أنْ أبدأ بحثي في كارولاينا الحقيقية، الشمالية والجنوبية. الأمر المؤسف هو أنَّ أورورا وزوجها لم يكن لديهما جهاز هاتف. ولو أنَّ اسميهما كانا مُدرجين في الدليل، لبات في الإمكان الاتصال بالاستعلامات في كل بلدة ومدينة في كلا الولايتين والعثور عليهما بطلب رقم هاتف ديفيد ماينور في ٨٧ شارع Hawthorn (e). مُهمّة مُضنية، ولكن كان من المتوقع أنْ تنجح. وبما أنَّ ذلك الخَيار لم يكن متوفراً لديّ، لم يبقَ أمامي إلا أنْ أتراجع. وفي يوم الأحد، استقللتُ القطار إلى منطقة برينستون جنكشن وأمضيتُ اثنتيّ عشرة ساعة جالساً أمام شاشة الكومبيوتر مع ابنتي الحُبلى وزوجها الخنوع، المُهذَّب. ربما كان تيرانس يفتقد الجاذبية، لكنه كان متفوقاً تكنولوجياً، وعندما رجعتُ إلى المنزل في صباح اليوم التالي، كان في حوزتي نسخة تحتوي لائحة بأسماء كل الشوارع في ولايتيّ كارولاينا التي تحمل اسم Hawthorne و Hawthorn. عدد هائل. ولكي أتفقّد كل منزل يحمل الرقم ٨٧ على اللائحة، كان يعني أنْ أبقى في الشوارع على مدى ستة أشهر.

حينئذٍ لجأتُ إلى هنري بيبلز، زميلي في شركة ميد-أتلانتيك للتأمين على الحياة وضد الحوادث. لقد كان أحد كبار الباحثين في الشركة، وقد عملنا معاً على مدى سنين طويلة على عدد من القضايا، وأهمها قاطبة كانت تلك المُسمّاة قضية دَبنسكي، والتي حوّلت هنري إلى

ما يُشبه المعجزة الصغيرة في مجاله. فقد كان آرثر دَبنسكي قد زيَّفَ ميتته وهو في عمر الواحد والخمسين عاماً بقتل رجل متشرِّد من شوارع نيويورك واستبدل جثة ذلك الشخص على أنها جثّته داخل سيارة تحترق كانت قد تهشّمت بعد اصطدامها بجُرف في جبال روكي. وحصدتْ زوجته الثالثة مورين، ذات الثمانية والعشرين عاماً، مبلغ بوليصة التأمين وقدره مليون وستمئة ألف دولار، ثم، بعد لا أكثر من شهر واحد، باعت حصتها في`مانهاتن واختفَتْ عن الأنظار. أما هنري، الذي كان يرتاب في دَبنسكي منذ البداية، فظل يُراقبُ مورين مراقبة شديدة، وعندما غادرتْ نيويورك فجأةً، زوّد رئيسه في القسم، الذي كان قد أعطاه الإذن بملاحقتها، بتقرير عنها. واستغرقَ الأمر تسعة أشهر من الملاحقة الحثيثة النشطة للعثور على السيدة دَبنسكي - كانت تعيش مع زوجها السليم والمُعافى على جزيرة سينت لوتشيا. ونجحنا في استعادة خمسة وثمانين في المئة من قيمة البوليصة ؛ وأودِعَ آرثر دَبنسكي السجن بتهمة القتل، وكوفئنا أنا وهنري بعلاوة كبيرة.

عملت مع هنري بيبلز لأكثر من عشرين عاماً، لكني لن أدّعي أني أحببته مرة. لقد كان رجلاً غريب الأطوار، غليظاً، ملتزماً بحمية نباتية صارمة وأقربَ شَبَهاً بعمود نور مُطفَأ. بذلات بوليستر متجعّدة (بُنيّة اللون في مُعظمها)، نظارات سميكة ذات إطار من قرن الحيوان، وقشرة رأس دائمة، واشمئزاز يُثير الأعصاب من أي لغو من أي نوع. وقد تأتي إلى المكتب بذراع مربوطة بضمادة مُدلاة من عنقك أو ببقعة فوق عينك، فلا ينطق هنري بأي كلمة. سوف يُحدِّق إليك قليلاً، ويستوعب تفاصيل إصابتك، ثم، ودون أنْ يسأل كيف آذيت نفسك أو ما إذا كنتَ تتألم، يضع تقريره على طاولة مكتبك.

ومع ذلك، كان يتمتع بموهبة خاصة في التسلل خِلسة وإخافة المفقودين، والآن بعد أنْ تقاعد، أتساءلُ إنْ لم يكن راغباً في تولي عملي نيابة عني. ولحسن الحظ لم يكن قد انتقلَ من شقّته القديمة في حي كوينز، التي كان يشترك فيها مع أخت أرملته وقططها الأربع. وعندما طلبتُ رقم هاتفه، رفع السماعة بعد الرنّة الثانية.

قلت " فقط حدِّد السعر. سأدفع كل ما تطلب "

أجاب " لا أريد مالك، يا ناثان. فقط غطِّ تكاليفي، ونكون قد اتّفقنا "

" قد يستغرق الأمر أشهراً. وأكره أنْ أراكَ تُبدد الكثير من الوقتْ دون طائل"

" لا بأس. وكأنَّ لديّ شيئاً أفضل أفعله خلال تلك الأيام. سوف أمتطي الصهوة، وأندفعَ لأعيشَ مجد السنين مرة أخرى "

" مجد السنين؟ "

" طبعاً. كل تلك الأوقات الطيبة التي أمضيناها معاً، يا ناثان. دبنسكي. وليامسون. أوهارا. لبينو. أنتَ تذكر هذه القضايا، أليس كذلك؟ "

" طبعاً أذكُرها. لم أكن أعلم أنكَ رومانسي إلى هذه الدرجة، يا هنري "

" أنا لستُ كذلك. أو على الأقلّ لم أكنْ أعلم أني كذلك. ولكن يمكنك أنْ تعتمد عليّ. إكراماً لأيام زمان "

" أنا أفترض كارولاينا الشمالية أو كارولاينا الجنوبية. ولكن قد أكون مخطئاً "

" لا عليك. ما دام لدى ماينور هاتف، سوف أتمكّن من العثور عليه. إنه مضمون ".

بعد ذلك بستة أسابيع، اتصل هنري بي في منتصف الليل ونطق بأربعة مقاطع صوتية في أذني : " وينستون-سالم ".

في صباح اليوم التالي كنتُ على متن الطائرة، متوجهاً إلى بلد التبغ.

الفتاة الضاحكة

كان المنزل رقم ٨٧ في شارع Hawthorne منزلاً متداعياً مؤلفاً من طابقَين على طريقٍ شبه ريفيّ، شبه ضواحيّ يبعُد ثلاثة أميال عن مركز المدينة. وقد أضعتُ الطريق مرات عِدّة قبل أنْ أعثر عليه وعندما ركنتُ سيارتي المُستأجَرة فورد إسكورت على الممر القذر، لاحظتُ أنَّ كل الستائر على النوافذ الأمامية مُسدلة. كان يوم أحد كئيباً، مُلبَّداً بالغيوم في منتصف شهر كانون أول. وكان الافتراض المنطقي هو أنَّ لا أحد في المنزل - أو أنَّ روري وزوجها يعيشان في ذلك المنزل وكأنه كهف، يحتميان من وهج النور الطبيعي، ويتّقيان التصادم مع العالم الخارجي، كعضوين وحيدين في مجتمعٍ مؤلّفٍ من اثنين. لم يكن هناك جرس على الباب، لذا قرعت. وعندما لم أجد جواباً، قرعتُ من جديد. منذ أنْ تركتْ روري رسالتها على آلة توم المُجيبة، ونحن نتوقع منها أنْ تُعيد الاتّصال. لكننا لم نسمع أي شيء منها، والآن وأنا أقفُ أمام ما بدا أنه منزل خاو، بدأتُ أشكُّ في أنها لم تعُد تعيش هنا. وأخذتْ شتى أنواع الأفكار المخيفة تقفز في رأسي وأنا أقرع الباب للمرة الثالثة. تساءلتُ، ماذا لو أنها حاولتْ أنْ تهرب، ولحقَ ماينور بها ؟ ماذا لو أنه أخذها إلى مدينةٍ أخرى، إلى ولاية أخرى، وفقدنا أثرها إلى الأبد ؟ ماذا لو أنه صدمها

وقتلها مُصادفة ؟ ماذا لو أنَّ نهايتها قد حانت فجأةً، وأنا تأخّرتُ كثيراً لمساعدتها، لأعيدها إلى العالم الذي انتمتْ إليه ؟

فُتِحَ الباب، وإذا بماينور يقفُ أمامي بشحمه ولحمه، رجل طويل القامة، وسيم في نحو الأربعين من العُمر، ذو شعرٍ أسود، مُسرّح بأناقة، وعينين زرقاوين رقيقتين. وكنتُ على مدى الأشهر الماضية قد رسمتُ له في ذهني صورة وحش، وصُعقتُ عندما اكتشفتُ مدى بُعده عن كونه يُشكل تهديداً، مدى كونه *طبيعياً*. وإذا كان فيه شيء غريب، فهو أنه يرتدي قميصاً أبيضَ طويلَ الكُمّين ويضعُ ربطة عنقٍ زرقاء مربوطة بحزمٍ عند الياقة. أي نوعٍ من الرجال يتجوّل في أرجاء المنزل بقميصٍ أبيض وربطة عنق؟ تساءلتُ. واستغرقَ مني هنيهة التوصلُ إلى إجابة. قلت في نفسي، إنه رجل يتردد على الكنيسة. رجل يتقيَّد بعطلة يوم السبت[٣٢] ويتعامل مع الدين بجدّية.

سألَ " نعم ؟ بماذا أستطيع أنْ أخدمك ؟ "

قلتُ " أنا خال روري، ناثان غلاس. تصادفَ أنْ كنتُ في الجوار وفكّرتُ في أنْ أُعرّج وأراها "

" أوه ؟ وهل تتوقع وصولك ؟ "

" ليس حسب علمي. وكما أفهم، ليس لديكم هاتف "

" هذا صحيح. أنا لا أؤمن بالهواتف. إنها تُشجِّعُ على الإفراط في الثرثرة والكلام الفارغ. ونفضِّل أنْ نحتفظ بكلامنا للأشياء الأساسية "

" شيء مُثير للاهتمام... يا سيد... يا سيد... "

" ماينور. ديفيد ماينور. أنا زوج أورورا "

---

٣٢ – لأنه يهوديّ طبعاً .

" هذا ما حسبت. لكنني لم أرغب في الافتراض "

" تفضّل، يا سيد غلاس. لسوء الحظ، أورورا ليست على ما يُرام هذا اليوم. إنها في الطابق العلوي تأخذ غفوة، لكنكَ أكثر من مجرد ضيف وأهلاً بك. نحن منفتحًا التفكير جداً في هذا المكان الضيِّق من الغابة. وإنْ كان الآخرون لا يُشاركوننا إيماننا، نبذل أقصى جهدنا لنعاملهم بإجلال واحترام. إنها إحدى وصايا الله المقدّسة "

ابتسمتُ ولم أقُل شيئاً. لقد كان مُهذبَ السلوك بقدرٍ كاف، لكنه كان قد بدأ يتكلّم كمُتعصّب، وآخر ما كنتُ أحتاجه هو أنْ أشتبك معه حول قضايا لاهوتيّة. قلتُ لنفسي دعْ له ربّه وكنيسته. إنَّ السبب الوحيد لوجودي هناك كان لأتأكّد مما إذا كانت روري في خطر أم لا - فإذا كانت كذلك، أُخرجها من ذلك المنزل بأسرع ما في وسعي.

استناداً إلى الحالة الخارجية (الدهان المقشور، مصاريع النوافذ المتهالكة، الأعشاب النامية من بين الدرَج الأسمنتي)، كنتُ مُهيَّئاً للعثور على بعض تشكيلة قذرة من قطع الأثاث المكسورة، المتنافرة، تملأ أرضيات الغرف الداخلية، ولكن اتّضحَ أنَّ المكان أكثر من جميل المظهر. كانت روري قد ورِثَتْ موهبة جون في أنجاز الكثير من القليل، وقد حولّتْ غرفة الجلوس إلى جوٍ شديد البساطة ولكنه جذاب، مُزيَّن بأُصص مزروعة، ومزوَّد بستائر غنغام[٣٢] gingham مشغولة باليد، ومُلصَق جداري كبير يُعلن عن مُتحف جياكوميتّي على الجدار المقابل. أومأ ماينور لي كي أجلس على الأريكة، فجلست. واستقرّ هو على كرسي على الجانب الآخر من طاولة القهوة الزجاجية، وعلى مدى الدقائق التالية

٣٢ - الغنغام : نسيج قطني مُخطَّط .

لم ينطق أي منا بكلمة. ورغبتُ في أنْ أخوض بتهوُّر في الموضوع – طالباً أنْ أرتقي إلى الطابق العلوي لأتحدث مع أوورورا، وأمطره بالأسئلة حول لوسي، وأجبره على شرح السبب في كون زوجته من فرط الخوف بحيث لا تستطيع أنْ تتصل بأخيها – لكني أدركتُ أنَّ ذلك المدخل قد يرتدُّ وبالاً عليّ، لذا تقدّمتُ في الحديث بأشدّ ما استطعتُ من رهافة.

باشرت بالقول " كارولاينا الشمالية. آخر مرة سمعنا عنك فيها كنتَ تعيش مع أمك في فيلادلفيا. فما الذي جلبكَ إلى هنا ؟ "

قال ماينور " أشياء كثيرة. أختي وزوجها يعيشان في المنطقة، وقد عثرا لي على عمل. وذلك العمل قادني إلى عملٍ أفضل، وأنا الآن مُساعد مدير في مخزن ترو فاليو هاردير في كاملباك مول. قد لا تجد ذلك عملاً مرموقاً، لكنه عمل شريف، وأنا أكسب مبلغاً جيداً. وعندما أفكر كيف كنتُ قبل نحو سبع سنوات أو ثماني سنوات مضت، أجدُ أنَّ من قبيل المعجزة أني وصلتُ إلى ما أنا عليه. أنا إنسان آثم، يا سيد غلاس، أنا مُدمن مخدرات وزاني، وكاذب ومجرم حقيقي، وخائن لكل مَنْ أحبّني. ثم وجدتُ السكينة في الرب، وتمَّ خلاص زوجتي. أعلمُ أنَّ من الصعب على يهوديّ مثلك أنْ يفهمنا، لكننا لسنا مجرد طائفة أخرى من المسيحيين القارئين للكتاب المقدس، المتحمسين الذين يخشون الله. نحن لا نؤمن بالرؤيا الدينية وبيوم الحساب : لا نؤمن بالنشوة وبنهاية الزمان. نحن نعدّ أنفسنا للحياة في الجنّة بالعيش حياة صالحة على الأرض "

" عندما تقول *نحن*، عمّن تتحدث ؟ "

" عن كنيستنا. معبد الكلمة المقدسة. نحن مجموعة صغيرة. رعيتنا لا يتجاوز عددها الستين عضواً، لكنَّ المحترم بوب هو قائد

مُلهَم، وقد علّمنا الكثير من الأشياء. " في البدء كانت الكلمة، والكلمة كانت مع الله، والكلمة كانت الله " "

" الإنجيل حسب القديس يوحنا. الفصل الأول، الآية الأولى "

" إذن فأنتَ تقرأ الكتاب المقدس "

" قليلاً. بالنسبة إلى يهودي لا يؤمن بالله، أكثر من أي شيء آخر"

" أتقول لي إنكَ مُلحد؟ "

" كل اليهود مُلحدون. ما عدا غير المُلحدين، طبعاً. ولكن لا صِلة لي بهم "

" لا أظنكَ تسخر مني، أليس كذلك، يا سيد غلاس؟ "

" كلا، يا سيد ماينور، أنا لا أسخر منك، ما كنتُ لأحلم بذلك "

" لأنكَ إذا كنتَ تسخر مني، يجب أنْ أطلب منكَ أنْ ترحل "

" أنا مُهتم بالمُحترم بوب. وأريد أنْ أعرف ما الذي يجعل كنيسته مختلفة عن الأخريات "

" إنه يفهم معنى التضحية. فإذا كانت الكلمة هي الله، فكلمات البشر لا تعني أي شيء. لم يعد لها مغزى إلا بقدر ما يعنيه قِباع الحيوانات وصراخ الطيور. إنَّ المُحترم، بجعلنا نتنفّس الله ونستوعب كلمته، يُرشدنا إلى الإحجام عن الانغماس في تفاهة الخطاب الإنساني. هذه هي التضحية. وخلال يوم كامل من سبعة أيام، يلزم كل عضو من الرعية الصمت التام والمتواصل على مدى أربعٍ وعشرين ساعة "

" لابد أنَّ ذلك شديد الصعوبة "

" في البداية. ولكن بعد ذلك تبدأ بالتلاؤم، وتصبح أيام صمتك هي أجمل لحظات الأسبوع وأكثرها إنجازاً. بل إنك في الواقع تستطيع أنْ تشعر بالله في داخلك"

" وماذا يحدث عندما يكسُر أحدهم الصمت ؟ "

" يتوجب عليه أنْ يبدأ من جديد في اليوم التالي "

" وإذا كان طفلك مريضاً، وأصبح ضرورياً استدعاء طبيب في يوم صمتك، ماذا يحدث حينئذٍ ؟ "

" الزوجان لا يصمتان أبداً في اليوم نفسه. تدفع زوجتك إلى الاتّصال هاتفياً "

" ولكن كيف تتصل إذا لم يكن لديك جهاز هاتف ؟ "

" تذهب إلى أقرب هاتف مدفوع الأجرة "

" وماذا عن الأطفال ؟ هل لديهم أيام يصمتون فيها أيضاً ؟ "

" كلا، الأطفال مُستثنون. إنهم لا ينتسبون إلى الجماعة قبل بلوغهم سن الرابعة عشرة "

" يبدو أنَّ صاحبك المحترم بوب فكَّر في كل شيء، أليس كذلك ؟ "

" إنه رجل لامع، وتعاليمه تجعل الحياة أفضل وأشد بساطة بالنسبة إلينا. نحن قطيع سعيد، يا سيد غلاس. في كل يوم أركعُ وأشكر يسوع لأنه أرسلنا إلى كارولاينا الشمالية. ولو لم نأتِ إلى هنا، لما عرِفنا مسرات الانتماء لمعبد الكلمة المقدسة "

أثناء كلام ماينور، تكوّنَ لديّ انطباع بأنه سوف يسرّه أنْ يستمر هكذا تمجيد مزايا المحترم بوب على مدى ست ساعات أو عشر أخرى، ولكني وجدتُ حرصه على تفادي ذِكر اسميّ زوجته وابنته المُتبنّاة أمراً غريباً. فأنا لم أقطع كل تلك المسافة من نيويورك لكي أسمع هاتين الكلمتين عن القيم الحقيقية ومعابد الله المشروخة. والآن بعد أنْ أمضينا بعض الوقت وبدأ يشعر بقليل من التوتر في صُحبتي، ارتأيتُ أنَّ اللحظة قد حانت لتغيير الموضوع.

قلت " إنني مُندهش لأنكَ لم تسألني عن لوسي "

أجاب، وقد بدا عليه بصدق أنه بوغِتَ، " لوسي؟ أتعرفها؟ "

" طبعاً أعرفها. إنها تعيشُ مع شقيق أورورا وزوجته الجديدة. وأنا أراها كل يوم تقريباً "

" حسبتُ أنَّ صلتك مقطوعة مع الأسرة. لقد قالت أورورا أنكَ تعيش في مكانٍ ما من الضواحي، ولا أحد رآك منذ سنين "

" هذا الوضع تغيَّر قبل ستة أشهر. أنا الآن على تواصل معها. أتواصل معها طوال الوقت "

كشَّر ماينور في وجهي تكشيراً قصيراً، كئيباً. "كيف حال الصغيرة؟"

" أيهمّك أنْ تعرف ؟ "

" طبعاً يهمّني "

" فلماذا إذن أبعدتها ؟ "

" لم يكن ذلك قراري. لم تعُد أورورا تريدها، ولم يكن في يدي فعل أي شيء لمنعها "

" لا أصدّقك "

" أنتَ لا تعرف أورورا، يا سيد غلاس. إنَّ وضعها العقلي ليس مُستقراً. إنني أبذل أقصى ما في إمكاني لمساعدتها ودعمها، لكنها لا تُبدي أي امتنان. لقد أخرجتُها من غياهب الجحيم وأنقذتُ حياتها، لكنها ترفض أنْ تستسلم. إنها ترفض أنْ تؤمن "

" هل هناك أي قانون يقول بأنَّ عليها أنْ تؤمن بما تؤمن أنتَ به ؟ "

" إنها زوجتي. وعلى الزوجة أنْ تتبع زوجها. من واجبها أنْ تتبع زوجها في كل شيء "

كان صعباً عندئذٍ معرفة إلى أين نتجه. كان الحديث يتشعّبُ في اتجاهات متعددة دفعة واحدة، وكانت غرائزي قد بدأتْ تخونني. لقد بدا أنَّ سؤال ماينور الهادئ، الذي طرحه بصوتٍ ناعم، عن لوسي، يُظهِرُ اهتماماً صادقاً بصالحها، ولم لم يكن كاذباً عالي الموهبة، لا يتردَّد في تشويه الحقيقة كلما خَدَمَ ذلك مصلحته، لوجدتني في موقفٍ لا أُحسَد عليه ولشعرتُ بالأسى عليه. على الأقلّ هذا ما حدث لبضع لحظات، وذلك الدفق المُفاجئ، غير المتوقَّع من العطف باغتني في غفلةٍ مني، مُحوّلاً ما يُفترَض أنْ يكون تصادُماً صريحاً لإرادتينا إلى شيء أعقد، وأشدّ إنسانيّة بكثير. لكنه بدأ يتفوّه بألفاظ نابية بحق روري، واضعاً اللوم عليها في تخلّيها عن ابنتها، مُتّهماً إياها بالاضطراب العقلي، ثم، وهو الأسوأ، خرج بذلك الحُكم الأبله، الرجعي، على الزواج. ومع ذلك، بعض الحقائق لم يكن في الإمكان نكرانها. لقد أنقذها فعلاً من تعاطي المخدرات وأحبّها، واعتماداً على تاريخ روري، مَنْ قال إنها لم تكن عُرضة لنوبات من السلوك غير العقلاني، وأنَّ العيش معها لم يكن أمراً صعباً، وأنها لم تكن جزئياً غير متمالكة لقِواها العقلية ؟ من ناحية أخرى، لعلَّ الصراع برمّته يمكن اختزاله إلى نقطة واحدة لا يمكن حلّها : لقد آمن بتعاليم المحترم بوب، وروري لم تؤمن. ولأنها رفضتْ أنْ تؤمن، أخذ يكرهها تدريجياً.

من مكان جلوسي على الأريكة، كنتُ أحظى بمشهد واضح لمطلع الدَرَج المؤدي إلى الطابق الثاني. وبينما كنتُ أفكّر في الشيء التالي الذي سأقوله، نظرتُ خلف كتف ماينور الأيسر في ذلك الاتّجاه، وشتّتَ شيءٌ شاهدته من زاوية عيني انتباهي - شيء صغير، قاتم اللون ظهرَ

لأقلّ من لحظة، ثم تلاشى قبل أنْ أتمكّن من معرفة ما هو. وبدأ ماينور بالكلام من جديد، مُكرراً أفكاره حول أُسس الزواج الصالح والطالح، لكنه لم يعُد يحظى بانتباهي الكامل. كنتُ أنظر إلى الدرَج، وأفهم بعد تأخُّر أنَّ الشيء الذي شاهدته ربما كان طرف رأس حذاء - حذاء أورورا دون أدنى شك - وإذا كان الأمر كذلك، انتابني الأمل في أنْها ربما وقفتْ هناك بعض الوقت، تختلسُ الاستماع إلينا منذ بداية زيارتي. كان ماينور من فرط الانهماك فيما يقول، بحيث إنه لم يُلاحظ أني لم أكن أنظر إليه مباشرةً. قلتُ في نفسي، اللعنة. يكفيني لعبة القط والفأر. يكفيني الدوران حول الموضوع. حان الوقت لرفع الستار عن الفصل الثاني.

قلت " انزلي، روري. أنا خالك العزيز نات، ولن أرحل عن هذا المنزل قبل أنْ أتحدث معك "

قفزتُ عن الأريكة ومشيتُ متجاوزاً ماينور إلى أسفل الدرَج، بحركة سريعة متوقّعاً أنْ يُحاول منعي من الوصول إليها.

" إنها نائمة "، سمعته يقول من خلفي، حالما لمحتُ ساقيّ أورورا للمرة الأولى في أعلى الدرَج. "إنها تقاوم الإنفلونزا منذ يوم الخميس وعانت من حمّى شديدة جداً. عُدْ في منتصف الأسبوع. حينئذٍ تستطيع أنْ تتحدث إليها "

هتفتْ ابنة أختي وهي تهبط الدرَج، " كلا، ديفيد. أنا على ما يُرام"

كانت ترتدي بنطلون جينز أسود اللون وسترة من الصوف فضفاضة وعتيقة ورمادية اللون، وصحيحٌ أنها بدتْ متوعكة الصحة، وأبعد ما تكون عن الحالة الجيدة. شاحبة ونحيلة، تُظلل عينيها دائرتان سوداوان، كان عليها أنْ تقبض بقوة على الدرابزين وهي تهبط ببطء نحوي، ولكن

على الرغم من آثار الإنفلونزا والحُمّى، كانت تبتسم، أكبر، وأشد الابتسامات ضياءً صدرتْ عن الفتاة الصغيرة الضاحكة منذ سنين عديدة.

قالت، وهي تفتح ذراعيها لي، " خال نات ,يا فارسي ذو الدرع اللامع". وارتمت عليّ وعانقتني بكل ما أوتيتْ من طاقة. همستْ " كيف حال طفلتي. هل طفلتي الصغيرة على ما يُرام ؟ "

قلت " إنها بخير. إنها تكاد لا تُطيق صبراً على مُلاقاتك من جديد، لكنها بخير "

كان ماينور واقفاً إلى جانبنا عندئذٍ، لا يبدو عليه السرور الشديد لذلك المشهد من الحب الأسري. قال " حبيبتي، عليكِ حقاً أنْ تعودي إلى فوق وتتمددي. قبل ساعة فقط بلغتْ حرارتكِ التاسعة والثلاثين، ومن غير المفيد أنْ تتنقّلي مع حرارة كتلك "

قالت روري، وما زالتْ تضمّني وكأنَّ حياتها تتوقف على ذلك، "هذا خالي نات. أخو أمي الوحيد. إنني لم أره منذ وقت طويل، طويل "

قال ماينور " أعلمُ هذا، ولكن يمكنه أنْ يعود بعد يومين - حالما تتحسّن صحتك "

قالت روري " أنتَ تعلم ما هو الأفضل، أليس كذلك، يا ديفيد. دائماً تعرف ما هو الأفضل. سخفٌ مني أنْ أنزل إلى الطابق السفلي من دون موافقتك "

قلتُ لها " لا تذهبي إذا كنتِ لا تريدين. لن تموتي إذا بقيتِ هنا بضع دقائق أخرى "

قالت، دون أنْ تبذل أي جهد لإخفاء تهكّمها، " أوه، نعم سأفعل. ديفيد يعتقد أني سأموت إذا لم أُنفِّذ كل ما يقول. أليس كذلك، يا ديفيد؟ "

قال زوجها " اهدئي، أورورا. ليس أمام خالك "

أجابت " ولِمَ لا ؟ لأي سبب لعين منْيَك ؟ "

ذكّرها ماينور"انتبهي إلى لغتك. نحن لا نحب مثل هذه الألفاظ في هذا المنزل"

قالت " أوه، أحقاً لا نفعل ؟ إذن ربما حان الوقت كي أغادر هذا المنزل اللعين اللعين. ربما حان الوقت للحشرة كي ترحل كي تتمكن من الانفراد بأفكارك النقيّة ولسانك النقي وإلهك الصامت اللعين. طفحَ الكيل، أيها السيد المقدّس. حانت لحظة الحقيقة اللعينة. أخيراً جاء يوم حظّي، والآن الخال نات سوف يُخرِجني من هنا. أليس كذلك، خال نات ؟ سوف نرحل بسيارتك، وقبل أن تبزغ شمس صباح الغد، سأجتمع بلوسي من جديد "

أجبتُ " فقط اطلبي، وسوف آخذكِ إلى حيثما تشائين"

" ها أنا أطلب، خال نات. أنا أطلبُ منك الآن "

صُعِقَ ماينور، ولم يدرِ ماذا يفعل. توقعتُ منه أنْ ينقضّ عليها، أنْ يبذل أقصى جهده كي يمنعها من مغادرة المكان، لكنّ المواجهة حدثت بسرعة، وعنف شديدين، إلى درجة أنه لم ينطق بأي كلمة. أحطتُ أورورا بساعدي، وقبل أنْ يعي زوجها ما أصابه، كنا قد ركبنا سيارتي، وعدنا القهقرى على الممر ونترك شارع هوثورن إلى الأبد.

الطيران إلى الشمال

لم تكن أورورا في حالةٍ تسمح لها بالسفر، ولكنْ عندما اقترحتُ أنْ ننزل في فندق في مكانٍ ما وننتظر هبوط الحمّى، رفضَتْ وأصرّتْ على أنْ نستقل متن الطائرة التالية المتوجهة إلى نيويورك.

قالت " إنَّ ديفيد ذكي. إذا تلكّأنا هنا لبضع ساعات فقط فسوف يعثر علينا. فقط أعطني جرعة كبيرة من أدفيل أو ما شابه، وسأكون على ما يُرام "

اشتريتُ لها أدفيل، ودثّرتُها بمعطفي، وشغّلتُ مدفأة السيارة، وانطلقتُ بالسيارة مباشرة إلى المطار. كنتُ في صباح ذلك اليوم قد نزلتُ في غرينزبورو، ولكن بما أنه كان من المؤكّد أنَّ ماينور سيفتّش عنا هنا، رأتْ روري أنَّ أفضل رِهانٍ لنا هو أنْ نسلك طريق رالاي-دورام. كانت مسافة تبلغ مئة ميل، واستغرقَتْ في النوم طوال ساعتيّ القيادة. وبعد أنْ تناولتْ أربع جرعات من أدفيل واستغرقتْ في إغفاء طويل، استيقظت وهي تشعر بحالٍ أفضل. كانت ما زالتْ واهنة، ما زالتْ مُستنزَفة قليلاً، ولكن كان جلياً أنَّ الحمّى قد انحسرتْ. وبعد تناول جرعة أخرى من الأقراص وشرب كأسين من عصير البرتقال في المطار، أصبحتْ قوية بقدر كافٍ لتتكلّم - وهو ما فعلناه على مدى عدة ساعات

تلتْ : منذ لحظة جلوسنا عند بوابة المغادرة وحتى لحظة ترجّلنا من سيارة الأجرة الصفراء أمام منزلي في بروكلن في مساء ذلك اليوم.

قالت " إنه خطئي أنا. لقد أحسستُ بما سيلي منذ زمن بعيد، لكنني كنتُ من فرط الضعف بحيث أدافع عن نفسي، ومن فرط التوتر بحيث أقاتل. هذا ما يحدث عندما تعتقد أنَّ الشخصَ الآخر أفضلَ منك. تتوقف عن التفكير في نفسك، وسرعان ما تفقد السيطرة على حياتك. بل إنكَ حتى لا تُدرك، يا خال نات، أنكَ مهزوم. مهزوم بكل معنى الكلمة...

" أول خطأ ارتكبتُه هو أني أدرتُ ظهري لتوم. وبعد أنْ خرجتُ من دورة إعادة التأهيل، غادرتُ مع ديفيد كاليفورنيا وجئنا إلى الشرق مع لوسي. أقمنا مع أمه في فيلادلفيا مدة ستة أشهر، وكانت الأمور جيدة، جيدة كأي فترة أخرى عشتها. كنتُ مُدلّهة بحبه. لم يسبق أنْ عرفتُ رجلاً رقيقاً مثله، وكنتُ أشعر طوال الوقت أني مُصانة، وأنَّ ذلك الشخص الذكي، الكيِّس كان في الواقع يعرفني. كنا نحن الاثنان منتصرَين. تغلّبنا على الكثير من المِحَنْ، وتجاوزنا كل عثرات الدهر، وعدنا إلى الوقوف على أقدامنا، وكنا نوشك على الزواج...

" وذات يوم، ذهبتُ إلى نيويورك لأرى توم، ويجب أنْ أعترف بأني وجدتُ اللقاء يبعثُ على الأسى. كان قد ازداد وزناً، وترك المدرسة ويعمل على سيارة أجرة، وعاملني بشيءٍ من النزَق، على الأقلّ في البداية. ولم ألُمه. كنتُ قد ابتعدتُ عنه مدة طويلة، فلِمَ لا يمقتني لذلك السبب ؟ لم يكن لديّ عُذر. كنتُ أتجول في أنحاء كاليفورنيا طوال الوقت، وأنحدر ببطء، ولم أتمكن من دفع نفسي إلى رفع سمّاعة الهاتف

والاتصال به. حاولتُ أنْ أبرر ذلك لنفسي، لكنَّ ذلك لم ينفعني. لكنَّ توم ظلّ أخي الأكبر، وبما أني كنتُ مُقبلة على الزواج، أردتُ منه أنْ يُرافقني على المشى ويُسلّمني له - كما فعلتَ عندما تزوجتْ أمي. فقال إنه يسرّه أنْ يفعل، وفجأةً عادتْ الأيام الخوالي، وبدأتُ أشعر بسعادة حقيقية. لقد استعدتُ أخي. كنتُ أتزوج من ديفيد، ولوسي، لوسي الصغيرة المُذهلة، ستعيش مع أمها من جديد - أمها الصغيرة البلهاء التي بدأتْ أخيراً تكبر. ماذا كان في وسعي أنْ أحصل أكثر من ذلك؟ لقد نلتُ كل ما أردتُ، خال نات. كل ما أردت...

" ثم استقللتُ الحافلة وعدتُ إلى فيلادلفيا، وعندما أخبرتُ ديفيد عن دعوة توم إلى حفل الزفاف، قال إنه أمر مستحيل، ولا يمكن أنْ يحدث. كان يُفكّر فيه طوال الوقت عندما كنتُ في نيويورك، وقد قرّر أنَّ لأخي تأثيراً سيئاً عليّ. فإذا أردتُ أنْ يتمَّ الزواج، فينبغي أنْ أقطع صِلاتي كلها مع الماضي. ليس فقط مع الأصدقاء، بل مع أفراد أسرتي كلهم أيضاً. سألته، ما هذا الذي تقوله ؟ أنا أحب أخي. إنه أفضل إنسان في العالم. لكنَّ ديفيد رفضَ مناقشة الأمر. قال، إننا سنبدأ حياةً جديدة معاً، وإذا لم أقطع كل صِلة لي بكل ما ساهمَ في إفسادي في الماضي، فسوف أنزلق في نهاية المطاف إلى العودة إلى أساليبي القديمة. والخَيار لي. إما كل شيء أو لا شيء، كما قال. إما عمل إيمان أو عمل تمرُّد. إما الحياة مع الله أو الحياة دون الله. إما زواج أو لا زواج. إما زوج أو أخ. إما ديفيد أو توم. إما مستقبل مُفعم بالأمل أو عودة بائسة إلى الماضي...

" كان ينبغي أنْ أتمسّك برأيي. كان ينبغي أنْ أقول له إنني لستُ مُقتنعة بكل ذلك الهراء، وإذا اعتقدَ أنَّ في استطاعته أنْ يتزوجني من

دون دعـوة أخي إلى حفل الزفـاف، فلن يكون هنـاك أي زفـاف - وأنهي النقاش. لكنني لم أفعل ذلك. لم أردّ الصاعَ صاعَين، وعندما تركته يُنفّذ كلامه هكذا، كانت تلك بداية النهاية. لا يمكن للإنسان أنْ يتخلّى عن السيطرة على نفسه، وإنْ كان يؤمن في الشخص الآخر، وإنْ كان يعتقد أنَّ الآخر يعرف ما هو الأفضل له. هذا ما أهلكني. كنتُ أكثر من مجرّد خائفة من فقدان ديفيد. والشيء المُخيف حقاً كان أني اعتقدتُ أنه ربما على حق. كنتُ أحب تومي، ولكن ماذا فعلتُ له غير التسبُّب بالكثير من المشاكل والصداع ؟ لعلّ من الأفضل أنْ أقطع صِلتي به وأدعه وشأنه. ربما من الأفضل له ألا يراني بعد ذلك...

" كلا، إنَّ ديفيد لم يضربني قط. لم يضرب لوسي قط، ولم يضربني. إنه ليس إنساناً عنيفاً. لعبته هي الكلام. كلام، كلام، كلام. وأيضاً المزيد من الكلام. إنه يُرهقكَ بنقاشاته، ولأنَّ صوته شديد الرقّة والعقلانية، لأنه يُحسِن جيداً التعبير عن نفسه، فإنه يقوم بما يُشبه استيعابك داخل عقله - وكأنه يُمارس عليك تنويماً مغناطيسياً. وهذا ما أنقذني في مستشفى إعادة التأهيل في بركلي. طريقته في التحدث معي، في النظر في عينيّ بذلك التعبير الحاني المرتسم على وجهه وذلك الصوت الرقيق، الثابت. من الصعب مقاومته، خال نات. إنه ينفذ إلى داخل رأسك، وبعد قليل تبدأ في الاعتقاد بأنه لا يمكن أبداً أنْ يُخطئ حول أي شيء...

" أعلمُ أنَّ توم كان قلقاً. كان يخشى أنْ أتحوَّل إلى أحد أولئك المداحل المقدسة المولودين من جديد، لكني لم أُخلَق لمثل ذلك. وظلَّ ديفيد يلحّ عليّ، لكنني اكتفيتُ بالادّعاء بأني أجاريه. إذا أراد أنْ يؤمن

بذلك الهراء - حسن، لا يهمّني. إنه يُسعده، وأنا لن أُعارض أيّ شيء يجعل أي شخص سعيداً. لقد سمعته يتحدث معك في المنزل من قبل، وما قاله كان صحيحاً. إنه لا يُحبّذ الضجيج والصخب المتطرِّف. إنه يؤمن بيسوع وبالحياة الآخرة، ولكن بالمقارنة مع بعض الأشياء التي يؤمن الآخرون بها، إنها ليست ثقيلة الوطأة. إنَّ مشكلته ليست أنه يعتقد أنَّ في استطاعته أنْ يكون قديساً. إنه يريد أنْ يُصبح مثالياً...

" إذن نعم، تردّدتُ على الكنيسة معه في أيام الآحاد. لم يكن أمامي خيار، أليس كذلك ؟ لكنَّ الأمر لم يكن سيئاً قط، على الأقلّ لم يكن كذلك في فيلادلفيا. هناك كنتُ أغني مع الجوقة الكنسيّة، وأنت تعلم كم أحب الغناء. وتلك الترانيم هي من أشدّ ما كُتِبَ من الألحان حزناً، ولكنها على الأقلّ أتاحتْ لي فرصة لتدريب رئتيّ مرةً في الأسبوع، وما دام ديفيد لا يُغالي في حشر يسوع في حنجرتي، لم أكنْ ما يمكن أن يُسمّى بالمُجنّدة التعسة. أحياناً أعتقد أنه لو أننا لم نغادر فيلادلفيا، لنجحَ كل شيء. ولكن كلانا واجه مشاكل أثناء البحث عن عمل معقول. وحصلتُ على عمل مزعج بنصف دوام كنادلة في مطعم قذر، وأفضل ما استطاع ديفيد أنْ يفعله بعد مرور أشهر من البحث هو أنْ يعمل حارساً ليلياً في بناء للمكاتب في ستريت ماركت. وحضرنا أول لقاءات نيويورك ؛ وبقينا صاحين ؛ وأحبت لوسي مدرستها ؛ وكانت والدة ديفيد مجنونة قليلاً ولكنها في العموم كانت سليمة - ولكننا لم نتمكن من كسب ما يكفي من المال في تلك المدينة. ثم حصل انفراج في كارولاينا الشمالية، وهبَّ ديفيد لانتهاز الفرصة. منظمة ترو فاليو هاردوير. بعد ذلك تحسّنت الأوضاع، ثم، قبل نحو عام ونصف، قابل ديفيد المحترم بوب، وأصبحت فجأةً أسوأ بكثير...

" كان ديفيد في السابعة من عمره عندما توفي والده. أنا لا أضع اللوم عليه، ولكن أعتقد أنه منذ ذلك الحين وهو يبحث عن والدٍ بديل. عن شخصية مرجعيّة. شخص قوي بقدرٍ كافٍ ليأخذه تحت جناحه ويقوده في رحلة الحياة. لعلَّ هذا هو السبب في انضمامه إلى سلاح البحرية بعد الانتهاء من المدرسة الثانوية بدل الالتحاق بالجامعة. كما تعلم، لقد أعجبه تلقّي الأوامر من الأب الأكبر أميركا، والأب الأكبر سوف يعتني به. وقد اعتنى به الأب الأكبر حقاً. شحنه إلى عاصفة الصحراء وسجل في ذمّته عدداً كبيراً من القتلى. أساء إليه إساءة بالغة. وانحدر ديفيد على مدى عدد من السنين وانتهى به الأمر إلى التورُّط. وأنت تعرف هذا. لقد سمعته يُخبرك عن ذلك هذا اليوم، ولكنْ ما أثار اهتمامي هو كيف انطلقَ. ليس على طريقة المُدمنين المجهولين[٢٤] في الثقة بقوة أسمى - بل بدينٍ حقيقي. إنه يتوجه إلى القمة ويُحضِر أكبر إله قاطبة. السيد إله. الإله اللعين، حاكم الكون. ومع ذلك، لعلَّ هذا ليس كافياً. تستطيع التحدث إلى إلهك وتأمل في أنْ يُصغي إليك، ولكن إذا لم تضبط ذهنك على بث شبكة إرسال الشيزوفرينيا، لن يردَّ عليك. صلِّ قدر ما تشاء، لكنكَ لن تسمع أي صوت من الأب. تستطيع أنْ تدرس كلماته في الكتاب المقدس، لكنَّ الكتاب المقدس هو مجرد كتاب، والكتب لا تتكلَّم، أليس كذلك ؟ لكنَّ المحترم بوب يتكلَّم، وحالما تبدأ بالإصغاء إليه، تعلم أنكَ عثرتَ على رجلك المناسب. إنه الأب الذي كنتَ تبحثُ عنه، أبٌ حقيقي، من لحم ودم، وكلما فتح فمه، تقتنعُ بأنه يتلقّى كلامه

٢٤ - المدمنون المجهولون : المدمنون الذين يخضعون للعلاج دون معرفة هوياتهم .

من الرب نفسه مباشرة. إنَّ الرب يتكلَّم من خلال ذلك الرجل ويأمرك بتنفيذ عملٍ ما، ويُستحسَنْ أنْ تنفّذه وإلا...

" أعتقد أنه يبلغ الخمسين وشيئاً ما من العمر. طويل القامة ونحيل، وزوجته بقرة بدينة، طويلة الأنف، اسمها دارلين. لا أعلم متى بدأ حملته عن معبد الكلمة المقدسة، لكنها ليست كنيسة عادية كتلك التي كنا نتردد عليها في فيلادلفيا. المحترم يُطلقُ على نفسه لقب مسيحي، لكنه لا يقول أبداً من أي نوع، وأنا حتى لستُ متأكدة من أنه يأبه أصلاً بالدين. إنَّ اهتمامه كله ينصبّ على التحكُّم بباقي الناس، على دفعهم للقيام بأعمال غريبة، تُدمِّرُ الذات، وجعلهم يؤمنون بأنهم يخدمون إرادة الله. أعتقد أنه فنّان مُخادع، دجّال، من أوله إلى آخره، ولكن لديه أتباعاً يُسيطر عليهم، وهم يحبّونه، كلهم يحبونه، وديفيد يحبه أكثر من أي شخص آخر. إنَّ ما يُثير حماسهم هو خروجه عليهم دائماً بأفكارٍ جديدة، وتغييره المستمر لرسالته. ففي يوم أحد يتحدث عن شرور النزعة المادية وكيف ينبغي أنْ ننبذ الممتلكات الدنيوية ونعيش في فقرٍ مقدّس كابن ربّنا العزيز. وفي يوم الأحد التالي يتحدث عن العمل الشاقّ وكيف ينبغي أنْ نكسب أكبر قدر ممكن من المال. وقد أخبرتُ ديفيد أني أعتقد أنه مجنون وأني لا أرغب في تعريض لوسي إلى المزيد من ذلك الهراء. لكنَّ ديفيد كان في ذلك الوقت قد أضحى مهتدياً حقيقياً، ورفض الإصغاء إليّ. وبعد ذلك بشهرين أو ثلاثة، قرّر المحترم بوب فجأةً منع الإنشاد في قداديس أيام الآحاد. قال، إنه يؤذي آذان الرب، وإنَّ علينا من الآن فصاعداً أنْ نعبده بصمت. بالنسبة إليّ، كانت تلك هي القشّة التي قصمتْ ظهر البعير. فأخبرتُ ديفيد بأنني ولوسي

سنتخلى عن الكنيسة. ويستطيع هو أنْ يستمر فيما هو فيه كما يشاء، أما نحن فلن نطأ عتبة ذلك المكان بعد الآن. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أعبِّر فيها عن نفسي منذ زواجنا - لكنَّ ذلك لم يفِدني بأي قدر. فقد ادّعى بأنه مُتعاطِف، ولكنَّ القوانين تقول إنَّ على أُسر الرعية كلهم أنْ يحضروا القداديس معاً في أيام الآحاد. فإذا انفصلتُ، فسوف يُحرَم كنسياً. فقلتُ، حسنٌ، أخبرهم أنني ولوسي مريضتان، وأننا مُصابتان بمرضٍ قاتل ولا نستطيع أنْ نغادر السرير. فرسمَ ديفيد لي إحدى ابتساماته الحزينة، المتنازلة. قال إنَّ المراوغة إثم. وإذا لم نقُل الحقيقة طوال الوقت، فإنَّ أرواحنا سوف تُمنع من ولوج الجنّة وتُرمى بين أنياب الجحيم...

" وهكذا واظبنا على الحضور في كل أسبوع، وبعد ذلك بنحو شهر خرج المحترم بوب علينا بفكرته الكبيرة التالية. قال إنَّ الثقافة الدنيوية تُدمّر أميركا، وأنَّ السبيل الوحيد لتفادي الدمار هو برفض كل ما تقدّمه إلينا. ومن هنا بدأ يُصدِر ما يُسمى بمراسيم أيام الآحاد. أولاً، على الجميع أنْ يتخلّصوا من أجهزة التلفزيون. ثم أجهزة الراديو. ثم الكتب - كل كتاب موجود في المنزل ما عدا الكتاب المقدّس. ثم أجهزة الهاتف. ثم أجهزة الكومبيوتر. فأقراص السي دي، والأشرطة المُسجّلة، وأجهزة التسجيل. هل تتصور هذا ؟ منع منعاً باتاً الموسيقى، يا خال نات، وقراءة الروايات، وقصائد الشِعر. ثم كان علينا أنْ نُلغي اشتراكاتنا في المجلات. ثم الصحف. ثم مُنِعنا من ارتياد دور السينما. ذلك المعتوه كان ثائراً، ولكن كلما ازدادت التضحيات التي يطلبها من الرعية، أحبّوه أكثر. وحسب عِلمي، لم تُغادر أي أسرة...

" وأخيراً، لم يبقَ هناك ما نتخلّى عنه. وأوقفَ المُحترم هجماته على الثقافة ووسائل الإعلام وبدأ يوجّه ضربات قوية على ما أسماه " قضايا الباطن ". إننا كلما تكلّمنا، أخفضنا صوت الله. وكلما أصغينا إلى كلمات البشر، أهملنا كلمات الله. وقال، من الآن فصاعداً سوف يقضي كل عضو في الكنيسة يتجاوز عمره الرابعة عشرة يوماً في الأسبوع في صمتٍ مُطبِق. بتلك الطريقة، سوف نتمكن من استعادة صِلتنا بالله، من سماعه يتكلّم داخل أرواحنا. وبعد كل تلك الأعمال الجسور التي فرضها علينا، بدا هذا مطلباً معتدلاً جداً...

" إنَّ ديفيد يعمل من الاثنين إلى الجمعة، ولهذا اختار يوم الأحد يوماً للصمت. يومي كان يوم الخميس، ولكن بما أنه لم يكن يوجد أحد في المنزل إلى أنْ تعود لوسي من المدرسة، كان في وسعي أنْ أفعل كل ما أشاء. كنتُ أغني، وأكلّمُ نفسي، وأُطلقُ السِباب على بوب المحترم العليّ القدير. ولكن حالما تعود لوسي وديفيد، كنتُ أُضطر إلى الادّعاء. كنتُ أخدمهما في صمت، وأضعُ لوسي في السرير، وأُقبِّلُ ديفيد قُبلة المساء في صمت. لم يكن ذلك صعباً. ثم، بعد مرور شهر من هذا الروتين، خطر في بال لوسي أنْ تقتدي بي. لم تكن قد تجاوزتْ التاسعة من العمر. حتى المحترم بوب لم يكن يطلب من الأطفال أنْ ينضموا إلينا، لكنَّ فتاتي الصغيرة كانت تحبني حباً جمّاً، وأرادتْ أنْ تفعل كل ما أفعل. وعلى مدى ثلاثة أيام أحد لم تنطق بحرف. ومهما توسلتُ إليها ألا تفعل، كانت ترفض أنْ ترضخ. إنها طفلة شديدة الذكاء، يا خال نات، ولكنكَ تعلم كم يمكن للأطفال أنْ يكونوا عنيدين. أنتَ نفسك نلتَ نصيبك من هذه المعاملة، فما أنْ تُصمم على شيء، يُصبح الأمر كأنكَ

تحاول أنْ تقلب بناءً لكي تدفعها إلى التنازُل عن مطلبها. والمُذهل في الأمر أنَّ ديفيد وقف إلى جانبي، لكني أعتقد أنَّ جزءاً منه كان شديد الافتخار بها لتصرّفها كالبالغين، ولم يُجبرها أو يُقنعها. على أي حال، لم يكن للأمر صلِة به. كانت له صلة بي. بي وبها. قلتُ لديفيد إنني يجب أنْ أتحدث معَ المحترم بوب. فإذا حرّرني من التزام الصمت في أيام الخميس، فقد يزيح العبء عن كاهل لوسي، وعندئذٍ سوف تعود إلى طبيعتها من جديد...

" أراد ديفيد إلى يحضر الاجتماع معي، لكني رفضتُ ذلك، كان ينبغي أنْ أرى المحترم وحدي. لكي أضمن ألا يتدخّل، وأخذتُ منه موعداً في يوم سبت، اليوم الذي لا يُسمح لديفيد بالكلام فيه. قلت، فقط أوصلني بالسيارة إلى المنزل، وانتظر في الخارج داخل السيارة. لن أغيب طويلاً...

" وكان المحترم بوب جالساً على طاولة الكتابة في غرفة المكتب، يضعُ اللمسات الأخيرة على العِظة التي من المفترض أنْ يُلقيها في صباح يوم الأحد التالي. قال، اجلسي، يا ابنتي، واخبريني عن مشكلتك. شرحتُ له مشكلة لوسي وعن السبب الذي حداني إلى الاعتقاد أنه سيقدم لنا معروفاً كبيراً إذا ما حرّرني من واجب فترات الصمت في يوم الخميس. قال، هممم، هممم. يجب أنْ أفكّر في الموضوع. سأعطيكِ قراري مع نهاية الأسبوع القادم. كان ينظر إليّ مباشرةً، وكلما تكلّم، كان جبيناه الكثّان ينتفضان قليلاً بطريقة غريبة. قلت، شكراً لك. أعتقد أنكَ رجلٌ حكيم، وأعلم أنَّ قلبك سيُلهمك بتطويع القوانين لمساعدة طفلة صغيرة. لم أكنْ أنوي أنْ أبوح له بحقيقة ما أفكر فيه. لقد كنتُ، شئتُ

أم أبيت، عضواً في رعيته اللعينة، وكان عليَّ أنْ أستمر في التمثيل وكأني أعني ما أقول. حسبتُ أنَّ الأمر انتهى عند ذلك الحد، ولكن عندما نهضتُ لأغادر، مدَّ ذراعه الأيمن وأشار إلي كي أعود إلى الجلوس. قال، لقد كنتُ أراقبك، يا امرأة، وأريد منكِ أنْ تعلمي أنكِ حصلتِ على أعلى الدرجات على الجبهات كلها. أنتِ والأخ ديفيد ماينور من بين أعمدة مجتمعنا، وأنا واثق من أني أستطيع أنْ اعتمد عليكما لتتبعاني في كل المسائل، المقدّسة منها والمُدنّسة. قلت، مُدنّسة؟ ماذا تعني ***بالمُدنّسة***؟ قال المُحترم، كما ربما تعلمين، زوجتي آرلين غير قادرة على إنجاب الأطفال. وبما أني وصلتُ إلى سنٍ معيّنة، بدأتُ أفكر في إرثي، ووجدتُ أنَّ من المأساوي أنْ أفكّر في مغادرة الأرض دون إنجاب وريث. قلت، يمكنكَ دائماً أنْ تتبنّى. قال، كلا، هذا لا يكفي، يجب أنْ أُنجب طفلاً من صُلبي، خليفة من سلالتي يُتابع العمل الذي بدأته هنا. لقد كنتُ أراقبكِ، يا امرأة، ومن بين كل أفراد الرعية وجدتكِ الأجدر بحمل بذرتي. قلت، ما هذا الذي تقول؟ أنا متزوجة من شخص آخر. وأحب زوجي. قال، نعم، أعلم هذا، ولكن إكراماً لمعبد الكلمة المقدسة، أطلبُ منكِ أنْ تطلبي الطلاق منه وتتزوجيني. قلت، ولكنكَ متزوج. وليس هناك من قانون يُبيح لك أنْ تتخذ زوجتين، أيها المحترم بوب، ولا حتى أنت. قال، كلا، طبعاً لا. لا داعي للقول بأني سأقدم بدوري دعوى طلاق. قلت، دعني أفكر في الأمر. إنَّ كل شيء يحدث بسرعة كبيرة، ولا أدري ماذا أقول. إنَّ رأسي يدور، ويداي ترتعشان، وأنا مشوّشة تماماً. قال المُحترم، لا تقلقي، يا ابنتي. خذي كل الوقت الذي تحتاجين. وفقط لكي تدركي المسرات التي تنتظرك، هناك شيء أريدك أنْ تريه.

نهضَ المحترم عن كرسيه واقفاً، ودار ليُصبح أمام طاولة المكتب، وفكّ فتحة بنطلونه. كان يقفُ أمامي مباشرةً، ولم تكن فتحة البنطلون تبتعد أكثر من قَدَمَين عن وجهي. قال، انظري إلى هذا، وأخرج قضيبه وعَرَضه عليّ. والحق أقول، كان ضخماً جداً - أضخم مما يمكن أنْ تتوقع أنْ يتدلّى من بين ساقيّ رجل هزيل مثله. لقد شاهدتُ الكثير من الرجال العرايا في حياتي، وإذا تحدثتُ فقط عن الطول والحجم، لوضعتُ قضيب المحترم في أعلى قائمة العشر الأوائل. كان قضيباً ذا حجم مُخصّص لممارسة الفحش، إذا فهمتَ ما أعني، لكنّه أبعد ما يكون عن الجاذبية في نظري. كان متصلّباً وذا لون أحمرَ قرمزياً، لكنّ الانتصاب جعل عروقه كلها تبرز، وكان وهو في امتداده الأعظمي معقوفاً أيضاً إلى اليسار. قضيب ضخم، ولكنه أيضاً مُثير للاشمئزاز، والرجل الذي يحمله كان أشدّ منه إثارة للاشمئزاز. وأعتقد أنه كان في استطاعتي أنْ اقفز وأنطلقَ هاربة من المنزل، ولكنْ في مكانٍ ما منزوٍ من خلفيّة دماغي أدركتُ أنّ ذلك القذر يُقدم لي فرصةً لا تُقدَّر بثمن، وفي مقابل بضع لحظات مُقززة للنفس، كان في استطاعتي أنْ أُحرر أسرتي كلها من بُلْهاء تلك الكنيسة...

" قال المحترم، وهو يحمل الانتصاب بيده ويهزّه في وجهي، هذه هي العَظْمة المقدّسة. لقد منحني الله هذه الهِبة المجيدة، والمقذوف الذي ينبع منه يمكنه أنْ يولد حياة الملائكة. خذيه بيديكِ، أيتها الأخت أورورا، واشعري بالنار التي تجري في عروقه. ضعيه في فمكِ وتذوّقي اللحم الذي رأى ربنا الطيب أنه جدير بأنْ يهبني الـ...

" وفعلتُ ما أراد، يا خال نات. أغمضتُ عينيّ وأقحمتُ قرن الذرة الكبير الكثير العروق ذاك في فمي، وشيئاً فشيئاً رحتُ أمصّه. كان مُقززاً. كان أنفي المسكين يحتكُّ بفتحة بنطلونه الكريهة الرائحة، وكانت أحشائي تتقلّب داخل بطني، لكنني كنتُ أعرف ما أفعل، وكنتُ سعيدة. وعندما أوشك أنْ يقذف، أخرجته من فمي وأنهيت المهمّة بيدي، وحرصتُ على جعل سائله النفيس يُلوّث بلوزتي كلها. ذلك كان دليلي، الشيء الوحيد الذي كنتُ أحتاجه لأقضي على ابن السافلة. أتذكُرُ مونيكا، وبيل ؟ أتذكُر الثوب ؟ حسن، الآن أصبح لديّ بلوزتي، وكانت جيدة كأي سلاح، كأي بندقية مشحونة...

" عندما ركبتُ السيارة، كنتُ أبكي. لا أدري إنْ كانت دموعاً حقيقية أو زائفة، لكنني كنتُ أبكي. وطلبتُ من ديفيد أنْ ينطلق بالسيارة إلى المنزل. بدا قلقاً، ولكن بما أنه لم يكن مسموحاً له أنْ يتكلّم حتى صباح اليوم التالي، لم يتمكن من طرح أي سؤال عليّ. عندئذٍ أدركتُ أنَّ الأمر يمكن أنْ يتّخذ أحد منحيين. أوشكتُ أنْ أخبره بأنَّ المحترم بوب قد اغتصبني. فإذا تكلّم ديفيد عندئذٍ، فذلك يعني أنه يهتمُّ لأمري أكثر من اهتمامه بمعبد الكلمة المقدسة اللعين. ويمكننا أنْ نسلّم البلوزة لرجال الشرطة، ويتم فحص الـ DNA، ويُحرَق المحترَم حياً. ولكن ماذا لو أنَّ ديفيد لم ينطق ؟ إنَّ ذلك قد يعني أنّه لا أهميةَ لي عنده، وأنه مُلتزم بالأب بوب العزيز حتى النهاية المريرة. ولم يكن هناك الكثير من الوقت للتصرُّف. إذا خذلني ديفيد، فسوف أُضطر إلى الكفّ عن التفكير في نفسي. كانت لوسي هي التي ينبغي إنقاذها، والسبيل الوحيد لفعل ذلك كان إخراجها من كارولاينا الشمالية. ليس غداً أو في الأسبوع التالي، بل الآن، في هذه اللحظة، على متن أول حافلة مُغادرة إلى نيويورك...

" بعد أنْ ابتعدنا مسافة مئة ياردة، أخبرته. قلت، ابن الحرام اغتصبني. انظر إلى بلوزتي، ديفيد. إنه سائل المحترم بوب. لقد ثبّتني وشلَّ حركتي. وفرضَ نفسه عليّ، ولم أكن قوية إلى درجة دفعه عني. أوقفَ ديفيد السيارة على جانب الطريق. للوهلة الأولى، حسبتُ أنه يقفُ إلى جانبي، وشعرتُ بالذنب لأني شككتُ فيه، شعرتُ بالخجل لأنني لم أرغب في وضع ثقتي فيه. مدَّ يده ولمسَ وجهي، وارتسمتْ تلك النظرة العذبة، المفعمة بالعطف في عينية، النظرة الرقيقة، الجميلة نفسها التي جعلتني أقعُ في حبه ونحن في كاليفورنيا. قلتُ في نفسي، هذا هو الرجل الذي تزوجته، وهو ما زال يُحبني. لكني كنتُ مُخطئة. ربما شعر بالأسف لأجلي، ولكن لم تكن لديه نيّة كسر صيامه عن الكلام وعصيان أمر المحترم بوب المقدّس. قلت، كلّمني، أرجوك يا ديفيد، افتح فمك وكلّمني. هزَّ رأسه رفضاً. هزّ رأسه رفضاً، وبدأتُ أبكي من جديد، وهذه المرة كانت دموعاً حقيقية...

" انطلقنا من جديد، وبعد دقيقة أو اثنتين نجحتُ في تمالُك نفسي لأخبره أننا سنرسل لوسي شمالاً إلى أخي توم في بروكلن. فإذا لم يفعل بالضبط ما طلبته منه، فسوف أحمل البلوزة إلى الشرطة، وأوجّه التهم ضد المحترم بوب، وسوف ينتهي زواجنا. سألته " أما زلتَ راغباً في الإبقاء على زواجنا ؟ هزّ ديفيد رأسه إيجاباً. قلت، حسن، إذن إليك شروطي. أولاً، نأخذ لوسي من المنزل، ثم نذهب إلى مصرف ATMفي سيتي فيدرال ونسحب مئتي دولار نقداً. ثم نتوجه إلى مركز انطلاق الحافلة ونقطع بطاقة ذهاب فقط إلى نيويورك ببطاقة ائتمانك. ثم نُعطيها المال، ونضعها في الحافلة، ونقبّلها قُبلة الوداع. هذا ما ستفعله

من أجلي. أما ما سأفعله أنا من أجلك فهو ما يلي : حالما تغادر الحافلة محطة الانطلاق، سأعطيك البلوزة بما عليها من بقع سائل بطلك، ويمكنكَ أنْ تُتلفَ الدليل وتنقذه. وسأعدكَ بأنْ أبقى معك، ولكن بشرطٍ واحد : بألا أذهب إلى تلك الكنيسة بعد الآن. وإذا حاولتَ أنْ تُعيدني إلى هناك، فسأخرج من حياتك، سأخرج منها إلى الأبد...

" لا أريد أنْ أتحدث عن وداع لوسي. إنَّ التفكير فيه يؤلمني أشدّ الألم. لقد ودّعتُها عندما التحقتُ بدورة إعادة التأهيل، لكنَّ هذا أمر آخر. شعرتُ كأنَّ نهاية العالم قد حلَّتْ، وكل ما استطعتُ أنْ أفعله هو أنْ أحضنها، وأحاول ألا أنهار، وأذكِّرها بأنْ تُخبر كل شخص بأني على ما يُرام. أنا آسفة لأنها أضاعت الرسالة التي كتبتُها لتوم. لقد شرحت الكثير في تلك الرسالة، ولابد أنَّ الأمر بدا شديد الغرابة عندما ظهرت هكذا! خالية الوفاض. وحاولتُ أيضاً أنْ أتّصلَ بتوم من محطة الانطلاق، لكنَّ الأمور جرتْ بسرعة كبيرة، وبما أنه لم يكن في حوزتي ما يكفي من القِطع النقدية، اضطررتُ إلى الاتِّصال على حِساب الطرف المقابل. ولم يكن موجوداً في المنزل، لكنني على الأقلّ علِمتُ أنه ما زال يُقيم في عنوانه القديم. لعلي كنتُ أتصَّرفُ بجنون في ذلك اليوم، ولكن بجنون كافٍ بحيث أُرسِل لوسي إلى نيويورك دون أنْ أعلم أين يُقيم توم بالضبط...

" أنا لا أفهم قصة كارولاينا كارولاينا تلك. أنا لم أطلب منها قط ألا تكشف عن مكاني. ولماذا أفعل ذلك ؟ كنتُ أرسلها إلى توم - ولم يخطر في بال أنها لن تُخبره عن وينستون-سالم. المسكينة. إنَّ ما قُلتُه لها كان : فقط قولي له إني على ما يُرام، وأنَّ أموري جيدة. كان ينبغي

أنْ أعلم. إنَّ لوسي تتلقّى الأشياء بحرفيَّتها، لعلّها اعتقدتْ أني عندما استخدمتُ كلمة ***فقط***، كنتُ أعني أنَّ ذلك هو الشيء الوحيد الذي أردتُ منها أنْ تقوله. إنها دائماً هكذا. عندما كانت في الثالثة من عمرها، كنتُ أضعها في صباح كل يوم مدة ساعتين في مدرسة حضانة. وبعد بضعة أسابيع، اتصلتْ بي المعلّمة وقالتْ إنها قلقة على لوسي. فعندما يحين موعد تناول الأطفال للحليب، كانت لوسي تتلكّأ إلى أنْ يأخذ كل طفل علبته ثم تأخذ هي حصّتها. المعلمة لم تفهم السرّ في ذلك. كانت تقول للوسي، هيا خُذي حصتكِ من الحليب، لكنَّ لوسي كانت دائماً تنتظر حتى لا يبقى غير علبة واحدة. ولم أفهم فحوى الأمر إلا بعد مدة. إنَّ لوسي لم تكن تعلم أي علبة تشكّلُ ***حصّتها من الحليب***. كانت تظن أنَّ كل الأطفال الآخرين يعرفون أيُّها حصصهم، وإذا انتظرتْ بحيث لا تبقَى إلا علبة واحدة، فإنَّ تلك هي حصّتها. أترى ما أعني، خال نات؟ إنها غريبة الأطوار قليلاً - لكنها غريبة الأطوار ذكيّة، إذا فهمتَ قصدي. لا تشبه أيَّ شخص آخر. ولو لم أستخدم كلمة ***فقط***، لعرفتَ مكاني على الفور...

" لماذا لم أتصل من جديد ؟ لأني لم أستطع. كلا، ليس لأنه لم يكن لدينا جهاز هاتف في المنزل - بل لأني وقعت في فخٍ منصوب. فقد كنتُ قد وعدتُ ديفيد بألا أتركه، لكنه لم يعُد يثق فيّ. وحالما رجعنا إلى المنزل من محطة الحافلات، أخذني إلى الطابق العلوي إلى غرفة لوسي وأوصد الباب عليّ. نعم، يا خال نات، أوصد عليّ الباب وتركني هناك طوال ذلك اليوم وتلك الليلة. وعندما عدنا إلى التخاطُب من جديد في صباح اليوم التالي، قال لي إنني يجب أنْ أعاقَبْ لأني كذبتُ بحق

المحترم بوب. كذبت ؟ قلت. ماذا يعني هذا بحق الجحيم ؟ قال إنه لم يكن هناك أي اغتصاب. وإنَّ السبب الوحيد الذي دفعني إلى الدخول إلى المنزل وحدي هو لأني كنتُ أُخططُ لإغوائه - والمسكين لم يتمكن من مقاومة أساليب غوايتي. قلت، شكراً لك يا ديفيد. شكراً لكَ لأنكَ صدّقتني وفهمتَ أيُ زوجة صالحة كنتُ لك...

" في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، قام بسدّ نوافذ الغرفة بألواح من الخشب. أعني، ما فائدة السجن إذا كان في استطاعة السجين أنْ يتسلل من النافذة، أليس كذلك ؟ ثم، وبكل لطف، نقل زوجي العزيز إلى أعلى كل الأغراض التي كنا قد وضعناها في الطابق السفلي في القبو بعد أنْ أصدر المحترم بوب مراسيم يوم الأحد. جهاز التلفزيون، والراديو، مُشغّل أقراص السي دي، والكتب. سألته، أليس ذلك ضد القوانين ؟ قال ديفيد، نعم، لكني تحدثتُ مع المُحترَم بعد القداس هذا الصباح، وقد منحنى إعفاءً خاصاً. أريد أنْ أجعل ظروفكِ مُريحة إلى أقصى الدرجات، يا أورورا. قلتُ، يا إلهي، ما سبب لطفكَ الضافي معي ؟ قال ديفيد، لأني أحبكِ. لقد قمتِ بعمل خبيث بالأمس، ولكن هذا لا يعني أني لا أحبك. ولكي يُظهِرَ نقاء ذلك الحب، عاد بعد قليل مع قدر كبير للطبخ لكي لا أبصق أو أتبرّز على الأرضِ. وقال، بالمناسبة، سوف تفرحين عندما تعلمين أنك حُرمتِ من ارتياد المعبد. أنت مطرودة، أما أنا فما أزال منتسباً. قلتُ، لقد حطّمتني. أعتقد أنَّ هذا أشد أيام حياتي حُزناً...

" لا أدري ماذا كان خطبي، لكنَّ الأمر كله بدا أشبه بنكتة، ولم أتمكن من التعامُل معه بجدّية. حسبتُ أنه سيستمر فقط مدة بضعة أيام،

ثم سأخرج. بوعدٍ أو دون وعد، لم أكنْ أنوي أنْ أبقى دقيقة واحدة أكثر مما يجب أنْ أفعل...

" لكنَّ الأيام أصبحت أسابيع، ثم تحولت الأسابيع إلى أشهر. وفهم ديفيد ما كان يدور في خلدي، ولم يكن ينوي أنْ يُحررني. كان يدعني أخرج من الغرفة عندما يعود إلى المنزل من العمل، ولكن ما مدى الفرصة التي كانت مُتاحة لي للهرب. كان دائماً يُراقبني. ولو حاولتُ الركض باتجاه الباب، فكم أستطيع أنْ أبتعد ؟ ربما مسافة دَرَجتين. إنه لأضخم مني وأقوى، وكل ما كان عليه أنْ يفعله هو أنْ يركض خلفي ويُعيدني جراً. كانت مفاتيح السيارة في جيبه، ونقوده في جيبه، والمبلغ الوحيد الذي كان في حوزتي هو حفنة من الفراطة عثرتُ عليها في أحد أدراج طاولة كتابة لوسي. ورحتُ أنتظر يحدوني الأمل، لكني لم أنجح إلا مرة واحدة في التسلل من المنزل. حدث ذلك عندما حاولتُ أنْ أتصل بتوم. أنتَ تذكر هذا، أليس كذلك ؟ وبفعلِ معجزةٍ ما، أغفى ديفيد في غرفة الجلوس بعد تناول العشاء. وكان هناك جهاز هاتف بالأجرة على مسافة ميل ونصف على الطريق، وهرعتُ إلى الشارع بأسرع ما استطعتُ. ليت كانت لدي الشجاعة الكافية لأضع يدي في جيب ديفيد وأسرق مفاتيح السيارة. لكني لم أستطع أنْ أجازف وأوقظه، لذا مشيتُ على طول ذلك الشارع على قدميّ. ويبدو أنَّ ديفيد فتح عينيه بعد مغادرتي بعشر دقائق، ولا داعي للقول إنه نزل إلى ذلك الشارع بسيارته. كانت محاولتي فاشلة. ولم يُتح لي الوقت حتى لأنهي المكالمة اللعينة...

" ها أنت الآن تعرف سبب فرط شحوب وجهي وإرهاقي. لقد أوصد الباب عليّ طوال ستة أشهر، يا خال نات. أغلقَ عليّ وكأني حيوان وأنا

في بيـتي طوال نصف عــام.. كنتُ أشــاهد التلفـزيون، وأقـرأ الكتب، وأصغي إلى الموسيقى، ولكني في الغالب كنتُ أفكر في الانتحار. وإذا كنتُ لم أفعل، فذلك لأني وعدتُ لوسي بأني سأعود من أجلها ذات يوم، وأننا ذات يوم سنعـيشُ مـعـاً من جديد. ولكن يا إلهي، لم يكن الأمـر سهلاً، لم يكن سهلاً على الإطلاق. ولو لم تأتِ بحثاً عني بعد ظهيرة ذلك اليوم، لا أعلم إلى متى كان يمكن أنْ أتحمّل. ربما كنتُ متُّ في ذلك المنزل، وحينئذٍ كان زوجي والمحترم الطيب بوب سيحملانني في قلب الليل ويرميان بجثتي إلى قبرٍ بلا شاهد "

حياة جديدة

بسبب صداقتي مع جويس كاتزوكيللي، التي كانت تملك المنزل في شارع كارول وتشترك فيه مع الأم المثالية الجميلة، وابنتها وحفيدين، استطعتُ أنْ أعثر على غرفة جديدة للإيجار من أجل أورورا ولوسي. كانت هناك غرفة شاغرة في الطابق الثالث من البناء ذي الحجر الرملي. وفي فترات زمنية سابقة كنتُ قد خدمتُ في مُحترف وورشة مُتعدّدة الأغراض لصالح جيمي جويس، ولكن الآن بعد رحيل زوج نانسي السابق فولي ووكر، سألتُ، لِمَ لم يكن في استطاعتكما أنْ تعيشا هناك ؟ لم يكن لدى روري أي نقود أو عمل، لكنني كنتُ راغباً في دفع الإيجار إلى أنْ تقف من جديد على قدميها، والآن بعد أنْ كبرت لوسي بقدرٍ كافٍ بحيث تساعد أحياناً أطفال نانسي، فقد تجري الأمور لصالح الجميع.

قالت جويس " دعكَ من الإيجار، ناثان. إنَّ نانسي في حاجة إلى مُساعد في عمل الأحجار الكريمة، وإذا لم يكن لدى أورورا مانع في مساعدتها في أعمال التنظيف والطبخ، تستطيع أنْ تحصل على غرفة مجاناً "

جويس العزيزة الطيبة. حينئذٍ كنا قد أمضينا معاً ما يُقارب الستة أشهر ونحن نلهو معاً، وعلى الرغم من أننا كنا نعيش في مكانين

منفصلَين، كان نادراً ما يمر أسبوع دون أنْ نقضي على الأقلّ ليلتين أو ثلاث معاً في سرير واحد - سريرها أو سريري، حسب المزاج والظروف. كانت أصغر مني بسنتين، مما جعلها عجوزاً متحرّرة، ولكنها وهي في سن الثامنة والخمسين، أو التاسعة والخمسين، كانت لا تزال تتمتع بقدر من الحيوية بحيث تجعل الأمور مُثيرة للاهتمام.

الجنس بين الكبار في السن يمكن أنْ تكون له لحظات من الحرج وفترات هزلية مملة، ولكن هناك أيضاً رقة غالباً ما يفتقدها الشبّان. قد يرتخي ثدياكِ، وقد يتدلّى قضيبكَ، لكنَّ بشرتك تبقى هي نفسها، وعندما تمدّ امرأة تُحبّها يدها وتلمسك، أو تضمك بين ذراعيها، أو تُقبّلك على فمك، فإنكَ تبقى قادراً على الذوبان كما كنتَ تفعل عندما كنتَ تعتقد أنكَ ستعيش إلى الأبد. لم نكن أنا وجويس قد وصلنا إلى شتاء حياتنا بعد، لكنَّ الربيع كان دون أدنى شك قد أصبحَ وراءنا. ما كنا فيه معاً هو بعد ظهيرة في منتصف تشرين أول، في واحد من أيام الخريف البرّاقة تلك التي تُخيِّمُ عليها سماء زرقاء تضجُّ بالحياة، ويهبُّ فيها هواء قارص، وما تزال مليون ورقة شجر متشبّثة بالأغصان - مُعظمها بُنيّ اللون، ولكن ما زال عليها قدر كافٍ من الألوان الذهبية والحمراء والصفراء لتجعلك ترغب في البقاء خارج المنزل أطول مدة ممكنة.

كلا، لم تكن بمثل جمال ابنتها، واعتماداً على الصور الفوتوغرافية المُبكّرة التي رأيتها لها، لم تكن جميلة قط. إنَّ جويس تنسب مظهر نانسي إلى زوجها المتوفى، توني، وكان مقاول بناء توفي متأثراً بنوبة قلبية في عام ١٩٩٣ . ذات يوم قالت لي " لقد كان أشد مَنْ قابلت من

الرجال وسامةً. نسخة طبق الأصل عن فيكتور ماتشور[٣٥] "، بلكنة أهل بروكلن القوية، خرج نُطق اسم الممثل من فمها وكأنه ***فيكتا ماتشواه***، وكأنَّ حرف الراء ضمر إلى درجةِ حذفه من الأبجدية الإنكليزية. لقد أحببتُ ذلك الصوت، الفجّ، البروليتاري. كان يجعلني أشعر بالأمان معها، وكان، كباقي سِماتها، يُنبئكَ بأنَّ هذه امرأةٌ لا تعرف الادّعاء، امرأةٌ تؤمنُ بمَنْ هي وما هي عليه. لقد كانت، قبل أي شيء، أمّ ***الأم المثالية الجميلة***، وكيف يمكن لها أنْ تُنشئ فتاةً كنانسي إذا لم تكن تعرف ما الذي تفعله ؟

على السطح، لم يكن بيننا أي قاسم مُشتَرَك. خلفيّتانا الاجتماعيتان كانتا مختلفتين كلياً (كاثوليكية من المدينة، ويهودي من الضواحي)، واهتماماتنا تتباين من النواحي كلها تقريباً. فجويس لم يكن لها جَلَد على قراءة الكتب وكانت منقطعة بصرامة عن عالم الكتب، في حين كنتُ أنأى بنفسي عن كل نشاط جسدي، وأكافح لألزم السكون بوصفه ذروة الحياة الطيبة. بالنسبة إلى جويس، التدريب البدني أكثر من مجرّد أداء واجب، كان متعة، وكان نشاطها المفضّل في عطلة نهاية الأسبوع هو الاستيقاظ عند الساعة السادسة من صباح يوم الأحد وامتطاء دراجتها خلال حديقة بروسبكت العامة. وكانت ما تزال تعمل، وكنتُ متقاعداً. كانت متفائلة، وكنتُ ساخراً. كانت سعيدة في زواجها، أما زواجي - ولكن كفى حديثاً عن هذا. لم تكن تولي الأخبار العامة أي اهتمام، وكنتُ أقرأ الصحيفة بعناية في كل يوم. وعندما كنا أطفالاً،

---

٣٥ - فيكتور ماتشور ، ممثل أميركي ، كان معروفاً في خمسينيات وستينيات القرن الماضي - بالمناسبة ، كان شديد القُبح ! - المترجم

كـانت تشـجع فـريق دودجرز، وكنتُ أشـجّع الجـاينتس. كـانت تحب أكل السـمك والمعكرونة، وكنتُ أحبّ اللحم والبطاطا. ومع ذلك - وأي شيء أشدّ غـموضـاً في الحيـاة الإنسانـيـة من عـبارة ***مع ذلك*** هذه ؟ - نجحت عـلاقتنا كـاثنين من رجال الأمن. شعرتُ بـانجذابٍ فـوريّ في صباح اليـوم الذي تمّ التـعـارف بيننا (كنتُ في الجادة السابعـة مع نانسي)، ولم أُدرك أنه ربما تـكون بيننا شـرارة حب إلا بعـدمـا تبـادلنا حـديثنا الطويل الأول أثناء جنازة هاري. وفي نوبة حيـاء، تجنّبتُ الاتـصال بهـا، ولكن ذات يوم من الأسبوع التـالي دعـتني إلى منزلها لتناول طعـام العشـاء، وهكذا بدأ الغزل.

هل أحببتُها ؟ نعم، لعلّي أحببتُها. إلى درجةِ أنني كنتُ قـادراً على حب أي شـخص. لقد خُلِقَتْ جـويس لتكون لي، كـانت المُرشّحة الوحـيـدة على قائمتي. وحتى لو لَم يكن ذلك ***حبّاً*** كاملاً، ومشـبوباً مئة في المئة، فـقـد كـان شيـئـاً أقلّ من ذلك بقليل - لكنه شـديد القُـرب من ذلك إلى درجة انتفاء الفرق. كانت تُضحكني كثيراً، وهو شيء يدّعي خبراء الطب أنه جيد لصحة المرء العـقلية والبدنيـة. وكانت تتسـامح مع نقـاط ضعـفي وتناقضاتي، وتتـحمّل أسوأ مخاوفي، وتحافظ على هدوئها أثناء حملات لومي الصـاخـبـة واللاذعـة للحـزب الجـمـهـوري والـ CIA، ورودولف جيـوليـاني[٣٦]. كـانت تُداعـبني بـولائـهـا المتطرّف لفريق مـيـتـز، وتُدهشني بمعرفـتها الموسوعـية لأفلام هوليـوود القديمة وبموهبتـها في التعرُّف إلى كل ممثل صغير ومنسيّ يمرّ سريعاً على الشـاشة. ***(انظر، ناثان، هذا فرانكلين***

---

٣٦ - رودولف جيولياني (مولود عام ١٩٤٤) : عمدة مدينة نيويورك السـابق ، بين عاميّ ١٩٩٤ و ٢٠٠١ . - المترجم

بانغبورن... وهذه أونا مركل... وهذا سي. أوبري سميث). كانت تُثير إعجابي بشجاعتها لسماحها لي بأنْ أقرأ لها مقاطع من "***كتاب الحُمق الإنساني***"، ثم، بجهلها الحسن النيّة، كانت تُعامل حكاياتي التافهة كأنها أدب من النوع الرفيع. نعم، أحببتُها إلى أقصى ما سمح به القانون (قانوني طبيعتي)، ولكن هل كنتُ مُستعداً للاستقرار وتمضية ما تبقّى لي من حياة معها ؟ هل كنتُ أرغب في أنْ أراها كل يوم من أيام الأسبوع ؟ هل كنتُ مجنوناً بقدر كافٍ بها بحيث أطرح السؤال الأكبر ؟ لم أكنْ متأكداً. فبعد الكارثة الطويلة الأمد مع ذي الاسم المحذوف، كنتُ متردّداً بصورة مفهومة في القيام بتجربة زواج أخرى. لكنَّ جويس كانت امرأة، وبما أنّه يبدو أنَّ الغالبية العُظمى من النساء تُفضّلُ الزواج على العزوبة، تصوّرتُ أني قادر على أنْ أُبرهن لها أني إنسان عملي. وفي واحدة من أحلك لحظات عمري - بعد يومين من معاناة راشيل من حالة إجهاض، وبعد أربعة أيام من خوض بوش الانتخابات بصورة غير شرعية، وبعد اثني عشر يوماً من نجاح هنري بيبلز في فتح موضوع اختفاء أورورا - انهرتُ وفعلتُها. وكم كانت دهشتي وذهولي عندما قوبل عرضي للزواج بأصوات الاستهجان وبالضحك الأجش. قالت جويس " أوه، ناثان، لا تكن أحمق. إننا على أحسن ما يُرام كما نحن. لماذا نعكّر صفونا ونُثير المشاكل لأنفسنا ؟ الزواج للشبّان، للأولاد الذين يرغبون في إنجاب الأطفال. لقد سبق أنْ فعلنا ذلك. نحن حرّان. نستطيع أنْ نعبث معاً كزوجٍ من المراهقين، ولن أحبل أبداً. فقط صفّر، يا صاحبي، ويُصبح تبعي الإيطالي الكبير مُلكك، أوكيه ؟ أنتَ تحصل على تبعي، وأنا أحصل على تبعك اليهودي الذي تعرف ما هو. أنتَ أول عشيق

يهودي أعرفه، يا ناثان، والآن بما أنّك رسوت على عتبة بابي، لن أتخلّى عنك. أنا لكَ، يا حبيبي. ولكن انسَ أمر الزواج. لم أعُد أرغب في أنْ أكون زوجة، والحقيقة هي، يا رجلي الحبيب، المُضحك، أنكَ ستكون زوجاً فظيعاً..."

على الرغم من تلك الكلمات القاسية، بعد ذلك بلحظة بدأتْ تبكي - فجأةً انهارتْ. فقدتْ السيطرة على مشاعرها للمرة الأولى منذ أنْ عرفتها. حسبتُ أنها كانت تفكّرُ في زوجها الراحل توني، مُتذكّرةً الرجل الذي قالت له نعم عندما لم تكن إلا فتاة صغيرة، الزوج الذي فقدَته ولم يكن يتجاوز التاسعة والخمسين من العمر، حبّ حياتها. كان يمكن أنْ ذلك هو السبب، ولكن ما قالته لي كان شيئاً مختلفاً تماماً. " لا تظن أني لا أُقدِّر منكَ هذا، يا ناثان. أنتَ أفضل ما حدث لي منذ زمن بعيد، والآن هذا، الآن تعرض عليّ هذا. لن أنسى هذا أبداً، يا ملاكي. عجوزاً مثلي تتلقّى عرضاً للزواج. لا أقصد أنْ أثرثر، ولكن يا سلام، يا سلام أوه يا سلام، إنَّ معرفتي أنكَ تهتم بأمري إلى هذه الدرجة يصعقني وأنا هنا في بيتي "

أراحني أنْ أعلم أني أثّرتُ فيها إلى درجة إفراز تلك الدموع. وهذا يعني أنه كان هناك شيء صلب بيننا، رِباط لن ينفصم في وقتٍ قريب. ولكني أيضاً يجب أنْ أعترف بأني ارتحت لأنَّ جويس رفضَتْ عرضي. لقد قمتُ بخطوتي الكبرى، ولكن بكل صدق كنتُ متردّداً، وكانت هي تعرفني جيداً إلى درجة أنْ تُدرك أني نعم كنتُ سأصبحُ زوجاً رديئاً جداً، ولم يكن أي منا مستعداً للزواج. وهكذا، وهنا أنقل كلمات الدكتور

بانغْلوسْ الخالد، انتهى الأمر إلى الأفضل - وللمرة الأولى في حياتي، كان يجب أنْ أحصل على كعكتي وآكلها أيضاً.

* * *

جفَّفَتْ جويس دموعها، وبعد ذلك بأسبوعَين كانت أورورا ولوسي يعيشان في منزلها. كان ترتيباً معقولاً لكل مَنْ يهمّه الأمر، ولكن حتى لو كان المنطق يستدعي أنْ يلتئم شمل الأم والابنة، يجب ألا ننسى كم كان صعباً على توم وهني أنْ يتخليا عن وديعتهما الغضّة. لقد كانا عندئذ يعتنيان بلوسي منذ أشهر، ومع تقدُّم الزمن أصبح الثلاثة أسرة صغيرة متقاربة ومتضامنة. وعندما تخلّيتُ عنها لهما في الصيف السابق شعرت بوخز مُشابه من الألم، ولم تكن قد عاشتْ معي أكثر من بضعة أسابيع. وعندما فكّرتُ في الأشهر الخمسة والنصف التي أمضتها معهما، لم يسعني إلا أنْ أتعاطف معهما - مهما كانت سعادتنا جميعاً باستقرار أورورا بسلام في بروكلن. قلت لتوم، في محاولةٍ لأفلسف المسألة، " يجب أنْ تعيشَ مع أمها. لكنَّ جزءاً من لوسي ما زال ينتمي إلينا، إلى كلٍ منا. إنها ابنتنا، أيضاً، ولا شيء سيغيِّر هذا الأمر "

على الرغم من صعوبة فراقها، إلا أنَّ خوضهما عالم الأمومة أقنعَ توم وهني بأنهما يرغبان في إنجاب أطفال من صُلبهما. في ذلك الوقت كانا مُنهمكَين بالعديد من الهموم العملية - يتفاوضان بشأن بيع بناء هاري، ويفتشان عن شقّة جديدة، يُقدمان طلبات من أجل الحصول على وظيفة في مجال التعليم في أرجاء المدينة - ولكن حالما تمَّ إنجاز تلك الشؤون اليومية تركت هني سمّاعة الهاتف وانغمسَ الاثنان في عملهما الليلي في محاولة لبدء تكوين أسرة. وفي شهر آذار من عام ٢٠٠١

انتقلا إلى مخزن تعاوني في الشارع الثالث بين الجادة السادسة والسابعة : وهو مكان مُهوّى، يغمره الضوء يقعُ في الطابق الرابع، في مقدّمته غرفة جلوس فسيحة، ومطبخ وغرفة طعام في المنتصف، مع رواق ضيِّق يؤدي إلى ثلاث غرف نوم في الخلف (حوّلَ توم أحدها إلى غرفة مكتب). وفي الوقت الذي أسسا منزلاً في تلك الشقّة، كان مخزن برايتمن أتيك قد أصبحَ أثراً بعد عين. وبناءً على أحد شروط إتمام بيع البناء، أصرَّ المُشتري على إزالة الكتب من المكان، مما اضطُرَّ توم إلى قضاء مدة هستيرية من الزمن في بداية العام في تصفيّة كامل مخزون تجارة هاري القديمة. بيعت الكتب ذات الغلاف الورقي مقابل خمسة سنتات وعشرة سنتات، وذات الغلاف المقوّى بيع كل ثلاثة بدولار، والمجلدات التي لم تجد لها مُشترٍ حتى شهر شباط شُحِنَتْ إلى المستشفيات، والجمعيات الخيرية، ومكتبات السفن التجارية. وقد ساعدتُه في تلك المهام الكئيبة، وفي الوقت الذي جلبتْ الكتب النادرة والطبعات الأولى مبلغاً ضخماً من المال (حتى الأسعار المتدنية جداً قبلها توم لكي ينقل المجموعة كلها إلى تاجر واحد في غريت بارينغتُن، ماساتشوستس)، لم يكن ممتعاً المُساهمة في تدمير إمبراطورية هاري - ولاسيما عندما علِمتُ بما يُخطط المالك الجديد لفعله بعد أنْ يُصبح المكان خالياً. فقد أفسحت الكتبُ المجالَ لصناديقِ أحذيةِ النساء والحقائب، والطوابق الثلاثة العليا حُوِّلَتْ إلى مخازن تعاونية باهظة الأسعار. ومجال العقارات هو الديانة الرسمية لنيويورك، وإلهها يرتدي بذلة رمادية اللون ومُخطّطة ويُعرَف باسم مال، السيد أريد- المزيد- فالمزيد- من المال. وإذا كان هناك من عزاء لي في ذلك التحوُّل الكئيب للأحداث،

فهو معرفتي أنَّ توم وروفوس لن يكونا في حالة عوز بعد الآن. وللمرة المئتين منذ وفاته، عادتْ أفكاري إلى هاري - إلى غوصه الرشيق في العَظَمَة الأبدية.

ذات أمسية يوم خميس في أوائل شهر حزيران، أعلنَتْ هني أنها حامل. غمرها توم بذراعيه، ثم مال عبر مائدة العشاء وسألني إنْ كنتُ أوافق على أنْ أكون عرّابه. قال " أنتَ خيارنا الوحيد. من أجل الخدمات التي قدّمتها، يا ناثان، فوق نداء الواجب وأبعد منه ؛ من أجل شجاعتك في خضم المعركة ؛ من أجل المجازفة بحياتك لإنقاذ رفيقك الجريح تحت وابل من الرصاص ؛ من أجل حثّك لذلك الرفيق نفسه على الوقوف على قدميه من جديد والدخول في تجربة الزواج هذه. اعترافاً بهذه الأعمال البطولية، ومن أجل خير ذريتنا القادمة، تستحق أنْ تحمل لقباً أكثر مُلائمةً من لقب الخال الأكبر. لذلك، أخلعُ عليك لقب عرّاب - إذا تنازلتَ وقبلتَ توسلنا المتواضع كي تحمل ذلك العبء على كاهلك. ما هو جوابك، سيدي الطيب؟ إننا ننظر ردّكَ بقلوب خفّاقة ". كان الجواب نعم. نعم تبعتها سلسلة طويلة من الكلمات المُغَمغَمة، لا أتذكّر منها أيَّ شيء الآن. ثم رفعتُ كأسي لهما، وامتلأتْ عيناي بدموع لا تفسير لها.

بعد ذلك بثلاثة أيام، وصلت راشيل مع تيرانس من نيو جرسي لتناول طعام يوم الأحد في شقتي. ساعدتني جويس في إعداد وليمة، وأثناء جلوسنا نحن الأربعة في الحديقة الخلفية نأكل خبز البيغل[٢٧] والسلمون المُدخّن، لاحظتُ أنَّ ابنتي بدت أجمل وأشد سعادة من أي وقت خلال الأشهر السابقة. لقد شكّلَ إجهاضها في فصل الخريف خيبة أمل

٢٧ - خبز البيغل : خبز خاص يصنعه اليهود ويأكلونه .

قـاسيـة، ومنذ ذلك الحين وهي في وضعٍ قلق - تغطّي على حزنها ببـذل جهدٍ شاق في عـملها، تطبخ وجبات تنم عن ذوق ورهافة لتيرانس لتُبرهن على أنـهـا تسـتـحق لقب زوجـة على الرغـم من فـشلهـا في حـمـل طفل، وتُرهقُ نفسـهـا في كل ما تـعمل. ولكـن في ذلك اليـوم في الحديقة، عـاد البريق القديم يشعّ من جديد في عينيها، وعلى الرغم من أنها في المعتاد تتصرّف بتحفُّظ ضمن الجماعة، إلا أنها حافظتْ على وضعها في الحديث الرباعي، وتحـدثتْ بقدر مـا تحدث كلٌ منا. وعند نقطة مـعـيّنة، اسـتـأذنَ تيرانس في الذهاب إلى الحمّام في الداخل، وبعـد لحظة اندفـعتْ جويس إلى المطبخ لتُحضِر إبريقاً جديداً من القهـوة. وبقيتُ مع راشيـل وحدنا. قبّلتُها على وجنتـها وأخبرتُها كم تبدو جميـلة، فأجابتْ على المديح بقُبلة منهـا ثم أمـالتْ رأسـهـا عـلى كـتـفي. قـالت " أنا حـامل من جـديد. لقـد أجريتُ الفحص هذا الصباح، وكانت النتيجة إيجابية. هناك طفل ينمو داخلي، يا أبي، وهذه المرة سوف يعيش. أعِدك. سوف أجعل منكَ جداً، حتى ولو اضطررتُ إلى البقاء في السـرير طوال الأشهر السبعة التالية "

للمرة الثانية في أقلّ من اثنتين وسبعين ساعة، امتلأت عيناي فجأةً بالدموع.

كـانت النسـاء الحـوامـل يزددنَ عـدداً من حـولي، وكنتُ أتحـوّل أنا نفسي إلى ما يُشبه المرأة : إلى شـخص يبكي لمجرّد ذِكـر الأطفال، إلى أحمق بكّاء في حاجة إلى أنْ يتنقّل مع صندوقٍ من مناديل الطوارئ لكي لا يُحرِج نفسه أمام الملأ. لعلّ المنزل الكائن في شارع كارول يُلام جزئياً من أجل تلك الهفوات من اللباقة الرجوليّة. وقد أمضيتُ وقتاً طويلاً

هناك، والآن بعد أنْ استبُدلَ زوج نانسي بأورورا ولوسي، أصبح جو المنزل العام أنثوياً محضاً. العضو الذكري الوحيد فيه كان سام، ابن نانسي ذا السنوات الثلاث، ولكن بما أنه يكاد لا يُحسِن الكلام، فإنَّ تأثيره على ما يجري فيه محدود جداً. وفيما عدا ذلك، الباقي كلهن إناث، ثلاثة أجيال من الإناث، جويس على القمة، ونانسي وأورور في الوسط، ولوسي ذات العشر سنوات وديفون ذو السنوات الخمس في الأسفل. وداخل المنزل كان أشبه بمُتحفٍ حيّ من المصنوعات الأنثوية، مع صالات عرض مُخصصة لعرض ملابس النساء الداخلية، مُجففات بالهواء، وسدادات قطنية، وقوارير مساحيق التجميل وأصابع أحمر الشفاه، ودُمى وحِبال للقفز، قمصان نوم، ودبابيس شَعر، لفافات تجعيد الشَعر وكريم للوجه وأحذية لا تُعد ولا تُحصى. والدخول إلى هناك كان أشبه بزيارة بلد أجنبي، ولكن بما أني كنتُ أعشق كل مَنْ عاش في ذلك المنزل، كان المكان الوحيد على الأرض الذي فضّلته على أي مكان آخر.

خلال الأشهر التي تلت هروب أورورا من كارولاينا الشمالية، حدث عدد من الأمور الغريبة في منزل جويس. فلأنَّ الباب كان دائماً مفتوحاً في وجهي، كنتُ في موقع يؤهلني أنْ أراقب تلك المآسي عن قُرب، وقد راقبتُ وأنا في حالة من التعجُّب والدهشة. فمع لوسي، مثلاً، كل الرهانات تخسر فجأةً، وأثناء إقامتها مع توم وهني، كنتُ متوجساً، أتوقع حدوث المشاكل في أي لحظة. فهي لم تكن فقط تُهدد بأنْ تُصبح "أسوأ، وأخسّ، وألعن فتاة صغيرة في خليقة الله أجمعين"، بل بدا لي حتمياً أنَّ غياب أمها المتواصل سوف يُرهقها في نهاية المطاف، سوف يُحوّلها إلى طفلة ناقمة، غاضبة، كئيبة. ولكن كلا. لقد كافحتْ في تلك

الشقة الكائنة فوق مخزن هاري القديم، واستمرَّ تكيُّفها مع مُحيطها الجديد بوتيرةٍ رائعة. وفي الوقت الذي أعدتُ روري معي إلى بروكلن، كانت لكنة لوسي الجنوبية قد زالتْ، وكانت قد أصبحت أطول قامة على الأقلّ بمقدار أربع أو خمس بوصات، وكانت من أفضل تلميذات صفّها. نعم، كانت غالباً ما تبكي ليلاً طلباً لأمها، أما الآن وقد عادتْ أمها، يمكن افتراض أنَّ فتاتنا شعرتْ أنَّ الله استجاب إلى صلواتها. كلا مرة أخرى. كان هناك دفقٌ مبكّر من السعادة فور التئام الشمل مباشرةً، ولكن بعد قليل ظهرت على السطح أمارات الامتعاض والعِداء، ومع نهاية الشهر الأول من التئام شملهما، تحوّلت طفلتنا الذكية، الحيوية، ذات الأجوبة البارعة، إلى مخلوق مزعج بامتياز. أبوابٌ تُصفع؛ والطلبات المؤدَّبة تُقابَل بسخرية بغيضة؛ وصراخ مُثير للشجار يتردّد صداه من الطابق الثالث، وعواصف تتحول إلى دموع؛ وكلمات ***كلا، وحمقاء، واخرسي، واهتمي بشأنك***، أضحتْ جزءاً لا يتجزّأ من السياق اليومي. سلوك لوسي مع الجميع لم يتغيَّر. أمها وحدها كانت عُرضةً لتلك الإهانات، ومرّ الوقت، وازدادت قسوة باطّراد.

على الرغم من أنَّ أثر ذلك السلوك على أوروروا الهشّة كانَ مُدمِّراً، إلا أني بدأتُ أراه كتطهيرٍ لازم، كدلالةٍ على أنَّ لوسي تحارب بقوة لتحافظ على حياتها. لم تكن قضية الحب مطروحة. لقد أحبّت لوسي أمها، لكنَّ تلك الأم المحبوبة ذاتها هي التي رمتْ بها إلى إحدى الحافلات في عصر يومٍ مجنون، محموم، وأرسلتها إلى نيويورك، وعلى مدى الستة أشهر التالية كانت الفتاة منبوذة. فكيف يمكن لمخلوق صغير مثلها أنْ يستوعب مثل ذلك التحوّل المُرِيك للأحداث دون أنْ يشعر جزئياً

على الأقلّ أنه مُلام ؟ فما الذي يدعو الأم إلى التخلُّص من طفلها إلا إذا كان الطفل سيئاً، مخلوقاً لا يستحق حبَّ الأم ؟ لقد أصابت الأم، دون قصدٍ منها، روح ابنتها بجرح، وكيف يمكن للجرح أنْ يلتئم إذا لم تصرخ الابنة بأعلى ما في استطاعتها وتُعلن للعالم أجمع : أنا أتألّم ؛ لم أعُدْ أقوى على التحمُّل : أنجدوني ؟ لو أنَّ لوسي لزمت السكوت، لأصبح المنزل أشد سكوناً. لكنَّ كبتَ ذلك الصراخ كان يمكن أنْ يُسبّب لها مشاكل لا حصر لها على المدى الطويل. كان لابد لها أنْ تُطلقه. لم تكن هناك طريقة أخرى لإيقاف النزف.

حاولتُ أنْ أتردَّد على أورورا قدر استطاعتي، ولاسيما خلال تلك الأشهر الأولى والصعبة، عندما كانت ما تزال تجاهد لتُحدِّد اتجاهها. كانت أحداث كارولاينا الشمالية المرعبة قد تركت آثارها عليها إلى الأبد، وعرِفَ كلانا أنها لن تبرأ منها أبداً، وأنه مهما بلغ نجاحها في التلاؤم في المستقبل فسوف يُلازمها الماضي دائماً. وعرضتُ أنْ أدفع لها تكاليف جلسات معالجة نفسية إذا رأتْ أنَّ ذلك سيساعدها، لكنها رفضتْ، وفضّلتْ أنْ تكتفي بالتحدُّث معي. أنا. الممتلئ بالمرارة، المنعزل، الذي زحفَ إلى منزله في بروكلن قبل أقلّ من عام، المُستنزَف الذي أقنعَ نفسه بأنه لم يعُد هناك ما يعيشُ من أجله - أنا الأحمق، ناثان الأبله، الذي لم يجد ما يفعله أفضل من أنْ ينتظر بهدوء أنْ ينهار ويموت، تحوّلَ الآن إلى شخصٍ واثق من نفسه، مواسٍ، وعاشقٍ لأرامل شهوانيات، فارس جوّال أنقذَ الآنسات الحزانى. لقد فضَّلتْ أورورا أنْ تتحدث معي لأنني الذي ذهبَ إلى كارولاينا الشمالية وأنقذها، وحتى لو كنا متباعدَين على مدى سنين عديدة قبل عصر ذلك اليوم، إلا أني

كنتُ ما أزال خالها، أخو أمها الوحيد، وكانت متأكدة من أنَّ في وسعها أنْ تثقَ فيّ. وهكذا أخذنا نتردّد معاً لتناول طعام الغداء مراتٍ عدة في الأسبوع ونتبادل الأحاديث، نحن الاثنان فقط، نجلس إلى طاولة خلفية في مطعم نيو بيوريتي في الجادة السابعة، وشيئاً فشيئاً أصبحنا صديقَين، والآن بعد أنْ عاد طفلا جون كلاهما إلى حياته، بدا وكأنَّ أختي الطفلة عادتْ إلى الحياة داخلي من جديد، ولأنها كانت الشبح الذي لا يني يسكنني، أصبحَ طفلاها الآن طفليّ.

الشيء الوحيد الذي لم تشترك فيه أورورا قط مع أمها، أو أخيها، أو أي فردٍ آخر من أفراد الأسرة كان اسم والد لوسي. كانت عندئذٍ قد حافظتْ على ذلك السرّ طوال سنين عديدة، فقد بدا من العُقم طرح الموضوع بعد ذلك، ولكن أثناء تناولنا إحدى وجبات الغداء في أوائل شهر نيسان، ودون إلحاحٍ مني، خرج منها الجواب مُصادفةً.

بدأ الأمر كله عندما سألتُها إذا كانت ما تزال تحمل وشمها. تركتْ روري شوكتها، وافترّ ثغرها عن ابتسامةٍ عريضة، وقالت "كيفَ عرِفتَ هذا؟"

"توم أخبرني. صقر كبير على كتفك، صح؟ لقد تساءلنا إنْ كنتِ قد أزلتِه، لكنَّ لوسي رفضَتْ أنْ تخبرنا"

"إنه ما زال هناك. كبير وجميل كما كان دائماً"

"ألم يعترض ديفيد على ذلك؟"

"ليس بالضبط. لقد رأى فيه رمزاً لماضيَّ الفاسد وطلبَ مني أنْ أتخلّصَ منه. كنتُ أود أنْ أجاريه، ولكن اتّضحَ أنَّ التكاليف باهظة جداً. وعندما أدركَ أننا لا نستطيع أنْ ندفعها، تبدّلَ تعبير وجه ديفيد ١٨٠

درجة. وهذا يُعطيكَ فكرة واضحة عن أسلوبه في التفكير، عن سبب عدم قدرتي قط على الخروج فائزاً من جدالٍ معه. قال، لعلَّ هذا خير. سوف نترك الوشم حيث هو، وكلما نظرنا إليه، سوف نتذكَّر كم ابتعدنا عن أيام شبابكِ السوداء. هذا تصرُّفٌ نموذجيّ من ديفيد : أيام شبابكِ السوداء. قال إنها ستكون بمثابة تميمة أحملها على بشرتي، وسوف تحميني من مزيدٍ من الأذى والآلام. تميمة. لم أكنْ أعلمُ بالضبط ماذا تعني، فبحثتُ عن شرح معناها في القاموس. هي سحر لطرد الأرواح الشريرة. أوكيه، فهمتُ هذا. إنها لم تُفِدني كثيراً عندما كنتُ مع ديفيد، ولكن لعلّها ستفيدني الآن "

" أنا سعيد لأنكِ ما زلتِ تحتفظين به. لا أدري لماذا أنا سعيد، لكني كذلك "

" أنا أيضاً. كأني مُرتبطة بذلك الشيء التافه. لقد ضربته في إيست فيليج قبل أحد عشر عاماً. احتفاءً بحملي بلوسي. في صباح ذلك اليوم نفسه أخبرتني الممرضة في المستشفى إنَّ نتيجة الفحص إيجابية، فخرجتُ مسرعة لكي أضرب وشمي "

" طريقة غريبة للاحتفال، أليس كذلك؟ "

" أنا فتاة غريبة الأطوار، خال نات. ولعل تلك كانت أشد فترات حياتي غرابة في أطوارها. كنتُ أستأجر شقة كالجُحر في أعلى جادة سي مع شابّين، بيلي وغريغ. كان بيلي يعزف على الغيتار، وغريغ يعزف على الكمان، وأنا أغني. لم نكن سيئين كثيراً، في الحقيقة، نظراً إلى سننا الصغير. كنا في معظم الوقت نعزف في حديقة واشنطن سكوير. أو في محطة ساحة تايمز للقطار النفقي. كنتُ أحب الأصداء التي كانت

تتـــردَّد في تلك الأروقـــة تحت الأرض، أغني أغنيـــاتي بقـــوة والناس يُسقِطون قطعهم النقدية ودولاراتهم في علبة كمان غريغ. أحيـاناً كنتُ أغني وأنا ثملة تماماً، فيُناديني بيلي بفتـاته الفلوزي، ووزي، أوزي. وأحياناً كنتُ أغني وأنا متزنة، فيُخاطبني غريغ بملكة كوكب إكس. يا إلهي. كم كانت أوقات طيبة، يا خال نات. عندما لا نتمكّن من كسب ما يكفي من عزف موسيقانا، كنتُ أذهب إلى مخازن الأطعمة وأسرق منها. كانوا يُسمونني **فوسديك**[٣٨] **التي لا تخاف**. كنتُ أتنقّل بين ممرات السوبرماركات، أحشر شرائح اللحم والدجاج تحت معطفي. لا شيء كان جدياً حينئذٍ. في أحد الأسابيع أقع في حب غريغ. وفي الأسبوع التالي أقعُ في حب بيلي. كنتُ أضاجعُ كليهما، ثم حصل الحمل. ولم أعرف قط مَنْ كان الوالد، ولمّا لم يرغب أيٌ منهما في أنْ يكون الوالد، طردتُ الاثنين "

" إذن لهذا السبب لم تُخبري جون بالأمر. لم تكوني تعلمين "

" اللعنة. لا أصدق كم كنتُ بلهاء. اللعنة، اللعنة، اللعنة. وأقسمتُ على ألا أُخبر أحداً، وها أنا ذي الآن أفعل "

" لا يهم، يا روري. إنَّ غريغ وبيلي مجرّد اسمَين بالنسبة إليّ. لا تضيفي كلمة أخرى إذا لم ترغبي في ذلك "

" غريغ مات من جرعة كبيرة من المخدر بعد مولد لوسي بعامَين. أما بيلي فكأنه اختفى. لا أعلم ماذا حدث له. قال لي أحدهم ذات مرة إنه عاد إلى وطنه، وأنهى دراسته الجامعية، ويُعلّم الموسيقى في إحدى

---

٣٨ – فوسيك : هي تحوير لكلمة بالإنكليزية تعني المُنقّب عن الذهب ، والتحوير هنا يعني المُنقّب عن الطعام . – المترجم

المدارس الثانوية في الغرب الأوسط. ولكن مَنْ يدري إنْ كان هو نفسه بيلي فينش ؟ قد يكون شخصاً آخر "

حتى بعد وصولها إلى بروكلن، كان ما يزال بعيداً عن اليقين إنْ كان ذلك هو آخر عهد أورورا في رؤية ديفيد ماينور. لقد كان اسمي وعنواني مُدونَين في دليل الهاتف، ولم يكن صعباً عليه أنْ يقتفي أثرها من خلالي. وانكمشتُ خوفاً من التفكير في مواجهة أخرى مع ذلك القذر الذي يعتقد أنه أقوَمْ أخلاقاً من الآخرين، لكني احتفظتُ بمخاوفي لنفسي ولم أفُه بكلمة لروري. لقد كان ماينور يُشكّل موضوعاً مؤلماً لها، ولم تكن تقوى على التحدُّث عنه، ولم أرغب في إثارة أي مخاوف جديدة تزيد من المشاكل التي تعاني منها أصلاً. ومع مرور الأشهر، بدأتُ أشعر بمزيد من الأمل، لكني لم أتمكن في نهاية المطاف من الكفّ عن القلق وإيجاد حلٍ للمسألة حتى أواخر شهر حزيران. فقد ظهر مُغلّف في صندوق بريدي ذات صباح، ولأني فشلتُ في الانتباه إلى أنَّ الرسالة لم تكن موجَّهة إلى ناثان غلاس بل إلى أورورا وود عبر ناثان غلاس، فتحتها قبل أنْ أدرك غلطتي. باختصار، كانت الملاحظة المُرفَقَة والمُدوّنة بخط اليد تقول :

عزيزتي،

هكذا أفضل.

حظاً موفقاً – وأدعو الله دائماً

أنْ يرأفَ بكِ.

ديفيد

كانت الملاحظة مُثبّتة إلى وثيقة من سبع صفحات، اتّضحَ أنها حكم قضائي بالطلاق صادر عن مكتب سينت كلير كاونتي في ولاية ألاباما، يفصمُ علاقة الزواج بين ديفيد ويلكوكس ماينور وأورورا وود ماينور على أساس الهجر.

على مائدة غداء ذلك اليوم قدّمتُ اعتذاري لروري لأني فتحتُ بريدها، ثم سلّمتها الرسالة.

سألتْ " ما هذه ؟ "

قلت " رسالة من زوجك السابق، مُرفقة بعدد من الأوراق الرسميّة "

" زوجي السابق ؟ ما معنى هذا ؟ "

" افتحيها وستعرفين "

بينما كنتُ أراقبها وهي تقرأ الرسالة وتستعرض الوثيقة، صُدِمتُ من قِلّة التغيير الذي طرأ على تعبير وجهها. اعتقدتُ أنها ستبتسم، أو ربما حتى تضحك بصوتٍ عالٍ مرةً أو مرّتين، لكنَّ وجهها لم يُسجّل أي شيء. فقط ومضاً خفيفاً لشعور مُبهمٍ دفين، ولكن كان مستحيلاً معرفة كنهه.

أخيراً قالت " حسن، أعتقد أننا انتهينا "

" أنتِ حرّة، روري. إذا أردتِ، تستطيعين أنْ تتزوجي شخصاً آخر غداً "

" لن أدع أبداً أي رجل آخر يلمسني حتى آخر حياتي "

" هذا ما تقولينه الآن. في النهاية، سوف يأتي رجل جديد، وسوف تبدئين في التفكير في الزواج من جديد "

" كلا، أنا جادّة، ناثان. إنَّ ذلك الجزء من حياتي انتهى واندثر.

عندما أوصد ديفيد الباب عليّ في تلك الغرفة، قلتُ لنفسي : كفى، لن أقع فريسة الرجال بعد الآن. لم يأتني منهم أي خير. ولن يأتي أبداً "

" لقد نسيتِ لوسي "

" حسن، نسيت شيئاً واحداً. لقد حصلت على طفل، ولا أريد طفلاً آخر "

" هل كل شيء على ما يُرام ؟ يبدو لي أنكِ تقسين كثيراً على نفسك "

" أنا على ما يُرام. لم أكن قط أفضل حالاً "

" أنتِ هنا منذ ستة أشهر. تُقيمين في منزل جويس، وتعملين لصالح نانسي، وتعتنين بابنتك، ولكن ربما حان الوقت لتفكري في الخطوة التالية. تعلمين ما أقصد، ابدئي بوضع خطط "

" أي نوعٍ من الخطط ؟ "

" ليس أنا مَنْ سيقول. أي شيءٍ تشائين "

" لكني أحب الأشياء كما هي "

" ماذا عن الغناء ؟ ألا ترغبين في العودة إليه ؟ "

" أحياناً. ولكن لا أريد الاحتراف.لا أمانع في أنْ أقوم بعروض في عطل نهاية الأسبوع في الجوار، ولكن دون سفر، ولا طموحات عريضة. الأمر لا يستأهل"

" هل أنتِ سعيدة بصناعة الحلي ؟ هل تكفي لإرضائك؟ "

" بل أكثر من كافية. يجب أنْ أكون مع نانسي في كل يوم، وأي عمل أفضل لذلك من هذا ؟ ليس هناك شبيه لها في العالم أجمع. أنا أحبها من كل قلبي "

" كلنا نحبّها "

" كلا، أنتَ لا تفهم. أعني، أنا **حقاً** أحبّها. وهي تبادلني الحب "

" طبعاً تحبك. إنَّ نانسي من أشدّ مَنْ عرفت من الناس حنواً "

" أنتَ ما تزال لا تفهم. ما أحاول أنْ أقوله هو أننا نرتبط **بعلاقة حب**. نانسي وأنا عشيقتان "

" .... "

" ليتكَ ترى وجهك، يا خال نات. تبدو وكأنكَ ابتلعتَ آلة كاتبة "

" أنا آسف. أنا فقط لم أكنْ أعلم. لقد رأيتُ أنكما على وئامٍ تام. رأيتُ أنكما تتبادلان الإعجاب، ولكن... لكني لم أدرِك أنَّ الأمر ذهب إلى أبعد من ذلك. منذ متى وأنتما هكذا ؟ "

" منذ شهر آذار. بدأ بعد انتقالي إلى هنا بثلاثة أشهر تقريباً "

" لماذا لم تُخبريني من قبل ؟ "

" خفتُ أنْ تُخبرَ جويس. ونانسي لا تريدها أنْ تعرف. إنها تعتقد أنَّ أمها سوف تغضب "

" فلماذا تُخبرينني الآن ؟ "

" لأنني قرّرتُ أنَّ في استطاعتكَ أنْ تحفظ السر. لا أظنكَ ستخذلني، أليس كذلك ؟ "

" كلا، لن أخذلك. إذا كنتِ لا ترغبين لجويس أنْ تعلم، فلن أقول لها "

" ألم أُخيِّب أملك ؟ "

" طبعاً لا. إذا كنتِ ونانسي سعيدتين، فسيكون هذا مصدر مزيد من القوة لك "

" هناك الكثير من القواسم المشاركة بيننا ، في الواقع. كأننا أختان، وتفكيرنا متناغم. نحن دائماً نعرف بماذا تفكر الأخرى وتشعر. كانت صِلتي بالرجال دائماً شفوية - نتكلم، نشرح، نتجادل، ونثرثر طوال الوقت. أما معها ، فيكفي أنْ أنظر إليها ، وتعرف ما الذي يجري داخلي. لم يحدث لي مثل هذا مع أي شخص آخر من قبل. نانسي تسمّي ذلك رِباطاً سحرياً - ولكن أنا أسمّيه ببساطة حباً ، نقياً وصافياً. من النوع الحقيقي "

"تماماً كما حدث لتوني"

حافظتُ على وعدي ولم أقلْ أيَّ شيء لجويس، لكنَّ حِفظَ السرِّ كان لحماية نفسي بقدر ما كان لمساعدة الفتاتين. فإذا اكتشفت جويس الحقيقة، عندما تكتشفها، لم أكن أعلم كيف ستكون ردّة فعلها. توقعت ألا تكون هادئة، وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ النتيجة الممكنة لغضبها عندئذٍ هي أنَّ تبحث عمَّنْ تضع عليه اللوم. ومَنْ خير مِن خال أورورا كي تُلبِسه دور الرجل المنحطّ، المتسكّع، الأخرق الذي تشاحنَ مع ابنة أخته المضطربة عقلياً، الفاسدة، فارتمت في قلب منزل آل ماتزوكيللي، وعلى الأثر تمَّ التآمر على تحويل البريئة نانسي إلى سُحاقيّة متحمسة، ملتهبة؟ تخيّلتُ أنْ تعمد جويس إلى طرد روري ولوسي من المنزل، وسوف أصبح في منزل الأسرة الْملوَّث في موقع الْمدافِع عن ابنة أختي، التي ستكون السبب في اغتراب جويس عني وسيؤدي بها في النهاية إلى طردي أنا أيضاً. كنا قد أمضينا معاً عندئذٍ مدة عام، ويعلمُ الله أنَّ ذلك كان آخر ما أردتُ أنْ يحدث.

وذات يوم أحد دافئ، هادئ، قُبيل نهاية العطلة الصيفية، انضمّتْ إليّ في الشقّة لقضاء أمسية في مشاهدة فيلم سينمائيّ وتناول طعام

تايلندي. وبعد أنْ طلبنا ما نريد بالهاتف من المطعم، التفتتْ إليّ وقالت: " لن تُصدِّق بماذا كانتا منهمكتين"

سألتُ "عمَّن نتحدث هنا ؟ "

" عن نانسي وأورورا "

" لا أدري. بصُنع الحليّ. بالعناية بالأطفال. الأمر الاعتيادي "

" كانتا تتضاجعان، يا ناثان. إنَّ بينهما علاقة "

" كيفَ عرفتِ؟ "

" ضبطتهما. لقد مكثتُ هنا ليلة الخميس، أتذكُر ؟ نهضتُ باكراً في صباح اليوم التالي، وبدل أنْ أتوجه مباشرةً إلى العمل، رجعتُ إلى المنزل لأبدِّل ثوبي. كان من المفترض أنْ يأتي السبّاك عصر ذلك اليوم، فارتقيتُ إلى الطابق العلوي لأذكِّر نانسي بالموعد. فتحتُ باب غرفة نومها، فإذا هما هناك، الاثنتان في السرير عريانتان مستلقيتان على الأغطية، مستغرقتان في النوم ومتعانقتان "

" وهل أفاقتا ؟ "

" كلا. أغلقتُ بأشد ما استطعت من هدوء، ثم هبطتُ الدرج على أطراف أصابع قدميّ. ماذا سأفعل ؟ أنا منهارة، وأشعر كأني أحزُّ رسغيّ. مسكين توني. للمرة الأولى منذ أنْ رحل عني، أشعر أني سعيدة لأنه مات. سعيدة لأنه ليس موجوداً ليرى هذا... هذا ***الشيء الفظيع***. كان ذلك جديراً بأنْ يُحطم قلبه. ابنته هو تُضاجع امرأةً أخرى. إنني كلما فكّرت في الأمر أشعر برغبة في التقيُّؤ "

" ليس في اليد عمل أي شيء، يا جويس. نانسي امرأة ناضجة، وفي استطاعتها أنْ تُضاجع مَنْ تشاء. الأمر نفسه ينطبق على أورورا. إنَّ كلتيهما مرّتا في أوقاتٍ عصيبة. كلتاهما انهار زواجهما، وكلتاهما تشعران ربما بشيء من التقززٌ من الرجال. هذا لا يعني أنهما شاذتان، ولا يعني أنه سيدوم إلى الأبد. إذا استطاعت كل منهما أنْ تجد العزاء عند الأخرى في تلك الأثناء، فأين الخطأ؟ "

" الخطأ يكمن في أنَّ الأمر يُثير الاشمئزاز وغير طبيعي. لا أفهم سبب برودة أعصابك حيال ذلك، يا ناثان. حقاً لا أفهم. وكأنكَ حتى لا تأبه "

" لا يمكننا التدخُّل في مشاعر الناس. مَنْ أنا حتى أقول لهما إنهما على خطأ؟"

" تبدو وكأنك ناشط للدفاع عن حقوق الشاذين جنسياً. قريباً ستبلغني أنكَ تُقيم علاقات جنسية مع رجال"

" أفضّل أنْ أقطع ذراعي الأيمن على أنْ أضاجعَ رجلاً "

" إذن ما سبب دفاعك عن نانسي وأورورا؟ "

" لأنهما ليستا أنا، هذا أولاً. ولأنهما نساء "

" وماذا يعني هذا؟ "

" لستُ متأكداً. إنني شديد الانجذاب إلى النساء، وأعتقد أنَّ في استطاعتي أنْ أفهم السبب الذي يدعو امرأة إلى الانجذاب إلى امرأة أخرى "

" أنتَ قذر، يا ناثان. هذا يُثيرك، أليس كذلك؟ "

" أنا لم أقُل هذا "

" أهذا ما تفعله عندما تكون وحدك ؟ تجلس هنا ليلاً وتشاهد أفلام إباحية سُحاقية؟ "

" هممم. أنا لم أفكر في ذلك قط. لعله شيء ممتع أكثر من تدوين حكاياتي السخيفة "

" لا تمزح. أنا أكاد أنهار عصبياً، وأنتَ تمزح "

" لأنّه ليس من شأنك، هذا هو السبب "

" نانسي هي ابنتي... "

" وروري ابنة أختي. ماذا في هذا ؟ إنهما لا تخصّاننا. إنهما عندنا بالإعارة "

" ماذا سأفعل، يا ناثان؟ "

" تستطيعين أنْ تتظاهري بأنكِ لا تعرفين أي شيء عن الأمر وتتركيهما في سلام. أو تستطيعين أنْ تمنحيهما بركتك. لستِ مُضطرة إلى أنْ تحبي ذلك، ولكن ليس أمامك غير هذين الخيارَين "

" أستطيع أنْ أطردهما من المنزل، ألا أستطيع ؟ "

" نعم، أعتقد أنكِ تستطيعين. ثم ستندمين على ذلك في كل يوم من أيام حياتك الباقية. لا تتمادي يا جويس. حاولي أنْ تجاري. ابقي رأسك مرفوعاً. لا تقبلي الزيف. صوّتي بديموقراطيّة كلما انتخبتِ. امتطي دراجتكِ في الحديقة العامة. احلمي بجسدي المثالي، الرائع. تناولي فيتاميناتك. اشربي ثمانية كؤوس من الماء يومياً. شجّعي فريق الميتز. شاهدي الكثير من الأفلام السينمائية. لا ترهقي نفسك في

العمل. قومي برحلة معي إلى باريس. تعالي إلى المستشفى عندما تضع راشيل مولودها واحملي حفيدي بين ذراعيك. نظّفي أسنانك بالفرشاة بعد كل وجبة. لا تجتازي الشارع والإشارة الحمراء مُضاءة. دافعي عن الضعيف. ودافعي عن نفسك. تذكّري كم أنتِ جميلة. تذكّري كم أحبّكِ. اشربي كأساً من الويسكي مع قطع الثلج كل يوم. تنفّسي بعمق. أبقي عينيك مفتوحتين. تجنّبي الأطعمة الدسمة. نامي نوم المُنصفين. تذكّري كم أحبكِ "

كان رد فعلها على النبأ كما توقّعت بصورة أو بأخرى، ولكن على الأقلّ لم تُحمّلني مسؤولية أفعال روري، وهو كل ما كان يُقلقني عندئذٍ. شعرتُ بالأسف لأنها فتحتْ ذلك الباب، ولأنَّ الحقائق تكشّفتْ لها بطريقة صاعقة، لا تُمحى، ولكنها في نهاية المطاف سوف تُضطر إلى تقبُّلْ الوضع، شاءتْ أم أبتْ. وجاءت الوجبة، وكففنا فترة وجيزة تالية من الوقت عن الكلام عن نانسي وأورورا وانكببنا على طعامنا. وأذكُر أنني شعرت بجوعٍ استثنائي في تلك الليلة، والتهمتُ المُشهيات ثم القريدس الحار مع الحبق خلال بضع دقائق. ثم أدرنا جهاز التلفزيون وباشرنا مشاهدة فيلماً عنوانه " ***مرافقو العربات*** "، وهو فيلم ويسترن من إنتاج عام ١٩٥٥ من بطولة جويل ماكريه. وفي موقعٍ ما منه، كان رعاة البقر جالسين حول نار مُخيَّم يتسامرون، والأكبر سناً بينهم (قام بدوره جيمس ويتمور، أعتقد) قال جملةً أطلقَت قهقهة عالية مني. قال " إنني أتلذّذ بالتقدُّم في العمر. إنه يُخلّصني من إزعاج العيش ". قبّلتُ جويس على وجنتها وهمستُ " ذلك الأحمق لا يعرف ماذا يقول ". وللمرة الأولى

في تلك الليلة، ضحكتْ حبيبتي التعسة، التي كانت ما تزال منزعجة، أيضاً.

بعد أنْ أطلقتْ جويس تلك الضحكة بعشر دقائق، كانت حياتي تُشرفُ على نهايتها. كنا جالسين على الصوفا نشاهد الفيلم، وفجأةً شعرتُ بألمٍ في صدري. في أول الأمر، حسبته حرقة في المعدة، إمساك سبّبه الطعام الذي أكلناه، لكنَّ الألم ازداد، وانتشر عبر الجزء العلوي من جسمي وكأنَّ النار أُضرِمَتْ في أحشائي، وكأنَّني ابتلعتُ ملءَ غالون من الرصاص المُذاب الحارّ، وسرعان ما أصبحت ذراعي اليسرى خدِرة واستشعرتُ وخزاً في فكّي كوخز ألف دبوسٍ خفيّ. وكنتُ قد قرأت ما يكفي عن نوبات القلب بحيث أعرف أنَّ تلك هي أعراضها التقليدية، وبما أنَّ الألم كان يتفاقم، ويستفحل إلى مراحل من الشِدّة لا تُحتَمل أكثر فأكثر، تخيَّلتُ أنَّ ساعتي قد حانت. حاولتُ أنْ أنهضَ واقفاً ولكن بعد أنْ مشيتُ خطوتين شعرت بالخور وبدأتُ أنهار على الأرض. كنتُ أتشبّث بصدري بكلتيّ يدي، وأكافحُ لألتقط أنفاسي، وكانت جويس تضمني بين ذراعيها، وتنظر أسفلاً إلى وجهي وتطلب مني أنْ أصمد. وسمعتُ كأنما عن بُعد مَنْ يقول " أوه، يا إلهي. أوه، يا إلهي، تماماً كما حدث لتوني "، ثم لم أعد أراها، وسمعتها تصرخ منادية أحدهم، وتأمره بإرسال سيارة إسعاف إلى الشارع الأول. المذهل في الأمر أني لم أكن فزعاً. كانت النوبة قد حملتني إلى منطقة أخرى، وهناك لم تعُد لمسألة الحياة والموت أي أهمية. أنتَ فقط تَقبَل. فقط تأخذ ما يُعطى لك، وإذا كان الموت هو ما أُعطيَ لي في تلك الليلة، كنتُ مستعداً لقبوله.

وعندما رفعني الممرضون إلى سيارة الإسعاف، لاحظتُ أنَّ جويس كانت هناك من جديد، واقفة بجواري والدموع تسيل على وجهها. وإذا أسعفتني الذاكرة، أعتقد أني نجحتُ في الابتسام لها. قالت " لا تَمُتْ وتتركني، يا حبيبي. أرجوك، ناثان، لا تَمُتْ وتتركني ". ثم أُغلِقَت الأبواب، وفي اللحظة التالية غبتُ عن الوعي.

إلهام

لم أمُتْ. وكما اتّضحَ، لم أُصَبْ حتى بنوبة قلبية. كان سبب أزمتي التهاب المريء، ولكنْ لا أحد علمَ بهذا في حينه، وطوال باقي الليلة والنهار التالي بأكمله، واقتنعتُ بأَنّ حياتي قد انتهتْ.

نقلني الإسعاف إلى المستشفى المنهجي عند الشارع السادس والجادة السابعة، ولأنَّ أسرّة الطوابق الممتازة كانت حينئذٍ ممتلئة كلها، وضعوني في إحدى الغرف الصغيرة المُخصّصة لمرضى القلب في غرفة الطوارئ في الأسفل. كانت تفصلني عن الطاولة الرئيسة ستارة رقيقة (عندما تتذكر الممرضات أنْ تسدلها)، وفيما عدا زيارة مُبكّرة لوحدة أشعة إكس في الرواق، كل ما فعلته هو الاستلقاء على سريرٍ ضيِّق طوال فترة مكوثي هناك. كان قلبي موصول بمرقاب للقلب، وبوجود إبرة وريدية مغروزة في ذراعي وأنابيب أوكسيجين بلاستيكية مُقحَمة في منخريّ، لم يكن أمامي إلا أنْ أبقى مُمدداً على ظهري. كان الدم يُؤخذ مني كل أربعٍ وعشرين ساعة. لو أنَّه حصل انسداد تاجيّ، لخرجت من القلب قطع صغيرة من الأنسجة المُخرّبة وتسرّبت إلى مجرى الدم، ولكانت تلك القطع أخيراً بدأتْ تظهر في نتائج الفحص. وشرحت إحدى الممرضات الأمر بقولها ستمر أربع وعشرون ساعة قبل أنْ يتأكدوا. في تلك الأثناء، كان

عليّ أنْ استلقي هناك وأنتظر، وحدي مع خوفي وخيالي المريض بينما دمي يحكي بالتدريج حكاية ما حدث لي وما لم يحدث.

ظلَّ الممرضون يُدخلون مرضى جُدُداً، ومروا من أمامي واحداً إثر آخر مع نوبات الصرع والانسداد المعوي، وطعنات الخناجر وجرعات المخدرات الزائدة، والأذرع المكسورة والرؤوس الدامية. وأصوات تنادي، وهواتف ترن، وعربات الطعام تقرقع على الأرض. هذه الأشياء كانت تحدث على مسافة لا تبعد أكثر من طول جسد من أطراف أصابع قدميّ، ومع ذلك وعلى الرغم من كل الأثر الذي تركته عليّ، كان يمكن أنها تحدث في عالمٍ آخر. لا أعتقد أني كنتُ أقلّ إحساساً بما يُحيط بي، وأشد انغلاقاً داخل نفسي، وغياباً، مني في تلك الليلة. لا شيء بدا لي حقيقياً غير جسدي، وبينما كنتُ مستلقياً هناك أتمرّغُ في ضعفي، ركّزتُ انتباهي على محاولة تخيُّل دوائر العروق والأوردة المتقاطعة في أسفل صدري، الشبكة الداخلية الكثيفة من السوائل والدم. كنتُ هناك مع نفسي، أتغلغلُ بما يُشبه اليأس المذعور، لكني أيضاً كنتُ بعيداً، أطفو فوق السرير، فوق السقف، فوق سطح المستشفى. أعلمُ أنَّ هذا الكلام لا معنى له، لكنَّ الاستلقاء داخل ذلك السجن الضيِّق مع الآلات التي تُصدر أصوات والأسلاك المُثبَّتة إلى جِلدي كان أقرب شيء إلى وجودي في العَدَم، إلى كوني داخل نفسي وخارجها في وقتٍ واحد.

هذا ما يحدث لكَ عندما تستقر في المستشفى. ينزعون عنك ملابسك، ويُلبسونكَ إحدى تلك الأردية المُهينة، وفجأةً تكفّ عن كونك نفسك. تُصبحُ الشخص الذي يسكن جسدك، وما أنتَ عليه الآن هو المُجمل العام لأعمال ذلك الجسد الفاشلة. إنَّ الانحطاط هكذا يعني أنْ

تخسر كل حقٍ لك في الخصوصية. وعندما يأتي الأطباء والممرضات ليطرحوا عليك الأسئلة، عليك أنْ تُجيب عنها. إنهم يريدونك حياً، والشخص الذي لا يريد أنْ يعيش فقط يُعطيهم أجوبة زائفة. وإذا تصادفَ أنْ كنتَ في غرفة ضيّقة، وعلى بُعد ثلاثة أقدام إلى يمينك هناك شخص آخر يستجوبه طبيب وممرضة، لا يسعكَ إلا أنْ تسترق السمع إلى ما يقوله ذلك الشخص. وهذا لا يعني بالضرورة أنكَ ترغب في معرفة الأجوبة، لكنكَ تجد نفسك في موقع يستحيل عليك فيه ألا تسمعها. هكذا تعرّفتُ إلى عمر حاسم علي، رجل في الثالثة والخمسين من عمره، مصري المولد ويعمل سائق سيارة أجرة، له زوجة وأربعة أولاد، وستة أحفاد. دخل الغرفة الصغيرة بُعيد الساعة الواحدة والنصف صباحاً إثر مُعاناته آلاماً في الصدر أثناء توصيله أحد الزبائن عبر جسر بروكلن. وفي غضون دقائق، علمتُ أنه تناول أقراصاً لعلاج ارتفاع ضغط الدم، وأنه لا يزال يُدخّن علبةَ في اليوم ويُحاولُ أنْ يُقلل الكميّة، وأنه يُعاني من البواسير ومن نوبات متقطعة من الدوار، وأنه يعيش في أميركا منذ عام ١٩٨٠ . وبعد مغادرة الطبيب، دار بيني وبين عمر حاسم علي حديث ودّي مدة ساعة. لم يكن يهمني أننا غريبان. فعندما يعتقد المرء أنه يوشك أن يموت، فإنه يتحدث مع أي شخص يرغب في الإصغاء.

في تلك الليلة لم أنم إلا قليلاً - إغفاءتين مدة كلٍ منهما عشر إلى خمس عشرة دقيقة - ولكن بعد الفجر بساعة أو نحوها، استغرقت في النوم بهدوء. عند الساعة الثامنة جاءت ممرضة لكي تقيس درجة حرارتي، وعندما نظرتُ إلى يميني، وجدتُ أنَّ سرير رفيقي في الغرفة فارغ. سألتها ماذا حدث للسيد حاسم علي، قالت إنها لا تستطيع أنْ تُجيبني، لأنَّ نوبتها كانت قد حان موعدها، ولا تعلم أي شيء عنه.

كل أربع ساعات، كانت نتائج اختبارات الدم تعود سلبية. وجاءتني زيارات صباحية من جويس، وتوم وهني، ومن أورورا ونانسي - ولكن لم يكن يُسمح لأحد بالمكوث أكثر من بضع دقائق. وفي أوائل فترة العصر ظهرتْ راشيل أيضاً. وكلهم بدؤوا بطرح السؤال نفسه - **كيف تشعر؟** - وأعطيتهم جميعاً الجواب نفسه : جيد، جيد، جيد، لا تقلق بشأني. كان الألم عندئذٍ قد تلاشى، وبدأتُ أشعر بثقة أكبر بشأنْ فُرصي في الخروج من هناك سليماً مُعافى. قلت : أنا لم أتغلّب على السرطان لكي أموت من إصابة بلهاء بانسداد الشريان التاجي. لقد كانت حالة سخيفة، ولكن مع انصرام النهار وتوالي نتائج فحص الدم السلبية، تشبّثتُ بذلك بوصفهِ برهاناً منطقياً على أنَّ الآلهة قرّرت أنْ تُبقي على حياتي، وأنَّ نوبة الليلة الفائتة لم تكن أكثر من استعراض لقدرتها على التحكُّم بقَدَري. نعم، كان يمكن أنْ أموت في أي لحظة - ونعم، كنتُ متأكداً من أني أشرف على الموت وأنا بين ذراعي جويس على أرضية غرفة الجلوس. وإذا كان هناك من درسٍ مُستفاد من ذلك التماس مع الموت، فقد كان أنَّ حياتي، بالمعنى الأضيق للكلمة، لم تعُد ملكي. كان يكفي أنْ أتذكّر الألم الذي مزّقني خلال حِصار النار الرهيب حتى أفهم أنَّ كل نَفَس ملأ رئتيّ كان هِبة من الآلهة المتقلّبة الأمزجة، وأنه من الآن فصاعداً كل نبضة من نبضات قلبي سوف تُمنح لي عبر عفوٍ عام عشوائي.

بحلول الساعة العاشرة والنصف، شَغَلَ السرير الخالي رودني غرانت، عامل فوق السطح في التاسعة والثلاثين من العمر أغمى عليه أثناء ارتقائه مطلعاً من الدَرَج في وقتٍ مُبكّر من صباح ذلك اليوم.

استدعى زملاؤه من العمال الإسعاف، وها هو في رداء المستشفى السقيم، رجل أسود ضخم الجثة والعضلات، يحمل وجه طفل، يبدو عليه الخوف الشديد حتى الموت. بعد استجوابه من قِبَل الطبيب، التفتَ نحوي وقال إنه شديد اللهفة إلى تدخين سيجارة. فهل أعتقد أنه سيتورط في مشكلة إذا ذهبَ إلى المرحاض ودخَّنَ سيجارة ؟ قلت، لن تعرف حتى تجرّب. فذهب، بعد أنْ تحرّر مما يربطه بمرقاب القلب وجاراً معه أنبوب الإبرة الوريدية خلال الرواق. وعندما عاد بعد بضع دقائق، ابتسم لي وقال " أُنجزت المهمة ". وعند الساعة الثانية، أزاحت الممرضة الستارة وأبلغته أنه نُقِلَ إلى وحدة النوبات القلبية في الأعلى. ولما لم يكن قد أُغمي عليه من قبل، ولم تكن قد ظهرت عليه أي أعراض مرض أشدّ من الجُدري وحالة معتدلة من حمى القش، ارتبكَ الشاب. قالت الممرضة " يبدو الأمر خطيراً جداً، سيد غرانت. أنا أعرف أنكَ تشعر بتحسُّن الآن، لكنَّ بحاجة إلى إجراء بعض الفحوصات "

تمنيتُ له التوفيق عندما غادر، ثم أصبحتُ وحدي من جديد في الغرفة الصغيرة. وفكّرتُ في عمر حاسم علي، وحاولتُ أنْ أتذكَّر أسماء تشكيلة أولاده، وتساءلتُ إنْ كان قد نُقِلَ بدوره إلى الطابق العلوي. كان افتراضاً معقولاً، ولكن عندما نظرتُ إلى السرير الصغير الفارغ إلى يميني، لم يسعني إلا أنْ أتخيَّل أنه قد مات. لم يكن هناك أي دليل يؤكد تلك الفرضيّة، أما الآن بعد أنْ اقتيدَ رودني غرانت إلى مستقبله غير المضمون، بدا السرير الخالي كأنه مسكون بقوة إلغاء غامضة، تمحو الرجال الذين يستلقون عليه وتقتادهم إلى عالم الظلام والنسيان. كان السرير الخالي يوحي بالموت، سواء أكان ذلك الموت حقيقياً أم وهمياً،

وبينما أنا أتأمّل في تضمينات الفكرة، تملّكتني تدريجياً فكرة أخرى، غطّتْ على كل الأفكار حول كل شيء آخر. وفي الوقت الذي تبيَّنت وجِهتي، فهمتُ أني خرجتُ بالفكرة الوحيدة الأشد أهمية حصلتُ عليها، فكرة كبيرة بما يكفي لتُبقيني منشغلاً طوال ساعات النهار وحتى آخر حياتي.

لقد كنتُ نكرة. وروودني غرانت نكرة. وعمر حاسم علي نكرة. وخافيير رودريغيث - النجّار المتقاعد ذو الثمانية والسبعين عاماً الذي احتلَّ السرير عند الساعة الرابعة - كان نكرة. في نهاية المطاف، كلنا سنموت، وعندما تُحمل جثثنا وتُدفن في الأرض، لن يعرف برحيلنا إلا أصدقاؤنا وأسرنا. لن يُعلَن عن موتنا في الإذاعة والتلفزيون. لن يُنشر نعينا في النيويورك تايمز. لن تُؤلَّف كتبٌ عنا. فهذا شرفٌ مُخصص لذوي السلطان والشهرة، لذوي المواهب الخارقة، ولكن مَنْ سيزعج نفسه بنشر سيرة حياة الناس العاديين، المغمورين، الكادحين، الذين نمرُّ بهم في الشارع ونكاد لا نلاحظ وجودهم ؟

معظم الحيوات تتلاشى. يموت شخص، وشيئاً فشيئاً يختفي كل أثر لتلك الحياة. ويبقى مُخترع حياً من خلال مخترعاته، ويبقى المهندس المعماري حياً من خلال أبنيته، لكنَّ معظم الناس لا يتركون وراءهم نُصُباً تذكارية أو إنجازات خالدة : بل رفاً من ألبومات الصور الفوتوغرافية، أو تقريراً مدرسياً عن الصف الخامس، أو جائزة في لعبة البولينغ، أو منفضة سجائر سُرِقَتْ من غرفة في فندق فلوريدا في صباح اليوم الأخير من إجازة تكاد لا تُذكَر. بضعة أغراض، بضع وثائق، وانطباعات متفرقة عن أناسٍ آخرين. أولئك الناس لا يكفّون عن نسج الحكايات عن

الشخص الميتْ، ولكن في الغالب تُخلَط التواريخ، وتُسقَط الحقائق، وتتشوّه الحقيقة باطّراد، وعندما يموت أولئك الناس بدورهم، تختفي معظم تلك القصص معهم.

كانت فكرتي هي : تكوين شركة تنشر كتباً عن المنسيين، من أجل إنقاذ القصص والحقائق والوثائق قبل أنْ تختفي - وصياغتها على صورة رواية متواصلة، رواية حياة إنسان.

سيُكلَّف الأصدقاء والأقرباء ذوو الصِلة بكتابة السِيَر، وسوف تُطبع الكتب بطبعات صغيرة الحجم، خاصة - ما بين خمسين إلى ثلاثمئة أو أربعمئة نسخة. وتخيّلتُ نفسي أؤلف الكتب بنفسي، ولكن إذا أصبحَ الطلبُ عليها كبيراً جداً، أستطيع دائماً أنْ أستخدم أشخاصاً آخرين ليساعدوني في العمل : عن شعراء وروائيين مُكافحين، وصحفيين سابقين، وأكاديميين عاطلين عن العمل، وربما حتى عن توم. وسوف تكون تكاليف كتابة ونشر تلك الكتب باهظة، لكني لم أرغب في أنْ تكون سِيَري رفاهية لا يقدر على دفع ثمنها غير الأثرياء. ومن أجل الأُسر ذات الموارد الأقلّ، فتصورتُ نمطاً جديداً من بوليصة التأمين يُدَّخر بموجبها مبلغاً معيّناً لا يُذكر من المال كل شهر أو فصل من أجل دفع نفقات الكتاب. ليست بوليصة تأمين على المنزل أو الحياة - بل تأمين على السِيرة.

هل كنتُ مجنوناً عندما حلمتُ بأنْ أصنع شيئاً من هذا المشروع البعيد الاحتمال؟ لا أعتقد ذلك. فما الذي لا تريده المرأة الشابة من قراءة السيرة الدقيقة لوالدها - وإنْ كان ذلك الوالد ليس أكثر من عامل في مصنع أو مساعد مدير في مصرف ريفي؟ وما الذي لا تريد أم أنْ

تقرأه في حياة ابنها الشرطي الذي قُتِلَ أثناء تأدية واجبه وهو في سن الرابعة والثلاثين ؟ في كل الأحوال، ينبغي أنْ تكون مسألة حب. حب الزوجة أو الزوج، الابن أو الابنة، أحد الأبوين، الأخ أو الأخت - فقط الروابط الأقوى. سوف يأتون إليّ بعد مرور ستة أشهر أو عام من وفاة صاحب السيرة. سيكونون قد استوعبوا الوفاة حينئذٍ، لكنهم لن يكونوا قد تغلبوا على الأمر، والآن بعد أنْ عادتْ الحياة اليومية إلى طبيعتها من جديد، سوف يفهمون أنهم لا يمكن لهم أنْ يتجاوزه. سوف يرغبون في إعادة الشخص الذي يُحبون إلى الحياة، وأنا سأبذل كل جهد إنساني لأحقق لهم أمنيتهم. سوف أعيد بعث ذلك الشخص بالكلمات، وحالما تُطبع الصفحات وتُغلّف القصة بين دفّتي كتاب، سيحصلون على شيء يتمسكون به طوال حياتهم. ليس هذا فقط، لكنه شيء سيبقى بعد رحيلهم، سيبقى بعد رحيلنا جميعاً.

ينبغي عدم الاستخفاف أبداً بقوة الكتب.

علامة X تُحدِّد البقعة

جاءت نتائج الفحص النهائي للدم بعد منتصف الليل. كان قد تأخر الوقت على تسريحي من المستشفى، لذا بقيتُ حتى الصباح، ورحتُ أُخطط بكل حميّة لبناء شركتي الجديدة أثناء مراقبتي للمُرهَق خافيير ردوريغيث وهو يغفو على السرير المُقابل. فكّرتُ في أسماء مختلفة يمكن أنْ تتماشى مع روح العمل الذي ينتظرني، وفي النهاية وقعتُ على الوصف الحِيادي ولكنه وصفي" شركة بيوز غير المحدودة". وبعد ذلك بساعة، قرَّرتُ أنْ تكون خطوتي الأولى هي الاتّصال ببت دومبروسكي في شيكاغو لأسألها إنْ كان يهمّها أنْ تُكلّفني بكتابة سيرة حياة زوجها السابق. بدا مناسباً أنْ يكون الكتاب الأول في المجموعة عن هاري.

ثم سرّحوني. وقفتُ في هواء الصباح البارد، وشعرتُ بسعادة غامرة لأني حيّ، حتى رغبتُ في الصراخ. فوقي، السماء أشدّ زُرقة من أصفى لونٍ أزرق قاتم. إذا مشيتُ بخُطى سريعة كفاية فسأتمكّن من الوصول إلى شارع كارول قبل أنْ تغادر جويس مركز عملها. سوف نجلس في المطبخ ونتناول معاً كوباً من القهوة، ونراقب الأطفال وهم يركضون حول المكان كسناجب صغيرة بينما تُهيّئهم أمهم للذهاب إلى المدرسة. ثم أرافق جويس حتى النفق، وأضمها بين ذراعيّ، وأقبّلها قُبلة الوداع.

عندما خرجتُ إلى الشارع كانت الساعة قد بلغت الثامنة، الثامنة من صباح الحادي عشر من شهر أيلول، عام ٢٠٠١ - قبل ستٍ وأربعين دقيقة فقط من تحطُّم الطائرة الأولى على البرج الشمالي لمركز التجارة العالمي. وبعد ساعتين فقط من ذلك، سوف يتصاعد دخان ثلاثة آلاف جثّة محترقة عالياً باتجاه بروكلن وينهمر علينا على هيئة سحابة بيضاء من الرماد والموت.

أما الآن فإنّ الساعة لم تتجاوز الثامنة، وبينما أمشي على طول الجادّة تحت تلك السماء الزرقاء البرّاقة، أنا سعيد، يا أصدقائي، سعيد كأي إنسان عاش على الأرض.

انتهى

كان المنزل في برونكسفيل مؤجَّراً أصلاً،وحالما تنتهي مدة العقد في نهاية الشهر، لن تبقى مسألة النقود مشكلة.وخطّطنا، أنا وزوجتي السابقة،لفصل الربح عن مبلغ البيع،وبوجود أربعمئة ألف دولار في المصرف،كان سيتوفر لي مبلغ أكثر من كافٍ ليُعيلني حتى آخر يوم في حياتي.

ISBN 2-84306-086-x
9 782843 060861